أنور الجندي

الإسلام في وجه التغريب

مخططات التبشير والاستشراق

دار الاعتصام

دار الإعتصام
٨ شارع حسين حجازي - ت ٣٥٤٦٠٣١/٣٥٥١٧٤٨ ص ب ٤٧٠ القاهرة
للطبع والنشر والتوزيع



بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

ظهرت فى السنوات الأخيرة وثائق كثيرة كانت خافية على المسلمين والعرب لها أثرها الكبير فى مصائرهم ومقدراتهم وإليهما يمكن تفسير أسباب هزيمتهم ونكبتهم ومنها يوجد المنطلق إلى الأصالة الحقة .

بعد هزيمة لويس التاسع فى المنصورة ، وجنوحه إلى التأمل فى نتيجة خطته التى جرت عليه الهزيمة والاعتقال ، كتب مذكرة خطيرة أشارت إليها مراجع عديدة من كتب التاريخ الفرنسى ، وذكرها مؤرخه جوانفيل تحدد بها الموقف من العالم الإسلامى بعد هذه السنوات الطويلة من الحروب الصليبية والمعروف أن لويس كان يقود الحملة الثامنة .

لقد أشار لويس التاسع فى وثيقته إلى أنه لاسبيل إلى السيطرة على المسلمين عن طريق الحرب أو القوة ، ذلك لأن فى دينهم عامل حاسم هو عامل المواجهة والمقاومة والجهاد وبذل النفس والدم رخيصاً فى سبيل حماية العرض والأرض . وأنه مع وجود هذا المعنى عند المسلمين ، فمن المستحيل السيطرة عليهم لأنهم قادرون دوماً انطلاقاً من عقيدتهم إلى المقاومة ودحر الغزو الذى يقتحم بلادهم ، وأنه لا بد من إيجاد سبيل آخر من شأنه أن يزيف هذا المفهوم عند المسلمين حتى يصبح مفهوماً أدبياً أو وجدانياً ، وإيجاد ما يبرره على نحو من الأنحاء بحيث تسقط خطورته ، واندفاعته ، وأن ذلك لا يتم إلا بتركيز واسع على الفكر الإسلامى وتحويله عن منطلقاته وأهدافه ، حتى يستسلم المسلمون أمام لقاء القوى الغربية وتروض أنفسهم على تقلبها على نحو من أنحاء الاحتواء ، أو الصداقة أو التعاون ، وحتى نحصل على نص وثيقة لويس التاسع التى لم نتمكن من الحصول إلا على مقتطفات منها فيما أورده الأستاذ محمد على الغتيت(١) فإن الضرورة تقضى بدراسة هذا الهدف الذى كان له أثره فى ذلك

(١) فى كتابه من الحروب الصليبية إلى حرب السويس .

المنحى الخطير الذى تحولت إليه علاقات الغرب مع عالم الإسلام . هذا الهدف الذى جندت له قوى التبشير ، والاستشراق ، والتغريب ، والغزو الثقافى . فى خطة محكمة مدبرة ما زالت مفروضة على العالم الإسلامى منذ عام ٥١٥ هجرية الموافق ١١٢١ م ، هذه الخطة التى سيطرت عليها من بعد قوى الصهيونية العالمية مما سنفسره فيما بعد .

الهدف هو : إيقاف توسع الإسلام ومحاصرته من ناحيه . واحتوائه فكرياً حتى يصبح عجينة طيعة فى يد الفكر العالمى الأممى تمهيداً للوثوب عليه ومن الوسائل : إنشاء مؤسسة لحرب الكلمة ، واستخدام من يمكن إغراؤهم من أقليات الشرق ، وإنشاء قاعدة للغرب فى قلب الشرق الإسلامى يتخذها الغرب نقطة ارتكاز ومركزاً لدعوته السياسية والدينية ، وقد عين لويس التاسع مكان تلك القاعدة فى الأراضى الممتدة على ساحل البحر المتوسط من لبنان إلى فلسطين والأردن وسوريا ولا ريب أن أولى علامات وصية لويس التاسع بعد هزيمته فى المنصورة إنما توحى بنهاية خطة وبداية خطة أخرى أشد عنفاً وإن كانت أطول معركة ، بما يشعر أن نهاية الحروب الصليبية وعبرتها كانت تتمثل فى انطلاق المخطط الجديد للغزو الثقافى والفكرى الذى يستهدف دحر الإسلام كفكر بعد العجز عن دحر أمته ، أو فى العمل على دحر هذه الأمة بعد دحر فكرها ، لقد تبين للغرب من خلال مراجعة لويس التاسع لتجربة الحروب الصليبية : أن المعركة مع المسلمين يجب أن تبدأ أولا من تزييف عقيدتهم الراسخة التى تحمل طابع الجهاد والمقاومة ، والتى تدفع بألوفهم إلى ساحات الاستشهاد فى سبيل الدفاع عن الحق وعن الأرض وعن العرض . إذن فهذه هى بداية المعركة ولا بد إذن من تزييف هذه العقيدة وامتصاص ما فيها من قوة وجهاد وإيمان ، وذلك بالتفرقة بين العقيدة والشريعة ، أو تصوير الإسلام بصورة دين عبادى كالمسيحية وفصل الدين عن الدولة ، حتى يفقد المسلمون ذلك السر الخطير الكامن فى أصالة عقيدتهم وجوهر دينهم ، وعندئذ يصبحون قطيعاً من السائمة التى تنطوى وتقهر ، ومن هنا بدأت معركة أطلق عليها :

التبشير ، الاستشراق ، التغريب ، الغزو الثقافى ، الاحتواء .

وقد وجدت هذه المعركة أقلاماً إسلامية بالوراثة تخدمها وتقول ما يريد

لويس التاسع ، على نحو ما قال طه حسين ، وعلى عبد الرازق من دعاوى الفصل بين الإسلام والمجتمع ، وبين العقيدة الدينية والأدب والسخرية مما أورده القرآن ، ودعوة للشباب إلى نقده والنظر إلى الصحابة على أنهم من محترفي السياسة ، كما جاء فى الفتنة الكبرى على النحو الذى عاش على خدمته صاحب كتاب الشعر الجاهلى وحديث الأربعاء ، وإذا راجعنا وقائع التاريخ العربى فإننا نجد أن وصية لويس التاسع قد وضعت موضع التنفيذ بعد سنوات قليلة من هزيمته وقتله فى الحملة الصليبية التاسعة على تونس ، فقد بدأت حركة أوربا المعروفة إلى ترجمة القرآن والتعرف على الإسلام ، وبدأت نواة التبشير والاستشراق فى المعاهدة الأوربية : دراسة اللغة العربية والإسلام والقرآن من منطلق الرد عليه ، وانتقاصه وإثارة الشبهات حوله ، وقد ظاهرت هذه الحركة عملية خطيرة هى : سرقة التراث العربى الإسلامى من البلاد العربية والإسلامية بواسطة القناصل والتجار ، وهى سرقة بمعنى الكلمة ، ولأن محاولة الاستيلاء على مراكز الفكر الإسلامى فى جامعات الأندلس وطرد المسلمين منها كانت أيضاً (سرقة كبرى) بالرغم من أن المسلمين كانوا يؤمنون بأن العلم للبشرية كلها ، حتى العلم التجريبى الذى هو الآن من أسرار الأمم الحديثة ، والذى عجز المسلمون والعرب خلال قرن ونصف قرن إلى الآن عن الحصول على أصوله ومعادلاته ، أما المسلمون الأوائل فكانوا يعلمونه فى جامعات الأندلس وجزيرة صقلية فى حرية تامة ولكل الناس ، أما الغرب فإنه فى تناهى حقده لم يقف عند حد (مصادرة) العلم الإسلامى ومعامله وكتبه ووثائقه فحسب ، بل إنه أخرج منه المسلمين الذين هم من أهل الأندلس بعد ثمانمائة عام إخراجاً حتى يكونوا عاجزين عن مواصلة تجاربهم فى أى أرض أخرى إذا هاجروا إليها .

وإذا كانت الحروب الصليبية قد توقفت عام ٦٩٠ هـ — ١٢٩١ م ، فإن أوربا لم تتوقف عن الحرب ، فقد بدأت حركتها كرة أخرى بعد سقوط الأندلس على الطريق الإفريقى من ناحية الغرب دون توقف الأسبان والبرتغال ، ومن وراءهم الهولنديون والإنجليز والفرنسيين ، انتقاماً من المسلمين الذين قدموا لهم نور العلم والحضارة فى الأندلس .

أما فى أفق البلاد العربية فإن عام ١٨٣٠ م كان علامة الخطر حين بدأت فرنسا فى غزو (الجزائر) وامتدت المعركة إلى تونس فمصر والسودان ، منذ ذلك اليوم بدأت نتائج الغزو الفكرى تبرز ، وأخذت طلائع التبشير تعمل ، فإنه فى نفس الوقت كانت قوى محمد على تنسحب من الشام عام ١٨٤٠ م حيث سيطرت قوى الغرب على هذه المنطقة التى اختارها لويس ، فأقامت فيها ما أطلق عليه حكومة خاصة داخل الدولة العثمانية ، وكانت معركة عام ١٨٦٠ م التى أثارها الفرنسيون بتأييدهم للموازنة والإنجليز وبتأييدهم للدروز منطلقاً إلى إنشاء هذا الكيان الذى تلاقت فيه قوى التبشير الكاثوليكية الفرنسية والبروتستانتية الأمريكية ، والذى ما زال قائماً حتى الآن .

فى الفترة الأولى من مخطط لويس عام ١١٢١ إلى ١٨٣٠ م كان الاستشراق يضع السموم ، ومن عام ١٨٣٠ إلى ١٩١٨ م كان التبشير يجتاح البلاد عن طريق الإرساليات : معاهد وجامعات فى استانبول ، والقاهرة ، ولبنان لها نفوذ داخل فى نفوذ الامتيازات الأجنبية ، ولها مناهج دراسية قائمة على تدمير الإسلام وتاريخ الإسلام ولغته وعقيدته ، وإذابة الأجيال الجديدة فى سموم الغرب وتنظيم تاريخه ، واحتقاره لأمته ودينه . ومن هذه الأجيال جاء الأمراء والسادة والقادة والوزراء الذين سيطروا فى ظل حكومات الاستعمار والاحتلال ، والذين أخذوا مناهج التعليم التى وضعتها معاهد الإرساليات ، فجعلوها مناهج المدارس الوطنية . وفى عديد من مصادر اللقاء بين الشرق والغرب نجد الإشارة إلى وصية لويس التاسع محجوبة حتى لا يتنبه إليها المسلمون ، هذه الوصية التى تدعو إلى تجنيد المبشرين الغربيين فى (معركة سلمية) لمحاربة تعاليم الإسلام ووقف انتشاره ثم القضاء عليه معنوياً ، واعتبار هؤلاء المبشرين فى تلك المعركة أعظم جنود الغرب .

إذا كان هذا هو تصورنا لوثيقة لويس التاسع التى ظلت خافية سنوات طويلة حتى تكشفت هذه الأعوام ، فإنما مثلها مثل بروتوكولات صهيون التى حجبت عن المسلمين والعرب منذ ظهورها عام ١٩٠٢م حتى عام ١٩٤٨ م وهو عام قيام إسرائيل عندما سمح الإعلام الصهيونى للصحافة العربية بأن

تشير إلى هذه البروتوكولات التى لا توجد عنها إشارة واحدة فى مجلات الهلال أو المقتطف أو المنار أو غيرها قبل هذا التاريخ .

أقول : إذا كان هذا تصورنا لوثيقة لويس التاسع ومدى أبعاد الخطر الكامن فيها فإن الأستاذ نبيه أمين فارس (أحد كبار أساتذة الجامعة الأمريكية فى بيروت) قد كشــف عن هذه الصفحة بكل جرأة وقوة فى بحث له نشر عام ١٩٥٨ م فى مجلة الأبحاث يقول هذا المؤرخ العربى :

(بينما كان الشرق الأدنى مطمحاً لأفكار بناة الامبراطوريات ، كان أيضاً مطمح أنظار جماعة أخرى من الناس تنشد أن تنجز عن طريق (الكلمة) ما عجز أجدادها الصليبيون عن تحقيقه عن طريق السيف ، وبعبارة أخرى تنشد احتلال مهد المسيحية وإخضاع العالم كله للمسيح . إن هذا الحكم المسيحى قديم قدم المسيحية ذاتها ، وهو يستمد وحيه الدائم من الوصية العظمى كما سجلها أول المبشرين : القديس لويس :

ولعل سبب سيطرة هذه الوصية كرة أخرى على عقول المسيحيين يعود إلى اليقظة الدينية التى عمت إنجلترا فى أواخر القرن الثامن عشر ، واليقظة الدينية المقابلة لها فى الولايات المتحدة التى تمثلت فيما سمى بروح إنجلترا الجديدة ، وعلى ذلك فقد شهدت السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر تلك الجمعيات التبشيرية التى كرست نفسها لحمل الإنجيل إلى جميع البشر ، ويمكن أن يضاف إلى هذين العاملين : عامل آخر هو ازدياد المطامع السياسية والاقتصادية فى ممتلكات رجل أوربا المريض (يقصد الدولة العثمانية الإسلامية) ومن المحتمل أن يكون لهذا العامل الأخير علاقة باختيار الشرق الأدنى ميداناً مفضلا للنشاط التبشيرى . ومن أهم هذه الجمعيات التبشيرية التى ظهرت فى هذه الفترة : الجمعية التبشيرية الكنسية التى أسست فى لندن عام ١٧٩٩ م والمجلس الأمريكى لمندوبى البعثات التبشيرية ، وقد أرسل المجلس الأمريكى بعد تسع سنين من تأسيسه أول مبشريه إلى الشرق الأدنى ، ولما كانت المشكلة الأولى التى واجهت أولئك المبشرين هى اختيار مركز ملائم لهم ، وقدم سوريا عام ١٨٢٣ م مبشران آخران ، وانتقلوا

إلى بيروت ، وكان غرض البروتستانتيون أن يتمكنوا بالاشتراك مع كنائس الشرق الناهضة من كسب (الكفار) إلى دين المسيح ، غير أنهم سرعان ما وجدوا أن الإسلام لم يكن قد فقد سيطرته على قلوب المؤمنين ، وصمم المبشرون منذ البداءة على استعمال (الكلمة) حيث فشل استعمال (السيف) وفى سبيل هذه الغاية أسسوا المطبعة الأمريكية أولا فى مالطة عام ١٨٢٢ م وفى بيروت عام ١٨٣٤ م وأخذوا يفتحون مدارس للبنين والبنات بصورة منتظمة ، حتى بلغ عدد هذه المدارس ثلاثاً وثلاثين فى أقل من هذا العدد من السنين ، وعكفوا على إنجاز تلك المهمة العظيمة ، مهمة إعداد ترجمة عربية صالحة مقروءة للتوراة ، وعدوا فوق ذلك حمل لواء الحرية الدينية بصورة عامة . . . إلخ) .

ولقد كان أبرز ما استهدفته وثيقة لويس التاسع : القضاء على فكرة الجهاد ، ويكشف الدكتور محمد تقى الدين الهلالى هذا السر فى مقال نشره عام ١٩٣١ م فى مجلة (الفتح) عن سير هذا المخطط فى الجزائر . إن هؤلاء الأوربيين الفاتحين المبعدين للأحرار ، المخربين للديار ، ما زالوا يحرمون عبيدهم من كلمة (الجهاد) ويعدون ذكره فضلا عن فعله من أعظم الذنوب وهو عندهم آية الهمجية ، والتعصب الدينى الممقوت ، وبلغ ببعضهم الأمر أن حرموا تفسير آيات الجهاد فى كتب الفقه ، وبعينى شاهدت صحيفة الأذن الفرنسية ، التى حصل عليها شيخنا محمد بن حبيب الله الشنقيطى رحمه الله فى مدينة المشرية قسم وهران من الجزائر وفيها ما يلى :

(إن الإذن بتدريس علوم الدين مقيد بأن المدرس لا يفسر أى آية أو حديث يدل على الجهاد ، وأن لا يدرس شيئاً من أبواب الجهاد فى كتب الفقه) ولما راجت دعاية هؤلاء فى الشرق ، صار المسلمون ينفرون من لفظ (الجهاد) .

ونقول : بل إن الأمر قد بلغ غايته فى تنفيذ وثيقة لويس التاسع ، فقد أعان الإنجليز فى الهند على ظهور نحلة تدعى الإسلام ، وتلغى الجهاد وتنكره إنكاراً هى نحلة (القاديانية ، والأحمدية) الذين يفسرون الجهاد تفسيراً مؤولا .

والذين يدعون إلى الخضوع لحاكم المستعمر ويعدون ذلك من مفهوم الإسلام فى نحلتهم .

وبعـــد :

فإن فى تقديرى وتقدير الكثير من الباحثين اليوم ، أن المسلمين إنمـا طعنوا من طريق التعليم الذى بدأته معاهد الإرساليات ، وسارت على مناهجه أغلب المدارس الوطنية ، والذى تنقل الدول العربية مناهجه اليوم من نفس المصدر الأول الذى أنشأه تلاميذ لويس التاسع وأتباعه ، وخاصة ما رسمه (دنلوب) وما زال سارياً ، وما رسمه طه حسين فى مناهج الجامعات مستمداً إياه ممـا وضعته الجامعات التبشيرية فى بيروت ، ولهذا الأمر حديث طويل فى تفصيله ولكن العبرة الآن هى : أن هذا هو (مدخل) الغزو الثقافى وسيطرة التيارات الوافدة ، وهو أيضاً فى نفس الوقت (المخرج) إلى فهم تعليمى إسلامى لا سبيل إلى النجاة إلا به .

ولا شك أن التبشير والاستشراق هما وجهان لعملة واحدة وهما متكاملان : الأول فى ميدان التربية ، والثانى فى ميدان الثقافة ، والمهمة مشتركة ، يقدم الاستشراق الشبهات والسموم ، ثم تجىء وسائل التبشير الظاهرة والخفية ، فتنشر هذه الشبهات فى أفق الفكر الإسلامى سواء عن طريق مناهج التعليم ، أو المذاهب والأيدلوجيات المطروحة للدراسة والبحث فى مجال الصحافة والثقافة ، وقد تخفف التبشير من أسلوبه القديم فى الدعوة الجهرية إلى عمليات التنصير ، ولكن ذلك لم يكن إلا خطوة لإحكام عمله بالتخفى وراء أساليب التربية والثقافة .

بدأت هذه الحركة بعد خروج الصليبيين من العالم الإسلامى عام ١٢٩١ م وما زالت تعمل إلى الآن ، وقد غيرت جلدها أكثر من مرة ، وتلونت وتحولت وغيرت أساليبها بمـا يوصلها إلى تحقق الغاية وهو تاريخ طويل ، وكان الاستعمار الذى غزا العالم الإسلامى هو ثمرة هذا العمل ، فكان استعمار هولندا لإندونسيا ، وإنجلترا للهند ، وفرنسا للجزائر ، ثم إنجلترا لمصر ، وفرنسا لتونس والمغرب ، وسقوط بقية أجزاء العالم الإسلامى فى أيدى

النفوذ الاستعمارى خلال الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ م وإعلان وعد بلفور بتمكين الصهيونية من فلسطين هو علامة على استجاشة هذه الحرب الخطيرة واستفحالها ، ولقد كان هذا العمل المشترك (التبشير والاستشراق) قد وجد من النفوذ السياسى والعسكرى الغربى وسيلة وأداة وقوة على تركيز قواعده ، وإنشاء أجيال معتنقة لفكره متأثرة بسمومه ، وبرزت فى مرحلة الثلاثينات خطة التبشير التى قاومتها حركة اليقظة فى مصر وغيرها مقاومة مكشوفة ، حتى أعلن زويمر عام ١٩٣٥ م أن مهمة التبشير ليست إدخال المسلمين فى المسيحية ، وإنما هى إخراجهم من الإسلام ، وجاء هاملتون جب بكتابه : (وجهة الإسلام) فى نفس الوقت ، فكشف عن أن هذا العمل الذى يقوم به الاستشراق والتبشير والغزو الثقافى فى العالم الإسلامى ، إنما يستهدف تغريب الإسلام والمسلمين ، ونقلهم إلى دائرة الأممية والفكر الغربى فى مختلف أساليب حياتهم ومجتمعاتهم ، وخاصة فى مجال التعليم ، والتشريع ، والثقافة ، والاقتصاد .

غير أنه لم يلبث أن تكشف أن هناك مخططات أخرى يقوم بها النفوذ الروسى والصهيونى فى مجال الاستشراق والتبشير ، تحقيقاً لطابع الصهيونية فى السيطرة على البلاد العربية ، ومطامع الشيوعية فى غزو عالم الإسلام ، وظهر الاستشراق الروسى والصهيونى إلى جوار الاستشراق الغربى المسيحى ، وتعددت الخطط ولكنها كانت تستهدف غاية واحدة هى : إقتلاع جذور الأصالة الإسلامية ، واحتواء الفكر الإسلامى والسيطرة عليه ، وإدخاله الدائرة المغلقة التى تحول بينه وبين تحقيق وجوده ، أو بروز ذاتيته ، أو إتمام رسالته فى الدعوة العالمية إلى الله ، وتلك أخطر المراحل التى يواجهها العالم الإسلامى .

وقد تضاعفت بعد الحرب العالمية الثانية هذه المخططات ، واستعملت أساليب جديدة ، وجاءت الهزيمة والنكبة والنكسة فى خلال مرحلة تزيد عن ربع قرن عاملا هاماً فى تمكين هذا الوجود الزائف الخطير .

وتبين أن خطة التبشير ليست خطة دينية خالصة تستهدف إخراج المسلم من دينه وإدخاله فى دين آخر ، ولكنها عملية ثقافية واسعة تستهدف إخراج

المسلم من المفاهيم والقيم الإسلامية ، وإدخاله فى دوامة الفكر البشرى ، وصهره فى مفاهيم الوثنية والمادية والعلمانية والأممية ، وفتح الطريق أمام فكره لتقبل كل ما تطرحه أعاصير الليبرالية ، والماركسية ، والتلمودية ، والوجودية ، وغيرها من سموم ، المهم هو إخراج المسلم من الإسلام دون إدخاله فى أى دين آخر ، وحبسه فى الدائرة المظلمة المفرغة ، دائرة التيه الذى لا تجعل منه قوة صالحة للتوجه إلى الاتجاه الصحيح .

* * *

مخططات التبشير

الباب الأول
صفحات من تاريخ التبشير

الفصل الأول : صفحات من تاريخ التبشير .

الفصل الثاني : مرحلة جديدة في خطة التبشير .

الفصل الثالث : بعد الحرب العالمية الأولى .

الفصل الرابع : مؤتمرات التبشير .

الفصل الخامس : أخطر تحول وأكبر خطوة .

الفصل الأول
صفحات من تاريخ التبشير

كانت الإرساليات التبشيرية هى مقدمات الاستعمار وطوالعه والممهدة له ؛ فحيث مد النفوذ الأجنبى ظله على العالم الإسلامى ، كانت هذه البعثات هى القوى المتقدمة . فمنذ أوائل القرن التاسع عشر تقريباً بدأت عملية الغزو التبشيرى فى بطء وأناة متصلة بخطوط أخرى ، كالاستشراق والصحافة كأجهزة مترابطة لتحقق السيطرة الاستعمارية .

ولقد وجدت قوى التبشير الطريق أمامها مفتوحاً وميسراً مع العوامل التى أعدها لها النفوذ الاستعمارى وأهمها : الامتيازات الأجنبية . ونفوذ القناصل . وسيطرة الدول الأجنبية على كثير من الأمراء ، كالشاه ناصر الدين فى إيران ، والخديوى إسماعيل فى مصر . وغيرهم ممن فتح لهم باب الاستدانة .

وفى خارج الدول العثمانية تركز الاستعمار فى فارس ، وإندونيسيا (جاوة) ، والهند الإسلامية . ولما كانت الدولة العثمانية هى أكبر أهداف التبشير كمقدمة لتمزيقها وتوزيعها ، فقد ركزت القوى الاستعمارية على حملات تبشيرية انطلقت من مختلف الدول الأوربية ، وبعثات من دول فرنسا ، وإنجلترا ، وألمانيا ، وأيرلندا ، والسويد ، والدانمارك ، والروس .

ولما كان المخطط قد رسم أساساً للسيطرة ، فقد عمد النفوذ الاستعمارى أولا للقضاء على القوى الشابة الجديدة وفى مقدمتها : الحركة الوهابية فى الجزيرة العربية ، والنهضة المصرية التى قادها محمد على ، وكان أن حرض الاستعمار على دفع إحدى القوتين للقضاء على الأخرى ، ثم تفرغ بعد للقوة الأخرى ، فكانت عملية التدخل العسكرى فى سوريا سنة ١٨٤٠ التى مزقت الوحدة التى كونها إبراهيم . وبذلك أهلت سوريا لعملية من أخطر عمليات للسيطرة

فى صراع بين النفوذين : الفرنسى والبريطانى ، مما دفع الدولتين إلى إثارة الصراع بين الطائفتين : الموارنة والدروز ، وقد أخذت فرنسا جانب الموارنة وأمدتهم بالأسلحة ، وفعلت بريطانيا مثل ذلك بالنسبة للدروز ، ومهد ذلك للاصطدام الذى وقع بتحريض الدولتين عام ١٨٦٠ ، وكان ذلك مقدمة لتنفيذ الخطة التى أعدتها الدول الأجنبية من اتخاذها رأس جسر لنفوذها فى الشرق كله ، وذلك بوضع نظام يكفل إقامة كيان خاص فى لبنان ، وحاكماً خاصاً فى حماية الدول الأوربية ، وفى ظل هذا الوضع الذى أهل لبنان لتكون منطلقاً للغزو الاستعمارى سياسياً وثقافياً ، بدأت الإرساليات التبشيرية فى الوصول إليها لتعمل فى حركة مطلقة وتتخذ منها حقلا لكل مخططات النفوذ الأجنبي وفى مقدمته :

١ – القضاء على الرابطة الإسلامية الجامعة للمسلمين فى العالم كله .

٢ – إعداد خطط الفصل والوقيعة بين العرب والترك .

٣ – إعداد خطط الفتن والخلاف بين المسلمين والمسيحيين .

٤ – تمكين الصهيونية من السيطرة على فلسطين .

٥ – تخريج طبقة مثقفة تفتح أمامها وسائل الحكم والسلطات فى مختلف أجزاء العالم العربى .

وكانت المدارس الأجنبية وإرساليات التبشير فى مختلف صورها من معاهد وجامعات ، قد احتضنت نفوذ فرنسا وأمريكا ، فى نفس الوقت الذى تقدمت كل دولة من ذات المطامع إلى الدولة العثمانية معلنة نفسها حامية لطائفة معينة : فالفرنسيين لحماية الكاثوليك ، والبريطانيين لحماية البروتستانت ، والروس لحماية الأرثوذكس .

وهكذا بدأ الغزو الاستعمارى للعالم الإسلامى باسم العلم ورصدت لذلك الميزانيات الضخمة . وكان لهذه البعثات أثرها الهام فى حل المسألة الشرقية على حد تعبير أحد أساطين السياسة الغربية ، وكان لها دورها فى تمزيق الوحدة السياسية التى ظلت قائمة بين الترك والعرب خمسة قرون ، وفى المرحلة الأولى حملت الإرساليات لواء الدعوة إلى العروبة ، وتدريس اللغة العربية ،

والإلحاح على عبارات الحرية ومقاومة الاستعباد كوسائل مرحلية حتى سقط السلطان عبد الحميد ، وتسلمت الدولة العثمانية جماعة الاتحاديين . ثمرة الإرساليات والنفوذ الاستعماري . وهنا تحول اتجاه هذه المؤسسات والجامعات من الدعوة إلى العروبة وحماية اللغة العربية . إلى اتخاذ اللغات الأجنبية أساساً للتدريس . والحملة على الوحدة العربية واللغة العربية ، وتغليب العامية والحرف اللاتيني عليها . وتغريب التعليم وجعله علمانياً خالصاً . ومن الحق أن يقال : إن النفوذ الاستعماري قد اختار في الدولة العثمانية ثلاث مناطق من أخطر المراكز الأساسية لعمله : الأولى هي لبنان ، والثانية مصر . والثالثة سالونيك في تركيا.

وفي كل منها قام بدور ضخم . أما لبنان فقد غطت منطقة الشام جميعاً والعراق . أما مصر فقد كانت تمثل القيادة الفكرية باعتبارها مصدراً للعالم العربي كله . وذلك على أساس التركيز في مجالات التعليم والثقافة والصحافة موجهة لخطط النفوذ الاستعماري في العالم العربي بل الإسلامي كله . أماسالونيك فقد كان مقر المخطط التبشيري الاستعماري الذي خلق القوة التي صارعت الخلافة والدولة العثمانية ، وقضت عليها نهائياً .

١ – التركيز على لبنـــان

تجمع المصادر على أن مراكز التبشير بدأت عملها في جزيرة مالطة في أواخر القرن السادس عشر ، واعتبرت الجزيرة قاعدة هجوم على الشرق الإسلامي كله . ثم انتقلت إلى بلاد الشام ١٦٢٥ . وكان نشاطها في هذه المرحلة محدوداً ، وفي ١٨٣٤ انتشرت البعثات التبشيرية في سائر بلاد الشام ، ففتحت مدرسة في قرية عنتورة في لبنان ، ونقلت الإرسالية الأمريكية مطبعتها من مالطة إلى بيروت ، وحينما انسحب إبراهيم باشا سنة ١٨٤٠ من بلاد الشام بدأت عملية التدخل واستثارة الطوائف ، وخلق أسباب الاحتكاك بينها ، وتوالت الاضطرابات حتى انتهت إلى الفتنة الكبرى سنة ١٨٦٠ ، حيث وجدت الدول الغربية الفرصة سانحة فأرسلت البوارج البحرية إلى شواطىء سوريا ، ثم تركزت إرساليات التبشير وانسحبت القوة العسكرية .

وقد أشارت بعض المراجع إلى أن المجلس الأمريكى لمندوبى البعثات الأجنبية أنشأ فى بوسطن (١٨١٠) ، وأرسل بعد تسع سنوات (١٨١٩) أول مبشر به إلى الشرق الأدنى ، واتخذوا من مالطة مركزاً لهم واستعانوا بالمطبعة (١٨١٥) فى إعداد المطبوعات اللازمة ، ثم بدأ التجول فى شاطىء البحر ، وذهب بعض المبشرين إلى القدس ، ثم انتقل التبشير إلى بيروت .

وكان عمل الإرساليات فى مجالين أساسيين : إنشاء المدارس ، وتأليف الجمعيات .

وفى مقدمة هذه الجمعيات جمعية الفنون والعلوم عام ١٨٤٧ ، التى اصطفت العاملين فى سبيل خدمة أهداف التبشير وكان أبرز أعضائها : نصيف اليازجى ، وبطرس البستانى ، وإيلى سميث ، وفان ديك . وكانت هذه الجمعية تظهر نشر العلوم بين الكبار ، كما تنشر العلوم فى المدارس بين الصغار ، وتوجه الشباب إلى الثقافة الغربية وفق الخطة التبشيرية المرسومة .

ولما فشلت هذه الجمعية ، لم يتوقف السعى لإنشاء جمعية أخرى باسم الجمعية الشرقية أسسها اليسوعيون تحت رعاية الأب (هنرى دوبرونير) ولما اختفت تأسست عدة جمعيات وكان آخرها وأهمها الجمعية العلمية السورية ، وكان أبرز رجالها إبراهيم اليازجى ، وبطرس البستانى ، وكان مظهرها التوفيق بين الطوائف وبعث القومية العربية . وتجمع المصادر على أن الدعوة إلى القومية بدأت فى الكلية البروتستانية فى بيروت عام ١٨٧٥ عن طريق جمعية سرية كانت تهاجم الدولة العثمانية ، وتدعو إلى فصل الدين عن الدولة ، وتتهم تركيا بأنها اغتصبت الخلافة الإسلامية من العرب . وكان هذا العمل الأول للبعثات التبشيرية فى مواجهة التجمع الإسلامى الذى دعا إليه السلطان عبدالحميد باسم الجامعة الإسلامية فى مواجهة النفوذ الغربى الزاحف .

وعاون التبشير فى هذه المرحلة ثلاثة : فارس الشدياق ، ونصيف اليازجى ، وبطرس البستانى الذين عملوا على تصحيح تراجمهم العربية ، وترجمة التوراة إلى العامية العربية (وطبعت الترجمة عام ١٨٥٧) ووضع المخطط التبشيرى لهم على أن يبتعدوا عن اللغة الفصحى ، وقد أشرف الشدياق

على تصحيح منشورات المطبعة الإنجليزية فى مالطة ، والتوراة فى لندن ، وله تعريف خطير للمستشرقين ومدى علمهم وفهمهم ودورهم فى الثقافة العربية وكان أبرز المستشرقين فى هذه الفترة : فانديك فى لبنان، وزويمر فى البحرين ، والعالم العربى . وويلكوكس ودنلوب فى مصر . والدكتور كرنيلوس فان ديك اختاره مجمع المراسلين الأمريكيين مرسلا طبيباً للديار السورية وصل بيروت عام ١٨٤٠ وتعلم اللغة العربية وتزوج ابنة قنصل إنكلترا فى بيروت . وأنشأ مدرسة عبية الشهيرة بمساعدة صديقه البستانى . وعمل على ترجمة التوراة والإنجيل وأتم الترجمة ١٨٦٤ .

بدأت الجامعة الأمريكية فى بيروت عام ١٨٦٦ باسم المدرسة السورية الإنجيلية ، وقد اتخذت العربية لغة التدريس بها بادئ الأمر فى محاولة سياسية لمحاربة الدولة العثمانية والتودد للعرب ، وبعد التمزق السياسى الذى أصاب العالم الإسلامى بسقوط الدولة العثمانية . وسيطرة إنكلترا وفرنسا على العالم العربى . تحولت فى ثوب جديد باسم الجامعة الأمريكية . وكذلك فى القاهرة فقد اتخذت الإنجليزية لغة العلم والدرس بها ، وذلك لتلقى فى روع تلاميذها من العرب أن لغتهم قاصرة عن استيعاب المصطلحات العلمية الحديثة (راجع لويس شيخو : الآداب العربية فى القرن ١٩ ج ٤ ، ص ٦٤) وقد أصبحت فروع الجامعتان الأمريكية والقديس يوسف الفرنسية مراكز هامة فى الشرق الأوسط كله ، ليس للثقافة وحدها ، بل للسياسة العالمية حيث يتعلم بها طلاب من الشام والعراق والسودان ، وهكذا كانت لبنان بتركيبها الطائفى منطلقاً خصباً لحركة التبشير ، وأهم المناطق التى تصلح مرتكزاً للتدخل الأجنبى ، وفيها ظهرت حركة التنافس الشديد من الإرساليات التبشيرية ، ومنها حرك الاستعمار التنافس الدرزى المارونى ، والتنافس البريطانى الفرنسى .

ومن خريجى هذه الإرساليات انطلقت الجمعيات التى قدمت القاهرة، وانبثقت فى مختلف أنحاء العالم العربى وخاصة المغرب ،وسيطرت على وسائل الثقافة والصحافة ، وكان لها دورها الخطر . لقد قدمت الإرساليات التبشرية فى لبنان إلى مصر شخصيات حملت لواء الفكر العربى وقادته ، وكان لها أثرها البعيد المدى وفى مقدمتهم : يعقوب صروف ، فارس نمر ، جرجى

زيدان ، وأديب إسحاق ، وفرج أنطون ، والدكتور شبلي شميل مترجم دارون.
كان هدف البعثات التبشيرية فى هذه المرحلة الأولى إثارة العداء بين العرب والدولة العثمانية ، وفك الرابطة والقضاء على هذا الكيان الذى قاوم النفوذ الاستعمارى ، وبالتالى القضاء على فكرة الجامعة الإسلامية وتشجيع قيام الكيانات المعتمدة على الدم والعرق ، كالقوميات التركية ، والعربية ، ثم برز الهدف فى نطاقه الكامل : إسقاط الخلافة وشجب القيم الإسلامية كأساس للفكر والثقافة ، وإحلال الفكرة العلمانية اللادينية ، بديلا للمفهوم الإسلامى واتخاذ القومية سلاحاً لهدم الإسلامية ، والخلافة ، فإذا التف العرب حول الوحدة العربية بدأ التبشير فى رسم مخطط لضربها ومقاومتها وهدمها ، وخلق مفهوم جديد لمحتواها مستورد من المفهوم الغربى للقومية .

وعندما يجرى استعراض تاريخ التبشير فى العالم الإسلامى ، يرد اسم لبنان على أنها أخطر معقل فى الشرق بين المعاقل الثلاث : مصر ، واستانبول ، غير أن الصورة تبدو فى نظر أصحابها بعيدة عن كل شبهة ، فلبنان بلد يجمع مختلف الطوائف ، وقد أدخل منذ ١٨٦٠ فى نظام قرب بينه وبين الغرب ، الذى أمد هذه الطوائف بالتعليم والتثقيف ، فأنشأ المعاهد البروتستانتية ، والكاثوليكية فتلقفت أولا أبناء هذه الجاليات وأخرجت طائفة من المستغربين أصبح لها قيادة الفكر ، ليس فى بيروت وحدها ، بل انتقلت جموعهم إلى القاهرة التى يعدها الاستعمار قاعدة العمل كله ، فقبضوا على ناصية الصحافة والثقافة جميعاً ، ويمكن القول أن جميع الصحف التى صدرت فى تونس ، وطرابلس والمغرب كان يشرف عليها لبنانيون . وفى لبنان تصارعت وتلاقت وتعاونت كل القوى المتصدرة للثقافة والتعليم : من أمريكية وفرنسية وإنجليزية ، ومنها نشرت الترجمة العربية للتوراة « التى كانت من الوسائل الرئيسية فى بث الدعوة للمواهب الإنجيلية »(١) وقد شهد الباحثون من رجال هذه المعاهد أن قدوم البعثات التبشيرية كان له أثره فى إذكاء الخلاف الطائفى بين المسلمين والمسيحين(٢) كذلك فإن المسلمين واجهوا هذه المدارس بالشك فى رسالتها « فأوربا فى ظنهم لم تتجشم هذه المشاق رحمة بالشرق وإنما رغبت فى أن

(٢،١) نعيم عطية — الفكر العربى فى مائة سنة .

تجعل لمشربها السياسى حزباً لها »(١) وغاية ما تقرر فى عرض الباحثين لهذه الإرساليات ومعاهدها هو قولهم إن « الكنيسة هى المسئولة الأولى عن تنظيم التعليم والإشراف عليه »(٢).

والمعروف أن الإرساليات عملت أولا على نشر اللغة العربية لتكون سلاحاً عاملا فى تمزيق الوحدة بين العرب والترك، فلما تحقق ذلك، تحولت إلى الدراسة باللغات الأوربية. وقد أشارت فى هذه الفترة إلى تيارات أربعة خلقت الصراع السياسى الذى مزق العرب والمسلمين، وأثار بينهم تبايناً ما زال قائماً إلى اليوم تلك هى: (التيار العثمانى — التيار السورى — التيار اللبنانى (الكيان)— التيار العربى) أى أنها عمدت إلى الفصل بين رعايا الدولة العثمانية: إلى عرب وترك، وإلى مسلمين ومسيحيين، وإلى الفصل بين أهل الشام: لبنانيين، وسوريين، وخلق طابع الكيان بين أهل لبنان فى محاولة فصلهم عن السوريين والعرب والمسلمين جميعاً.

المرحلة الثانية: عام ١٩٠٨

مرحلة حاسمة فى طريق التبشير

اعتبر المبشرون عام ١٩٠٧ من الأعوام الحاسمة فى حركة التبشير فى العالم الإسلامى كله، وأن الانقلاب الذى قاده الاتحاديون والذى أنهى حكم السلطان عبد الحميد كان بين الأثر فى توسيع حركة التبشير فى الدولة العثمانية كلها.

تقول مصادر التبشير: « إن حدوث الانقلاب فى غرب آسيا كان موجباً للإعجاب والاستغراب، فقد بددت معالم التجسس وأقامت الحرية على أنقاض الاستعباد، وصار التجول فى البلاد العثمانية والعربية الفارسية غير ممنوع، وأصبح عبد الحميد سجيناً فى سالانيك وقالت: إن السلطة السياسية على أكثر المسلمين قد انتقلت من يد الخلافة الإسلامية إلى يد إنكلترا، وفرنسا، وروسيا، وهولندا، وأن عدد المسلمين الذين تحت سلطة كل

(١، ٢) نعيم عطية — الفكر العربى فى مائة سنة.

واحدة من هذه الدول يفوق عدد المسلمين الموجودين فى كل أرجاء السلطنة العثمانية » .

ونتيجة لهذا الموقف عقد المبشرون فى هذه الفترة عدداً من مؤتمرات التبشير لمواجهة الموقف الجديد فى أدنبرج عام ١٩١٠ وفى لكنو عام ١٩١١ ووضع خطط جديدة للعمل .

كما كان للانقلاب العثمانى أثره الذى أشار إليه « زويمر » من انتعاش مدارس وكليات التبشير ، ففى كلية بيروت ١٠٤ من المسلمين وفى كلية الآستانة ٥٠ وفى كلية المبشرين فى ترك باشا فى الآستانة أيضاً ٨٠ .

كما أصبح الآن بيع كتب التبشير مباحاً بسبب حرية النشر التى أعطاها الدستور العثمانى ، حتى لقد بيع عام ١٩١١ للمسلمين ما يزيد عن ٩ آلاف نسخة من هذه الكتب .

وفى مصر بدأت حركة التبشير عقب الحملة الفرنسية مباشرة . ومن جزيرة مالطة عام ١٨١٥ امتد نطاق العمل إلى مصر والحبشة واليونان وبلاد الدولة العثمانية وفلسطين . وفى خلال حكم الخديوى إسماعيل اتسع نطاق هذه البعثات ، وعمل إسماعيل على تشجيعها إرضاء للدول الأجنبية التى كانت تمد القروض .

ويروى توفيق حبيب (هامش الأهرام ٢٩/ ٤/ ١٩٣٧) أنه فى أوائل القرن الماضى حضر إلى مصر خمسة من رجال الكنيسة الإنكليزية للوعظ والتبشير ، ثم عادوا إلى بلادهم الواحد بعد الآخر ، ولم يبق منهم إلا رجل واحد هو المستر (ليدر) وسكن بالدرب الواسع . وذكر الواعظ والمبشر الإنجليزى الأسقف جوين الإنجليزى الذى أنشأ مجلة الشرق والغرب ، ومستشفى هرمل فى مصر القديمة وقال : كانت لهم دار فى ميدان الأزهار (الفلكى) للمساجلات الأدبية والبحث فى العقائد ، لم تلبث أن عطلت نتيجة لما كان يقع فى بعض اجتماعاتهم من مشاغبات ، وكان القس (جاردنر) من أبرز رجال الإرسالية الإنكليزية وأعرفهم باللغة العربية . والقس جاردنر كانت له اليد الطولى فى تأسيس فرع مصر لجمعية اتحاد الكنائس ، وإنشاء

أقسام مصرية لجمعية اتحاد الشباب المسيحية ويقول أيضاً فى (هامش ٢٤ / ٦ ١٩٢٣) : إن جماعة المرسلين الأمريكيين الإنجيليين أوفدت الإرسالية الأمريكية على مصر ١٨٥٥ .

ويرجع أولى إنشاء المؤسسات الدراسية الأجنبية فى مصر إلى عام ١٨٤٠ وأول ما ظهر منها مدرسة الأباء (لارنست) بمدينة الاسكندرية ، وأطلقوا عليها الكلية الفرنسية ، وفى نفس العام أسست الجمعية الأنجيلكانية البروتستانتية بالقاهرة التى تعتبر أولى مدارسها التى انتشرت بعد فى أنحاء القطر وأقدمها عهـــداً .

وفى عام ١٨٥٠ ظهرت مدارس الفرير ثم تبعتها بعض مدارس أخرى يونانية وإيطالية فى القاهرة والاسكندرية .

وفى عام ١٨٦٠ بدأت الإرساليات الأمريكية تؤسس مدارس لها ، لا فى القاهرة بل فى جميع أنحاء القطر وخصوصاً فى أسيوط حيث أنشأت هناك مدرسة كبيرة ظلت تحتكر تعليم أكبر عدد من أبناء المصريين وخصوصاً الأقباط الذين يؤثرونها على مدارس الحكومة. وبدأت مدارس الأباءاليسوعيين عام ١٨٨٠ وأعقبها مدارس أخرى فرنسية كالليسيه ، والساكركير ، والمرديديه ، والبون باستير وغيرها .

وبعض هذه المدارس يقتصر على تعليم أبناء الجاليات الأجنبية والبعض الآخر يعمل بصفة عامة ، وقد بلغ عدد هذه المدارس ١٩٧٣ بمناسبة عقد اتفاقية مونترو وإلغاء الامتيازات الأجنبية ٧٠٠ مؤسسة من فرنسية ، وإنجليزية ، وإيطالية ، ويونانية ، وأمريكية ، وغيرها ومما يذكر أن موضوع حرية هذه المدارس . كانت هى النقطة الخطرة فى مختلف المفاوضات التى أجريت بين مصر وبريطانيا بشأن الاستقلال ، وكانت الدول الأجنبية تصر على ضمان حريتها فى العمل وتحاول الاحتفاظ بامتيازاتها فى إدارة هذه المدارس وحماية أوجه الامتيازات المختلفة التى كانت تحصل عليها .

وقد كان لإسماعيل دور ضخم فى تركيز هذه المؤسسات ومدها بالمعونات.

وقد اتسع نطاق هذه المؤسسات بعد الاحتلال عام ١٨٨٢ ، فقد جاء

فى الإحصاء : أن مدارس الإرساليات التبشيرية والمدارس الأجنبية بلغت ١٥٢ مدرسة تضم ٢٢٤٧ طالباً .

وقد جاء هذا التوسع بناء على توصيات « دوفرين » الوزير البريطانى الذى زار مصر بعد الاحتلال ، ووضع مخطط العمل الاستعمارى فى مصر ، وفيما يتعلق بدور الاحتلال فى التعليم قال : إن الأمل فى نجاح تهذيب العامة فى مصر نجاحاً عظيما ما زال ضعيفاً ، ما دام الصبيان لا يتعلمون اللغة العامية بدلا من تعلم لغة القرآن الشريف كما يفعلون الآن ، فإن نسبة العامية إلى الفصحى فى اللغة العربية ، كنسبة اللغة الإيطالية الحديثة إلى اللغة اللاتينية القديمة » وقد اتسع نطاق التبشير فى عهد اللورد كرومر : الذى شجع المبشرين فى مصر وحمى المؤسسات الأجنبية ، ورددت جريدة التيمس والصحف البريطانية أن مصر قد أصبحت تحت سلطة إنجلترا المسيحية ، واستقدمت بريطانيا « المبشر القس دوجلاس دنلوب » الذى استخدم معلماً فى مدرسة البعثة الاسكوتلاندية فى الإسكندرية ، ثم نقل إلى نظارة المعارف مفتشاً ، ثم أصبح مسيطراً على الوزارة تماماً ، وعمل معه يعقوب أرتين الأرمنى . ثم ولى وزارة المعارف سعد زغلول ، وكان له دوره الخطير فى تأكيد بقاء اللغة الإنجليزية ، وقد حمل عبد الله نديم فى جريدته الأستاذ عام ١٨٩٣ على التبشير فى مصر ، وأشار إلى كتاب المبشر يوحنا هورى الألمانى الذى وزعه فى القاهرة وسماه الإسلام وتأثيره على تابعيه وهاجم فيه الإسلام ، وقال نديم : لو أن مسلماً ألف مثل هذا الكتاب لقامت على المسلمين قيامة أوربا ، وقالوا : هذا دعاء للحرب الدينية ، وسحبوا قناصلهم ونادوا بين أتباعهم المقيمين فى الشرق بالرحيل بدعوى فقدان الأمن العام ، وتوحش المسلمين ، وملأوا أعمدة التيمس وغيرها بالحديث عن تعصب المصريين .

وقد أشار كثير من الباحثين إلى الدور الذى لعبته إرساليات التبشير فى مصر منذ الاحتلال البريطانى ، وقال : إنها اعتمدت أساساً على قول اللود سالسبرى :

« إن مدارس المبشرين أول خطوات الاستعمار ، فإن أول عملها هو إحداث الشقاق فى الأمة التى تبشر فيها » .

وأول من فطن لهذه الحركة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده — وذلك قبل الاحتلال — كانت أول حادثة « أن(١)إرسالية التبشير الأمريكية نصرت فتى مصرياً ، وصارت تعرضه للوعظ العام الذى يحضره كثير من المسلمين فى كنيستهم بحى الأزبكية ، فكبر ذلك على جمال الدين ، فعهد إلى جماعة من الإيرانيين بخطفه من الكنيسة ووضعه فى مكان خفى ، ففعلوا ، وذهب هو وتلميذه (الشيخ محمد عبده) إلى ذلك المكان واستتابا الفتى ، وأقنعاه بأن الإسلام هو دين الله ثم سعيا لتلافى هذا الأمر لدى الحكومة فلم يسمع لهما أحد .

وكان الشيخ محمد عبده تبعاً لذلك أول من فكر فى خطر المدارس الأجنبية فى مصر ، فاقترح على مجلس المعارف الأعلى — الذى ألف فى مصر عام ١٨٨١ — : أن يقرر جعل مدارس الأجانب فى مصر تحت مراقبة الحكومة وتفتيشها .

غير أن هذا العمل الذى سعى إليه الشيخ محمد عبده قد توقف بعد الاحتلال « حيث فقدت الحكومة المصرية كل سلطان لها على التعليم وغير التعليم ، وألقيت مقاليد وزارة المعارف فى مصر فى يد قسيس إنجليزى (مبشر) جعل سكرتيراً لها فمستشاراً (القس دوجلاس دنلوب) وقد بلغ من مساعدة الاحتلال الإنجليزى لدعاية المبشرين لسيطرتها على الحكومة أن أمر اللورد كتشنر وزير الأوقاف بإلغاء المستشفى الذى بنته الوزارة فى مصر القديمة بجوار مستشفى هرمن (هرمل) التبشيرى ، لأنه يصرف كثيراً من فقراء المسلمين عنهم فيحرمون من التبشير بالنصرانية ، كما أمر اللورد بتعطيل مجلة « المنار » لأنها ترد على المبشرين . وقد طلب المختصون من الشيخ رشيد رضا أن يتوقف عن الرد على المبشرين فأجاب :

إنى لن أدع الرد على المبشرين ماداموا يطعنون فى الإسلام ويدعون المسلمين إلى دينهم ، لأن الرد عليهم وتفنيد شبهاتهم فرض من فروض الكفاية ، حيث لا أرى فى البلاد مجلة ولا جريدة تقوم بها ، فإن تركتها كنت آثماً كجميع القادرين عليها .

(٣:٢٠١) المنار م ٣ ص ٢٣١ سنه ١٩٣٣ .

وسجل السيد رشيد رضا فى عام ١٩١٥ : أن للمبشرين فى مصر عدة مدارس ، ومستشفيات ، وصحف ، وقد ساعدتهم الحكومة المصرية على إنشاء مدارسهم ومستشفياتهم باسم نشر العلم . وهم ينشرون فى كل عام عدة كتب ورسائل فى الطعن فى القرآن والنبى ، وتنفير المسلمين من الإسلام ، فضلا عن النشرات والأوراق الصغيرة التى ينثرونها فى المستشفيات والخطب التى يلقونها فى سائر معاهد التبشير .

ولكن هذه الخطوط التى تتجمع عن حركة التبشير فى مصر لا يمكن أن تعطى صورة كاملة وحقيقية ، إلا إذا أضفنا إليها خطة العمل الذى رسمها لورد كرومر للتبشير ، والتى ضمها إلى تقريره السنوى عام ١٩٠٤ م . هذا التقرير الذى يلقى الضوء على الخطة التى اتبعت خلال إقامته فى مصر — عام (١٨٨٣ — ١٩٠٧ م) وهى الخطة التى سار عليها العمل فيما بعد وقتاً طويلا .

(تقرير كرومر)

قال اللورد كرومر :

من البين الجلى أنه ليس من أغراض الحكومة البريطانية دعوة الناس للانتقال من مذهب إلى مذهب ، لا فى ممالكها ولا فى البلدان التى لها فيها شىء من السلطة . والأدلة على ذلك كثيرة ولاسيما فى بلاد الهند كما يظهر من سياسة الحكومة فيها مدة أكثر من قرن .

فإن أعمال التبشير فيها لا تتجاوز أناساً مخصوصين ، والحكومة لا تعطيهم أقل عناية مالية . وإنما تطلق الحرية لكل الأديان ، وتراقب أعمال المبشرين مراقبة تكفل أنهم لا يستخدمون لتنصير غير المسلمين إلا بالوسائل المحلية التى لا اعتراض عليها .

ومن الجرى على هذه المبادئ فى مصر والسودان لا بد من قسمة البلاد إلى ثلاثة أقسام تختلف بعضها عن بعض من حيث المعاملة التى تعامل بها .

فالقسم الأول : (القطر المصرى) وهذا أكثر سكانه مسلمين ،

وجانب كبير من المسلمين متعلم مهذب . وقد طال اختلاطه بالأوربيين فعرف كثيراً من آرائهم وأساليب حكوماتهم .

والقسم الثانى : (شمال السودان) وسكانه الأصليون مسلمون كلهم وهم فى غاية الانحطاط من حيث العمران بالنسبة إلى إخوانهم المصريين ، وليس منهم الآن فريق متعلم . ولم يختلطوا بالأوربيين لمعرفة آرائهم وأساليب حكوماتهم إلا منذ عهد قريب . وقد دل الاختبار على أنهم مائلون لتصديق كل شىء ، ومعرضون للتحمس الدينى ينقادون لكل دجال كما حدث فى زمن المهدى (وهذه دعوى باطلة) .

والقسم الثالث : يشمل كل (جنوبى السودان) وسكانه وثنيون كلهم لم يروا أحداً من المسيحيين إلا منذ عهد قريب ما عدا بعض السياح الذين مروا فى بلادهم واتصالهم بالمسلمين ، إنما يذكرهم بفظائع الدراويش والنخاسين من العرب .

وبديهى أن كل قسم من هذه الأقسام يجب أن يعامل معاملة خاصة .

فى القطر المصرى : يجب أن نطبق الحرية ليدعو المسلمين إلى دينهم وليدعو المسيحيين إلى دينهم على السواء ، بشرط ألا تستعمل إلا وسائل الإقناع المحلية . وكل ما تطلبه الحكومة من هذا القبيل إنما هو ألا يحدث شىء مخل بالراحة العمومية . وألا يستعمل أهل الديانة الواحدة ما ينتهك به حرمة الديانة الأخرى . وقد جرى العمل بموجب هذا الأمر فجاءت النتائج مرضية بوجه العموم .

إلا أن هذه السياسة لا يمكن العمل بها فى القسم الثانى : أى فى شمال السودان من غير التعرض لخطر جسيم . فإن جمهور السكان هناك لا يزالون فى حالة من الجهل تمنعهم من التمييز بين أعمال الحكومة البريطانية وبين ما يفعله أى شخص أوربى . مهما كانت حريته إذا أطلقت أيدى المرسلين لم تأت بأعمال مثمرة . بل أثارت الشبهات والأحقاد . وقد تحمل على الإخلال بالراحة العمومية .

وقد قلت فى تقريرى عام ١٩٠٢ م : إنى أوافق السير (رجنالد ونجت)

حاكم السودان تمام الموافقة على رأيه وهو : أن الزمان الذى يسمح فيه للمبشرين بالتبشير هناك ، ويكون تبشيرهم مأمون العاقبة لا يزال بعيداً ، ولم يستثن مكان من القسم الثانى من الشروط المتقدمة إلا مدينة الخرطوم ، فإن سكانها ليسوا مسلمين بل فيها كثير من المسيحيين مستوطنون فيها . وهم من طوائف مختلفة وهى مركز الحكومة فيسهل مراقبة أعمال المبشرين بالتدقيق وسكانها المسلمون مختلطون برجال الحكومة . ثم أن الحاجة شديدة إلى تعليم أولاد المسلمين وأولاد المسيحيين ، ولا تستطيع الحكومة أن تلبي كل ما يطلبه الأهالى من هذا القبيل ، فلهذه الأسباب أتيح للمرسلين أن ينشئوا مدارس فى الخرطوم ، ولهم أن يدخلوا فى مدارسهم ما شاءوا من التعاليم الدينية . ولكن الحكومة توجب عليهم أن يخطروا آباء التلامذة المسلمين ، وآباء التلامذة المسيحيين الذين هم من طائفة غير طائفتهم ، عن أنواع العلوم التى تعلم فى مدارسهم قبل أن يرسلوا أولادهم إليها .

أما فى القسم الثالث : الذى يسكنه الوثنيون فقد كتب سير رجنالد ونجت يقول : إن أعمال المبشرين جنونى (كودك) فاشودة سائرة سيراً مستمراً ، وأعمال المبشرين الأمريكان والكاثوليك يقصد بها تمدين الأهالى وتهذيبهم، أكثر مما يقصد بهاإدخال الديانة المسيحية بين القبائل الوثنية ، وعندى أنهم مصيبون فى أتباع هذه الخطة،ولا شبهة فى أن التعليم الصناعى الذى يعلمونه لقبائل الشلوك والدنكا وغيرها نافع جداً فى نظر الحكومة ، والعمل جار بسرعة فى بناء دار للمرسلين فى لول . وقد أقاموا داراً أخرى فى طنجا ، وأقيمت داران فى بحر الغزال ، والمطران السيد جاير باذل أقصى جهده فى توسيع نطاق رسالته ، والعمل الذى عمل إلى الآن مفيد لتمدن الناس . ويقال مثل ذلك عن المرسلين الأمريكيين .

ويقول كرومر : وقد قلت فى نوفمبر سنة ١٩٠٢ م : ومما يستوجب الأسف أنه لم توجه جمعية من جمعيات المرسلين الإنجليز أنظارها إلى أقاليم السودان الجنوبية التى يسكنها الوثنيون ، ولكن ندائى لم يأت بفائدة فأرسلت كتاباً إلى جمعية التبشير فى ٦ ديسمبر سنة ١٩٠٣ م أخبرها : أن قسماً كبيراً من البلاد خصص لها فى الوقت الحاضر ، وقد عينت أقسام من البلاد

للمرسلين النمسويين والأمريكيين . وسألتها عما إذا كانت تريد أن ترسل مبشريها ، ثم علمت أن المسألة فى معرض البحث .

ولم يطلب أحد حتى الآن رخصة لإنشاء مدارس فى جنوب السودان على نفقته تعلم فيها فرائض الإسلام . ولو طلب أحد ذلك لحل طلبه محل القبول . أقول ذلك إظهاراً لخطة الحكومة ودفعاً لكل وهم . اهـ .

* * *

الفصل الثانى

مرحلة جديدة فى خطة التبشير

تحول أخطر وخطوات أعمق

عندما أحس الاستعمار أن مخطط التبشير قد فشل ، وضرب بعنف ، وفضح أمره ، وكانت الحملة التى ساقتها الصحف العربية فى مصر عليه عام ١٩٣٢ و ١٩٣٣ م ضخمة وبعيدة المدى . وكسبت إلى المد الإسلامى كثيراً من دعاة التغريب أمثال : الدكتور هيكل الذى بدأ فى تعديل أسلوبه ونقل قيادته نقلا مباشراً إلى كتاب يكتبون باللغة العربية ، وبعضهم مسلمون جغرافياً ، وبذلك اختفى اسم التبشير ظاهرياً وراء دعوة التجديد والعصرية وحرية الفكر ، وهى الكلمات التى حمل لواءها : طه حسين ، وسلامة موسى ، وعلى عبد الرازق ، ومحمود عزمى . وفى هذه المرحلة أعلن التبشير – بعد أن فشل فى تحويل المسلمين إلى أديان أخرى – أنه لا يطمع إلى إدخال المسلمين فى أديان أخرى ، فإن ذلك من الاستحالة بمكان (باعتراف دهاقنة الاستعمار) ولكنه يهدف إلى إخراج المسلمين من دينهم نفسه ، فيصبحوا لا دينيين وماديى الفكر ، وبذلك يسرى فيهم الانحلال وتتحطم مقومات الفكر الإسلامى وقيمه من ناحية التطبيق على الناس ، ويغلب طابع التفرنج الذى يقضى على الذاتية الإسلامية والشخصية العربية .

ثم أشار مخطط التبشير إلى أن العمل بين المسلمين ، إنما يكون عن طريق دعاة منهم ، ومن هنا ركز الاستعمار على بعض الأسماء وأكسبها شهرة ولمعاناً ، ودفع بها فى خضم الثقافة والصحافة وأبرزها حتى تصدرت وأصبحت قوة لها وزنها ، حيث تولت كبريات المناصب فى الجامعات والأعمال الرسمية .

ولما كانت هذه الأسماء قد كشفت عن هدفها ووجهت إليها الاتهامات ، فقد كان من الضرورى فى هذه المرحلة من (عودة) إلى مرحلة إرضاء

الشعور الإسلامى . والجماهير الساذجة بطبيعتها سهلة النسيان ، وأذيع من حول هذه الأسماء أنها عادت إلى الإسلام والإيمان . وكانت أبرز عوامل هذه المرحلة هى : القفز فوق موج التيار الإسلامى نفسه . ومن هنا برزت الكتابات الإسلامية عن السيرة والحضارة الإسلامية ، وتراجم الرسول صلى الله عليه وسلم والأعلام . ولقد هز فعلا (كتاب عن السيرة) — لواحد من هؤلاء الذين تكشفت خططهم فى كلياتهم وفى مؤلفاتهم — هز كثيراً من النفوس بأسلوبه الرائع . وخدع كثيراً من المثقفين . وكان ذلك جرياً على المخطط المرسوم ، وهو إعادة الثقة إلى هذه الأسماء حتى تحمل هى مخطط التغريب . ولتكون البديل الزائف عن الدعوة الإسلامية الأصيلة ، التى كانت تحملها الشخصيات التى وصفت إذ ذاك بالجمود والتخلف أمثال : شكيب إرسلان ، ومحب الدين الخطيب ، ورشيد رضا ، وحسن البنا ، ووصفت بالتخلف أيضاً أسماء حملت ألقاباً عالية من جامعات برلين ، والنمسا ، وبريطانيا أمثال الدكتور يحيى الدرديرى ، والدكتور على مظهر ، وعبد العزيز جاويش . وفى هذه المرحلة أيضاً حرص النفوذ الاستعمارى أن يغلف التبشير تحت أسماء أخرى كثيرة . وكان حرصه إلى إيجاد (البديل) عاملا هاماً فى وقت انكشفت فيه خطط التبشير ، وزحف المد الإسلامى بإنشاء جمعيات الشبان ، والإخوان ، والهداية ، ومنها تفرعت عشرات المجالات والهيئات . فى هذه المرحلة برزت دعوة إلى الكتابة الإسلامية وتصدرها : هيكل ، وطه حسين ، وتوفيق الحكيم ، وهم نفس الكتاب الذين كانوا يهاجمون الكتابات الإسلامية قبل سنوات قليلة لمصطفى صادق الرافعى ، وشكيب أرسلان ، وجاد المولى ، ويصفونها بأنها كتابات قديمة رجعية . وهذا هو ما وصفه الباحثون باسم (البديل) : أى ظهور كتاب لهم أسماء لامعة فى نفس السوق ، ببضاعة جديدة تلفت النظر ولكنها لا تحمل نفس مواصفات البضاعة الأصلية . ذلك أن هؤلاء الكتاب الذين تصدروا للكتابة الإسلامية كان فهمهم للإسلام فهماً غربياً خالصاً ، فهو لديهم دين روحانى ، تعبدى ، لا صلة له بالمجتمع ولا علاقة له بالسياسة أو الاقتصاد أو التربية .

ويصور العلامة (مالك بن نبى) هذا الهدف من خطة الاستعمار حين

يقول : (عندما تظهر فكرة مجردة ، فإن أمراض الاستعمار ترصدها قبل أن يدركها الشعب الذى يريد صاحبها أن ينشرها بينه ، فيبدأ الاستعمار بتوجيه مدفعيته إليها ، و بما أنه لا قدرة له على مجابهة الفكرة المجردة صراحة والقضاء عليها ، فإنه يوجه قذائفه نحو الكاتب لتصيب فكرته ، والاستعمار يحاول تجسيد الأنظار المجردة حتى ينصب نقده على الشخص ، وحتى تصبح العلاقة عاطفية لا عقلية . أو يعمل على طبخ الدعوات بسرعة لإخراج مولود ضعيف يسهل قتله ، أو لا يمثل الفكرة الأصلية ، أو إيجاد بديل سريع لكل فكرة شريفة وتحويل الرأى الأول بالثانية ، أو شن غارة على الفكرة وصاحبها واتهام صاحبها من جهات ذات نفوذ .

وإذا تبين له أن الفكرة التى أراد إقصاءها قد بعثت بصورة فكرة مجردة استقرت فى ضمير الشعب ، فإنه يتبع خططاً أكثر دقة ، فهو يجتهد فى امتصاص القوى الواعية بأية طريقة ممكنة ، حتى لا تتعلق بفكرة مجردة ، ويحاول تعبئتها لفكرة متجسدة حيث تصبح أقرب منالا ، لأنه يستطيع مقاومتها بوسائل الإغراء أو القوة ، وفى الوقت نفسه يحول حربه ضد الفكرة المجردة بوسائل ملائمة مرنة ، ويستعين بخريطة نفسية للبلاد المستعمرة ، ويجرى عليها التعديلات اللازمة كل يوم رجال متخصصون بذلك مكلفون برصد الأفكار ، والاستعمار لا يكشف عن وجهه النقاب بل يظهر وكأنه بعيد عن المعركة ، فى الوقت الذى يدير ويشرف على كل صغيرة — وكبيرة فيها) .

وهذا يكشف بوضوح عن دورين مختلفين لرجل واحد ، كاتب يقول : إن العلم هو الأساس للبحث فى الأدب ، وأن الأدب الذى لا يخضع للعقل لا يعتد به ، يقول هذا عام ١٩٢٦ م ولكنه لا يلبث عام ١٩٣٦ م أن يقول : أنا أعلم أن قوماً سيضيقون بهذا الكتاب ، لأنهم محدثون يكبرون العقل ولا يثقون إلا به ، ولا يطمئنون إلا إليه ، وهم لذلك يضيقون بكثير من الأخبار والأحاديث التى لا يسيغها العقل ولا يرضاها ، هؤلاء سيضيقون بهذا الكتاب بعض الشىء ، لأنهم سيقرءون فيه طائفة من هذه الأخبار والأحاديث التى صبوا أنفسهم لحربها ومحوها فى نفوس الناس ، وأحب أن

يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شيء . وأن للناس ملكات أخرى ليست أقل حاجة إلى الغذاء والرضا من العقل .

وأن هذه الأخبار والأحاديث إذا لم يطمئن إليها العقل ، ولم يرضها المنطق ، ولم تستقم لها أساليب التفكير العلمي . فإن في قلوب الناس ، وشعورهم وعواطفهم . وخيالهم وميلهم إلى السذاجة واستراحتهم إليها ، من جهد الحياة وعنائها ما يحبب إليهم هذه الأخبار ويرغبهم فيها . وأحب أن يعلم الناس أني وسعت على نفسي في القصص ، ومنحتها من الحرية في رواية الأخبار واختراع الحديث ما لم أجد به بأساً . هذا التحول يجب أن يكون موضع التقدير في مخطط التغريب نفسه . فإن الرجل الذي حمل على القرآن وشكك فيه . وأعلن الجرأة على النظر فيه بوصفه كتاب أدبي . وبصرف النظر عن أي قداسة له ، وضاق به الناس ، إنما يعود مرة أخرى ليخدع البسطاء بالحديث عن السيرة ، ولكنه يقف على هامش السيرة يتولى الاهتمام بالأساطير مما يدفع أكبر أصدقائه أهمية لأن ينذر بخطر هذا الاتجاه . يجب في رأي أن لا يتخذ ما اتصل (بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم) مادة لأدب الأسطورة . فالنبي صلى الله عليه وسلم وسيرته دعوة تتصل بحياة ملايين المسلمين جميعاً ، بل هي فلذة من هذه الحياة ومن أعز فلذاتها عليها وأكبرها أثراً في توجيهها ، (والمؤلف) يعلم أكثر مما أعلم أن هذه الإسرائيليات إنما أريد بها إقامة أساطير مثولوجية إسلامية ، لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب ، ولتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم في شأن الإسلام ونبيه . وقد كانت هذه غاية الأساطير التي وضعت عن الأديان الأخرى ، ومن أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين في مختلف العصور لتطهير العقائد من هذه الأوهام . هذا جانب من التحول الأخطر ، محاولة جديدة لخدمة أغراض التبشير بإذاعة الأساطير المتصلة بحياة النبي صلى الله عليه وسلم والتوسع فيها (بنص عبارة المؤلف) وإحلالها بديلا للسيرة نفسها التي يستهدف المسلمون من إذاعتها الانتفاع بها في فهم أهداف الإسلام ، ومقاصده في بناء مجتمع كامل ، وفق النظام الذي أقام عليه محمد صلى الله عليه وسلم المجتمع الأول . وهذا الأسلوب الإنشائي الموسيقي المتصل بالخيال

إنما يهز نفوس البسطاء ، ويخدع عقولهم ويحدث فيهم نشوة (شعراء المقاهى القصاصين المتحدثين عن أبى زيد الهلالى ، والزناتى خليفة) وهو فى الوقت نفسه ينشر فى نفوس الناس الإعجاب بالكاتب الذى يتحدث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويعيد الثقة حوله .

ولا يقف التحول عند هذا الحد ، بل إن الكاتب نفسه لا يلبث أن ينقلب على الحزب السياسى الذى نشأ فى أحضانه ، ويتحول إلى حزب الأغلبية الذى ظل يحاربه وله فى الحديث عن رئيسه (سعد زغلول) أبلغ عبارات السخرية والنقد ، كان يقولها فى أوج شهرة هذا الزعيم السياسى ، ولكن لماذا تحول الكاتب ؟

من الحق أن يقال : إنه تحول لكى يضمن استقراراً فى أحضان الأغلبية ، ويزحف من جديد إلى أكبر منصب سياسى يحقق له تنفيذ مخططاته الاستعمارية والتبشيرية ، وهو ما تحقق فعلا بعد ذلك ، (الحديث هنا عن طه حسين) .

هذا نموذج من تحول خطة التبشير إلى خطوات أعمق فى مجال الثقافة والتعليم والنفوذ السياسى القادر على إحداث أبعد الآثار فى المناهج الدراسية .

كانت أبرز هذه الآثار ما يتصل بالأدب العربى ، وتغليب الأدب اليونانى عليه بالعرض المقارن ، وإثارة الشبهات التى كانت قاصرة على الدراسات الجامعية إلى مناهج التعليم الثانوى .

وقد أشار المستشرقون إلى أهمية هذا العمل بالنسبة لوسطائهم .

إذ أشار (جب) إلى : أن هذا النفوذ فى الدوائر الرسمية من شأنه أن يوطد (المبادئ) التى يدعو إليها هؤلاء ، وقد صور عباس حافظ ما أدخله (كتاب المجمل فى تاريخ الأدب العربى) الذى وضع بإشراف الدكتور طه حسين ، لذلك الأثر الخطير حين قال : (إن الكتاب قد تعرض فى تاريخ الأدب العربى لجملة من القضايا ، والنظريات ، والتخريجات ، والآراء الخطيرة التى لم تثبت بعد ، ولم يستقر العالم الأدبى منها على أحكام حاسمة ، فالتشكيك فى الشعر الجاهلى ، واستباق الشعر للنثر ، وأثر الحضارات الأجنبية فى حضارة العرب ، قد ألقيت إلى الناشئ طالب الثانوية كقضايا مفروغ منها ،

وأحكام نهائية . وهو منهج خطر على الناشئين . مضلل العقول الصغيرة)(١) .

ويضاف إلى هذا ما أثار الباحثون من المقارنات التي أجريت بين الخطابة في الأدب العربي والخطابة اليونانية .

وفيما يتصل بهذا التحول أن جميع القضايا التي أثارها التبشير كشبهات ، لم يلبث أن وجد كتاب يكتبون باللغة العربية قد حملوا لواءها :

أولا : إثارة الشبهات حول الشريعة الإسلامية ، ومفهوم الإسلام بحسبانه نظام مجتمع كانت تثيرها أقلام : شبلى شميل ، وجرجى زيدان . فأصبحت تثيرها أقلام مثل : على عبد الرازق . ومحمود عزمى .

ثانياً : إثارة الشبهات حول الحديث اللغة العربية . والاهتمام بالعامية ، والدعوة إليها بعد أن كان يحمل لواءها : ولمور . وويلكوكس . أصبح يحمل لواءها : أطفى السيد . ، قاسم أمين .

ثالثاً : إثارة الشبهات حول الحديث النبوى . وكانت من اهتمامات المبشرين والمستشرقين أمثال : برنجر . وجولدزيهر . أصبحت من كتابات بعض المسلمين . وكان هذا أخطر تحول فى طريق التبشير إلى دعم حركة التغريب .

وهناك تحول آخر فقد استطاع الاستعمار أن يكسب إلى صف الدراسات الإسلامية بعض من كانوا يناقضونها أو لا يتصلون بها : كالعقاد . وإسماعيل مظهر . وغيرهم وذلك فى ظل التحدى الذى واجهه الغرب نتيجة لزحف الشيوعية فقد اتجه هؤلاء الباحثين إلى الكتابة عن الإسلام ، ليس تقديراً له ولكنه بحسبانه عاملا مدافعاً لأخطار الشيوعية . وهى كتابات لا تصل إلى جوهر الإسلام ومقاصده الأصلية . وإنما تكتفى بأن تعلن شعارات الأسلام كعامل سياسى فى مواجهة النفوذ الشيوعى .

وقد تخدع هذا الاتجاه بعض البسطاء ويظنونه تحولا من الكتاب ، أو دفاعاً عن الإسلام . ولكن حين تعمق النظرة إلى هذه الظاهرة يمكن وصفها بأنها : (حق يراد به باطل) .

• • •

(١) ٢٦ مارس عام ١٩٣٠ – كوكب الشرق .

الفصل الثالث

بعد الحرب العالمية الأولى

أخطر مرحلة فى تاريخ التبشير

حققت الحرب العالمية الأولى نتائج هامة فى مخطط التبشير . فقد قامت الانتدابات البريطانية والفرنسية على معظم أجزاء البلاد العربية التى قسمته إلى أقطار يقع كل منها تحت نفوذ غربى مختلف :

أولا : مصر والسودان والعراق والأردن تحت النفوذ البريطانى .

ثانياً : سوريا ولبنان والجزائر وتونس والمغرب تحت النفوذ الفرنسى .

أما فلسطين فقد قام فيها نظام انتداب بريطانى ، ومشروع إنشاء دولة يهودية صهيونية معاً وقد وجد التبشير فى هذه الخطوات الجديدة مجالا واسعاً للعمل ، إذ رعت الدول المنتدبة أعمال الإرساليات وكانت حامية لها ، كما أتيح لهذه الإرساليات من النفوذ والخطر أمرين هامين :

الأول : التنازلات الخاصة بالأرض وإقامة المؤسسات والإعانات والإعفاءات الجمركية .

الثانى : سلطة الامتيازات الأجنبية فى إطلاق الحرية لها فى العمل دون أن يكون فى مقدور الحكومات إلزامها بشىء ، أو الإشراف عليها ، أو محاكمتها

ولم يتوقف عمل التبشير عند مجال التعليم وحده ، بل شمل مجالات كثيرة ، واتخذ من المستشفيات ستاراً خطيراً ، وبالرغم من تباين وجهات النظر السياسية بين البعثات التبشيرية ، فقد كانت جميعها متفقة فى الغاية وهى : بث الروح الاستعمارية فى الشرق ، وتشكيك المسلمين فى دينهم ، واحتقار تاريخهم ، وتمجيد الغرب وحضارته . وفى هذه المرحلة ضغط المبشرون بقوة فى عدة مواقع : وركزوا على مصر تركيزاً شديداً إلى الحد الذى كشف عن

عملهم وفضح مخططهم كله . بل لقد تجرأ المبشر زويمر فاقتحم الأزهر فى خلال الدراسة . ووزع منشوراته على الأساتذة والطلبة . وتحدث معهم فى جرأة ، كما عمد المبشرون إلى تنفيذ جرائم خطف الأطفال والأحداث وتعذيبهم . وإخضاعهم بالتنويم المغناطيسى . وأثبتت محاضر التحقيق التى أجريت أن موظفى الإدارة وقسم الأديان فى محافظة مصر . كانوا يعاونون المبشرين فى تسهيل إجراءات تنصير أى مسلم ويحولون بينه وبين أهل دينه ، بل بينه وبين أبيه وأمه غير أن هذا العمل قد فجر طاقات حية . وتصدت صحيفتين كبرتين فى مصر هما السياسة والبلاغ لفضح هذه الأعمال . والكشف عن أهدافها الأساسية .

وكان للدكتور هيكل دور كبير فى هذا العمل . ولمساعده أحمد نجيب فى جريدة السياسة . حتّى عدت كتاباته هذه من علامات الطريق فى دراسة مخطط التبشير . فهو الذى قال صراحة : (إن هدف التبشير هو توهين الروح المعنوية فى قلوب المسلمين من جميع طبقاتهم) وقد فصل ذلك حين قال : (إن إضعاف العقيدة فى نفوس المؤمنين بها ، هى استمرار للنضال التاريخى القديم بين الشرق والغرب . والإسلام والنصرانية . حيث يتخذ اليوم أساليب الغزو الحديث بطريق الدعوة والإغراء . والوسائل الاقتصادية والاجتماعية ، ويعتقد خصوم الإسلام من الأحبار والساسة . أنهم قطعوا فى سبيل إضعاف العقيدة الإسلامية فى نفوس الشعوب المسلمة خطوات لا بأس بها) وقال : (هذه هى الغاية التى تعمل لها الأمم الأوربية وترصد لها الأموال الطائلة وتجند لها من الدعاة جيش ضخم فى صور المعلمين ، والمبشرين والمبشرات والأحبار .)

على أن إضعاف العقيدة الإسلامية هى الخطوة الأولى لغاية أخطر ، فالشعوب التى تنحل عقائدها القومية . وتضعف . تغدو فريسة أيسر للغزو الفكرى والدينى . فإذا تم هذا الوهن المنشود فى عقائد الشعوب الإسلامية ، استطاع الاستعمار الإجهاز على الفرائس . وغاضت الخواص والعقائد القومية التى ما زالت تتكسر عليها جرار الاستعمار . ومن الأسف أن الشعوب الإسلامية لم تفطن حتّى اليوم إلى هذه الحقيقة . ولم تتنبه لفداحة الخطر ، ولم تفعل شيئاً

لرده . وإذا كان الإسلام ما يزال يناضل بقوة وصلابة . فإنه إنما يرد جيوش الغزاة برسوخ وقوة عقيدته . لا بعمل أبنائه ولا بجهودهم) .

وقد استطاعت الصحف فى هذه المرحلة أن تحصل على إحصائية خطيرة تكشف عما ينفق فى العام الواحد بالنسبة للإرساليات الإنجليزية والأيرلندية على النحو الآتى : (عام ١٩٣٢) .

٩٨٣٨٨ مبشر تحت سلطتهم ٨١ مدرسة وجامعة وكلية فيها ٧٩٩١ طالباً و ١١٣ مدرسة روضة أطفال بها ٤٠٣ و ٥٠٠ مستشفى و ١٠٢٤ صيدلية لها ٤ مليون من الزبائن . تبلغ عدد إرساليات التبشير العامة ٣٨٣٨ درجة أولى و ٣٤٧١٩ درجة ثانية وجملة المبلغ الذى أنفق فى هذا العام(خمسة ملايين جنيه)

كما أشارت التقارير الواردة من جمعية التوراة ومركزها ١٤٦ شارع الملكة فيكتوريا فى لندن : عن توسيع نطاق حركة التوزيع فى اليابان والصين ومصر . وأنه قد تم توزيع ١٥٠ ألف نسخة فى السودان الإنجليزى . والعربى . والحبشة . وفلسطين . وسوريا . وقبرص بجوار مصر . وذكر التقرير أن جمعية نشر التوراة البريطانية أنشئت عام ١٨٠٤ ووزعت حتى عام ١٨٩٩ حوالى ١٦٠ مليون نسخة لـ ٣٦٤ لغة . كما ظهر بوضوح الاهتمام البالغ بحماية معاهد التبشير كلما ورد ذكر الاتجاه إلى عقد معاهدة . وبلغت نفقاتها السنوية ٢٣٠ ألف جنيه بين بريطانيا ومصر (هذه المعاهدة بدأت المفاوضات من أجلها منذ عام ١٩٢٠ وانتهت عام ١٩٣٦) . قالت جريدة التيمس فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٧ بمناسبة المفاوضات الجارية بين مصر وبريطانيا : (إذا كان هناك شيء يخشى منه فهو خلو المعاهدة من نص يتعلق بحماية معاهد التبشير . ولكنها تعود فتطمئن النفوس إلى أن بريطانيا ستظل تحمى جميع معاهد وإرساليات التبشير) .

وأشارت التقارير فى هذه الفترة إلى الدور الذى تلعبه أضخم مؤسسة لأعمال التبشير وهى : (جمعية الشبيبة المسيحية الدولية فى مدينة نيويورك) والتى تضم ٩ آلاف فرع فى العالم، ويبلغ جملة أعضائها مليونى عضو. ولها

فروع فى مختلف العالم الإسلامى . وقد رافق هذه الخطوات الضخمة ضربات قوية كانت بعيدة المدى .

ففى السودان أغلقت المناطق الجنوبية فى وجه التاجر المسلم ، وسمح فيها للبعثات التبشيرية وحدها بحرية الحركة . وفى تونس عقد المؤتمر الأفخارستى الذى جمع مؤسسة الآباء البيض للمبشرين ، وجرت محاولات تجنيس التونسيين بالجنسية الفرنسية . وفى المغرب صدر الظهير البربرى سنة ١٩٣٠(١) الذى فصل البربر المسلمين عن العرب . ووضع لهم أنظمة خاصة فى القضاء والتعليم مستمدة من قوانينهم العرفية القديمة .

وفى مصر وعديد من بلاد الشرق اقتحم دعاة (البهائية) المجال وبشروا علناً وكتبوا فى الصحف وأقاموا محافلهم . وكذلك اندفع دعاة (القاديانية) فى الهند الإسلامية وفى غيرها ، كما انطلق دعاة التبشير فى مجال الجامعة والثقافة والصحافة ، وظهرت كتابات مستمدة من مؤلفات المبشرين أهمها : الشعر الجاهلى لطه حسين ، والإسلام وأصول الحكم لعلى عبد الرازق .

ولقد كان من أحداث ما بعد الحرب العالمية الأولى وأخطرها :

(إسقاط الخلافة) .

وقد وجدت هذه الخطوة تقديراً كبيراً فى دوائر التبشير حتى أن زويمر فى مؤتمر عام ١٩٢٤ الذى عقد فى القدس أشار إليها إشارة التشفى وقال :

(أصبحت الروح القومية تدحر روح الجامعة الإسلامية ، وتحل محلها وكان لإلغاء الخلافة تأثير عميق) .

وأشار إلى أنها أحدثت ما أسماه (انحلال الرابطة الإسلامية) أو « (العروة الدينية فى الإسلام) وبالجملة فقد رأى المبشرون أن الأحوال فى العالم الإسلامى كله تقريباً (قد أصبحت ملائمة لأعمال التبشير . وأن العراقيل التى كانت تنشأ فيما مضى قد أزيلت تماماً) ، (وبعض الحكومات الاستعمارية التى كانت فيما

---

(١) استهدف الظهير البربرى اخراج القبائل البربرية من حظيرة الشريعة الإسلاميه وإلغاء العلوم التى تعلم اللغه العربية فى مناطق القبائل .

مضى مضادة للتبشير قد تغير حالها وباتت صديقة للتبشير . وعضده القوى تمده بالمعونة اللازمة للقيام بالأعمال الطبية والاجتماعية التبشيرية الخاصة) وأشار إلى أن (الدستور الجديد الذى أنشىء فى مصر قد اشتمل على نصوص قاطعة تكفل الحرية الدينية) .

(أولا) فى مصر

ركز التبشير تركيزاً كبيراً على مصر بعد الحرب الأولى لأمرين :

الأول : أن مصر هى مركز الثقل فى العالم العربى كله وكل ما يثار فيها من تيارات إنما يكون عاملا هاماً للتأثير على مختلف الأجزاء .

الثانى : أن مرحلة العمل الأولى فى مصر قبل الحرب عن طريق الإرساليات التبشيرية الأولى قد آتت أكلها . وخاصة عن طريق الصحافة التى أبرزت ألمع نجومها من الصحفيين غربيى النزعة خريجى هذه الكليات من زيدان إلى صروف إلى فرح أنطون إلى سركيس آإلى شبلى شميل بالإضافة إلى الصحفيين الذين عملوا فى فرنسا وبريطانيا وقد تركز العمل فى هذه المرحلة على عدة مراكز هامة :

١ – الصحافة .　　٢ – الجمعيات الأدبية .

٣ – الجامعة المصرية .　　٤ – مدارس الإرساليات .

٥ – المدارس المصرية الخاضعة لبرامج كرومر ودنلوب .

وكان لمعاهدة لتران(١) التى عقدت عام١٩٢٩ أثرها الواضح فإنه لم تمض على ذلك عام وبضع عام حتى اجتاحت مصر والسودان حملة تبشيرية ضخمة عن طريق بعض المعاهد الكبرى للإرساليات وبعض مستشفياتهم . ولم تلبث الحركات العنيفة أن كشفت عن أحداث خطيرة تمثلت فى إغراء بعض الشباب والفتيات المسلمين بالتنويم المغناطيسى لترك دينهم .

---

(١) عقدت هذه المعاهدة بين الكرسى البابوى والحكومة الإيطالية التى حصلت بموجبها على تعويض ضخم وأعلن أن الجانب الأكبر منه سيوجه لدعم الحركة التبشيرية .

وحملت الصحف المتحررة من نفوذ العهد السياسي الحاكم حملات عاصفة على هذه الحركة ، وكانت جريدتي البلاغ والسياسة هي أجرأ هذه الصحف ، وكان الدكتور محمد حسين هيكل ورفيقه أحمد نجيب في جريدة السياسة من أعمق الدارسين والباحثين للظاهرة الخطيرة وتقديم إجابات صريحة عنها . كما تحدثت الصحف لفترة طويلة استمرت أعوام ١٩٣٢ و ١٩٣٣ عن اتساع نشاط المبشرين الذي كان يشار إليه في بعض الصحف والمجلات وخاصة الإسلامية منها ، كالفتح والمنار إشارات سريعة على فترات متباعدة ، وقد امتد هذا النشاط من القاهرة إلى بور سعيد إلى أسيوط ، وتحدثت عن وسائل الإغراء التي يلجأ إليها المبشرون لحمل السذج على ترك دينهم ، وإغراء الأطفال من أبناء الفقراء ، ويقول هيكل : (كنت من أشد الأعضاء تحمساً لمقاومة هذا التبشير اقتناعاً مني بأن هذه الحركة يقصد بها إضعاف ما في النفس من ثقة بدين الدولة ، ولما تنطوي عليه من قصد سياسي هو إضعاف معنويات هذا الشعب ، بإضعاف عقيدته ، وكان من أثر هذه الحركة التبشيرية وموقفي منها أن وجهني للتفكير في مقاومتها بالطريقة المثلى التي يجب أن تقاوم بها ، توجب أن أبحث حياة صاحب الرسالة الإسلامية ومبادئه بحثاً علمياً ، كان هذا الحادث الذي روعت له مصر ، حادث النشاط التبشيري ، سبب متابعتي خلال أربع سنوات تمحيص حياة النبي العربي وتعاليمه .) .

وفي خلال هذه المعركة اندفع المبشر زويمر فدخل الجامعة الأزهرية ، ووزع منشوراته بها وتألفت في إثر ذلك جمعية الدفاع عن الإسلام من العلماء والكتاب ، ووقفت الحكومة المؤيدة بالنفوذ الاستعماري في وجه هذه الجماعة التي كان يرأسها الشيخ المراغي .

وكان من أثر الضربات الضخمة التي وجهت إلى الحركة التبشيرية السافرة أن اختفت هذه الحركة من المسرح ، وخلعت أثوابها واستترت وراء أثواب أخرى أشد خطراً بحيث لم يعد الكشف عليها ميسوراً ، ورافقت هذه الحركة في مصر حركات مماثلة في السودان وتونس والمغرب أهمها : حركة الظهير البربري في المغرب ، وحركة التجنيس في تونس ، وعقد المؤتمر التبشيري الأكبر في القدس ، وفي تونس ، وهاجمت الصحف الأجنبية في مصر حركة

المقاومة للتبشير . بل أن بعض الصحف اليومية العربية . والمجلات التى يرأس تحريرها طه حسين ، وتوفيق دياب . وعلى عبد الرازق قد هونت من شأن هذا الخطر . وصادرت الحكومة هيئة الدفاع عن الإسلام ومنعتها من الحركة، وفى خلال هذه المرحلة تبين أن عدد المبشرين فى مصر يبلغ ٣٩٢ مبشراً ، وأن الحكومة تمنح لهيئات التبشير تسهيلات جمركية فى حدود ما لا يقل عن مائة ألف جنيه .

وقد أهدت جمعية الدفاع عن الإسلام النصح إلى المصريين لسحب أبنائهم من المعاهد التبشيرية ، ودعت إلى إنشاء معاهد ومدارس لفقراء المسلمين . وكشفت عن الفارق بين دعوة كل صاحب دين إلى دينه وبين الإكراه ، وأعلن الإمام المراغى أن المعترض عليه هو طرق التبشير التى يبرأ منها العقل والعلم وتبرأ منها الفضيلة .

٣ – فى السودان

يرجع(١) بدأ العمل التبشيرى فى السودان إلى عام ١٦٩٨ عندما وصل إليها الأب زامبيردى برفدنت بقصد التبشير فيه وفى الحبشة ، وأن أول بعثة تبشيرية أرسلت إلى السودان كانت عام ١٨٤٦ ، وعلى رأسها القس(أورفالدر) وقد بقيت بالعمل حتى عهد الثورة المهدية .

وفى عام ١٨٧٧ جاهر (غوردون) الذى تولى منصب حاكم السودان قبل عام ١٨١٩ بضرورة تنصير السودان .

وما أن استردت بريطانيا السودان بعد القضاء على حكومة التعايشى حتى نشطت حركة التبشير وكانت خطتها الثأر لغوردون الذى قتل عام ١٨٨٥ ، والانتقام له وتحقيق هدفه ، وقد تعهدت الإدارة الإنجليزية فى مصر والسودان. بالتشجيع المادى والأدبى .

وفى عام ١٨٩٩ أرسلت الكنيسة الأنجلكانية بانجلترا الرهط الأول من المبشرين التابعين لها ، فأنشأوا مراكز فى الخرطوم وأم درمان . وفى عام

---

(١) عن تقرير للدكتور زكى على نزيل جنيف رد الله غربته .

١٩٠٥ دعا اللورد كرومر إلى إنشاء مراكز للتبشير فى مديريات جنوب السودان للعمل بين قبائل الدنكا والقبائل الوثنية ، وبذا بدأت أضخم خطوة فى مجال التبشير .

فتأسست مقرات فى مديريات جوبا ، وبالى ، أورتاى ، ولوى ، وبامبيو ، وقد قامت بالعمل فى السودان بعثات نمساوية وإنجليزية وأمريكية واسترالية لها مراكز فى مختلف المناطق الهامة ، وكتب (زويمر) على أثر زيارته للسودان : أن من أدلة نشاط المبشرين أنه فى منطقة تل دوليب التى يشتغلون فيها منذ ربع قرن تمكنوا من جمع ١٩٠٠ من الأهالى فى مدارس الأحاد ، ونصروا منهم بضع مئات ، وفى أم درمان نفسها تعقد الجمعية الأمريكية اجتماعات تبشيرية فى سرادقات تقام على بعض أمتار من قبر المهدى ، وهناك يقومون بالدعوة ويوزعون المنشورات ، وقال : إن هناك مائة وعشرين تلميذاً مسلماً يلقنون قصص النصرانية ، وكتب الأسقف جوين فى المجلة الكنسية التبشيرية : إن من دواعى الغبطة أنه قد تم فصل مديريات جنوب السودان ليكون أسقفية جديدة تتحد مع جزء من أوغنده ، ومتى تم ذلك فسيصبح أول رئيس لها (كنشن) الذى قضى أكثر من خمسة وعشرين عاماً فى التبشير فى أوغنده ، ولا بد أن يؤول الأمر إلى تدعيم هذه المجهودات بخطط ومشروعات جديدة ليتقدم التبشير فى كل هذه المناطق ، وقد تم الاتفاق بين مصلحة المعارف السودانية والإرساليات على أن يترك لها مسألة التعلم فى الجنوب مقابل إعانة تدفع لها .

وقد عمدت حكومة الاحتلال فى السودان رغبة فى دعم مخطط التبشير إلى :

١ — تحريم سفر أهل الشمال إلى الجنوب .

٢ — وضع قيود على التنقل داخل الجنوب إلا بتصريح كتابى .

٣ — منع التجار المقيمين من أهل الشمال من التحدث مع أهل الجنوب باللغة العربية ، وإلزامهم بتعلم لغة أهل الجنوب .

وقد ركز المبشرون جهوداً ضخمة على جنوب السودان حيث يكثر الوثنيون ، ولما لم يقبل الوثنيون دعوتهم كان عمل المبشرين قاصراً على منع انتشار الإسلام ، وقد أشار ولسون كاش فى كتابه (السودان المتغير) : أنه

ما من قائد أو رائد أرسلته مصر إلى أعالى النيل فى القرن التاسع عشر بإيعاز من الدول ، إلا كان من رواد التبشير على وجه من الوجوه . وقال : إن الحكومات (المحتلة) فى السودان والأقطار الإفريقية تيسر نشر التبشير فى بلاد الوثنيين . فتتيح لهم السفر إلى أقصى الجهات وتحرمه على الجلابة والفقهاء وأصحاب الخلوات .

وقد جعل الاستعمار من منطقة الجنوب مباحاً للتبشير والنفوذ الأوربى دون الإسلامى . وفيها نشروا اللغة الإنجليزية دون العربية ، وعملوا بذلك على إيقاف تيار الإسلام صوب الجنوب . والحد من زحف السيل العربى المتدفق بقفل الجنوب وفصله عن الشمال ، وبذر بذور الشقاق والتفرقة بين العرب وإخوانهم أهل الجنوب .

ومن الخطوات الهامة فى تاريخ التبشير فى السودان : تلك الحركة الضخمة التى قامت عام ١٩٢٩ حين وجه حاكم السودان العام (وهو بريطانى) ، وشاركه ستة عشر قائداً النداء بمناسبة ذكرى غوردون إلى توسيع نطاق العمل التبشيرى ، وفتح باب الاكتتاب لهذا الغرض فجمع أكثر من ٦٠ ألف جنيه . ودعا إلى إنشاء مراكز التبشير فى بور سودان ، وغوردون ، ووادمدنى . وقالت جريدة التيمس الشهيرة فى هذه المناسبة : إن (غوردون) بذل حياته فى سبيل التبشير ، ولا بد أن تكون ذكراه حافزاً إلى العمل ، والمعروف أن غوردون كان يعتبر رسالته إدخال هذه المناطق كلها فى النفوذ الغربى عن طريق التبشير .

وقدرت ميزانية الإرساليات فى هذه الفترة بمبلغ ٢١٠ ألف جنيه . بينما كان المعهد الدينى الإسلامى فى أم درمان يصرف له ٢١ ألف جنيه . وقد نشرت الصحف فى (٦ يوليو ١٩٣٣) تقريراً عن أعمال المبشرين فى السودان ذكرت فيه : أنه يجرى الحيلولة دون المسلمين ومخالطة أهل الجنوب ، أو التجول فى أرضهم ، أو الظهور أمامهم بأى مظهر من المظاهر الدينية ، كما منع توظيف السودانيين فى بلاد الوثنيين .

وقد توغل الإنجليز فى هذا السبيل فأرسلوا إخصائيين فى اللغات لدرس

لغة هؤلاء الزنوج ، لجعلها لغة رسمية فى بلادهم . وذلك لمقاومة اللغة العربية والحيلولة دون انتشارها لأنها لغة المسلمين . وإذا وصلت باخرة أو سفينة إلى بلاد الزنوج منع المسلمون من أن يقيموا الصلاة خارج السفينة ، بحيث يراهم هؤلاء الزنوج (فقد جربوا وكانت تجربة قاسية عليهم . أن المسلم إذا ظهر مصلياً لا يلبث أن يختلطوا به ، ويسألون عن عمله ، وطفقوا يقلدونه ، وانتشر الأمر بينهم) .

ونشرت جريدة السودان ٢٥ / ١٢ / ١٩٣٦ أن المبشرين يتمتعون فى جنوب السودان بحماية الحكومة السودانية ، ولهم كامل السلطة فى إبعاد من يرون إبعاده من التجار والموظفين غير المرغوب فيهم من جهة المبشرين . وأن المسلمين هناك يلقون عنتاً وتضييقاً فى سبيل إقامة شعائر دينهم . ومما يذكر أن الحاكم العام فى السودان حاول أن يدافع عن هذه الإجراءات . فادعى أن ما فرض فى جنوب السودان من القيود على صغار التجار وأمثالهم . إنما قصد به منع استغلال الأهالى الذين هم فى أبسط حالات الفطرة استغلالا غير مشروع .

* * *

ومن يتابع تقرير اللورد كرومر عن التبشير (١) يعرف إلى أى حد وجه العميد البريطانى أنظار الحركة التبشيرية إلى العمل فى جنوب السودان حيث الميدان خصيب وبكر . وقد نفذت الحكومات السودانية خطته بدقة . فأوجدت فاصلا بين الشمال والجنوب ، وأطلقت على تلك الأجزاء (المناطق المقفلة) وحالت بين المسلمين الشماليين وبين التحرك فى الجنوب ، واستقدموا لهذه المناطق جيوشاً من المبشرين . وكانوا يأخذون الأطفال الجنوبيين إلى مدارسهم منذ نعومة أظافرهم حتى المرحلة المتوسطة . عملا بخطتهم التى تهدف إلى إشراب هؤلاء الأطفال دعوتهم فى وقت مبكر . وكانت وزارة المعارف السودانية تقوم بدفع ٩٨٪ من نفقات مدارس التبشير دون أن تشرف عليها .

ولما استقلت السودان أحس المبشرون بأن عملهم أصبح معرضاً للمخاطر ،

---

(١) راجعه فى الصفحات السابقة .

ولذلك فقد عمدوا إلى حياكة المؤامرات ، وتشجيع السكان على الثورة والتمرد مما دفع الحكومة السودانية إلى إقصاء بعضهم إلى خارج الحدود ، وثارت الفاتيكان واتهمت الحكومة بأنها اضطهدت الدعاة ، وقد كشفت السودان عن التفرقة بين المسيحية كدين هو موضع إحترام الحكومات الإسلامية ، وبين المبشرين كطلائع للاستعمار وخدام لمطامعه .

والمعروف أن جمعيات التبشير فى جنوب السودان كانت قد بلغت ٥٠٠ جمعية لها فروعها المنبثة فى جميع نواحى الجنوب . يعيش القوامون عليها فى بحبوحة العيش فى الغابات وغيرها ولديهم وسائل التبريد والتدفئة والمواصلات . وقد خلقوا جيلا جديداً مثقفاً ثقافة استعمارية جعلته متعصباً ضد الإسلام واللغة العربية ، ودفعته إلى كراهية إخوانهم فى الشمال ، ويصور الأستاذ على السيد جعفر عمل المبشرين فى مدينة (واو) عاصمة بحر الغزال حيث النفوذ الضخم الواسع للإرساليات التبشيرية فيقول : (ومن المألوف أن ترى الأطفال فى حوزة المبشرين كأن لا صلة لهم بأهل أو أقارب ، ولقد هالنى أن أرى هناك فى مركزهم على النيل قرب الحدود الأوغندية ، كثيراً من الأطفال يفترقون ويتلاقون مع المبشرين تحت ظلال الأشجار ، فهم مدد متجدد تحت أيدى صنائع الاستعمار ورسله ، ومما شاهدته طائفة من النساء والبنات العاريات تلقنهن الترانيم نصف عمياء بلهجتهن المتوطنة ، على حين تقدم لهم الطعام فتاة مراهقة تؤدى عملها عارية كما ولدتها أمها) ، والهدف هو (خلق جيل منعزل يخشى كل ما فيه رائحة الشماليين) .

ويقول الكاتب : أن الجنوب بهذه الحالة سيكون نقطة الضعف التى يستغلها المستعمرون فى إثارة الفتن والقلاقل بل طلب الانفصال عن الشمال) .

٤ — فى شمال إفريقيـــا

بدأت حركة التبشير فى المغرب (مراكش) بالدعوة إلى الفصل بين العرب والبربر ، وهما مسلمين ، وذلك بإنشاء أنظمة خاصة ومعاهد ومحاكم تفصلهم عن الشريعة الإسلامية ومعاهد القرآن ، مع إلغاء تعليم اللغة العربية فى المناطق البربرية .

وكان أخطر ما واجه الحركة التبشيرية إلى شمال أفريقيا عقد المؤتمر

الأفخارستى التبشيرى فى تونس — الذى عقد فى قرطاجنة عام ١٩٣١ — وقال عنه أسقف قرطاجنة : إنه حملة صليبية . وقال المؤتمرون : إن الدافع لهم على عقد هذا المؤتمر ، هو ، تحقيق الفكرة التى كانت تدور بين جنبى لويس التاسع ، والتى حملها بعده الكردينال لافيجرى . وليست هذه الفكرة سوى ما كان يقصده لويس التاسع من حملاته الصليبية على هذه الديار ، وهو إرجاعها إلى الصليب الذى أجبرت على قبوله بعسف الرومانيين كما أوصى المؤتمر فرنسا بتعميم التبشير وذلك لتوحيد عقيدة شمال أفريقيا .

وفى تونس أيضاً ظهرت حركة تجنيس السكان بالجنسية الفرنسية ، وتقدم الإغراءات والتهديدات لتحقيق ذلك الغرض ، وكان الهدف أن لا يحتكم السكان إلى شريعة الإسلام ، بل يحتكمون إلى القانون المدنى الفرنسى ، وإدماج أهل تونس فى الجنسية الفرنسية ، وسلخهم من عروبتهم ودينهم الإسلامى وإقامة الحواجز والفوارق بينهم وبين جامعتهم الوطنية والدينية .

وقد استعانوا فى ذلك ببعض العلماء الموالين للنفوذ الأجنبى ، وفتحوا لهم الطريق إلى المناصب الكبرى ، حتى أن أحدهم أصدر فتوى تبيح للمسلم التجنس بالجنسية الفرنسية .

وفى الجزائر احتفل المبشرون عام ١٩٣٠ بمرور مائة سنة على إقرار النفوذ الغربى المسيحى ، وكان (لافيجرى) عميد التبشير قد أنشأ (جماعة الآباء البيض عام ١٨٦٩) عندما اختار أن يجعل من مدينة بسكرة — فى منتصف الطريق بين جبال الأوراس وبحيرات شط العرب — مقراً لإقامة زوايا للتبشير ، لبس المبشرون فيها لباس رواد الصحراء الأبيض .

وقد قاوم المسلمون هذه الحركات بقوة ، وقامت جمعية العلماء الجزائريين بزعامة الإمام عبد الحميد بن باديس كرد فعل لهذه الحركات التى لم تستطع تحويل المسلمين عن دينهم ، وتنبه المسلمون إلى التصريحات التى كشفت عن أهداف المبشرين من أمثال قول الأب بيينز : أن حركة التبشير حرب صليبية هادئة ، بدأها المبشرون فى القرن السابع عشر ، ولا تزال مستمرة إلى يومنا هذا .

فقد كشف كتاب المسلمين ومفكريهم عن هدف التبشير فى مختلف أجزاء العالم الإسلامى . وفى المغرب بالذات . وهو : محو الذاتية المماثل بها وجود الأمة بالقضاء على مقوماتها ومشخصاتها من لغة وأدب ودين . وذلك بتنفيذ مخطط يهدف إلى إزالة سلطان المسلمين من هذه الأرض . وفى نفس الوقت استطاعت الطرق الصوفية فى المغرب ، والسنوسية بالذات ، اقتحام الوثنية وإدخال أهلها فى الإسلام بالرغم من نفوذ الهيئات التبشيرية وملايينهم الكثيرة . وما تزال الإرساليات التبشيرية تسيطر بنفوذها على مجال التعليم فى تونس والجزائر والمغرب على نحو ما يزال بالغ الخطورة . بل إن فرنسا قد زادت نفوذها فى مجال التعليم التبشيرى خلال معركة التحرير التى دارت سبع سنوات بين الجزائر وفرنسا ، وأنشأت فى خلال سنوات قليلة عدداً من هذه المدارس يوازى ما أنشأته فى تاريخ احتلالها كله . وما تزال عملية التعريب عاجزة عن التأثير فى نفوذ التعليم التبشيرى والأجنبى فى تونس والجزائر ومراكش .

٥ – التبشير فى قلب إفريقيا

زحف الاستعمار منذ منتصف القرن الخامس عشر إلى أفريقيا ، وكان أوائل الرواد الغربيين مبشرين من أمثال : ولفنسون ، وستانلى ، وغيرهم من الذين فتحوا الطريق أمام هذه البعثات .

وكانوا يعلنون عن خطط تقدمهم إلى قلب أفريقيا باسم التبشير ، ويرون أن كلمة الفتح إنما تعنى خضوع أفريقيا وأهلها للإرساليات ومعاهدها وأهدافها .

وقد كانت شرق أفريقيا وغربها ووسطها مجالا للصراع والمنافسة لمختلف البعثات التبشيرية : الكاثوليكية ، واليسوعية ، والبروتستانتية السويدية منها ، والإنجليزية ، والألمانية ، وتعد الإرساليات البريطانية أضخم هذه البعثات ، وما ينفقه الإنجليز يقدر بثلثى نفقات الإرساليات ، ويصف رولاند أوليفر فى كتابه : (العامل التبشيرى فى شرق أفريقيا) رائد التبشير (ولفنجستون) الذى تخطىء الكتب المدرسية الخاضعة لنفوذ الاستعمار فى العالم الإسلامى حين تحاول أن تصوره مكتشفاً ، فمن الحق أن يقال : إن هذه المناطق التى رادها لم تكن مجهولة ، وقد وردت فى مختلف كتب التاريخ العربى ، يقول رولاند أوليفر :

(ولقد أعد ولفنجستون نفسه منذ سنوات حياته الأولى حينما كان يعمل في جمعية التبشير اللندنية للاطلاع بأعباء التبشير الخاصة بأفريقية الاستوائية ، وبالعمل بين شعوب فطرية لم يكن قد سكنها الأوربيون . وفي عام ١٦٥٩ كان ولفنجستون لا يزال يفكر بطبيعة الحال في التجارة أكثر من الاستعمار ، وبما أنه كان أولا وقبل كل شيء مبشراً مسيحياً ، فلقد اختار كعضو في الحركة التبشيرية أن يبحث عن نهر تستطيع السفن أن تمخر فيه إلى داخل البلاد ، لقد أراد ولفنجستون أن يكتشف طرقا في أفريقيا للمبشرين لا للمدنية) وبالجملة فقد كان ولفنجستون مبشراً قبل أن يكون رحالة ولم تكن رحلته المشهورة إلا تمهيداً للبعثات التبشيرية ويقول ولفنجستون في أحد تقاريره (إن نهاية الاكتشاف الجغرافي هي بداية العمل التبشيري ، وهذه حقيقة كلية إذ أنه من المحال أن نكتشف أرضاً جديدة دون أن ينبه ذلك فينا شوق دعوة أهلها إلى الإنجيل) ثم قدم إلى إفريقيا بعد ذلك ستانلي الذي كان لكتابه الموجه إلى كليات : أكسفورد ، وكامبردج ، ودبلن ، والجمعيات التبشيرية في أوربا سنة ١٨٧٨ أثر كبير في تحرك هذه الهيئات إلى العمل في أفريقيا ، ولم يلبث حتى عقد في ١٨٨٥ مؤتمر في برلين لتقسيم أفريقيا بدعوة من البرنس بسمارك ، وفي هذا المؤتمر تعهدت الدول بحماية إرساليات التبشير المتجهة إلى أفريقيا والساعية إلى تهذيب السود ! ولكن حركة التوسع الإسلامي استطاعت أن تنفذ إلى قلب أفريقيا منذ عام ١٨٥٠ – ١٩٠١ على أيدي مشايخ الطرق الصوفية ، وزاحمت البعثات التبشيرية وكسبت منها أرضاً كثيرة ، بالرغم من ضعف إمكانياتها المادية ونفوذها السياسي مما أزعج هذه البعثات ودفعها إلى تعزيز اعتماداتها ، وإلى تحريض الحكومات المختلفة على إيقاف خطوات التاجر المسلم ، والشيخ المسلم ، والحيلولة بينه وبين التحرك في قلب أفريقيا . وكانت أبرز الطرق العاملة في هذا المجال (السنوسية ، والمهدوية ، والقادرية ، والشاذلية ، والتيجانية) . ومما يذكر في هذا الصدد أن حركة التبشير قد اهتمت اهتماماً كبيراً باحتلال الجيش الفرنسي لمقاطعة (واداى) الأفريقية ، ونوه بذلك مؤتمر عام ١٩١١ في لكنو (الهند الإسلامية) . وقال : إنه أهم حادث سياسي في هذا العصر : (لأن واداى كانت أهم مركز في أفريقية للاتجار بالرقيق وانتشار الإسلام) . (وأن احتلال واداى سيقلل

من نفوذ مشايخ الزوايا السنوسية بحيث لا يستطيعون الوقوف فى طريق تقدم الاستعمار .

وقد رافق التبشير نفوذ الاستعمار ووجد الطريق أمامه معبداً للعمل . غير أن المبشرين لم يجدوا أمامهم نفوساً مستعدة لتقبل دعوتهم بالرغم من المال والنفوذ . وقد أشاروا إلى ذلك فى مختلف مؤتمراتهم . وقال زويمر وهو يستعرض حالة الاستعمار فى أفريقيا عام ١٩١١ : (أن الموقف صار حرجاً لسرعة تقدم الإسلام من مركزه الواسع فى الشمال . ومعاقله التى فى السواحل إلى الجنوب والغرب الأفريقى . وأشار إلى أن : (المبشرين قد أخطأوا فى تقديراتهم السابقة) . (لأنه تبين لهم فيما بعد أن بعض البلاد التى كانوا يحسبونها خالية من الأديان المعروفة قد ظهر أنها : إما إسلامية محضة . أو أنها على أهبة الدخول فى الإسلام) . وقد تناولت لجان المؤتمر التبشيرى البحث فى الأمور التى تمهد السبيل لبعثات التبشير ... جمعيات التبشير إلى توسيع نطاق التعليم الذى يشرف المبشرون عليه) .

* * *

وقد اعترف (رولف إيتاليانذر) فى كتابه (أفريقيا الجديدة) بخطأ السياسة التى اتبعتها الدول الأوربية فى فرض التبشير على هذه المناطق وقال :

(لقد اعتدنا على اعتبار ديننا هو المثل الأعلى للقيم الروحية دون أن نحاول تفهم ما فى الأديان الأخرى من فضائل . وساقنا الغرور إلى محاولة فرض المسيحية على كثير من الشعوب الأفريقية المسلمة عن طريق سياسة تبشيرية حمقاء . كان التبشير يسير فيها مع الاستعمار فى ركاب واحد . لقد تدخل المبشرون فى السياسة بشكل مباشر وأصبحت مهمتهم هى تخدير الأفريقيين ، واتخاذ نشر الدين ذريعة لمد السيطرة الاستعمارية عليهم وإبقائهم خدماً إن لم تقل عبيداً للرجل الأبيض . أترانا نعجب إذا رأينا الأفريقيين يسعون فى أول عهدهم بالاستقلال إلى طرد هؤلاء المبشرين الذين لا يمثلون إلا ظلم الاستعمار وطغيانه ، أما المسيحية فإنها منهم بريئة) .

وتدل التقارير الواردة فى السنوات الأخيرة على أن أفريقيا اليوم ميدان واسع للتبشير الصريح الواضح . غير أن الإسلام ما زال بالرغم من ذلك

النفوذ الخطير للإرساليات التبشيرية بجذب الوثنيين إليه لأسباب مختلفة أهمها بساطته . وبعده عن التعقيد . ودعوته إلى الحرية . وما زالت الإرساليات التبشيرية منقسمة على نفسها تتصارع وتتنافس . مما يفقدهم ثقة من يدعونه إليهم . فضلا عن ارتباط البعثات التبشيرية بالنفوذ الاستعماري الذي ينفر منه الوطنيون ويحاربونه .

٦ – في الهنـــد

ركز النفوذ الاستعماري البريطاني على الهند وأفسح البعثات التبشيرية فيها منطلقاً واسعاً . فقد وفد المبشرون إلى الهند قبل وصول بريطانيا . وفي ظل النفوذ البريطاني المتزايد ، أنشأ المبشرون في مختلف بلاد الهند المدارس والكليات والمستشفيات . وأسسوا مراكز التبشير . وترجموا التوراة إلى معظم لغات الهند . ووزعوا منها الملايين من النسخ . وقد نجحوا في اجتذاب بعض الهندوس والمنبوذين الذين ركز المبشرون عليهم . وفشلت محاولات التبشير بين المسلمين . ولكنها استطاعت أن تؤثر في مفاهيم التعليم وبرامجه . وأن تخلق بعض المدافعين عن مفاهيم الغرب المضللة والمنحرفة . والتي تحاول أن تغرس في الأجيال المختلفة أن الإسلام دين عبادة فقط . لا دين حكم . وحياة . ونظام مجتمع . ومن هنا برزت الدعوات التي نادت بإلغاء الجهاد الإسلامي أو تأويله .

وقد أشارت تقارير المبشرين في مؤتمراتهم المختلفة إلى الجهود الضخمة التي توالى بذلها . وكيف أنهم فتحوا في (لاهور) باب الجدل في مسائل التوحيد والتثليث . وكيف عارضهم المسلمون ، وكيف نشروا عدداً من الكتب التي يحاولون بها تأييد دعواهم . ومنها : (ميزان الحق . طريق الحياة . مفتاح الأسرار) ولم يتوقف دعاة التبشير عن إثارة المجادلات الشديدة مع علماء المسلمين في دلهي وأكرا . ولكن كما تناول المبشرون بالدراسة الدور الذي قامت به حركة الإصلاح في الهند . والدور الذي قام به (أحمد خان) وما تبذله كلية عليكره وجمعية العلماء في لكنو .

وقد أشار المرحوم العلامة (عبد العزيز الثعالبي) إلى التبشير في الهند في تقريره عن المسلمين الذي كتبه عقب زيارته لها عام ١٩٣٦ م فقال :

إن عدد الإرساليات التبشيرية بها بلغ ٣٧٧ إرسالية . بالإضافة إلى ٥٠ كلية ، و ٣١٨ مدرسة ثانوية . و ٧٨ مدرسة اجتماعية ، و ٦٥ مدرسة زراعية ، و ١١ مدرسة للمبشرين . و ١٠ مدارس لتخريج معلمين . و ١٧٠ صحيفة وجريدة ونشرة . وقال : إن النفقات السنوية للإرساليات بلغت ٢٢٧،٣٣١ مليون روبية . والمعروف أن المسلمين واجهوا حركة التبشير بالمقاومة الشديدة . فأكثروا من المدارس القرآنية ، وإن كان الاستعمار البريطاني مساعدة منه للمبشرين عمد إلى التضييق على هذه المدارس .

كما واجه المسلمون الحركة التي تزعمها (مالويه – غاندى – سردانتك) بالمعارضة الشديدة ، وردوا بعنف على الحملات التي وجهت إلى دينهم والطعون التي تناولت الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم .

وكان للشهيد القاضي عبد الرشيد دوراً ضخماً في الانتقام من رجال جمعية سانغين . التي كانت تعمل لهدم الإسلام تحت ستار الثقافة والتبشير .

٧ – في آسيا الإسلامية

بدأت البعثات التبشيرية تقتحم آسيا الإسلامية قبل أوائل القرن التاسع عشر . حيث نفذت إلى الهند وفارس ، والأناضول والآستانة التي صارت منذ عام ١٨٤٦ مركزاً عاماً آمناً لأعمال المبشرين ، وفي الملايو توزعت البعثات التبشيرية . وشغلت مختلف الأنحاء ، وأولت هذه البعثات اهتمامها للساحل الشرقي من الجزيرة إلى جاوة وسومطرا ، وفي مختلف المدن حيث بدأت بعثات التبشير عام ١٨١٣ ، انتشر المبشرون والأطباء التابعون لهم وركزت اهتمامها للرجل الشرقي من الجزيرة وإلى جاوة وسومطرا .

٨ – في الجزيرة العربية

أولت حركت التبشير الجزيرة العربية باهتمامها الواسع جرياً على ما قاله وليم جيفورد بالكراف : (متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب ، حينئذ نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه)

ولذلك فقد ركز التبشير على الجزيرة العربية وطمع في الوصول إلى مختلف أجزائها ، وقد استغل وجوده في البحرين وفي عدن لهذا العمل ، كما

وصلت بعثاته إلى بلدتى البصرة والشيخ عثمان.وقد اتخذ المبشرون فى جزيرة العرب مراكز تمهد لهم سبيل التوغل فى داخل الجزيرة . وتعمل كل الإرساليات على اختلاف نزعاتها وأشكالها ، ومعاهدها الطبية والتعليمية . فى سبيل الهدف المحدد . وقد عمد المبشرون إلى الانبثاث فى هذه المناطق . ومعهم الفانوس السحرى يجمعون الناس كل مساء حول قصص تبشيرية مستمدة من التوراة ، وتضم صوراً لعظمة أوربا وارتقائها ، وانحطاط الممالك الإسلامية فضلا عن توزيع المؤلفات التبشيرية مجاناً فى كل مكان .

وقد أذاعت بعثات التبشير نداء حاراً عام ١٩٢٧ إلى مراكزها فى أوربا تدعوهم إلى إرسال مبشرين إلى بلاد العرب . ويقول هذا النداء الذى أعلنه القس باركلين : (إن بلاد العرب تبلغ مساحتها مليون ميل مربع لم يدخلها التبشير بعد . وفيها من السكان أربع ملايين إلى اثنى عشر مليوناً . وبلاد العرب هى مهد الإسلام ومنبعه . وفيها مكة التى هى القبلة لملايين المسلمين يتوجهون نحوها كل صلاة ، إن الحاجة شديدة الآن إلى مائة مبشر يذهبون إلى بلاد العرب المهملة التى لم تبلغها الدعوة بعد . هناك نحو مائة قبيلة فى بلاد العرب يمكن تبليغهم الدعوة وهم يسكنون بلاداً مساحتها ثلث مساحة الهند . وهم يعيشون فى الخيام . اذهب بنفسك إلى بلاد العرب . ارسل غيرك أيضاً . احمل الكتاب إلى بلاد العرب . ادع العرب وبلاد العرب إلى ديانتك) .

(الجمعية العالمية الصليبية للتنصير فى العالم وبلاد العرب) ـ ١٩ اهيكندر رود ـ ارونورود (لندن)(١) .

٩ ـ فى إيران

منذ وقت بعيد عمد التبشير إلى العمل فى المملكة الفارسية (إيران) وكان التعليم التبشيرى هو أبرز هذه المعالم ، فقد أنشأت الإرساليات مدارسها عام ١٨٨٢ فى مختلف مدن إيران : طهران ، ميناء بهلوى ، كرما شاه ،

---

(١) عن مجلة الفتح (٥ مايو ١٩٢٧) .

تبريز ، همدان . وقد تم لهم شراء أراضى شاسعة خارج مدينة طهران جرى العمل فيها على إنشاء كلية ضخمة افتتحت عام ١٩٢٨ ، ودخلها ثمانمائة طالب . وقد عمد المبشرون منذ عام ١٨٩٢ إلى إنشاء جمعيات وإرساليات ومستشفيات . واستطاعوا عن طريقها توسيع نطاق عملهم فى الطبقات الفقيرة . وإثارة المناقشات الدينية .

١٠ – فى العـــراق

تنافست بعثات التبشير الكاثوليكية والبروتستانتية منذ وقت بعيد . غير أنه فى الربع الأول من القرن التاسع عشر بدأت الحركة التبشيرية تعمل من جديد . وكان بطل العمل (جروفر)(١) . أول مبشر يصل العراق — عام ١٨٢٩ ، وقد عمد إلى ما عمد إليه (زويمر) فى البحرين من بعد بفتح مدرسة ومكتبة . ثم توالت البعثات البريطانية ، وكانت بريطانيا تهدف من هذا التركيز التبشيرى فى هذه المرحلة إلى إقامة جبهة مواجهة لجبهة الوحدة التى قامت بين مصر ، وسوريا ، والسودان ، وشبه الجزيرة العربية فى عهد محمد على . وكان هدفها قطع الصلة بين العراقيين والمصريين ، وكان للعمل التبشيرى فى العراق دوره فى تقويض هذه الوحدة وهدمها . واستغلت هذه البعثات جماعات النساطرة للإيقاع بينهم وبين المسلمين والعرب ، وإيجاد فتن ومذابح دموية على نفس النسق التى اتخذه النفوذ الاستعمارى فى لبنان بين الدروز والموارنة عام ١٨٦٠ ، وبه استطاع أن يدعم وجوده فى المشرق كله .

ومعنى هذا أن الإنجليز استخدموا التبشير فى هذه الفترة كقاعدة لمقاومة التوسع المصرى فى الشام وفى شبه الجزيرة العربية وفى العمل أيضاً على تمزيقه .

١١ – فى عـــدن

ما إن استولى الإنجليز عليها حتى اتخذ فيها المبشرون مراكز يرسلون منها نشراتهم التبشيرية إلى قلب بلاد العرب .

---

(١) راجع بحث الدكتور عبد العزيز نوار (الهلال يونية عام ١٩٦٥) .

١٢ – فى أندونيسيا

غزا التبشير البلاد منذ أربعمائة عام تقريباً ، وأعانتهم حكومة هولندا المسيطرة إذ ذاك على مقادير البلاد . وأفسحت لهم المجال لنشر التعليم عن طريق إرسالياتهم . وإن لم تتوقف أعمال التبشير الأخرى عن طريق المستشفيات والانقضاض على الطلاب والشباب . وقد واجه المسلمون أعمال المبشرين بإقامة الجمعيات الوطنية ، وإنشاء المدارس الأهلية ، والرد على الشبهات فى مجتمعاتهم وصحفهم بالرغم من نفوذ الاستعمار العاصف المؤيد للتبشير ، وقد أشار إلى ذلك الدكتور سنوك هرجرنجه زعيم التبشير الذى أقام سبعة عشر عاماً فى الهند الشرقية مستشاراً لحكومة هولندا حين قال فى تقريره :

(المبشرون لا يزالون يتوقعون انضمام كل الأديان إليهم . ولا تتحقق أحلامهم فيما يتعلق بالإسلام لأن الإسلام سيظل ديناً نشيطاً قوياً . والمسلمون لا يقصدون أن يغيروا دينهم ، وقد احتاطوا أعظم احتياط لهذا الأمر الذى أدركه كل المبشرين الذين عملوا فى أرض الإسلام . ففى الهند الشرقية الهولندية ، حيث قضيت سبع عشرة سنة ملتصقاً تمام الالتصاق بالمؤسسات الإسلامية . لا يستطيع المبشر الدينى أن يربح تابعين لدينه .

ولا أعتقد أبداً أن الإسلام يسقط أمام النصرانية ، لأن المسلم محتاط أشد الاحتياط لمقاومة النفوذ الغربى المسيحى ، وهو يرى أن النصرانية شىء مضى . وأن تدينه بها هو خطوة إلى الوراء . زد على ذلك أن الإسلام يربح تابعين له من الوثنيين ، فالذى يصير مسلماً لا يطلب منه شىء كثير ، إذ لا يوجد تقديس ولا طقوس دينية ولا تعليم طويل ، فكل ما يطلب منه أن يعترف بالله ، وعندما يصير مسلماً يتغير مركزه الاجتماعى ، ولكنه إذا تنصر فإنه يبقى دون غيره ، ويظل المرسل الدينى غريباً متنحياً عنه) .

ولكن هذه التصريحات الجزئية من المبشر (هرجرنجة) إنما تعنى التماس وسائل أخرى لتبشير المسلمين وتغيير مفاهيمهم وقيمتهم الأساسية ، وقد ركزت هذه الإرساليات على التعليم وحققت فى مجاله نتائج خطيرة ، كان أبرزها : ظهور زعامات دعت إلى الفصل بين الإسلام والمجتمع ،

وآمنت بمخطط الاستعمار الذى يقول : إن الإسلام دين روحى . ودين عبادة ، ولا صلة له بالمجتمع .

وما تزال مخططات التبشير تركز على إندونيسيا . وتمضى فى عملها بكل أسلوب . واليوم تكشف مجلة تايم الأمريكية عن أن إندونيسيا هى مسرح لأكبر حركة تبشيرية فى العصر الحديث . فى غضون الأشهر العشرين الأخيرة التى أعقبت حركة إندونيسيا الأخيرة . نشطت أعمال المبشرين . حتى بلغ الذين تخلوا عن دينهم الإسلام ٢٥٠ ألف نسمة(١) .

وقد كشفت التقارير المختلفة أن هناك تحالفاً لمحاربة الإسلام فى إندونيسيا بين الإلحاد والاستعمار . حيث يجرى العمل لهدم الإسلام فى نفوس المسلمين . وهو غرض مشترك فى تحالف القوى المختلفة المعادية للإسلام . وهم يرون أن تردى المسلمين إلى الإلحاد أو المادية هو كسب للعمل التبشيرى أيضاً . ومن هنا فهم يساندون الدعوات الإلحادية المادية فى هذا الغرض . ويقول أحد الباحثين الإندونيسيين :

(إننا لم نكد نشعر بفرحة انتصارنا على المادية الملحدة والتخلص من كابوسها . حتى نشطت الطوائف والإرساليات التبشيرية على اختلاف مذاهبها لمحاربة الإسلام . ونشر الفساد بين المسلمين . ورافق ذلك نشاط مريب من الدول التى تقلص نفوذها ، وبرز تحالف بين القوتين . حيث وجهت الإرساليات نداء إلى الدول بطلب المساعدات . فوصلت الإعانات السخية بالمراكب البحرية ، وطائرات الهليكوبتر لتساعدها على تأمين راحة المبشرين فى تجوالهم ونشاطهم بين مختلف المناطق . كما قدمت المطابع والكتب وغيرها . وقررت ألمانيا الغربية التبرع ببناء أربعين مستشفى بإندونيسيا تدار من قبل المؤسسات التبشيرية . وقد تمكنوا بواسطة هذه المساعدات من تحقيق نتائج خطيرة لم يسبق لها مثيل . وقد استطاعت الإرساليات أن تستميل أكثر من ربع مليون مسلم كاد الجوع والعرى والمرض أن يفتك بهم . وقد تمكنت المادية الملحدة مع التبشير فى تضييق الخناق على كثير من المناطق الإسلامية لتزيد فى إفقارهم وإرغامهم على الالتجاء إليهم

---

(١) مجلة العروى (تشرين أول عام ١٩٤٧) عن مجلة تايم .

والاستعانة بهم واتباعهم . ذلك إلى جانب نشر وسائل الفساد والانحلال الخلقى فى الشباب كمرحلة لاستدراجهم إلى شباكهم ومصائدهم .

ودعا الكاتب المسلمين إلى العمل على توحيد الهيئات الإسلامية والجمعيات الإسلامية فى العالم والعمل على قيام جامعة إسلامية تعيد للأمة الإسلامية كيانها وقوتها .

* * *

الفصل الرابع
مؤتمرات التبشير

عقدت حركة التبشير فى خلال الفترة التى سبقت الحرب العالمية الثانية عدداً من المؤتمرات الكبرى العلنية التى أشارت إليها الصحف . ونشرت التقارير التى تضمنت ما دار فيها من دراسات وأبحاث . ومن أهم هذه المؤتمرات :

١ – مؤتمر عام ١٩٠٦ فى القاهرة عقد فى منزل أحمد عرابى فى باب اللوق.

٢ – مؤتمر عام ١٩١٠ فى أدنبرج (إنجلترا) .

٣ – مؤتمر عام ١٩١١ فى بيروت .

٤ – مؤتمر عام ١٩١٣ فى لكنو (الهند) .

٥ – مؤتمرات عام ١٩٢٤ فى القدس ، وبرمانا (لبنان) . وقسطنطينة فى الجزائر ، وحلوان فى مصر .

٦ – مؤتمر عام ١٩٢٨ فى القدس .

٧ – مؤتمر عام ١٩٣١ فى تونس (المؤتمر الأفخارستى) .

٨ – مؤتمر عام ١٩٢٥ فى القدس .

وفى مؤتمر القاهرة عام ١٩٠٦ ألقى عميد المبشرين زويمر رئيس إرسالية التبشير العربية فى البحرين تقريراً إضافياً يمكن الرجوع إليه فى كتاب : (الغارة على العالم الإسلامى) الذى أصدره السيد محب الدين الخطيب عام ١٩٣١ . ونشر فى المؤيد عام ١٩١١ وهذا هو المؤتمر الأول الذى عقد بناء على اقتراح مقدم من زويمر ، وقد افتتح المؤتمر فى ٤ أبريل عام ١٩٠٦ فى القاهرة فى منزل أحمد عرابى فى باب اللوق . وحضره مندوبون من إرساليات التبشير فى الهند ، وسوريا ، والبلاد العثمانية . وفارس ، وقد

عقدت المؤتمرات التبشيرية فى مناطق حساسة من العالم الإسلامى كالقاهرة والقدس(١) (التى عقدت بها ثلاث مؤتمرات) وكذلك فى لكنو معقل الثقافة الإسلامية فى الهند. كما كان مؤتمر تونس من أخطر هذه المؤتمرات. وقد تناولت هذه المؤتمرات بالدرس حالة المسلمين، وإحصائيات عن تعدادهم وانتشارهم. وعن حالة العالم الإسلامى السياسية. وخاصة فى العالم العربى وإفريقيا. وتضمنت توصيات وتوجيهات.

وقد رأس هذه المؤتمرات عديد من كبار الساسة، وحضرها كثير من المبشرين أمثال: موريسون. وواطسون. وجوبين، وموط، وعدد من المستشرقين. والكتاب الغربيين ذوى الأسماء اللامعة. وقد بلغ عدد الهيئات التى اشتركت فى كل مؤتمر أكثر من مائة من أربعين دولة. وقد وقعت فى هذه المؤتمرات حوادث هامة على مدى خطورتها. ففى تونس اقتحم الآباء البيض المدينة فى استعراض أثار مشاعر المسلمين، وقد دفعت خزينة تونس التابعة للنفوذ الاستعمارى الفرنسى مليون فرنك مساهمة منها فى تكاليف المؤتمر، كما وضعت الأسرة فى المساجد ليرقد عليها الرهبان الذين جاءوا من أطراف الأرض. وقد واجه المسلمون والعرب هذه المؤتمرات بالاعتراض والاحتجاج. وحفلت الصحف ببرقيات الرفض وخاصة فى مؤتمر القدس سنة ١٩٢٨.

وقد كان للمؤتمرات التى عقدت بعد الحرب العالمية أهمية خاصة. فقد استعرضت الوسائل التى تحقق غاياتها فى ظل حكومات الانتداب بعد سقوط الدولة العثمانية. أما مؤتمر سنة ١٩٢٩. فقد كانت له أهمية خاصة إذ أنه جاء بعد توقيع معاهدة لتران بين الدولة الإيطالية والفاتيكان (٧٥٠ مليون ليرة) وما أعلن عن دعم هيئات التبشير بقدر كبير من المبالغ التى حصل عليها الفاتيكان وصدر فى نفس الوقت (الظهير البربرى) فى المغرب وهو المرسوم الخاص بإخراج القبائل البربرية من حظيرة الشريعة الإسلامية، وردها إلى ما سمى (العرف البربرى).

---

(١) التركيز على فلسطين كان معروفاً من تنافس البعثات التبشيرية مع قوى الاستعمار الصهيونية، وهو ما سمى إعداد الفريسة للالتهام وقد تحقق ذلك اليوم تماماً.

وقد كانت هذه المؤتمرات تحاول أن تكشف الطريق للهيئات التبشيرية مرحلة بعد مرحلة ، حتى أنهم أطلقوا على حملتهم (فتح العالم الإسلامى) فى وجه الثقافة الغربية المسيحية ، بحسبانه أصبح عالماً ممزقاً مغلوباً على أمره تسيطر عليه حكومات الانتداب ، وحكومات لها ولاية للنفوذ الاستعمارى وفى ظل الاحتلال الفرنسى والبريطانى والهولندى لأغلب أجزاء العالم الإسلامى.

وقد أولت هذه المؤتمرات دراسات واسعة لعملها فى المجالات الثلاث :

١ — المدرسة .

٢ — المستشفى .

٣ — الصحيفة والكتاب .

وكانت دائماً تغير أساليبها بما يحقق الغاية وفق ما تسفر عنه المرحلة السابقة ، وكانت هذه المؤتمرات تذكر دائماً بما فى أيديها من قوى :

أولا : معاهدة فرساى التى نصت فى المادة ٤٣٨ على جواز التبشير فى سورية .

ثانياً : الامتيازات الأجنبية فى الدولة العثمانية ومصر .

ثالثاً : الوضع الخاص الذى فرضه النفوذ الأجنبى على لبنان منذ عام ١٨٦٠ وقد وصلت هذه المؤتمرات إلى خطط محددة أهمها :

إن التعليم هو أنجح الخطط فى تحقيق الأهداف . وذلك بوضع الشباب المسلم العربى تحت تأثير التعليم (الغربى المسيحى) ، وأن يشمل هذا التأثير أولئك الذين سيصبحون يوماً قادة فى دولهم . كما أولت هذه المؤتمرات اهتمامها بالتوصيات التى أرسلت إليها من وزارات المستعمرات فى الغرب ، كما تضمنت التوصيات إلى الدول المستعمرة ، ومن أهم هذه الرغبات ما طلبته إحدى المؤتمرات من إغلاق البلاد الإفريقية أمام التاجر المسلم ، والعالم المسلم المتنقل فى البلاد ، أو أداء الصلاة الإسلامية أمام الوثنيين .

كما اهتمت بدراسة المطبوعات اللازمة للتبشير ، وترجمات التوراة وتوزيعها بين المسلمين ، وإنشاء المعاهد اللازمة لتخريج المبشرين ،

والإضافات اللازمة للمناهج التي تدرس في المعاهد والجامعات التابعة – للإرساليات التبشيرية . ووضع الخطط للقضاء على كل مقاومة أو مناعة في مواجهة حركتهم .

كما عمدت هذه المؤتمرات إلى دعم المخططات الأخرى الفرعية وفي مقدمتها :

١ – دعوات الفرعونية في مصر . والبربرية في المغرب ، والبحر المتوسط في سوريا ، والفينيقية في لبنان .

٢ – تنشيط دعوات القاديانية والبهائية .

٣ – الانتفاع بنشاط المحافل الماسونية .

٤ – الانتفاع بالصحف والأندية والجمعيات .

وفي هذه المؤتمرات دائماً دعوة إلى الصبر والتحمل والمثابرة على العمل مهما بدت النتائج غير مستحقة . وقد أجمعت معظم التقارير التي درست في هذه المؤتمرات على صعوبة تحويل المسلم من معتقده إلى دين آخر ، وأن معظم ما حققته بعثات التبشير إنما حدث اعتماداً على ضعف بعض المسلمين وليس على قوة المبشرين ، وقد أولت هذه المؤتمرات اهتمامها بالخطوات التي تحققت بالدعوة إلى العامية التي قام بها ولكوكس ، وبالآراء التي عرضها طه حسين في كتابه الشعر الجاهلي والمأخوذة من آراء المبشر جورج سال ؛ وبما تحقق من استعلاء النظرة الإقليمية على النظرة الإسلامية ، فأصبح المسلم في مصر مصرياً قبل أن يكون مسلماً ، وفي تركيا تركياً قبل أن يكون مسلماً ؛ قد أشار (زويمر) في كتابه (الإسلام . ماضيه . حاضره . مستقبله) إلى أهمية الانتفاع بالدعوة إلى القومية والإقليمية .

كما اهتمت المؤتمرات بنهضة الإسلام ، عن طريق إصلاح الطرق الصوفية وتجدد مناهج الإسلام ، وعن اتساع انتشار الإسلام في إفريقيا ، ودعا إلى اتخاذ الخطوات في سبيل إفساد هذه الخطط الإصلاحية .

وركزت هذه المؤتمرات على أهمية العمل للحيلولة دون حدوث (وحدة)

بين المسلمين أو بين العرب . وإيجاد الوسائل حتى يبقى المسلمون متفرقين وحتى لا يكون لهم وزن ولا تأثير ، وعندها أن تجمع العرب يسا عدهم على التخلص من السيطرة الأوربية ، ولذلك فإن على المؤسسات التبشيرية أن تكسر شوكة هذه الحركة . كما دعت هذه المؤتمرات فى توصياتها إلى الاهتمام بالأزهر ، وقد قرر المبشرون فى أحد هذه المؤتمرات : أن الأزهر يعتبر أهم عائق فى وجه التبشير . وبالتالى فى وجه الاستعمار فى مصر والعالم الإسلامى ، ولذلك فلا بد من إيجاد مؤسسة علمية ثابتة يبثون منها أفكارهم ، ويطبعون جيلا من المسلمين بطابعهم ، حتى يقف هذا الجيل أمام الثقافة الإسلامية ويشكك فيها ، وقد تحقق ذلك بإنشاء بعض الجامعات التابعة للإرساليات التبشيرية .

وقد شملت تقارير مؤتمرات التبشير خطوطاً عامة أهمها :

١ — التصور بأن اقتباس المسلمين للأوضاع الأوربية الجديدة سيحملهم إلى الانطباع بالطابع الغربى المسيحى . من حيث أن الثقافة الغربية لها طابعها المسيحى ، وأن توسع هذا الجانب سيضيق الجانب الإسلامى . وفى هذا يقول زويمر : (إن المسلمين يقتبسون من حيث لا يشعرون شطراً من المدنية النصرانية ويدخلونه فى ارتقائهم الاجتماعى) ويترتب على هذا أن التحول سيدخل الإسلام فى شكل جديد من الحياة والعقيدة ، ويرى أن طلب العلوم يكون الآن (عقلية جديدة) فى المسلمين . من مظاهرها قيام الثورة ضد كل ما هو مأثور قديم ، ويرتبون على ذلك أن يزداد المسلمون قابلية للإلحاد . ويقول : (إن هدم الإسلام فى نفوس المسلمين له أهمية كبرى فى شيء واحد هو قبول الفكر الغربى كصديق دولى) .

٢ — الاهتمام بعوامل نمو الإسلام ومحاولة إيقافها . ورد هذا النص : (إن الوقوف على أسباب نمو الإسلام يمهد للحصول على وسائل توقيف تياره)

كما ركزت تقارير التبشير على أن إلغاء الخلافة كان له أثر عميق ليس فى تركيا ، بل فى جميع أنحاء العالم الإسلامى قوامه (انحلال الرابطة الاجتماعية فى الإسلام) .

٣ – ركز المبشرون على ما أسموه (الانقلاب النسائى) ومن ثماره العدول عن الزواج الباكر . والتوسع فى حرية المرأة بحيث صار فى وسعها حضور الحفلات .

٤ – الاهتمام بالدعوات الإقليمية ، وقال عنها : إنها أخذت تدحر الوحدة الإسلامية .

٥ – التركيز على كل ما يؤدى إلى تعدد وجهات النظر . ومما يحول دون قيام وحدة فكرية بين المسلمين ، وتشير التقارير إلى الخلاف بين السنة . والشيعة . والأتراك . والهند ، والفرس ، والعرب .

وإذا كانت تقارير المبشرين قد هللت لهذه المحاولات ، فإننا نستطيع أن نقول الآن : إنها جميعها باءت بالفشل . وأن المسلمين أصبحوا على وعى بحقيقة الإسلام وفهمهم الصحيح له اليوم من أنه : دين ، ونظام ، حياة ، وأنه أصلح الأنظمة لقيام مجتمعاتهم بعد أن فشلت الأنظمة الأخرى فى بلادها . ولم تحقق لأهلها ما كانوا يتطلعون إليه ، وقد أصبح فى استطاعة المسلمين اليوم التفرقة بين العلم والثقافة ، وبين الحضارة والثقافة . وقد جرت أقلام كتابهم فى السنوات الأخيرة بتصوير الفوارق والعلائق مما يدحض ما ذهب إليه زويمر . وطه حسين ، وأحمد أغايف ، وما كان يستهدفه النفوذ الاستعمارى من أن دخول الأفكار الغربية يؤدى إلى القضاء على مفهوم الإسلام ومقوماته الأساسية ، فالمسلم الآن يأخذ تجارب أوربا وعلوما ، ولكنه لاينفصل عن الإسلام ، وأصبح المسلمون الآن يجارون من الحضارة ما يمكنهم من الاحتفاظ بمبادئ القرآن وتعاليمه ، وإن القصور فى هذا المجال لا يرجع إلى أنهم لا يريدونه ، بل لأن قوى النفوذ الأجنبى والتغريب ما تزال تحول بينهم وبين ذلك ، والتشريع الإسلامى قد شهدت له محافل القانون العالمى جميعاً ، واعترفت باستقلاله واكتماله . وإيجابيته وصلاحيته للإنسانية كلها ؛ ووحدة المسلمين اليوم تسير فى طريق مضىء . ولعل أكبر ما حققته أنها كشفت خدعة المستعمر ومؤامراته فى تأريث نار الخلاف بين المسلمين ، وإثارة المذاهب والآراء القديمة لتمزيق وحدتهم . لقد حدث تقارب كبير بين السنة والشيعة . وبين العرب والترك . والفرس والهنود . فى عشرات من المؤتمرات الإسلامية

الكبرى ، وستحقق خطوات أخرى أكثر صلابة مما يقضى على آمال النفوذ الاستعمارى فى استدامة تسلطه . وتعود اليوم مناهج الدراسة فى مختلف بلاد العالم الإسلامى إلى مادة الدين ، بعد أن انتزعها منها زعماء التبشير والاستعمار وهللوا بأنهم كونوا أجيالا مجردة من إيمانها . وسوف لا يقف أمرها عند هذا الحد بل إنها سوف تجد نفسها مضطرة إزاء هذا الضعف الاستعمارى الهائل إلى التماس مفهوم التربية الإسلامية فى بناء شبابها وفتياتها .

ولم تعد الدعوات الإقليمية اليوم قادرة على تحقيق أهداف التبشير والاستعمار منها ، فقد اتضح أن الفراعنة عرب ، والبربر عرب ، والفينيقيون عرب ؛ هذا من ناحية ، وبدأت (وحدة الفكر) تكون (الأساس) لأى وحدة سياسية واقتصادية ، ووحدة الفكر عند العرب مستمدة من ثقافتهم ذات الجذور الإسلامية بحسبان أن الفكر الإسلامى هو القاسم المشترك الأعظم للثقافات العربية ، والفارسية والتركية والهندية ، وأن الثقافات الدينية والفلسفات المختلفة قد انصهرت فيه ، فهو أساساً فكر الشرق كله . أقول هذا واستشهد فى هذا بآراء غير المسلمين(١) قبل أن استشهد بآراء المسلمين أنفسهم .

* * *

(١) راجع ما كتبه كثير من مسيحيو لبنان وكتابه المنصفون .

الفصل الخامس

أخطر تحول في تاريخ التبشير

قال الدكتور زويمر سنة ١٩١٠ :

لقد جربت الدعوة إلى النصرانية في أنحاء الكرة من الوطن الإسلامي ، وأن تجاربي تخولني أن أعلن بينكم على رؤوس الأشهاد أن الطريقة التي سرنا عليها إلى الآن لا توصلنا إلى الغاية التي ننشدها . فقد صرفنا من الوقت شيئاً كثيراً وأنفقنا من الذهب قناطير مقنطرة . وألفنا ما استطعنا أن نؤلف ، وخطبنا ما شاء الله أن نخطب . ومع ذلك فإننا لم ننقل من الإسلام إلى النصرانية إلا عاشقاً بنى دينه الجديد على أساس الهوى . أو نصاباً سافلا لم يكن داخلا في دينه من قبل ، حتى نعده قد خرج عنه بعد ذلك ، ولا محل لدينا في قلبه حتى نقول : إنه دخل فيه .

ومع ذلك فالذين تنصروا لو بيعوا بالمزاد لا يساوون ثمن أحذيتهم ، فالذي نحاوله من نقل المسلمين إلى النصرانية هو اللعب أشبه منه بالجد ، فلتكن عندنا الشجاعة الكافية لإعلان أن هذه المحاولة قد فشلت وأفلست . وعندئذ يجب علينا قبل أن نبني النصرانية في قلوب المسلمين أن نهدم الإسلام من نفوسهم . حتى إذا أصبحوا غير مسلمين سهل علينا أو على من يأتي بعدنا أن يبنوا النصرانية في نفوسهم أو في نفوس من يتربون على أيديهم . إن عملية الهدم أسهل من عملية البناء في كل شيء إلا في موضوعنا . لأن هدم الإسلام في نفس المسلم معناه هدم الدين على العموم . وهي خطة مخالفة لما ندعو إليه لأنها خطة إلحاد وإنكار الأديان جميعاً . ولكن لا سبيل إلى تخليص المسلمين من الإسلام غير هذا السبيل .

وقال الدكتور زويمر في مؤتمر سنة ١٩٢٧ : إن التبشير قد وصل إلى أسمى غاية في مهاجمة الإسلام . وأدى المهمة على أكملها . وانتهى إلى نتائج لم يكن أحد يحلم بها منذ الحروب الصليبية .

ليس عمل(١) التبشير إزاء الإسلام هو إخراج المسلمين من دينهم ليكونوا مسيحيين ، لقد برهن التاريخ من أبعد أزمنته على أن المسلم لا يمكن أن يكون مسيحياً مطلقاً ، والتجارب دلتنا ودلت رجال السياسة المسيحيين على استحالة ذلك . ولكن الغاية التى نرمى إليها هو إخراج المسلمين من الإسلام فقط ليكون إما ملحداً أو مضطرباً فى دينه ، وعندها لا يكون مسلماً أى لا يكون له عقيدة يدين بها ويسترشد ضميره بهديها ، وعندها لا يكون للمسلم من الإسلام إلا الاسم . عندها لا يكون مسيحياً ولا يهودياً ، ملحداً لا يؤمن إلا بالمادة أو مضطرباً يحتقر الإسلام والمسلمين ، لقد قضينا على برامج التعليم فى الأقطار الإسلامية . فأخرجنا منها القرآن وتاريخ الإسلام . ومن ثم أخرجنا الشباب والفتاة المسلمين من الوسائط التى تخلق فيهما العقيدة ، والوطنية ، والإخلاص ، والرجولة ، والدفاع عن الحق . الواقع أن القضاء على الإسلام فى مدارس المسلمين هو أكبر واسطة للتبشير وقد جنينا منه أعظم الثمرات المرجوة .

أكبر خطوة للتبشير فى العصر الحديث (معاهدة لتران)

غير أن أكبر خطوة حقيقية فى سبيل اتساع نطاق التبشير بعد الحرب العالمية الأولى تفسر ذلك الدعم المادى الخطير . الذى واجهته إرساليات التبشير المختلفة فى العالم الإسلامى وارتفاع المد التبشيرى ، وبلوغه الذروة إنما ترجع إلى معاهدة (لتران) الذى عقدتها الحكومة الإيطالية مع الفاتيكان . والمعروف أن خطوات التبشير فى العالم الإسلامى قد تلاحقت منذ مطالع القرن الثامن عشر ، غير أن خطواتها الضخمة قد تمت فى فترة ما بين الحربين هذه الفترة التى يطلق عليها فترة (إنضاج الثمار) التى سيكون لها الصدارة فى مجالات القيادات السياسية والثقافية فى العالم الإسلامى كله . ولذلك فقد حرص الاستعمار أن يبقى فى هذه المرحلة حارساً لهذه المؤسسات ومدعماً لها . حتى تتم مهمتها وتركز أقدامها بحيث يصبح من المستحيل بعد ذلك إجلاءها عن قواعدها .

---

(١) الفتح - (١٢ / ٤ / ١٩٢٨) .

أما معاهدة (لتران) التى عقدت بين الفاتيكان والدولة الإيطالية ، فقد حققت أن تستولى الفاتيكان بمقتضاها من الحكومة الإيطالية على ٧٥٠ مليون ليرة إيطالية كتعويض عن حقوقها المالية التى توقفت منذ عام ١٨٧١ ، عندما وقع الخلاف بينهما وكذلك على ربح قدره خمسة فى المائة لقرض اسمى قدره ثلاثة مليارات ليرة تصدره الحكومة الإيطالية .

وقد صرح الكردينال جسبارى كبير البطارقة : أن الفاتيكان تعتزم أن تستخدم القسم الأكبر من هذا المال فى تقوية نفوذ الكنيسة المعنوى ، وبث الدعوة الكاثوليكية ، وتقوية البعثات التبشيرية فى المشرق وإفريقيا . وقد أولت الصحف اهتماماً كبيراً بعقد هذه المعاهدة فى ١٠ فبراير عام ١٩٢٩ فقالت : إنها تحل مشكلة دولية لبثت مدى ثلثى قرن تشغل رجال الدين ورجال السياسة ، فضلا عن كونها تنظم علائق الكنيسة والدولة على قواعد جديدة تعيد إلى الكنيسة الرومانية دولتها السياسية القديمة ، وتعيد إليها شيئاً من سلطتها الزمنية)(١) .

وقالت مجلة الرابطة الشرقية : إن تقوية البعثات التبشيرية فى المشرق وإفريقيا فى مقدمة المسائل التى تعمل الفاتيكان على تنفيذها ، إذن فلن تمضى شهور قلائل حتى نرى غزوة جديدة للكنيسة الرومانية ، تنفذ بالدعوة النصرانية إلى الأمم الآسيوية والإفريقية ، وحتى نرى طائفة جديدة من الجمعيات التبشيرية تقوم فى هذه الأمم تحت ستارها المعهود ، وهو حجاب الأعمال الخيرية من حيث التعليم والثقافة ، وإنشاء المستشفيات ، ونرى الحكومة الفرنسية تبذل مجهوداً خطراً لتقوية البعثات التبشيرية ، فمنذ أيام صادق مجلس النواب الفرنسى على التعديل الجديد الذى أدخل فى قانون القروض المالية بالاعتراف بالبعثات الدينية خارج فرنسا ، وتنظم ملكيتها ومعاونتها المالية لتستطيع القيام بمهمتها ، ومعروف أن فرنسا كانت قد أنكرت صفة البعثات الدينية منذ عام ١٩٠١ واستبدلتها ببعثات مدنية ، ولكنها تعود اليوم فتعترف بطائفة من الجمعيات الدينية يعينها القانون الجديد ،

---

(١) مجلة الرابطة الشرقية (١٥ أبريل سنة ١٩٢٩) .

وهى تسعة طوائف كبيرة منها اثنتان للراهبات ، وسبعة للرهبان ، وهى تقوم بجهودها التبشيرية فى الأغلب فى إفريقيا وبلاد الشرق ، وخصوصاً مراكش ، ومصر ، وفلسطين ، وسوريا ، والصين ، واليابان ، ومنها طائفة الفرنسيسكان الشهيرة ، وطائفة القلب المقدس وغيرها وهى تعمل لغايتها فى مصر جهاراً بين جدران مدارسها ومعاهدها المختلفة المنبثة فى أقاصى البلاد . ومن الغريب أن الحكومة الفرنسية تعترف بهذه الجمعيات فيما يتعلق بعملها خارج فرنسا فقط ، ولا تسمح لها بمزاولة دعوتها فى فرنسا ذاتها لأنها لا تسلم بنظم التعليم الدينية وهذا ما يصرح به التقرير الذى وضعته اللجنة المالية لمجلس النواب ، فقد ورد فيه (أن الجهود التبشيرية التى تبذلها فرنسا فى الشرق وإفريقيا قد اضمحلت كثيراً ، وأن البعثات أخفقت فى مهمتها ، لأنها لا تضم سوى عشرة آلاف طالب وطالبة ، بينما تضم مدارس البعثات الدينية فى الشرق ٣٠٠ ألف ، وفى إفريقيا وحدها ٢٠٠ ألف ، وقال المسيو هيرو مقرر اللجنة فى خطابه أمام مجلس النواب : (إن الجمعيات الدينية قد أدت إلى الحضارة والتعليم ، ونشر اللغة الفرنسية والروح الفرنسى من الخدمات مالا ينكره كل من يعرف أحوال البلاد التى تعمل فيها) .

والواقع أننا — وهذه الجماعات الدينية تعمل بيننا وتحت سمعنا وأبصارنا — نعرف ما هى الجهود والخدمات التى تصاغ دائماً فى أثواب الألفاظ الخلابة ، كالمدنية ، والثقافة ، والتربية ، وأمثالها ، أجل نعرف أن هذه الألفاظ يقصد بها جميعاً كلمة واحدة هى النصرانية ، فهى فى نظر الداعين إلى بثها فى الشرق علم كل رقى ومدنية .

هذا ولم ننس بعد أمر المؤتمر التبشيرى الذى عقد منذ أشهر قليلة فى بيت المقدس لتنظيم وسائل الدعوة إلى النصرانية ، والجهود التى تنفق لنشرها فى آسيا وأوربا ، لتبث بذلك روحاً جديدة فى الجمعيات والبعثات الدينية التى تعمل فى مختلف الأقطار لهذه الغاية ، حيث تنظم الأمم الغربية هذه الحركات والجهود جهاراً بما لها من سلطان سياسى فى الشرق وفى الأمم الإسلامية ، وتشهدها الأمم الإسلامية وتشهد نشاطها وآثارها جامدة ، فإذا ما ارتفعت صرخة فى مجتمع إسلامى لمقاومتها وفضح أعمالها أنكرت فى الحال ، ووصمت بالجهل والتعصب ، إن على الأمم الشرقية وحدها واجب

التأهب لمقاومة هذه الغزوة الجديدة محافظة على رأيها الديني . وإحباط ما يريده التبشير من مشاريع لهدم عقائدها وتقاليدها الإسلامية) ا هـ .

وقد كشفت هذه التعليقات عن أهمية العمل الذى بدأ خبث لم تمض أكثر من ثلاث سنوات . حتى رأينا فى القاهرة أخطر عمل تبشيرى هز المسلمين فى العالم الإسلامى كله ، وقد بلغ من أهمية هذه المعاهدة أن وصفها الأمير شكيب أرسلان بأنها من أعظم الحوادث التاريخية التى سجلها القلم فى هذا العصر . وقد استتبع ذلك أن أعلن الفاتيكان إنشاء معهد خاص لدراسة الفقه الإسلامى ، والعقيدة الإسلامية . وذلك حتى يتمكن المبشرون من مهاجمة الإسلام فى بلاده . كما نشرت الصحف أن جمعية المبشرين العامة عقدت اجتماعها السنوى فى مدينة بلفاست . وقالت المس سميث : (إن معظم آمالنا ستنحصر فى مصر الحديثة) ، وقال وزير خارجية فرنسا وهو يقدم ميزانية الجمعيات الدينية فى البرلمان : (إنه يعلق على صرف هذه الاعتمادات آمالا كبرى . وأن العمل الذى يقوم به المبشرون ليس دينياً محضاً . وإنما هى وسائل نشطة لنشر الدعاية الفرنسية فى أنحاء العالم) .

* * *

الباب الأول
أهداف التبشير ومخططاته

الفصل الأول : مخططات التبشير .

الفصل الثاني : وسائط التبشير وأنظمته .

الفصل الثالث : عمداء التبشير وخلفاؤهم .

الفصل الرابع : الصحافة التبشيرية .

الفصل الخامس : منهج التبشير .

الفصل الأول

أهداف التبشير ومخططاته

السؤال الأول الذى يواجهنا ونحن ندرس مخطط التبشير وغاياته هو : ما هو هدف التبشير أساساً ؟

الحق : أن خطة الاستعمار الأساسية فى غزوه للعالم الإسلامى والاستيلاء عليه . إنما تستهدف أساساً تثبيت هذا الوجود وبقائه فى الصورة التى تضمن للنفوذ الأجنبى موارده وأسواقه وخاماته . ومن ثم فإن صورة هذا الوجود الاستعمارى يمكن أن تتطور وتتشكل على النحو الذى يحقق بقائها واستمرارها فى جو من الطمأنينة والتقبل .

ولذلك فإن الصورة الأولى : صورة الاستعمار العسكرى والسياسى المسيطر عن طريق الاحتلال والجيوش والأساطيل . ونفوذ الممثلين والمندوبين الساميين إنما كانت تمثل فى نظر الاستعمار مرحلة إعداد وتجهيز للأقطار المحتلة . حتى تصهر فى البوتقة التى تجعلها خاضعة إلى أبعد مدى .

وكانت هذه المرحلة فى الأغلب هى مرحلة الاحتلال الذى انتهى فى أوائل الحرب العالمية الثانية . وما بعدها عن عشرات من الأقطار والبلاد . هذا الاحتلال لم ينته بصورته الأولى فى الحق إلا بعد أن أتم رسالته كاملة . ربما يظن البعض أن الاحتلال حين انتهى قد انتهت آثاره وانطوت صفحته . وإن مرحلة الاستقلال قد فتحت صفحة جديدة مختلفة عن مرحلة الاحتلال . وفى هذا قصور فى الرؤيا . ذلك أن مرحلة الاحتلال كانت قد رسمت لها خطة تتم فى مرحلة . لا تقل عن عشرين عاماً . وربما زادت عن ذلك ففى مصر استمرت مرحلة الحماية أكثر من أربعين عاماً . واستمرت مرحلة الاحتلال بعدها ثلاثون عاماً وفى لبنان استمرت مرحلة النفوذ الاستعمارى من عام ١٨٦٠ إلى عام ١٩١٨ أى أن مرحلة التجهيز الاستعمار بلغت ٥٨ عاماً ، وهى المرحلة

التى تقدمت فيها قوى التبشير . وسيطرت وتوالت أعمالها التمهيدية ، حتى سيطر الاحتلال الفرنسى عام ١٩١٨ ، واستمر حتى عام ١٩٤٨ . وفى الجزائر استمر الاحتلال الفرنسى عام ١٨٣٠ إلى عام ١٩٥٤ . والمعروف أن النفوذ الأجنبى قد انطلق العمل فى مراحله السابقة للاحتلال عن طريق قوتين استطلاعيتين كبيرتين هما : قوة التجار ، والمرابين ، وشركات الاحتكار ، وقوة التبشير المتمثلة فى الإرساليات ، والمدارس ، والجامعات ، والمعاهد ، والمستشفيات ، والكتب ، والصحف ، والنشرات ، وكانت قوة التبشير تعرف طريقها وعملها أساساً فإذا كانت قوة التجار والمرابين وشركات الاحتكار تعمل للاستيلاء على الاقتصاد والثروة القومية ، فإن قوة التبشير والإرساليات كانت تعمل للسيطرة على ما هو أخطر من ذلك : السيطرة على العقل الإسلامى وإعداده لتقبل النفوذ الاستعمارى والترحيب به . والتعاون معه ، بل الدعوة عليه وتمجيده ، والإعجاب بأهله وتاريخهم ودورهم فى تحضير الشعوب ، وتمدين الأمم ، وفى نفس الوقت الانتقاص من شأن الامة الإسلامية ، وتاريخها ، ولغتها ، ودينها ، وثقافتها ، وتراثها .

تلك خطة التبشير الطليعية الكبرى أمام النفوذ الاستعمارى ، والعامل الكبير فى سبيل تحويل الاستعمار العسكرى السياسى القابض على الأمور بسلطة الأجانب من خبراء ، وقناصل ، ومستشارين ، ومستشرقين ، ومبشرين إلى نفوذ مستقبل ، وذلك بتسليمه إلى أيدى الوطنيين أنفسهم ليدافعوا عن بقائه بمفاهيمه ، ويربطوا وجودهم به ويكونوا أحرص عليه من الاستعمار نفسه .

تلك هى خطة التحول الخطيرة التى يسعى إليها الاستعمار عن طريق التبشير ، والتى نفذها بدقة فى خلال مرحلتى التجهيز للاحتلال ، ومرحلة الاحتلال نفسه ، ويمكن القول دون تحفظ أن النفوذ الاستعمارى العسكرى والسياسى لم ينسحب من أى وحدة من وحدات العالم الإسلامى إلا بعد أن تأكد أنه قد ترك ركائزه وأعد هذه المدرسة المؤمنة به ، الدائرة فى فلكه ، المتقبلة له تقبلا نفسياً وعقلياً ، هذه المرحلة هى مرحلة تقبل الاستعمار والتحرك فى فلكه ، والعمل من خلال دائرته الصماء ، دون القدرة على الخروج منها إلى دائرة اليقظة الإسلامية المرنة ، لقد قامت فى مختلف هذه الوحدات

الإسلامية حركات يقظة إسلامية وطنية ، قوامها القيم الأساسية للفكر الإسلامى متصلة بالحلقات المتواترة عن المصلحين والمجددين ، ودعاة التحرر والمقاومة ، ولكن الاستعمار استطاع أن يوجد عن طريق التبشير دائرة أخرى تستمد وجودها منها ، وتستعلى بنفوذه على دائرة اليقظة الإسلامية ، وهى فى الأغلب من ثمار الإرساليات الأجنبية ، ومن الذين كونتهم هذه الإرساليات عقائدياً وفكرياً على مفاهيم الإيمان بالاستعمار ، وتقبله والإعجاب به والتعاون معه ، وقد أتاح الاستعمار لهذه الدائرة الصماء القوة والسيطرة والتبريز .. وأسنى إليها أمور السلطة والنفوذ . وبذلك حجب بها الدائرة الأخرى الأكثر أصالة والأصدق إيماناً بفكرها ووطنها .

لقد كان قادة اليقظة أساساً هم قواد الحركات المختلفة التى اندلعت فى العالم الإسلامى لمقاومة النفوذ الاستعمارى الزاحف ، وكان هؤلاء يجمعون بين الإسلام والوطنية . ويتخذون من القيم الإسلامية مثلهم الأعلى فى الجهاد والمقاومة والعمل . ولكن النفوذ الاستعمارى الذى يعرف أن خططهم ستقضى على وجوده وتنهى بقائه وتدمر كيانه ، قد عرف كيف يحجبهم ، فماذا كانت أداته فى ذلك . كانت أداته الإرساليات التبشيرية بنفوذها فى ثلاث مجالات : التربية ، والتعليم ، والثقافة . وقد تمكنت هذه المؤسسات فى خلال فترة حضانة الإستعمار للأوطان أن تشكل هذا الجيل القادر على حمل أمانة المستعمر باسم الحضارة والتقدم والمدنية ، والذى كان يرمى دائماً حركة اليقظة الأصيلة بالجمود والتعصب والتخلف فى حملة ضارية لا تتوقف ، قوامها إثارة الشبهات والاتهامات من حول الإسلام واللغة العربية والتاريخ والتراث .

وقد أتيح لبعض الأقطار التى مرت بهذه المرحلة أن تثور عليها ، وأن تحطم هذا النفوذ الأجنبى المسيطر ، وأن تتحرك بعيداً عن هذا الخط المرسوم ، بل أن تقاوم هذا المخطط ، وتصفى نفوذ هذه المؤسسات ، وتفرض عليها المناهج المقررة فى بلادها وفى مقدمة هذه الأقطار « مصر » وهكذا نرى مدى خطورة الدور الذى يقوم به التبشير : الذى اختفى فى العالم العربى فى هذه المرحلة خلف واجهات المعاهد والجامعات ، ودور الصحف ومراكز الثقافة ، وإن ظل فى أجزاء كبيرة من العالم الإسلامى جهيراً صريحاً يعمل فى جرأة وعلانية .

والسؤال هو : لماذا اختفى التبشير فى العالم العربى وفى بعض الدول الإسلامية ؟ والإجابة هى : أنه قد أدى دوره فى إعداد الثمرة التى تسلمت زمام القيادات الفكرية أو السياسية ، إذن فالدور الصريح الجهير قد انتهى . أما الدور الحالى فهو أنجح وأقدر على النفاذ على النحو الذى يتم به اليوم فى الخفاء ومن خلال النظريات المذاعة ، والدعاوى الجريئة ، والشبهات المثارة ، التى لا تتوقف عن البث فى إحكام دقيق . ولسنا نحن وحدنا الآن الذين تنبهنا إلى هدف التبشير . ولكن كثيرين من المفكرين الواعين قد لفتوا أنظار أمتهم منذ وقت طويل إلى ذلك ، ولعل أخطر ما قرأت فى هذا المجال ما ذكره محمد على علوبة فى الثلاثينات حين قال :

إن الأمم المستعمرة قد تبينت بعد التفكير الطويل والتجارب العديدة أن : أقوى سلاح لبث الاستعمار لم يعد الحديد والنار كما كان من قبل ، وإنما هو اليوم هذا التبشير الخفى تحت أستار المعاهد والجمعيات الخيرية ، والأدبية ، والعلمية لهدم العقيدة قبل كل شىء ، حتى يصلوا بهدمها إلى إطفاء تلك الشعلة : شعلة العاطفة الدينية والوطنية .

وطريقة التبشير فى البلاد الإسلامية تتركز فى إنشاء معاهد تسبغ على نفسها صفات المعاهد العلمية ، وتتستر وراء هذا الستار ، والحقيقة أنها معاهد تبشير ينتمى إليها مبشرون وظيفتهم تضليل البسطاء والسذج ، هذه المعاهد تكلف تلاميذ المسلمين الحضور فى الصلوات ، وتستغل نفوذها القوى فى نفوس الأطفال خاصة من بنين وبنات ، فيخرج الطفل المسلم من هذه المدارس . وهو إما فاقد للإسلام كلية ، أو متشكك فى دينه على الأقل ، وهم يفتحون نوادى وقاعات للخطابة والمحاضرة وجماعات تسمى نفسها جمعيات الشبيبة ، تبذر بذور التشكيك فى أفهام المسلمين . وهم ينفقون على هذه المعاهد فى سخاء . ويتخيرون لذلك من المبشرين من يعرفون بالدهاء المسمم واللين الخطر . حتى ليدعى بعضهم أنهم كانوا مسلمين ثم (تحولوا) للإيقاع بالسذج والجهلاء)(١) .

---

(١) ١١ فبراير عام ١٩٣٢ جريدة السياسة (مصر) .

الحق : أن الاستعمار حين عاد إلى العالم الإسلامى فى دوره الجديد كان قد أعد مخططه على النحو الذى يكفل له العمل على : (تغيير العقلية الإسلامية) والقضاء على مقوماتها الأساسية عن طريق التبشير الحامل لواء التعليم والتربية والثقافة .

وقد اعتبر أن هذه المعركة القائمة على الغزو الثقافى ، والاستعمار الفكري ، والتغريب ، هى كبرى معاركه وأعظم عوامل تثبيت قواعده .

وقد أجمعت خطط المبشرين ودراساتهم وأبحاث مؤتمراتهم على أن الهدف من التبشير هو :

(إنشاء عقلية عامة تحتقر كل مقومات الفكر الإسلامى ، وإبعاد العناصر التى تمثل الإسلام عن مراكز التوجيه) فإذا لم تنجح الدعوة إلى الخروج من الإسلام إلى دين آخر جرى تشكيكهم فى الدين المطلق . لقد استهدف التبشير نقل المسلمين من الإسلام وخطا فى سبيل ذلك خطوات واسعة . فلما انكشفت خططه وافتضحت أساليبه غير المبشرون ملابسهم وتخفوا فى أزياء العلماء والفلاسفة والمفكرين ، وظهرت جماعات جديدة ،وغيرت أسماء الهيئات القديمة والمعاهد الأولى ، وكلها بارعة المظهر ولكنها تحمل نفس الأغراض والأهداف . منها : جماعة الشرق الأوسط للتعاون الإسلامى المسيحى ، وهم جماعة من المبشرين يعملون لهدم الإسلام وجعله آلة بيد السياسة الغربية الاستعمارية ، التى يراد فرضها على العالم الإسلامى والأمة العربية لتمزيق وحدتها وتدمير قوتها .

ومنها :

١ – جمعية الشبيبة المسيحية الدولية فى نيويورك ولها ٩ آلاف فرع فى أنحاء العالم .

٢ – هيئة التوراة .

٣ – معاهد الدراسات الشرقية والإسلامية . وقد عمل التبشير للعمل فى مختلف الميادين : فاتصل بالمتعلمين عن طريق المدارس والجامعات ، واتصل بالناس عن طريق الصحف والمحاضرات والجماعات وكانت المدارس

الأجنبية التي فرضت نفسها على العواصم الكبرى في العالم الإسلامي قد قادت حركة التعليم بواسطة النفوذ الأجنبي المتمثل في نفوذ الدول المحتلة أو المتحالفة ، وهذا النفوذ لم يقف عن حد هذه الجامعات والمعاهد وحدها . بل إنه تطرق إلى وزارات التعليم والمعارف في مختلف هذه الأقطار . ففرض فيها مناهج دراسية خالية من لباب الفكر الإسلامي ، والثقافة العربية ، وهو الإسلام والقرآن . وقد أعلن ذلك صراحة دكتور زويمر كبير المبشرين في العالم العربي في تقرير مؤتمر التبشير العالمي عام ١٩٢٥ حين قال : إن السياسة الاستعمارية لما قضت منذ نصف قرن على برامج التعليم في المدارس الابتدائية ، أخرجت منها القرآن ، ثم تاريخ الإسلام وبذلك أخرجت ناشئة مضطربة ، مادية الأغراض لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقاً ، فلا للدين كرامة ولا للوطن حرمة) وأشار إلى هذا مدير إحدى الجامعات التابعة للإرساليات التبشيرية الكبرى حين قال : (إننا نراقب سير القرآن في المدارس الإسلامية ، ونجد فيه الخطر الداهم ، إن القرآن وتاريخ الإسلام ، هما الخطران العظيمان اللذان تخشاهما سياسة التبشير) وإذا كان بين التصريحين زمن لا يقل عن عشر سنوات ، إلا أنهما ينبعان في مورد واحد كأنهما يصدران من رجل واحد) ويؤكدان نفس الغاية .

ونستطيع أن نؤكد أن خطة التبشير خطة شاملة وموحدة ، وذات مراحل وحلقات ، وقد أشرف عليها رجال ذوي خبرة وثقافة ، واتصال كامل بمخططات الاستعمار ، ويمكن أن يقال : إن هناك ثلاث قوى تعمل في تناسق عجيب :

الأولى : وزارات المستعمرات والخارجية في الدول المستعمرة للعالم الإسلامي .

الثانية : مؤسسة التبشير الكبرى بفروعها المختلفة ، وإرسالياتها ومعاهدها في العالم الإسلامي .

الثالثة : جماعة المستشرقين المنبثين في الجامعات الأوربية ، والمتاحف والمكتبات العامة ، والمعاهد المعنية بالدراسات الشرقية والإسلامية والعربية .

ويمكن النظر إلى مدى التناسق بين هذه الهيئات حين ترى أن وزارات

المستعمرات تستخدم مؤسسة التبشير فى العمل داخل البلاد الإسلامية ، وتؤكد أهمية عملها ، وحين يتولى رجال السياسة الكبار . الإشراف على مؤتمرات المبشرين أمثال لورد بلفور . الذى أعلن أهمية مؤسسات التبشير فى خدمة أهداف السياسة . والمبشرون فى نظر الاستعمار هم عيونه التى تقوم بتعريف الدول الغربية بالنواحى الهامة التى يتطلع إليها المسئولون فى وزارات الاستعمار من عقائد المسلمين وآدابهم ، والثقافات التى يتأثرون بها .

ويتجلى ذلك حين ترى أن مؤتمر التبشير فى أدنبرج سنة ١٩١٠ يعنى بدراسة قرار محول إليه من المؤتمر الاستعمارى المنعقد فى برلين فى نفس العام . يقول هذا القرار : (إن ارتقاء الإسلام يهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم ، لذلك فإن المؤتمر الاستعمارى ينصح للحكومة بزيادة الأشراف والمراقبة على أدوار هذه الحركة ، ويشير المؤتمر الاستعمارى على من فى أيديهم زمام المستعمرات أن يقاوموا كل عمل من شأنه توسيع نطاق الإسلام . وأن يزيلوا العراقيل عن طريق انتشار التبشير) .

أما جماعة المستشرقين فإنها تمد المؤسسة التبشيرية بالشبهات التى تصنعها ، والاتهامات والأفكار والثغرات التى يمكن استخدامها لإثارة الشكوك حول الإسلام ، ومن ركائز هذا العمل إنشاء مجلة العالم الإسلامى بالإنجليزية ، والفرنسية ، والألمانية (كل منها على حدة) وإصدار دائرة المعارف الإسلامية المحررة بثلاث لغات ، ويشرف عليها أساطين التبشير والاستشراق . ولا تخلو مادة واحدة منها من دس وإثارة شبهة ، وتحطيم للقيم الإسلامية فضلا عن مئات الشبهات على المستويين التعليمى والثقافى التى تدرس فى مئات الكتب التى توزع فى المعاهد والجامعات والمدارس من إندونيسيا إلى المغرب ، وكلها تحمل تصويراً شائناً للإسلام والرسول والقرآن .

* * *

وليست بواعث التبشير وأهدافه بخافية ، ولا هى موضع الاستنتاج ، بل أنها صريحة وواضحة فى خطب وأبحاث عمداء التبشير أمثال : (شاتلية ، وزويمر ، ولويس ماسيون) . أما شاتلية وهو يمثل النفوذ التبشيرى الفرنسى ؛ فإن ملخص فكرته تتمثل فيما يلى :

أولا : ينبغى أن يكون عمل الاستعمار مبنياً على قواعد التربية العقلية (التأثير على عقول المسلمين وقلوبهم) وعلى التعليم فى فرنسا أن يبث فى دين الإسلام التعاليم المستمدة من المدرسة الفرنسية .

ثانياً : إن عجزت إرساليات التبشير عن زحزحة العقيدة الإسلامية فى نفوس معتقديها ، فإنها تستطيع أن تقضى لبانتها من هدم الفكرة الإسلامية ببث الأفكار التى تتسرب مع اللغات الأوربية ، فتنشرها باللغات الإنجليزية ، والألمانية ، والهولندية ، والفرنسية بتبعية الإسلام لصحف أوربا ، وبتمهيد السبيل لتقدم إسلامى مادى ، وبذلك تقضى إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية التى لا تحفظ قوتها وكيانها إلا بعزلتها وانفرادها .

ثالثاً : لا ينبغى لنا أن نتوقع من جمهور العالم الإسلامى أن يتخذ له أوضاعاً وخصائص أخرى ، إذا هو تنازل عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية .

٢ — أما (بلس) وهو من كبار رجال التبشير فيرى :

أن الدين الإسلامى هو العقبة القائمة فى طريق التبشير فى أفريقية ، والمسلم فقط هو العدو اللدود ، وليس خصمنا إلا ذلك العربى الذى يرتاد البلاد للاتجار ، بل أن هذا الخصم المعارض هو الشيخ أو الدرويش صاحب النفوذ فى أفريقيا .

٣ — أما زويمر فهو يرى أن إرساليات التبشير فى البلاد الإسلامية لها ميزتان : مزية تشييد ، ومزية هدم ، ويقول (الأمر الذى لا مزية فيه هو أن حظ التبشير من التغيير الذى أخذ يدخل على عقائد المسلمين ومبادئهم الخلقية هو أكثر كثيراً من حظ الحضارة الغربية منه ، ويرى زويمر (أن القضاء على الإسلام فى مدارس المسلمين ، هو أكبر واسطة للتبشير ، وقد جنى منه أعظم الثمرات . إن المسلم لا يمكن أن يكون مسيحياً مطلقاً والتجارب دلتنا ودلت رجال السياسة على استحالة ذلك . ولكن الغاية هى إخراج المسلم من الإسلام فقط . ليكون إما ملحداً . أو مضطرباً فى دينه ، وعندها لا يكون مسلماً ، وهذه أسمى مراتب الانتقام من الإسلام وأعظم الغايات الاستعمارية .

* * *

ومجمل آراء هؤلاء الدعاة من المبشرين الفرنسيين والأمريكيين هو استهداف تغيير عقيدة المسلم عن طريق الفكر الغربى . واللغات الغربية . والأديان الغربية . وهم يحاولون غزو العالم الإسلامى بأسوأ مظاهر حضارتهم إيماناً بأن هذا الغزو سيخرج المسلمين من معتقداتهم . ويجعلهم يستسلمون استسلاماً كاملا للتطويق الغربى العقلى والاجتماعى . وبذلك يصبح المسلمون فى العالم الإسلامى كله أذلاء عبيداً للغرب عقلياً واجتماعياً واقتصادياً . وتصبح بلادهم مبذولة بالرضا والتقبل للغرب . هذا هو اتجاه التبشير وهدفه : إخضاع العقل الإسلامى كله للاستعمار الغربى والفكر الغربى خضوع ذوبان وانصهار فى بوتقة الحضارة العالمية .

ولكن هل ذاب المسلمون اليوم فى بوتقة الغرب وفقدوا مشخصاتهم وقيمهم الأساسية . وقد مضى على العمل الدائب المتصل أكثر من مائة عام .

الواقع أن المسلمين لم يسقطوا بعد تحت سنابك الخيل . ولكنهم على خطر عظيم ؛ وعليهم أن يتنبهوا إلى أن كل ما يواجههم الآن من أخطار إنما يتصل اتصالا وثيقاً بهذا المخطط التبشيرى المرسوم بدقة . والذى كان يمكن أن يصل إلى غايته لولا صلابة الإسلام نفسه وعمق جذوره . وعلى المسلمين أن يفرقوا تفريقاً واضحاً بين الثقافة والعلم . وبين الحضارة والثقافة . فالعلم من حق الجميع . وهو ملك للبشرية كلها . وكذلك الحضارة .

أما الثقافة فهى من حق كل أمة وحدها ولذلك . فالمسلمون فى اتجاههم نحو النهضة واليقظة والتحرر لا بد أن يأخذوا العلم والتكنولوجيا . ولكنهم يجب أن يحفظوا ذاتيتهم الأساسية . وشخصيتهم الأصيلة . وجذور ثقافتهم وفكرهم . وعليهم أن يقاوموا كل محاولة لإخراجهم منها . ولقد كان للانفجار التبشيرى الذى وقع فى مصر عام ١٩٣٢ و ١٩٣٣ أثره فى إيقاظ هذه المفاهيم . ولكن يبدو أيضاً أن المسلمين عادوا مرة أخرى إلى النسيان . ذلك أن التبشير نفسه لم يلبث أن بدل خططه . وغير جلده . وتخفى وراء هيئات جديدة .

لقد توصل المفكرون المسلمون فى هذه المرحلة إلى حقائق هامة نشرتها الصحف فى هذه الفترة . وشارك فيها عشرات الباحثين : فى مقدمتهم رشيد

رضا . ومحب الدين الخطيب . وشكيب أرسلان . وتقى الدين النبهانى ، وعمر فروخ ، ومجمل النظرات هى :

١ ــ أن هدف التبشير زلزلة العقيدة فى النفوس . وتشويه المفاهيم الإسلامية .

٢ ــ أن هدف المبشرين إضعاف القيم الإسلامية . عن طريق شرح تعاليم الإسلام ومبادئه شرحاً يضعف عقيدة المسلم فى تمسكه بالإسلام . ويقوى فى نفسه الشك فيه كدين ، أو كمنهج سلوك .

٣ ــ وجد المفسرون أن الإسلام لم يكن قد فقد سيطرته على قلوب المؤمنين ، فصمموا على استعمال الكلمة حيث فشل استعمال السيف .

٤ ــ الذى حمل الأوربيين على إنشاء الجمعيات التبشيرية فى الشرق ما عانوه فى الحروب الصليبية من صلابة المسلمين ، وصبرهم على الجهاد ، ووحدتهم فى المقاومة ، وقد بحثوا عن السر فى ذلك فوجدوه فى الإسلام ، لأن عقيدته هى منشأ هذه القوة العظيمة عند المسلمين ، وإن تسامح المسلمين أوجد هذا التماسك العظيم بين النصارى والمسلمين ، ومن هنا كان مفهوم التبشير هو : تشكيك المسلمين فى تاريخهم وزعزعة عقائدهم .

٥ ــ محاولة إنجاز ما عجز أجدادهم الصليبيون عن تحقيقه عن طريق السيف ، وإخضاع العالم كله للغرب المسيحى .

٦ ــ يمكن أن يقال : إنه بعد أن فشلت الحروب الصليبية أن الخطة هى : تحويل العالم الإسلامى إلى المسيحية ، أو القضاء على الإسلام فيه كقوة أساسية هى مصدر الانتصار والمقاومة ، ومن هنا انطلقت الدعوة إلى إخضاع العالم الإسلامى كله للتبشير بالمسيحية ، لتطويعه للغرب أو إخضاعه للثقافة الغربية والنفوذ الغربى .

٧ ــ تحقق لهم أن إخضاع العالم الإسلامى لا يتم إلا عن طريق الثقافة والدين ، ومن هنا وضعت الخطة على مستويين متتابعين : مستوى التبشير ، ومستوى التغريب . وعمل الاستشراق والشعوبية فى خدمة الهدفين معاً .

٨ – الحرب التي يشنها التبشير على الإسلام فى قلب دياره ، إنما تقصد الإسلام ذاته ، وترمى إلى إضعاف العقيدة فى نفوس المؤمنين بها . وهذه السياسة هى استمرار للنضال التاريخى القديم بين الشرق والغرب ، والإسلام والنصرانية ، حيث تتحد اليوم أساليب الغزو الحديث بطريق الدعوة والإغراء وحيث يعتقد خصوم الإسلام من الأحبار والرهبان والساسة أنهم قطعوا فى سبيل إضعاف العقيدة الإسلامية فى نفوس الشعوب المسلمة خطوات لا بأس بها ، وهذه هى الغاية التى تعمل لها الكنيسة الرومانية ، وترصد لها الأموال الطائلة فى كل عام فى ميزانية الكنيسة . وفى ميزانيات الدول المستعمرة ، وتحشد لها ذلك الجيش الضخم من المعلمين والمبشرين والأطباء . إضعاف العقيدة الإسلامية إذن هى الخطوة الأولى لغاية أخطر . فالشعوب التى تنحل عقائدها القومية وتضعف تغدو فريسة يسيرة للغزو الدينى والفكرى . (السياسة ٢٢ يونيو عام ١٩٣٣) .

٩ – يواجه الإسلام اليوم حركتين من أخطر الحركات الهدامة : الأولى : حركة المبشرين . والثانية : حركة الملحدين . الحركة الأولى : تتجه نحو تحويل المسلمين عن دينهم ، والثانية : ترمى إلى تجريدهم من الدين. يقوم بالحركة الأولى جمعيات منظمة ، تحميها حكومات متعصبة . والحركة الثانية : يقوم بها رجال تعلموا فى الغرب ، وأحكموا طرق الدعاية ، وتمرنوا على أساليب التمويه ومن ورائهم قوم أولو نفوذ يحمون ظهورهم ، ويدفعون عنهم ما يصيبهم ، مهمتهم إفساح المجال لدعاة الإلحاد . كما يباشرون مهمتهم . والغاية هى هدم الإسلام فى قلوب أهله وتجريد المسلمين منه .

١٠ – ليس هدف التبشير فى الأغلب نشر المسيحية بقدر ما هو هدم الإسلام ، ونشر الدين أمر ثانوى جداً فى جميع الحركات التبشيرية . فالدين وسيلة ، والسياسة هى غاية معناها : استعباد الغرب للشرق . والباعث الحقيقى فى رأى القائمين على التبشير إنما هو القضاء على الأديان غير النصرانية ، توصلا إلى استعباد أتباعها وأشد الأديان قوة فى إباء الاستعباد إنما هو الإسلام . والتبشير قد يتناول البوذيين والبرهميين ، ولكن المقصود الأول

بالجهود التبشيرية هم المسلمون . يستوى فى هذه الرغبة جميع المبشرين على اختلاف طوائفهم ، وتباين الأقنعة التى يرفعونها على وجوههم .

١١ — ليس التبشير دعاية دنيوية استعمارية كما يظن بعضنا . ولكنهم يدأبون لنشر دينهم وثقافتهم . الدول المستعمرة تعتقد أن نشر المسيحية فى مستعمراتها يكون عاملا عظيماً فى توطين الحكم الإدارى ، والإرساليات فى جميع الأمم الأفرنجية تجاهد فى نشر الدين المسيحى بنشاط يجل عنه كل وصف . ولكنى أحب أن لا ينخدع المسلمون بكلمة : إن هؤلاء إنما يعملون للدنيا ، وأن الدين إنما هو ستار لها . فإن ذلك يكون من قبيل تشخيص المرض بغير حقيقته ، وعند ذلك يتعذر كفاحه . إن الحكومة الفرنسية عندما تسهل للقسس والرهبان الاتصال بالقبائل ، وتمنع دخول الفقهاء ، وحفاظ القرآن ، ومشايخ الطرق الصوفية ، من البرابر إنما ترمى إلى غرض توطين استعمارها للمغرب (شكيب أرسلان) .

١٢ — ليس التبشير هو الانتقال إلى المسيحية بقدر ما يؤدى إلى الانتقال عن الإسلام نفسه .

١٣ — إن حركة التبشير فى الشرق نظمت لأغراض مخصوصة ، غذيت بالأموال والتأييد لتحل محل الحروب الصليبية القديمة .

١٤ — هدف التبشير هو توهين القيم الإسلامية ، وتفتيت الشعوب العربية والإسلامية ، فى علاقاتها ، وصلات بعضها ببعض ، وبعثرة القوى الوطنية فى كل بلد عربى ، وخلق جبهة من ضعف المواجهة ، والغض من اللغة العربية الفصحى ، والتنديد بحالة الشعوب الإسلامية الأخرى ، والازدراء بها فى المحالات الدولية العالمية(١) .

١٥ — هؤلاء المبشرون يقصدون بالتبشير إلى غاية سياسية ، ليس غايتهم تنصير المسلمين أو سائر الشرقيين ، وإنما غايتهم توهين أمر العقيدة ، وأمر الدين باسم الإنسانية ، وباسم النقد العلمى للدين الإسلامى . الغرض السياسى الذى يلبس ثوب التبشير .

---

(١) الدكتور محمد البهى .

كان من أثر هذه الحملة : أن حولت كثيراً من دعاة التغريب وفى مقدمتهم : الدكتور محمد حسين هيكل . الذى كان أبرز خدام الفكر الغربى فى مصر عن طريق مجلة السياسة الأسبوعية . وجريدة السياسة اليومية ، ولعل أبرز ما ظهر فى تطوره الفكرى بعد انفجار حملة التبشير فى مصر أنه كتب أكثر من خمسين مقالا فى مهاجمة التبشير ، ومهاجمة الغرب نفسه بعد انكشاف الحقيقة أمامه كاملة . إن التبشير ليس إلا وسيلة أكيدة لتوهين القيم الإسلامية والعربية فى نفوس المسلمين والعرب ، وذلك لإحكام سيطرة النفوذ الأجنبى والاستعمارى على العالم الإسلامى .

ولا شك أن رؤوس موضوعات هذه المقالات تكشف عمق ما بلغه فهم الدكتور هيكل :

- تغريب الشرق وهل تعتبر حركة التبشير بعضاً منه ؟
- حلقة من سلسلة الغارة على العالم الإسلامى .
- المبشرون رسل التجارة والاستعمار الغربى .
- غزو العقيدة الإسلامية غاية التبشير .

وقد وصل الدكتور هيكل أخيراً إلى قرار حاسم فى موقفه من الحضارة الغربية والاستعمار قال :

إن الذين درسوا فى أوربا — يقصد نفسه ومجموعة من زملائه طه حسين ومحمود عزمى ، ومصطفى عبد الرازق — كانوا هم رسل الحضارة الغربية الداعين إليها فى مصر ، ظناً منهم أن ذلك هو السبيل إلى نهضتنا . هؤلاء الشباب تفتحت أعينهم على حقيقة الأمر بعد الحرب . فقد أدركوا أن كل ما بذلت الشعوب العربية من تضحيات لم يكن إلا فى سبيل الاستعمار ، وأدركوا أن الدول الأوربية التى تزعم أنها قد تحررت من التعصب الدينى هى دول متعصبة تعصباً مسيحياً لم تنس معه الحروب الصليبية ، حتى أن قائداً كبيراً من قوادهم هو (اللنبى) قال يوم استولى على القدس : إن الحروب الصليبية قد انتهت . ثم أن هذه الدول الأوربية شملت بحمايتها الجماعات التبشيرية

المنبثة فى كل مكان . وعند ذلك غضب هذا الشباب لإسلامه الذى تريد الدول المسيحية أن تمحوه . وجعل كل منهم يفكر فى وسيلة للخلاص من الغرب.

وكانت الصحف فى الوقت نفسه تفيض بأخبار العدوان الفرنسى والإيطالى فى شمال أفريقيا وفى سوريا ، واستغاثة المنكوبين من أهلها بالعالم الإسلامى ، ونشر مسلمو المغرب صيحة حارة جاء فيها :

أيها المسلمون : هل يرضيكم أن يمحى دينكم من الأرض التى أنجبت رجالا عظماء وعلماء وقواداً وملوكاً مخلصين ، الأرض التى سار أبناؤها مع طارق بن زياد ، وعبد الرحمن الغافقى فافتتحوا الأمصار . ونشروا دعوة الإسلام ، وإذا نجح الفرنسيون فى هذه التجربة ، فسيفتح العالم الإسلامى فتحاً دينياً لهم ، وهو أقبح وأنكى من فتحهم الاقتصادى السياسى . فخذوا حذركم أيها المسلمون وانصروا الله .

وقد ظهرت فى هذه الفترة كثير من الأبحاث فى مقدمتها :

١ – التبشير والاستعمار للدكتورين الخالدى وعمر فروخ .

٢ – التبشير والاستشراق للدكتور محمد البهى .

ولكن يبدو أن تغيير المبشرين لأساليبهم وانصرافهم عن أساليب الخطف والتنويم المغناطيسى وغيرها ، قد أخفى خطرهم وصرف المسلمين عن تعقب أخطارهم ، ولكن الواقع يؤكد أن العمل ما زال مستمراً ، وأن الثعبان لم يفعل أكثر من أنه غير جلده وانسجم مع التطورات المختلفة ، وحول كل مفاهيمه إلى مجالات الثقافة والتعليم والمعاهد والجماعات الأدبية والثقافية والصحف والمجلات . نعم إذا قيل : إن كلمة التبشير قد انتهت . قلنا : إنما انتهى مظهرها وبقى مخبرها .

وأن مخطط التغريب والشعوبية والإلحاد قد استوعبته مؤسسة التبشير بكل مخططاتها فى داخلها ، وما تزال تحمل نفس الأهداف والغاية وإن غيرت الأساليب .

• • •

الفصل الثانى
وسائط التبشير وأنظمته

كان العمل على إعداد مبشرين للعمل فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى من أهم أهداف التبشير ، وذلك لتركيز قواه وبث مفاهيمه . وقد تم هذا العمل على مرحلتين :

الأولى : تمت فى بلاد الغرب حيث قامت المعاهد الخاصة بإعداد المرسلين الذين سيوفدون إلى العالم الإسلامى .

والثانية : تمت فى بلاد المسلمين فقد قامت المدارس ، والجامعات التابعة للإرساليات التبشيرية بإعداد الدعاة الذين عملوا فى مبادئ الصحافة والتعليم والثقافة ، وقد انتفع الاستعمار بالشباب الطموح الذى سافر فى البعثات المختلفة إلى الغرب ، واستطاع أن يكسب منه دعاة ومبشرين .

وقد أوردت العديد من مؤلفات المبشرين تلك المناهج والخطط وأشارت إلى مهمة هذه المدارس التى أنشأت فى روما وباريس وطليطلة بأسبانيا ، والمناهج الخاصة التى ترمى إلى (تفهيمهم روح الشرق) وتقوم هذه المناهج على تصوير الشرق بصورة التأخر والسوء ، وتتصل طرق التبشير بصناعات الطب والتعليم والوعظ ، ونقل الكتب من لغة إلى لغة ، وشعارها :

(جميع الوسائل تستغل فى سبيل التبشير حتى أعمال البر ، وأن التطبيب والتعليم من وسائل المبشرين ، مع ترك الطرق المباشرة فى نشر آرائهم والتماس أساليب أخرى أكثر التواء وخفاء ، وهم يلبسون لكل حالة لباسها : (فعليهم أن يطعنوا الرأسمالية إذا كان ذلك يفتح لهم قلوب الخاضعين قهراً لها) وهم فى بعض البلاد الإسلامية ينسقون خططهم مع الصهيونية ومع الشيوعيين ، وتنصح لهم الوصايا بالتلون فى سبيل الوصول إلى قلوب الناس . ويقول مؤلف كتاب طرق العمل التبشيرى فى المسلمين : (لنجعل هؤلاء القوم المسلمين

يقنعون فى الدرجة الأولى بأننا نحبهم ، فنكون قد تعلمنا أن نصل إلى قلوبهم . يجب على المبشر أن يحترم فى الظاهر جميع العادات الشرقية والإسلامية ، حتى يستطيع أن يتوصل إلى بث آرائه بين من يصغى إليها) والمعروف أن التبشير تحول بعد مؤتمر عام ١٩٠٦ من التبشير الفردى إلى التبشير الجماعى . وبعد الحرب العالمية الأولى استفادت حركة التبشير من الدول المنتدبة التى أفسحت المجال لها وقد تولت المعاهدات التى عقدت فى ظل النفوذ الاستعمارى حماية الإرساليات التبشيرية ، ولم يفت مؤتمر أدنبرج الذى عقد عام ١٩١٠ أن يدرس كيفية تعليم المبشرين وتربيتهم ، وتعليم المبشرين فى العالم الإسلامى لغة البلاد ، وأوصى بإنشاء مدارس تبشير خاصة بتعليم مبشرى الأقطار الإسلامية والتخرج الكامل فى اللغات السامية ، والقبض على ناحية اللغات العامية والفصحى ، وفهم روح المسلم وخصائص عقليته .

كما عرض المؤتمر التبشيرى عام ١٩٢٤ لهذا الأمر وأورد آراء جديرة بالنظر والاعتبار تحت عنوان : (باب تخريج المبشرين) قال :

إن تخريج العدد اللازم من قادة التبشير المحلى من الوطنيين تجرى غالباً على طريقة التخصص والتضلع كأمر ضرورى لا غنى عنه ، فمن الضرورى أن يكون المبشرون حائزون على مقدار من الكفاية والاستعداد الوافى من جميع الوجوه ، عدا ما يلزم من الاستعداد فى الثقافة العامة .

وقال : إن هناك طريقتين فى الإعداد والتجهيز :

١ ـ التخريج فى اللغات بما يكفل التوسع والقبض على ناصية اللغات العامية منها والفصحى .

٢ ـ التخريج الكامل فى العلوم الإسلامية، مما يجعل المتخرج يفهم روح المسلم وخصائص عقله فى هذه الأيام فهماً تاماً ، مستنداً إلى الحقائق مباشرة مع دراسة تاريخ الإسلام ، وعلى ما هو حى فى الإسلام المعاصر من المذاهب والطرق الصوفية .

٣ ـ التخصص فى الشئون الإسلامية تخصصاً صحيحاً يؤهل أربابه بعد حين لتولى أعمال الدراسات والأبحاث التى ينطوى عليها موضوع الإسلام :

ويمكن أن نستخلص الوسائط التي يستخدمها التبشير من نصوص تقريراته لا من خارجها .

لقد تعرض كتاب (العالم الإسلامي اليوم) وكتاب (الإسلام : ماضيه . حاضره . مستقبله) بقلم زويمر كما تعرضت مختلف المؤتمرات التبشيرية لهذا العمل ، وذكرت الوسائل التي (يمكن استجلاب المسلمين بها) وأهمها :

أولا : دعوة المبشرين لتعلم اللهجات العامية واصطلاحاتها نظرياً وعملياً ، ودراسة القرآن والوقوف على ما يحتويه ، وأن يخاطب عوام المسلمين على قدر عقولهم ومستوى علمهم ، وأن تلقى الخطب عليهم بأصوات رخيمة وبفصاحة وأن يخطب المبشر وهو جالس ليكون تأثره أشد على السامعين ، وأن يكون خبيراً بالنفس الشرقية ، وأن يستعمل التشبيه والتمثيل أكثر مما يستعمل القواعد المنطقية ، مع الاستعانة بالموسيقى والفانوس السحرى.

ثانياً : كسب ثقة الشباب . وذلك بالحديث فى موضوعات اجتماعية وخلقية وتاريخية ، ومنها يستطردون إلى مباحث الدين . ومحاولة كسب القلوب بتظاهرهم بالميل إلى مطامح المسلمين من الاستقلال السياسى والاجتماعى.

ثالثاً : توزيع الكتاب المقدس ، والمؤلفات التى تضم المناظرات التاريخية ، وترجمة الكتاب المقدس إلى لغات المسلمين .

رابعاً : يجب أن يكون تبشير المسلمين بواسطة رسول من أنفسهم ، وعلى المبشرين ألا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة ، إذ من المحقق أن المسلمين قد نما فى قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين وتحرر النساء .

خامساً : على طبيب الإرسالية ألا ينسى ولا لحظة واحدة أنه مبشر قبل كل شيء وطبيب بعد ذلك ، وعليه استغلال فرص المرض والسيطرة على المرضى ، وانتهاز فرصة الضعف والحاجة ، وعدم القدرة على التفهم والاقتناع والدس للعقل الباطن بالإيماء .

سادساً : يجب أن نستخدم كتابهم (القرآن الكريم) وهو أمضى سلاح

ضد الإسلام نفسه ، يجب أن نرى هؤلاء الناس أن الصحيح فى القرآن ليس جديداً . وأن الجديد ليس صحيحاً .

سابعاً : الخطأ هو بث مبادئ المدنية مباشرة ، ثم نشر الدين ثانياً لأن إدخال الحضارة والمدنية لا تحمد مغبته ، بل تنجم عنه مبادئ كثيرة تفوق المبادئ التى كانت قبلا .

ثامناً : منع طلبة الأزهر المتخرجين فيه من الوصول إلى جنوب إفريقيا .

عاشراً : الاعتماد على الصحف ، والكتب ، والسينما ، والمسرح ، فى إذاعة الآراء التى تحقق إخراج المسلمين من مقومات فكرهم .

حادى عشر : الاعتماد على تدفق الطلاب على أوربا (خاصة العمال والصناع من شمال إفريقيا إلى فرنسا) .

ثانى عشر : نقل الذين يصل المبشرون إلى قلوبهم إلى بيئات أخرى ، ذلك لأن المسلم فى حياته الاجتماعية محوط بكثير من الأحوال والظروف التى تربطه بأخيه المسلم فى كل موضع من مواضع حياته العملية .

وقد أجمعت المراجع المختلفة على أن العمل فى سبيل مكافحة الإسلام ، إنما يتم بوسائل مختلفة أهمها :

١ — إثارة الشبهات حول الإسلام وتعاليمه : (تعدد الزوجات ، الحجاب ، الربا ، المرأة) .

٢ — محاولة القول : بأن الإسلام منسجم مع الحضارة الغربية ، غير أن الفقهاء والعلماء يجمدون دون تأويله وتفسيره ، وهذا عندهم أمضى سلاح لمقاومة الإسلام ، وعلينا أن ننبه إلى مرمى هذا القول ، فالإسلام منهج كامل لا يخضع للمناهج الأخرى ، ولكنه يتقبل الصالح والإيجابى من الوسائل والأساليب التى يتفق مع نسيجه ، ولذلك فإن فكرة تأويل الإسلام وتفسيره بما يتفق مع الفكر الغربى لا يقرها الإسلام بحال ، فإنها إنما ترمى إلى إعطاء تنازلات تتلوها تنازلات دون أن تتوقف عند حد ، وليس كذلك

الاجتهاد فى مفهوم الإسلام ، وليس كذلك انفتاح الإسلام على الحضارات . ليس الحق هو النظرة الغربية . وليس على الإسلام أن يتفق معها أو يتأمل أصوله الربانية لتقبل هذا الاتجاه أو ذاك .

٣ – قد يترك المبشرون مجال المبادئ الإسلامية نفسها ، ويتجهون إلى الغض من شأن الضوابط الأخلاقية . والعمل للقضاء على الشعور الأخلاقى . وبيان أن ما أقامه الإسلام فى سبيل تنظيم علاقات المرء ورفعها عن الانحدار إلى الغرائز الجامحة . إنما هى أغلال باطلة ، ويتعللون هنا بعبارة : (العقد النفسية) وهذه فى الحق ليست إلا وسيلة لإقصاء المسلم عن قيم الإسلام ، ويتصل بها إقامة حفلات الرقص والموسيقى لإثارة الغرائز ، ودفع الشباب إلى اقتحام العقبة الأولى فى طريق الشهوات ، كالكأس الأولى ، والاتصالات المحرمة .

من هنا وقد وضحت أمامنا هذه الحقائق أن نتنبه لها . وأن نحاول أن نكون من اليقظة فلا تخدعنا الكتب اللامعة الفاخرة ، والصحف الواسعة الانتشار ، وأسماء الكتاب اللامعة ذات الألقاب الفخمة . ولتكن نظرتنا دائماً إلى هدف أى قول ، ولا بد أنه نصنف الكتاب وفق قاعدة (الجرح والتعديل) فكل من اتصلت به شبهة التبشير أو التغريب أو الشعوبية . فعلينا أن نكشف هدفه دوماً ونفضح خطته .

* * *

الفصل الثالث

عمداء التبشير وخلفائهم

لا شك أن أبرز المبشرين على الإطلاق هو (كرينليوس فانديك) الكبير الذى وصل بيروت عام ١٨٤٠ ، وتخرجت على يديه أجيال ، وهو الذى أشرف على ترجمة التوراة ، وساعده فى العمل ناصيف البازجى ، وفارس الشدياق ، وبطرس البستانى ، وعاش بها طبيباً ومبشراً حتى توفى عام ١٨٩٥ ، أما فى مصر والبلاد العربية ، فقد كان أشهر المبشرين — (صمويل زويمر) وهو صاحب فكرة مؤتمرات التبشير ، وقد بدأ عمله فى البحرين عام ١٩٠١ تقريباً ، وانتقل منها إلى الإحساء ، ثم عاد إلى البحرين ، وكان يلقب نفسه : بضيف الله ، والأهالى يدعونه : ضيف الشيطان ، وقد فتح أول أمره حانوتاً فى السوق لبيع الكتب المختلفة ، ثم تخصص بالتدريج فى بيع الكتب التبشيرية ، وساعدته القنصلية الإنجليزية فى بناء مدرسة ومستشفى .

وعنى بالكتابة عن الإسلام وأذاع آراء المبشرين وشبهاتهم ومن أهم كتبه :

(الإسلام : ماضيه ، حاضره ، مستقبله) الذى دعا فيه أوربا إلى إثارة حملة من الدعوة إلى الإقليمية فى العالم الإسلامى ، لتمزيق وحدته الفكرية ، وخلق قضايا قومية ذات جذور تاريخية لتفريق الصف وسيادة النفوذ الاستعمارى ، وله مؤلفات أخرى خلط فيها خلطاً كبيراً بين الوقائع والأهواء ، ومن ذلك رسالته عن الوهابية التى تلاها فى جمعية فكتوريا الفلسفيةعام ١٩٠٢ وانتقد فيها ابن القيم المتوفى عام ٧٥١ ، لأنه يقول عن نفسه : إنه حنبلى ، ولا يقول : إنه وهابى ، أى أنه يعيب على ابن القيم أنه لا ينتسب إلى عالم جاء بعده بأربعمائة وخمسة وخمسين سنة ، وهو الإمام محمد بن عبد الوهاب ، الذى أطلق الاستعمار اسم الوهابية على حركته التى تسمى أصلا : بدعوة التوحيد.

ولقد كانت لزويمر آراء متعددة فى دفع الحركة التبشيرية إلى العمل(١) ، تقوم على أساس خبرة دقيقة وتعصب بالغ . وأبرز آرائه إيمانه بأن هدف التبشير ليس إدخال المسلمين فى دين معين . ولكنه إخراجهم من الإسلام أولا . وقد كان من جرأته البالغة أنه اقتحم الأزهر فى ١٨ أبريل عام ١٩٢٨ وطاف بحلقات الدرس ومعه بعض زملائه ، وتباحثوا مع الطلاب والأساتذة بما يمس الإسلام . ثم هاجم الطلاب فى دارهم بتوزيع منشورات مطبوعة عن التبشير المسيحى . وفى هذه المنشورات يدعو المسلمين إلى العودة للصلاة على جهة بيت المقدس . ويقول : (إن محمداً صلى الله عليه وسلم ما تحول عنها عن وحى . وإنما تركها تبرماً من اليهودية) وقد أحدثت زيارته اضطراباً شديداً وهياجاً شاملا فى نظام الدراسة . وكتب بعض الأزهريين فى الصحف يندد بهذا التصرف . وتقدم بعض شيوخ البرلمان بالسؤال . وتبين أن زويمر كان قد حصل على تصريح من وزارة الأوقاف لهذا الغرض ، وأن الوزارة استردت منه هذا التصريح ، وكان من آثار ذلك التفكير فى إنشاء جمعية الشبان المسلمين فى كل بلد من البلاد العربية والإسلامية .

وقد حرر زويمر كتباً متعددة كلها حملات على الإسلام والقرآن والنبى صلى الله عليه وسلم . وهو يؤمن بأن التعليم التبشيرى هو المصدر الأساسى للعمل بين المسلمين ، ويرى عدم مجادلة المسلمين بالبراهين العقلية . بل الاتصال بهم عاطفياً واستمالة أهوائهم ، ويدعو إلى توحيد هيئات التبشير حتى تتمكن من الإطباق على العالم الإسلامى وفتحه .

ومن أعماله : ترجمة كتاب للأب لويس شيحو . أسماه : خرافات القرآن . وهى واحدة من الرسائل التى تردد عشرات الشبهات المعروفة والمتداولة . والتى واجهها كتاب المسلمين بالرد والإسقاط . وقد زار زويمر مختلف المناطق الإسلامية فى الجزيرة العربية . ومصر . والسودان . وكانت له مساجلات ومجادلات مع العلماء فى كل مكان . وهو فى كل ما يكتبه يعرض بالإسلام . فهو حين يتحدث عن الغزالى يحاول أن يربط بين آرائه . وبين بعض الآراء فى المسيحية . ولذلك يضع لكتابه عنواناً غريباً هو : (يسوع فى أحياء الغزالى) موهماً بأن آراء الغزالى مقتبسة من الإنجيل . مستغلا

(١) أوردنا هذه الآراء فى الأبواب المختلفة لهذا الكتاب .

ذلك التشابه والاتصال الذى يمكن أن يلتقطه فيما بين الإسلام والمسيحية فى جوانب التسامح والرحمة وغيرها . ومن المعروف أن مصدر الأديان السماوية واحد . وأن الإسلام جاء جامعاً لكل ما فى الأديان السماوية من فضائل .

ويذكر الأستاذ حسن بجيلة : أن زويمر ألقى فى السودان محاضرة عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه . ودهش الناس لذلك . ولكنهم تبينوا أنه كان يحاول من طرف خفى أن يصور سيدنا عمر رضى الله عنه وكأنه صاحب آراء أخذ بها النبى صلى الله عليه وسلم . وأن القرآن قد نصره فى غير موضع . وأيد رأيه الذى كان مغايراً لرأى النبى صلى الله عليه وسلم وهذا هو منهج التبشير كما وضعه زويمر : العمل دائماً على إثارة الشبهات . والتشكيك فى الحقائق المقطوع بها . واستغلال النصوص .

٢ — أما المبشر (وليم ويلكوكس) فهو فى الأصل مهندس رى عريق . استقدمه الاحتلال البريطانى إلى مصر . وكان له دور كبير فى تأريث النفوذ البريطانى . وتوزيع أراضى الدائرة السنية على الباشوات أعوان الاستعمار . هؤلاء الذين خلق منهم (كرومر) الطبقة الجديدة التى أطلق عليها : (أصحاب المصالح الحقيقية) وهم الذين تكون منهم عام ١٩٠٧ حزب الأمة . وأصدروا (الجريدة) وكانوا يمثلون القوة الفعلية التى يسيطر بها النفوذ البريطانى فى مصر وعليهم ركز كرومر فى بناء (مصر الحديثة) فمنهم خرج رجال الأحزاب السياسية . وكان لأبنائهم دور كبير بعد الحرب الأولى .

وكانت هذه المدرسة تؤمن بأن الاستعمار البريطانى باق ولا بد من التعاون معه على أساس مفاهيمه وفلسفته التى عبر عنها لطفى السيد فى الجريدة من إعلاء الوطنية الضيقة والإقليمية المحددة ورفض الوحدة العربية والجامعة الإسلامية والإيمان بالثقافة الإنجليزية والفكر الغربى فى مفاهيمه السياسية والاقتصادية . والولاء للرأسمالية الغربية والديمقراطية الغربية .

وقد تحول هذا المبشر : (ويلكوكس) بعد أن أحيل إلى المعاش إلى مبشر . فأخذ يدعو إلى استعمال اللغة العامية . وله خطاب مشهور ألقاه فى نادى الأزبكية (يناير عام ١٩٨٣) دعا فيه المصريين إلى التماس نهضتهم فى ظل العامية . وكان عنوان خطابه : لماذا لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين حتى الآن ؟

قال فيه : إن من جملة العوامل فى فقد قوة الاختراع عند المصريين استبقاءهم اللغة العربية الفصحى ، وأشار بإغفالها واستبدالها باللغة العامية اقتداء بالأمم الأخرى ، وذكر بنوع خاص الأمة الإنجليزية ، وقال : إنها استفادت فائدة كبيرة بإغفال اللغة اللاتينية التى كانت لغة الكتابة عندها ، واستبدالها باللغة الإنجليزية الحاضرة .

ولم يتوقف ويلكوكس عند هذا الحد بل اشترى ترخيص مجلة اسمها الأزهر ، وراح يردد فيها هذه الدعوة ، ومضى فاتجه إلى التوراة فترجمها إلى اللغة العامية ، وكان يذهب إلى القرى النائية يحمل الأدوية والتبشير ، وظل يعمل فى مستشفى مصر القديمة (هرمل) ، وله كتاب : الأكل والإيمان باللغة العامية وزعه مجاناً على العامة فى المدن والقرى . ويعد ويلكوكس أستاذ سلامة موسى فى الدعوة إلى العامية ، فقد حمل لواءها بعده وكتب عنه كثيراً وردد آرائه ، ولقد وجد ويلكوكس فى دعوته إلى العامية مقاومة شديدة ، ومعارضة صامدة هزمته ودفعته إلى التخلى عن آرائه ودعوته .

٣ ــ دنلوب : ويعد المبشر (دنلوب) أخطر هؤلاء جميعاً ، فقد استعان به كرومر على تكريس برنامج التعليم فى المدارس الأميرية على نمط المدارس الأجنبية ، ومدارس الإرساليات بحيث يرفع منها تعليم القرآن ، ومناهج التاريخ ، والتعاليم الإسلامية ، هذا العمل الذى أشار إليه (زويمر) فى أحد تقاريره عندما قال : (لقد قضينا على برنامج التعليم فى الأقطار الإسلامية فأخرجنا منها القرآن ، وتاريخ الإسلام ، ومن ثم أخرجنا الشباب والفتاة المسلمين من الوسائط التى تخلق فيهم العقيدة ، والوطنية ، والأخلاق ، والرجولة ، والدفاع عن الحق) .

ثم عقب بقوله : (إن القضاء على الإسلام فى مدارس المسلمين هو أكبر واسطة التبشير ، وقد جنينا منه أعظم الثمرات) .

وقد كانت أبرز أعمال دنلوب :

أولا : محاربة اللغة العربية والإسلام والأزهر ، وقد عمد إلى اضطهاد معلمى اللغة العربية من الأزهريين .

ثانياً : نشر لواء اللغة الإنجليزية ، وتأهيلها للسيطرة الكاملة على كل شئون التعليم ، وذلك للقضاء على نفوذ اللغة العربية .

ثالثاً : إعداد برامج يقضى على شخصية الأمة ، ويهدف إلى تصويرها بصورة البلد المحتل للفرس والرومان والعرب(١) والإنجليز . واتهام الحضارة الإسلامية بالضعف ، واللغة العربية بالتخلف ، والإسلام بالجمود .

رابعاً : تجاهل الروابط والجذور التى تربط المصريين بالعرب والمسلمين دماً وجنساً ولغة وديناً ، وخلق جو من الإقليمية ، وعرض صور الخلاف والحروب والصراع بين المصريين والعرب ، وبين العرب والمسلمين .

وقد أبطل دنلوب عدداً من الكتب التربوية النافعة ، لأنها تتحدث عن القيم الإسلامية ، ومنها كتب عبد العزيز جاويش ، وعلى مبارك ، وحمزة فتح الله ، ووضع بدلا منها مؤلفات خالية من القيم التى تستمد من الإسلام أو العروبة ، أو اللغة العربية أو التاريخ الإسلامى ، والتى تتسم بالبطولة أو الكرامة .

وبذلك خلت المناهج من روح الإسلام فى التربية وروح القرآن فى الفكر ، وجردت المدارس من التربية الإسلامية التى تربى الرجولة ، وتعد الشباب للجهاد فى سبيل دحر المستعمر ، وتخليص الأوطان من الغاصبين .

* * *

(١) ردد التبشير هذه الفرية وأعادها أتباعه الذين اعتبروا انصهار مصر فى العروبة والإسلام استعماراً واحتلالا .

٢ — خلفاء المبشرين

وقد تابع دعاة التبشير جيل من الذين تعلموا فى الإرساليات ، والمدارس ، والجامعات الأجنبية وفق المنهج الذى رسمته مخططات الاستعمار بقصد إنشاء أجيال تغض من قدر ثقافتها الأصيلة وتاريخها وتراثها وماضيها جملة .

وكان أغلب البارزين فى هذا الجيل قد اتجهوا نحو القاهرة ، باعتبارها المركز الأول الذى تنطلق منه الثقافة للعالم الإسلامى والبلاد العربية جميعاً ، عن طريق أقوى صحافة برزت بقيادة : (تقلا ، وصروف ، ونمر ، وزيدان ، وسركيس) ومن خلال هذه الصحف ظهرت سموم (فرح أنطون ، وشبلى شميل ، وأديب إسحاق ، وجرجى زيدان) وآراء الدكتور صروف ، ونمر ، ومكاريوس حيث تكونت تلك الدائرة الصماء التى حاولت أن تسيطر على قيادة حركة اليقظة الفكرية الإسلامية العربية بالاتصال بالسيد جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده . وكان من حولها كثير من هؤلاء أمثال سليم عنحورى ، ويعقوب صنوع ، وأديب إسحاق ، وقد قلب هؤلاء جميعاً ظهر المجن لفكرة جمال الدين بعد خروجه من مصر ، وتعاونوا مع النفوذ الأجنبى .

ومن هذا الرعيل : صابونجى ، ومراش ، وآخرون سافروا إلى لندن ، وباريس وروما ، وأصدروا صحفاً بالعربية لم يكن لها هدف غير تفكيك الوحدة القائمة بين العرب والمسلمين فى مواجهة الزحف الاستعمارى الضاغط .

وقد طرح فرح أنطون ، وشبلى شميل ، وجرجى زيدان عديداً من الآراء التى تمثل الاتجاه التغريبى الوليد ، والتى تابعت مخطط اللورد كرومر ومفاهيمه عن الإسلام والعرب واللغة العربية ، ثم انضم إليهم بعد قليل حزب الأمة ، والجريدة ، ولطفى السيد ، وكان سعد زغلول ، وعبد العزيز فهمى ، وغيرهم يتابعون توجيهات كرومر ، ويشيدون بها فى مجال الإقليمية وقصر التعليم على اللغة الإنجليزية ، وعلى أولاد الأعيان ، ولكن آراء هؤلاء واجهت ردوداً دحضت شبهاتها ، فقد رد الإمام محمد عبده على كتابات فرح أنطون

واتهاماته للفكر الإسلامى . ورد فريد وجدى على الفلسفة المادية التى أذاع بها شبلى شميل ودكتور صروف ، ورد شبلى النعمانى على مغالطات جرجى زيدان . وقاوم مصطفى الغلاييني . وعبد العزيز جاويش . وعلى يوسف . ومصطفى كامل . وفريد وجدى مختلف الآراء الغربية التى ألقيت فى حقل الثقافة العربية فى هذه الفترة .

وفيما بعد الحرب العالمية الأولى ظهر جيل جديد قوامه : طه حسين ، وسلامة موسى ، ومحمود عزمى ، وعلى عبد الرازق . وإسماعيل مظهر . وساطع الحصرى ، وقد واجهه عدد من مدرسة اليقظة الفكرية الإسلامية ورحض ما عرض هؤلاء من شبهات .

وقد عرض لطه حسين وآرائه كثيرون فى مقدمتهم : الخضر حسين ، وفريد وجدى ، ولطفى جمعة ، والدكتور محمد أحمد الغمراوى ، وساطع الحصرى ، ودكتور هيكل ، ومصطفى صادق الرافعى ، ومحب الدين الخطيب ، وشكيب أرسلان . وعرض لآراء سلامة كثيرون فى مقدمتهم : الدكتور أحمد الحوفى ، وزكى مبارك ، ومحب الدين الخطيب . وعرض لآراء على عبد الرازق : الطاهر بن عاشور ، ومحمد بخيت ، والخضر حسين . وتصدى لآراء ساطع الحصرى : محب الدين الخطيب ، وعمر فروخ وغيرهم . وبالجملة فإن رأياً من آراء المبشرين التى جرت على أقلام هؤلاء الكتاب لم يمر دون أن يجد دحضاً من أقلام واعية أصيلة الإيمان بالفكر الإسلامى والثقافة العربية ، وإن ظل لهذه الآراء قدرة على التشكل والظهور مرة بعد مرة نتيجة لسيطرة النفوذ الأجنبى الذى يحركها على بعض المجالات التعليمية والصحفية والثقافة فى العالم العربى .

وكانت بيروت فى السنوات الأخيرة مقراً لهذا اللون ونقطة انبثاق فى مواجهة المثقفين العرب جميعاً . ومن القاهرة ظهرت مجلات متوالية لمصارعة هذا الاتجاه ، ودحض شبهاته وشجب مخططه ، وقد ظلت المجلات العربية والإسلامية تعنى كثيراً بالمؤلفات التبشيرية التى تصدر فى أوربا وأمريكا وبلغ غاية الجهد فى ذلك الأمر شكيب أرسلان ، والدكتور زكى على ، وعجاج نويهض ، وقد أولت حركة التبشير التى أطلقت على نفسها من بعد

حركة التغريب اهتماماً كبيراً بالشباب الذى تصدره الإرساليات على أسلوب المبشرين ، وبرع منهم عدد كبير فى أداء دوره ، وقد أعانهم على ذلك أن المبشرين وضعوا عشرات المؤلفات التى ضمنوها رؤوس الموضوعات التى تثار بين حين وآخر ، وتحفل بالطعن على العرب والإسلام ، واللغة العربية والقرآن ، والتاريخ الإسلامى العربى ، وقد غض هؤلاء الطرف عن المؤلفات والأبحاث التى أنصفت تاريخ المسلمين وحضارتهم وتراثهم ، بل أن الأسماء اللاحقة التى دافعت عن الفكر الإسلامى والثقافة العربية هى لديهم موضع التحقير والازدراء أمثال : جوستاف لوبون ، وتوماس كارليل ، والدكتورة هونكة واسين بلاثيوس .

ومن أبرز أعمال هذا الجهاز أنه يسارع — كما وجد حركة مد لإعلاء شأن التراث الإسلامى ، واللغة العربية والإسلام — إلى إثارة قضايا وخلق مقارنات بين الآداب العربية والآداب الغربية فى مجال إعلاء الثقافات الغربية . واتهام الثقافة العربية الإسلامية بالقصور والتخلف ، وذلك فى محاولة دائمة من النفوذ الاستعمارى للحيلولة دون خلق نفسية عربية ، أو إسلامية متميزة ، والعمل دوماً على إخضاعها للنفوذ الغربى الثقافى ، وإقناعها بأنها غير قادرة على التبريز ، هؤلاء خلفاء المبشرين وأتباعهم الذين لبسوا الثياب الجديدة وأخفوا وراءها أنياب المبشرين الكاسرة وأظافرهم الجارحة ، هم الذين تصدر باسمهم صحف أنيقة فى عواصم عربية ، تدفع أجور ضخمة لكتابها وتعرض بالسموم لكل مقدراتنا ، وهم الذين يدعون إلى المؤتمرات المختلفة فى الغرب . وتكون كلماتهم المحررة بتوجيه خاص . هى الكلمات المنسوبة إلى المسلمين وكأنها تردد أفكارهم ومفاهيمهم ، ولقد حرص النفوذ الاستعمارى على إذاعة أسمائهم ، وخلق هالات من الضوء حولهم ، كما أفسح لهم مجال الشهرة والغنى . وهم المتصدرون للمعارك فى جرأة المطمئن إلى سناده الذى يحميه .

ولقد كان هؤلاء دائماً كلما ثارت الثائرة حول عمل من أعمال التبشير يقولون تلك الكلمة البسيطة الخطيرة : (إن الإسلام الراسخ لا يمكن أن تؤثر فيه مثل هذه الأحداث) تسمع هذه الكلمات كلما ضبط كتاب فى جامعة أو معهد ممتلىء بالإساءة إلى الإسلام ونبى الإسلام صلى الله عليه وسلم ، وكلما

حدثت حادثة تبشير بإخفاء شاب أو تنويمه تنويماً مغناطيسياً ، وهؤلاء الأعوان قادرون دوماً على إنقاذ سادتهم إذا وقعوا فى مأزق ، وعندما ثارت ثائرة التبشير فى مصر وهزت دوائر الاستعمار والمبشرين لشهور طويلة تقدم شيخ له عمامة مهيبة فاقتحم هذه المؤسسة الضخمة ، التى تهاوت أمام الضربات فافتتح موسمها ، وتحدث فى جرأة بالغة عن التبشير فى معقل التبشير ، ومما قاله الشيخ على عبد الرازق :

(إن هذه الحركة لا يمكن أن تؤثر فى الإسلام ، أو تضعف من شوكته ، فهى ليست بأقوى ولا أخطر مما لقى الإسلام فى بدأ ظهوره من مظاهر العداء والكيد ، وإن الحركة التبشيرية إنما هى وسيلة من وسائل المستعمرين ، تتصل بسياستهم اتصالا متيناً . ولكنها مع ذلك لن تفيدهم فى مصر شيئاً ، وأن الإسلام سيظل برغمها كما كان دين الحضارة والمدنية) .

ومضى يقول : (إن أولئك المبشرين أقل شأناً من أن يصلوا بكيدهم إلى حمى الإسلام ، أو ينالوا من الإسلام منالا ، فالإسلام دين قد صهرته الحوادث ، وتقلبت به الفتن ، وعصرته التجارب ، إن خطر المبشرين سياسى وخلقى أكثر مما هو دينى)(١) . هكذا يتقدم التبشير بأحد خلفائه وأجنحته ، هو الشيخ على عبد الرازق ، صاحب الإسلام وأصول الحكم الذى يصور الإسلام على أنه دين روحانى لا علاقة له بالدولة أو المجتمع ، أو الحكم ، وهو رأى المبشرين أنفسهم كانوا يقولونه من قبله ، فلا يجدون نصيراً له فإذا بشيخ من الأزهر يقرر ذلك ، ويستمد له نصوصاً جمعها بالتحريف والتأويل ، لتحقق لهم أملا أصبح الآن له مكانة ضخمة عندما يعرضون لمفهوم الإسلام فيستشهدون به ، وقدقبس الشيخ على عبد الرازق هذه الآراء من كتب المبشرين ، كما قبس طه حسين آرائه فى كتابه (فى الأدب الجاهلى) الذى ما زال يدرس فى الجامعات ،وتتوالى طبعاته من المبشر جرجس سال ، كل فيما أورده فيه من شبهات .

---

(١) السياسة اليومية : ١٣ أبريل عام ١٩٣٢ .

وفى المرحلة الأولى وقبل الحرب العالمية كان المبشرون ينشرون آرائهم بأنفسهم : زويمر ، وكرومر ، وداكور ومرجيلوث ، وهانوتو . ثم جاء فرح أنطون ، وصروف ، وشبلى شميل ،وجرجى زيدان ، وداود بركات ، وفارس نمر (فتصدروا منصة التبشير ، وحملوا لوأنه فى صحف ضخمة منشورة) وهم أبناء الإرساليات التبشيرية ، وخريجو معاهدها ومدارسها .

غير أن النجاح الذى حققه التبشير بحق هو ذلك الجيل الذى جاء قبيل الحرب العالمية الأولى وبعدها ، من أمثال : لطفى السيد ، وسعد زغلول ، وطه حسين ، وعلى عبد الرازق ، وسلامة موسى ، وساطع الحصرى ، ومحمود عزمى على اختلاف فى الآراء وتعارض فيما بينهم أشبه بتعارض أصحاب الغنائم ، ومقتسمى الأسلاب . وبذلك حقق النفوذ الاستعمارى عن طريق التبشير واحدة من أهم توصياته ، وخلق قاعدة من أكبر ركائزه ، تلك التى صورها عميد التبشير زويمر حين قال :

(إن تبشير المسلم يجب أن يكون بلسان من أنفسهم ، ومن بين صفوتهم ، فإن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أبنائها) .

٣ — عمداء التبشير وأتباعهم

من أخطر أعمال التبشير فى مجال التغريب هو وضع خطة شاملة لغزو الفكر الإسلامى ، والتأثير فيه بالإعلاء والخفض ، والإكبار والتصغير . وفق مفهوم واضح هو تحطيم القمم العالية التى يعتز بها المسلمون والعرب ، وإخفاء معالم البطولة عن الشخصيات الأصيلة ، وإضفاء بطولة زائفة على الشخصيات الشعوبية المضللة فى تاريخ الإسلام والثقافة العربية . ويحمل اليوم الشعوبيون ودعاة التغريب على الإمام الغزالى،متابعين خطة أسلافهم المبشرين والمستشرقين وكان ذلك قد بدأ فى وقت مبكر عندما أغروا الدكتور زكى مبارك بتأليف كتابه الأخلاق عن الغزالى عام ١٩٢٥ (وإن كان الدكتور مبارك قد قاد معارك أخرى حول وحدة الوجود ، والحلول ، وأثار شبهات كثيرة ضارة ، كما أنه تحدث عن القرآن فى النثر الفنى حديث المبشرين أنفسهم الذين يرون

أن محمداً هو منشئ القرآن(١) .

وذنب الإمام الغزالى القديم المتجدد أنه أوقف فى وجه تيار الفلسفة الإلهية اليونانية المستمدة من علم الأصنام ، والقائمة على أصول وثنية تختلف اختلافاً جذرياً عن الفلسفة المستمدة من الإسلام ، ويردد خصوم الغزالى عبارة واحدة يجعلونها معقد اتهامه ، وهى معقد شرفه هى : أن الغزالى وقف فى وجه الفلسفة وهاجمها ، ومن الحق أن يقال : إن الغزالى لم يهاجم الفلسفة بعامة ، وقد اعترف بصحة آراء الفلاسفة فى مجال المنطق والطبيعيات ، ولكنه أنكر عليهم النتائج التى حصلوا عليها فى البحث فيما وراء الطبيعة وفى الإلهيات ، وبذلك حفظ للإسلام مقومه الفكرى الأساسى : (التوحيد) .

ومن الشخصيات اللامعة فى تاريخ الإسلام والفكر الإسلامى التى هاجمها التبشير : شخصية (المتنبى) . وقد حاول الدكتور طه حسين أن يصل فى كتاب ضخم إلى إثارة الشبهات حول نسب المتنبى بغرض تحقيره وتصغيره فى نفوس المسلمين والعرب ، حين ادعى أنه لقيط وساق على ذلك آراء وشبهات كان قد أوردها (بلاشير) فى كتابه عنه (٢) .

وقد تصدى له الأستاذ محمود محمد شاكر فى فصول متوالية نشرت فى الصحف (راجع كتابنا : المساجلات) فند فيها هذا الاتهام الظالم . ولقد عنى الدكتور طه حسين أيضاً بمحاولة تحطيم شخصية (ابن خلدون) فى أطروحته التى تقدم بها إلى جامعة باريس عام ١٩١٤ ، والتى كتبها تحت إشراف رجل يهودى هو « دوركايم » الذى كانت آرائه حملات تعصب على هذا العلامة المؤرخ العملاق . وقد كذبت الدراسات المتوالية وأشارت بالاتهام إلى الدكتور طه حسين وأستاذه ، بعد أن وضعت أكاليل الغار على رأس شيخ المؤرخين ، ومؤسس علمى التاريخ والاجتماع . وكان الدكتور منصور فهمى موقف قديم فى مجال متابعة المبشرين والمستشرقين حين وضع أطروحته عن (المرأة المسلمة) فى باريس بإشراف عالم يهودى هو (ليفى برايل) وحين تعرض بالاتهام للرسول وزوجاته ، وقد رجع منصور فهمى عن آرائه هذه وتحول

(١) و (٢) راجع كتابنا المساجلات والمعارك الأدبية .

تحولا طيبا نحو مفاهيم الإسلام . واهتم الدكتور طه حسين كثيراً بالأدب الماجن وحاول فى كتابه . (حديث الأربعاء) أن يصف : (زيفاً وبطلاناً) أواخر القرن الأول الهجرى . وأوائل القرن الثانى بأنه عصر شك ومجون ، وكان ذلك اتهاماً خطيراً كشف الباحثون عن خدعته وتضليله . ومتابعة ركاب المستشرقين (لا جهلا ولا غفلة) ولكن متابعة فهم كامل للهدف . وعمل كامل على تحقيقه فى مختلف المجالات الثقافية والتعليمية ، وقد كان طه حسين أول من دعا إلى اعتماد كتب المحاضرات والفكاهات كمصادر للدراسة ، وقد اعتمد هو فى هذا الرأى على كتاب الأغانى . كما اعتمد جرجى زيدان فى اتهام المسلمين والعرب على كتاب العقد الفريد (الذى أورد حجج فريق المتعصبين العرب وحجج خصومهم) وكان معظم مانقله جرجى زيدان من آراء خصومهم .

وحين حكم طه حسين على عصر الإسلام الأول بأنه عصر شك ومجون من خلال خمسة من الشعراء المتهالكين على المجون أمثال : بشار ، وأبى نواس وصفهم بأنهم يمثلون عصرهم تمثيلا صحيحاً . كان قد ترك مختلف طوائف الفقهاء ، والمحدثين ، والمتكلمين ، والرواة ، وعلماء اللغة ، والزهاد . فبظلم للبحث العلمى اتخذ من حياة خمسة شعراء ماجنين ميزاناً للعصر كله . واعتبر شعرهم صورة عامة للعصر .

وقد أولى الدكتور طه حسين اهتمامه إلى مختلف وسائل إذاعة الشعوبية والتشكيك . وليس أدل على ذلك من اهتمامه بطبع رسائل إخوان الصفا بعد عودته من أوربا ، وطبع هذه الرسائل عمل أدبى خالص إذا ما قصد به وجه العلم ، وقام على أصول البحث العلمى . وكشف عن حقيقة أهداف هذه الرسائل ، أما إذاعتها بالتمجيد والتكريم بدعوى أنها عمل من أعمال حرية الفكر ، فهذا هو هدف التبشير والتغريب من إثارة الشبهات وإذاعتها ، والمعروف أن جماعة إخوان الصفا الذين ظهروا فى القرن الرابع الهجرى (٣٣٤ – ٣٧٣) فى البصرة إنما هم جمعية سرية من الباطنية ، والمجوس ، والزنادقة الحاقدين على الإسلام والعرب ، واللغة العربية ، ولهم صلات أكيدة وواضحة بالحركات المريبة التى كانت تعمل على تقويض المجتمع الإسلامى

والدعوة الإسلامية — وليس الحكومة الإسلامية فقط — وكانوا قد وجدوا أن الطريق إلى دعوتهم يمكن أن يكون أكثر إيجابية إذا قام على الشبهات الفكرية المتصلة بالتوحيد ، وصميم روح الإسلام وجوهره ، وقد اتخذوا لدعوتهم السرية السياسية ظاهراً فكرياً أخفوا وراءه غاياتهم ، وطابعاً علمياً وفلسفياً زعموا به أن الشريعة قد دنست بالجهالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة . وهم إنما اتخذوا من وسائل إخوان الصفا منهجاً لقلب الإسلام نفسه ، وإدخال الفلسفات الوثنية إليه وإبدال طابعه إبدالا ينتهى به تماماً . وإلا فلماذا أخفى هؤلاء العلماء الأجلاء أسمائهم لو كانوا حسنى النية ، طيبى القصد ، وكان شرفاً لهم أن يعلنوا ذواتهم كمصلحين !

وما يزال التاريخ الحديث ملىء بالثغرات والأخطاء التى تجرى اليوم مجرى الحقائق ، وأهمها ما بين العرب والترك ، وفى مقدمة ذلك السلطان عبد الحميد خصم الصهيونية والماسونية والاستعمار البريطانى ، وحامل لواء الوحدة الإسلامية فى وجه النفوذ الغربى الزاحف .

وما تزال الحملة على السلطان عبد الحميد التى أثارها الاستعمار والتبشير لخدمة النفوذ الأجنبى ، والصهيونية ، ما تزال مستمرة على أقلام الذين يكتبون باللغة العربية دون محاولة صادقة لتحقيق الأصول التى اعتمد عليها هذا الاتجاه .

وأعتقد أن الوقت قد حان لتحقيق هذا الموقف وتصحيحه .وقد كشفت الظروف حقيقة السلطان عبد الحميد وموقفه المشرف فى مسألة فلسطين ، وموقفه من الصهيونية ومن الاستعمار جميعاً فى هذا الصدد ، والحق أن ما وجه للسلطان عبد الحميد كان غالياً مسرفاً ، ولم يكن كله حق ، فلم يكن عبدالحميد على الأقل دكتاتورياً على الصورة التى عرفت من بعد عن الاتحاديين الذين علقوا العرب على المشانق ، ولا عن مصطفى كمال ، وغيره من دكتاتورى الشرق .

وقد استغل التبشير والاستشراق فى هذا الصدد كتابات (الكواكبى) الذى لو كان يعرف إلى أى حد ستصبح كتابته سلاحاً ضد الإسلام والأمة العربية نفسها لتحفظ كثيراً فيما ذهب إليه .

والمعروف أن الحملة على عبد الحميد بلغت مداها عندما كادت دعوته إلى الجامعة الإسلامية تؤتى ثمرتها ، وأن الذين حملوا لواء الحملة عليه هم كتاب تخرجوا من الإرساليات التبشيرية ، وآمنوا بالأهداف التى بثتها فى العالم الإسلامى . وهم حين هاجموا عبد الحميد وأثاروا حوله هذه الشبهات لم يكونوا يستهدفون إسقاطه إلا كمقدمة لتمزيق الدولة العثمانية نفسها . وقد عمل دعاة التغريب وأتباع المستشرقين فى مجال الدعوة إلى التبشير بمخطط واضح . وأفسحوا الطريق للإلحاد والإباحة والشعوبية . وهى أهم ثمار التبشير وأبرز دعائم مخططة فى مجال الثقافة . وهؤلاء الدعاة قد مرنوا على أساليب التمويه فى الغرب . وأحكموا طرق الدعاية (ووقف من ورائهم قوم لهم نفوذ يحمون ظهورهم ويدفعون عنهم ما يصيبهم) وذلك فى سبيل الغاية الكبرى :

(هدم الإسلام فى قلوب أهله وتجريد المسلمين منه) .

فالدكتور كامل حسين علل الصلب وأقره فى كتابه (قرية ظالمة) .

وعلى عبد الرازق : حاول أن يتخذ من النصوص المقطوعة عن أصولها سبيلا لأن ينفى عن الإسلام أنه دين حكم ونظام مجتمع .

وطه حسين : عمد إلى تحطيم قدسية النص الدينى . والفصل بين الدين والأدب فى الفكر الإسلامى ، ولقد عرض كثيرون لكتاب الشعر الجاهلى وقالوا : إن طه حسين يردد نظرية مرجليوث فى أن الشعر الجاهلى موضوع ، وهو مغمر يدين طه حسين كباحث ، ولكن الهدف الأخطر من الشعر الجاهلى الذى لا يزال يقرأ تحت اسم الأدب الجاهلى هو : دعوته إلى (نسيان القومية والدين كشرط أساسى من شروط البحث العلمى) .

ويصور خطر هذه الدعوة المستشرق (كاممفاير) : إن المحاولة الجريئة التى قام بها طه حسين ومن يشايعه فى الرأى لتخليص دراسة العربية من شباك العلوم الدينية ، هى حركة لا يمكن تحديد آثارها على مستقبل الإسلام مهما أسرفنا فى التقدير ، فإنك لا تجد كلمة عنها .

ذلك أن عملية الفصل بين أجزاء الفكر الإسلامى المتقابلة الملتقية ، هو الهدف الأول الذى يهدف إليه التبشير والاستعمار . وهو الذى يجعل الأدب

جريئاً على كتابة الأدب المكشوف دون أن يخشى قيود الأخلاق ، وأن يصبح النص القرآني عرضة لأن يوضع موضع النقد ، وهذا هدف كبير .

أما سلامة موسى فقد كان مفهومه واضح وعمله صريح : عبر عنه في حرية كاملة حين قال : (هذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب في كل ما أكتب ، أحاول أن أجعل قرائي يولون وجوههم نحو الغرب وينفصلون من الشرق ، وليس هناك حد يجب أن نقف عنده في اقتباسنا من الحضارة الأوربية) .

ولا ريب أن هذا من أكبر أهداف التبشير والنفوذ الاستعماري .

وقد ردد طه حسين الدعوة إلى تكوين الصفوة المثقفة . وأشار إلى أن السبيل لتحقيق ذلك هو أن نفتح الطريق أمام مختلف العناصر الأجنبية وقال : (إما أن نقتصر على ثقافة بعينها ، أو يقتر علينا في الثقافة فلا تدخلها العناصر الأجنبية إلا بمقدار ، فهذا هو الشر الذي لا يتفق مع كرامتنا) وقال : (هنالك أشياء لا بد منها لتكوين المثقف الممتاز أهمها أمران : فتح الأبواب للثقافات الأجنبية لتمتزج بثقافتنا ، والعناية بجعل اللغة العربية لغة مصرية) .

ومعروف بالطبع ما يقصد إليه طه حسين .

وقد احتفلت دوائر التبشير إلى أبعد حد بالآراء التي أعلنها (علي عبدالرازق) في كتابه عن الإسلام وأصول الحكم التي حاول بها أن يجعل الإسلام ديناً روحياً محضاً لا علاقة له بالحكم ، وإنكار التطبيق للشريعة الإسلامية ، فقد كانت هذه الآراء التي أكدها عالم من الأزهر عام ١٩٢٦ ، هي نفس الآراء التي ألقاها اللورد كرومر إلى المثقفين من المصريين الطامحين إلى تولي شئون بلادهم عام ١٩٠٦ ، وفي مقدمتهم : سعد زغلول ، لطفي السيد ، وعبد العزيز فهمي ، غير أن أحداً لم يجرؤ في هذه الفترة أن يواجه هذه المسألة في صراحة ، وكانوا جميعاً يدورون حولها في رفق ومكر ، حتى جاء هذا القاضي الشرعي فوضعها موضعاً علمياً زائفاً على طريقة المستشرقين والمبشرين في فهم النصوص واستغلالها . ذلك أن علي عبد الرازق كان قد حدد لنفسه أو حدد له ذووه الغاية قبل أن يبدأ البحث : الغاية هي مقاومة محاولة الملك فؤاد في الحصول

على الخلافة . هذه المحاولة التى لم يكن فى الإمكان معارضتها سياسياً . ولذلك فإن السلاح الماضى لتحقيقها هو سلاح (النص الدينى) . ومن هنا أجرى على عبد الرازق هذه المحاولة معتمداً على نصوص ممزقة من هنا وهناك ، وعلى كتب مؤلفة فى تركيا حاول ذووها تأييد الاتجاه الذى قرره الاستعمار ونفذه مصطفى كمال بإلغاء الخلافة ، ومحاولة إيجاد عقلية لهذا الغرض تقوم على أن الخلافة ليست أصلا من أصول الإسلام .

و (فيليب حتى) واحد من المبشرين الذين عملوا فى مجال الدراسات التبشيرية فى الغرب ، وقد حملت كتبه جميع الشبهات والنظريات التى قصد النفوذ الاستعمارى إلى ترويجها وإذاعتها . وهو من الذين يردون النهضة الفكرية واليقظة العربية إلى دور إرساليات التبشير والحملة الفرنسية وغيرها من الآراء التى ثبت كذبها وضلالها . ومن آرائه التى أذاعها فى جماعة من العرب عام ١٩٤٦ قوله :

(لا بد فيه لتحقيق النجاح من فصل الجامعة العربية كل الفصل عن الجامعة الإسلامية . فالأولى تجعل اللغة والثقافة أساساً للتعاون . والثانية تجعل الدين) ثم يروج الدعوة التبشيرية الغربية لفصل الدين عن السياسة (وهو ما لا يقره الفكر الإسلامى) فيقول : ومن الواضح أنه ما لم يتم فصل الدين عن السياسة فصلا تاماً ، فلا تستطيع البلدان العربية الاجتماع على مستوى واحد . ويجدر بالبلاد العربية أن تقتفى أثر لبنان .

وساطع الحصرى له آراء جيدة فى موضوعات كثيرة من الثقافة العربية . ولكن خطأه الوحيد الذى يترتب عليه كثير من أخطائه فى القضية القومية العربية التى ركز عليها ، وسلطت عليه الأضواء من أجلها — هذا الخطأ . هو أنه (استورد) المفهوم الغربى للقومية ، وحاول تطبيقه فى مجال ثقافة ترتبط بالإسلام أساساً ، والإسلام أساس من أسس فكرها الذى لا ينفصل فى مجال التاريخ واللغة والتراث ، وساطع الحصرى متأثر فى هذا الاتجاه كله بالمفهوم الغربى (العلمانى) الذى يفصل بين الدين والمجتمع ، وهو إلى ذلك يفهم الإسلام فهماً قاصراً ، فهو يتناوله على أنه (دين تعبدى لاهوتى) قائم على العلاقة بين الله والإنسان . ومن هنا فهو يستبعده كأرضية للثقافة . وهذا الفهم خاطىء

أساساً فليس الإسلام كذلك ، ولكنه في اعتقادي خطأ مقصود ومستهدف . وهو نفس المفهوم الذى روجت له حركة التبشير وحركة الاستشراق ، واعتبره الاستعمار أساساً جذرياً لتعامله مع التعليم والتربية والثقافة فى العالم الإسلامى . وهو نفس المفهوم الذى اعتنقته حركة الاتحاديين التى حكمت الدولة العثمانية منذ عام ١٩٠٨ إلى عام ١٩١٤ ، وكان ساطع الحصرى هو المسئول عن التعليم فى تركيا خلال هذه الفترة ، وقد نقل مفهومه هذا إلى العراق خلال الفترة التى عمل بها مشرفاً على شئون التعليم بها حتى وصف بأنه (دنلوب العراق) .

ومن السهل جداً على الباحث المثقف أن يرد آراء طه حسين ، وسلامة موسى ، وعلى عبد الرازق ، ومحمود عزمى ، وآراء الشعوبيين ودعاة التغريب الجدد إلى يومنا هذا إلى (الكود) الأصلى الذى كتبه المبشرون والمستشرقون فى مختلف جوانب الرأى فى اللغة العربية والإسلام . والتاريخ والحضارة الإسلامية .

ولقد تعجب لدقة هؤلاء فى الكتابة عن مختلف الشبهات ، حتى لقد عنى باحث مثل بارتولد بكتابة ترجمة واسعة مستفيضة لمسيلمة الكذاب نشرتها مجلة الرابطة الشرقية فى مصر عام ١٩٢٨ ، كما تخصص بلاشير فى المتنبى . وتخصيص ماسنيون فى الحلاج . ولكن كتابات أتباع المستشرقين والمبشرين فى اللغة العربية لم تمر دون رد عليها وكشف عن أخطائها وأهوائها .

وقد تناول الرد على طه حسين عشرات من الكتاب : الرافعى . ولطفى جمعة . وفريد وجدى ، والخضر حسين ، ومحمد أحمد الغمراوى . وتناول الرد على عبد الرازق : محمد بخيت . والخضر حسين . والطاهر بن عاشور وغيرهم . ورد على قاسم أمين : طلعت حرب ، وفريد وجدى . ورد على فرح أنطون : الإمام محمد عبده ، ورد على شبلى شميل : العلامة فريد وجدى ورد على جرجى زيدان : العلامة شبلى النعمان ، ورد على لطفى السيد : رجال أقرام أمثال : فريد وجدى . وعبد العزيز جاويش . والرافعى . فعلى الباحث المسلم المتفطن الذى يقرأ كتب هؤلاء التابعين للتبشير والتغريب أن لا يتقبل آرائهم كقضايا مسلم بها . وأن يعرف وجهة النظر الصحيحة الأصيلة .

الفصل الرابع

الصحافة التبشيرية

كانت الصحافة من أخطر الوسائل التى استعان بها التبشير على إبلاغ دعوته إلى المسلمين ليس ذلك فقط عن طريق الصحف التبشيرية الصريحة — فالمعروف أن هذه الصحف كانت معروفة وكانت موضع الامتهان والتحفظ .

ولذلك فقد عمد التبشير مدعماً بالنفوذ الاستعمارى إلى السيطرة الفعلية على الصحافة ابتداء ، ولقد كانت مصر باعتبارها أبرز الدول العربية هى المركز الأول الذى حرص الاستعمار على أن يبث منه إلى العرب جميعاً أهدافه ومخططاته ، ولذلك فقد نشأت الصحافة فى مصر فى كنف التبشير والنفوذ الاستعمارى . وكانت أهم الصحف وأخطرها وأكثرها انتشاراً وأطولها عمراً هى الصحف ذات الولاء الاستعمارى التبشيرى وفى مقدمتها : الأهرام . والمقطم ، ومن المجلات : المقتطف ، والهلال ، ومن عجب أن أصحاب هذه الصحف ومحرريها كانوا من اللبنانيين المارونيين الذين تخرجوا فى الإرساليات التبشيرية ، أو لهم ولاء لها ، أو صلة من قريب أو بعيد .

وكان الأهرام واضح الهوية فى الولاء للفرنسيين والدفاع عن معاهدهم وآرائهم وحضارتهم واستعمارهم ، حتى أنه أطلق على الثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥ م اسم الشغب ،وعلى أصحابها اسم العصاة ، كما أطلقت الأهرام هذا الوصف من قبل على الثورة العرابية ، ودافعت عن غوردن ، وكانت كتاباتها تقطر سماً ، حتى أنها تعرضت مرة لحدثين مختلفين متباعدين وقرنتهما معاً فى أسلوب ماكر لئيم ، فقد كانت الحركة الوهابية فى الحجاز تستعيد الحرمين ، وحدث أن بعض المصريين اتهموا فى مصر بالشيوعية فكتب (داود بركات) الصحفى التبشيرى الحصيف مقالا تحت عنوان : (الوهابية والشيوعية على أبواب مصر) .

وقد كانت الأهرام تهاجم الإنجليز تأكيداً لنفوذ فرنسا فى مصر ، وكانت تحارب اللغة الإنجليزية ، والثقافة الإنجليزية ، والمعاهد الإنجليزية ، تأييداً للغة الفرنسية ، والثقافة الفرنسية ، والمعاهد الفرنسية ، وكانت تغمزه بالخلاف والخصومة والتفكك وإيقاع الفتن بين الدول العربية . أما المقطم فقد كان حامل لواء الاتحاد بين الأتراك وخصوم الجامعة الإسلامية والوحدة وطالما دس الدسائس لتمزيق وحدة العرب والترك . وهاجم السلطان عبد الحميد خدمة للنفوذ الأجنبي والصهيونية . وطالما استرضى القلوب والنفوس على اليهود المظلومين !

وقد واجهت الصحف المصرية حركة التبشير (١٩٣٢ — ١٩٣٣) مواجهة تدل على مدى خضوع بعض الصحف للنفوذ الاستعمارى وللتبشير نفسه . فقد حملت جريدة الجهاد وصاحبها توفيق دياب على الصحف التى فضحت التبشير ، وقريباً من هذا ، فعلت كوكب الشرق ورئيس تحريرها طه حسين . بل أن طه حسين كتب يقول فى عبارة ساخرة : (إن الإسلام لا يضيره أن يخرج منه واحد أو أكثر) .

وقد كشف المبشرون فى مؤلفاتهم (عن أنهم استغلوا الصحافة المصرية للتعبير عن آرائهم أكثر مما استطاعوا فى أى بلد إسلامى آخر . وقد ظهرت مقالات كثيرة فى عدد من الصحف المصرية إما مأجورة فى أكثر الأحيان . أو بلا أجرة فى أحوال نادرة) وقد أشار الأستاذ محمد محمود بدير إلى أن بعض الصحف المصرية حصلت على مبالغ طائلة من جهات متعددة فى سبيل نشر مقالات معينة ، وأن أهم هذه الصحف هى السياسة الأسبوعية ، والعصور (وأضيف المجلة الجديدة لسلامة موسى ، ومجلة الرابطة الشرقية التى كان يشرف عليها على عبد الرازق) يقول بدير : (وتحدث المطلعون على مقدار الصلة بين بعض المصريين المشتغلين بالصحافة ، وبين زعماء تلك الجمعيات فى الخارج ، وعن الإمدادات المالية التى ترد تباعاً تنفيذاً لمبادئ الجمعيات المذكورة التى تقضى بمد يد المساعدة لكل فرد أو هيئة تعمل لنشر مبادئها ، حتى إذا كان النصف الأخير من سنة ١٩٢٧ وقعت مشادة بين محمد محمود باشا رئيس حزب الدستوريين ورئيس تحرير جريدة السياسة ، وسبب المشادة

هو تألم أنصار الحزب من الخطة الإلحادية التي تسلكها جريدة السياسة الأسبوعية وعلى أثر ذلك بدأت هذه الجريدة تخفف من حملتها على الأديان والتعاليم . وقد نشرت السياسة الأسبوعية جملا وتصريحات لطه حسين . وعلى عبد الرازق وسلامة موسى ، في مهاجمة الإسلام والتشكيك في الأديان بالقول بأن التبشير شيء هين أمام حركات الإلحاد والملحدين ، وقال : إن هذه الجمعيات تعنى أكبر عناية بمصر ، وتعتقد أنها قلب الشرق ومعقل الإسلام ، فإذا تمكنت من تضليل عدد كبير من أبناء مصر ، ونزعت من نفوسهم مبادىء الإسلام ، سهل عليها تحقيق غرضها .

* * *

الفصل الخامس

المنهج الذى تدرسه معاهد تخريج قادة المبشرين

هذه صورة للمناهج التى تدرس فى معاهد تخريج المبشرين مستخلصة من تقريرات المبشرين :

أولا : يجب أن يكون معلوماً أن العالم الإسلامى هو الخطر الماثل أمام الغرب ، وأنه إذا تيقظ وتوحد كان خطراً على مصالح أوربا . فالغرب يتخذ من العالم الإسلامى منطقة نفوذ سياسية واقتصادية هامة ، فهو مصدر الخامات ، وسوق المبيعات ، وبه منابع البترول والمواقع الاستراتيجية العسكرية التى تجعل من يملكها مسيطراً على مقدرات السياسة العالمية . والمسلمون قوم لهم كتاب يثقون به ثقة لا حد لها ، وقد حملت تعاليمه لهم عوامل الوحدة والقوة ، وهو يدفعهم إلى مقاومة الغاصب والمعتدى والدخيل ، ويشن أعنف حركة مقاومة هى الجهاد . ويجعل الاستشهاد فى سبيل الدفاع عن الأرض دفاع عن الإسلام نفسه ، وقد كانوا على طول تاريخهم قادرين على هذه المواجهة فيهم صلابة وعناد وقدرة على الفداء والبذل والتضحية ، وهم فى مختلف معاركهم كانوا الفريق الأقل عدداً وعدداً ، ومع ذلك فقد كانوا ينتصرون بذلك الإيمان العجيب الذى يملك قلوبهم . والذى يصدر عن شىء واحد هو الإسلام .

وقرآنهم يرسم لهم منهج حياة كامل فى القانون والسياسة ، والاقتصاد ، والاجتماع ، ويقدم نظاماً شاملا يقوم على التوحيد ، والأخلاق ، والوحدة ، والمساواة ، والعدل الاجتماعى ، والشورى ، ويجمع الإسلام بين الدين والدولة . وهم إذا اتبعوا هذا المنهج فمن المحتم أن تكتب لهم السيادة ، ولا بد أن يزيلوا نفوذ الغرب عن بلادهم . ولقد رأينا فى الحروب الصليبية من المسلمين قوة وصبراً على الجهاد ، ووحدة فى المقاومة مصدرها الإسلام .

لذلك فإن أصلح طريق للسيطرة عليهم وإدامة هذه السيطرة ، إنما يكون عن طريق الحيلولة دون تنفيذ مخطط الإسلام الاجتماعى والسياسى ، هذه الحيلولة لن نكون قادرين عليها إلا بتربية جيل يكره هذه المفاهيم ويحتقرها ، ويسخر منها وبها .

ثانياً : أن أهم عمل لإخضاع العالم الإسلامى لا يتم عن طريق الجيوش والاحتلال ، وإنما يتم عن طريق الثقافة والدين ، بإخضاع المسلمين للثقافة الغربية وبذلك ينتزع منهم أبرز ما فى الإسلام من علامات القوة ، والجهاد ، والمقاومة والوحدة .

ولذلك ، فإن علينا أن نضمن مناهج التعليم والثقافة ما يؤدى إلى هذا الاتجاه . على أن ينفذ ذلك بدقة ومرونة وعلى آماد طويلة ، وأن نقيم مدارس ومعاهد تجذب المسلمين إليها حيث يتعلمون فيها كيف يعجبون بأوربا ، ودينها ، وفكرها ، وعظائها ، وبذلك يتحول ميزان النفسية الإسلامية ، والعقلية العربية من المقاومة والجهاد والحصون ، إلى التقبل والولاء والإعجاب.

وبذلك يصبح هذا الجيل هو القادر على قيادة الحركة الفكرية بفضل تشجيعنا وحمايتنا ، فإذ فرض علينا الجلاء وترك مواقعنا العسكرية والسياسية ، كان لهذا الجيل القدرة على حماية مخططنا ومفاهيمنا .

ولا بد من مثابرة دائمة عن طريق المثقفين أصحاب الولاء لفكرنا وأمتنا ، على إثارة الشبهات والشكوك حول الإسلام ، واللغة العربية ، والتاريخ ، والتراث ، والقرآن ، ومحمد . وعلينا أن نحول دون قيام ثلاثة أشياء :

١ ــ الجامعة الإسلامية . ٢ ــ الإسلام دين ودولة .

٣ ــ التعليم والأخلاق والدين ــ ولا بد من دفع قدر ضخم من عوامل المتعة واللذات أمام الشباب عن طريق القصة والمسرح ، وفتح النوادى الليلية ، ومعاهد الرقص ، وحانات الخمر ، وذلك للقضاء على مقومات الشخصية المسلمة وتدميرها وهدمها ، وإحلال روح من الفساد والتحلل والميوعة بين الرجال والنساء .

ولا بد من الدعوة إلى حرية الفكر وحرية المرأة ، أما حرية الفكر :

فهى التى تفتح الطريق أمام النظريات المضللة والهدامة للإسلام ، وللفقه ، والتاريخ . أما حرية المرأة : فهى التى تفتح الطريق أمام انحلال المرأة والأسرة وهدم الأجيال القادمة من الشباب والطبقات .

ثالثاً : إن هدفنا هو تغيير العقلية الإسلامية ، والقضاء على مقوماتها الأساسية عن طريق التعليم والثقافة ، وتوهين عروة العقائد الإسلامية ، والحضارة الإسلامية والأخلاق الإسلامية لفرض حضارة الغرب وفلسفة حياته على المسلمين . إن علينا أن نخرج المسلمين من دينهم وواجباته ، ومن ناحية أخرى أن نصور لهم الإسلام ديناً رجعياً ليس له أثر فى تطور الحياة الإنسانية . وأن نعمل على تشويه الحركة الإسلامية وتهوين المقومات الإنسانية والروحية الإسلامية . وإظهارها بأبشع صورة فى المجتمع . وشن حملة على رجال الدين واتهامهم بالتخلف والجمود ، ولا بد من إقصاء الإسلام عن المناهج الدراسية ، وإذا كان لا بد فليكن على أنه دين عبادة ، دين روحانى . عبارة عن صلوات وتسابيح . ولا شىء غير ذلك . أما أنه نظام اجتماعى . أو اقتصادى . أو تربوى فذلك ما يجب إبعاده وانتقاصه ، وتوجيه حملات التشكيك إليه . وإثارة الخلافات التى وردت فى كتب المسلمين . وضرب النصوص بعضها ببعض . وإذا كان لا بد من تعلم التاريخ الإسلامى ، فلا بد أن يكون بأقلام كتابنا ، ولدينا مئات الكتب عن الإسلام وتاريخه تصلح للتدريس فى المعاهد والجامعات . والاستعانة بما أورده المستشرقون فى دراساتهم من شبهات . وما قدمه كتاب الغرب الأحرار فى مهاجمة الأديان . ونشر المذاهب الفوضوية والإباحية ، ونقل آراء : نيتشيه ، ودارون ، ورينان وغيرهم مما وجه إلى المسيحية ، إلى الإسلام نفسه والاهتمام بالدور الذى لعبه تاريخ أوربا الحديث فى مجال الديمقراطية الليبرالية ، وإثارة روح الإعجاب والتقدير للدور الذى قام به العقل الأوربى فى مجال الحضارة ، والنظم الاجتماعية والاقتصادية والقانونية والتربوية ، ونشر الدعوة إلى عالمية الحضارة الأوربية وانصهار الثقافات والحضارات المختلفة منها ، وأن أوربا هى التى يجب أن تخضع لها النظم العالمية القائمة فى المجتمع البشرى كله ، وخلق عقيدة فى نفوس المسلمين بأن نظم أوربا طوداً شامخاً ، وأنه لا سبيل لحرية أو نهضة

إلا إذا اعتنق المسلمون أسلوب العيش الغربى . فيجب أن يخضعوا لنفوذها ويسيروا فى ركابها أولا حتى تتحقق لهم الحرية .

رابعاً : إن على رجالنا أن يكونوا غاية فى الجرأة ، ولا يخافوا شيئاً فإن هناك الامتيازات الأجنبية تحميهم ، فلا يحاكم أحد منهم . أو تستطيع أى حكومة أن توجه إليه أى لوم ، غير أن مقاومة الإسلام بالقوة تزيد انتشاراً . أما الوسيلة الفعالة لهدمه وتقويض دعائمه فهى تربية بنيه فى المدارس التبشرية أو المسيحية ، ونفث جراثيم الإلحاد فى صدورهم منذ نشأتهم من حيث لا يشعرون ما لم يتنصروا فيصبحوا لا مسلمين ولا مسيحيين .

خامساً : إن علينا أن نحول بين المسلمين وبين الوحدة ، فإذا اتحد المسلمون فى إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً ، أما إذا ظلوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير . إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السعود . وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوربية ، لذلك فإن التبشير عامل هام فى كسر شوكة هذه الحركات . فهو يعمل على سلب الحركة الإسلامية عنصر القوة والتمركز . وبذلك تتفتت وحده المسلمين وندرأ خطر امتداد سلطانهم بإستغلال الشعوب الأوربية لهم واستنزاف ثرواتهم .

سادساً : إن مهمة المبشرين هو تأجيج الخلاف بين الطوائف ، وخلق تخاذل روحى وشعور بالنقص فى نفوس المسلمين . وحملهم من هذا الطريق على الرضا بالخضوع للمدنية الغربية .

سابعاً : لا بد من الاهتمام بالمبعوثين إلى الغرب . وتدريبهم على أساليب الكتابة المرنة الدقيقة الماكرة ، التى تدخل السم فى أسلوب من البراءة والبساطة ، وعلينا أن نغريهم بالزواج من الأجنبيات حتى يكونوا خاضعين لنا ، ولحضارتنا ولفكرنا خضوعاً كاملا . وعلينا أن نقدم لهم دائماً تلك الشبهات الماحقة ليُنشرونها بين قومهم ، فإن كتاباتهم ستكون أكبر أثراً فى نفوس أبناء أمتهم من كتابات كتابنا ، وعلينا أن ندربهم على أسلوب التمويه والبراعة فى عرض الشكوك والشبهات ، ورفضها وإعادتها وتقبلها مرة أخرى . حتى تحدث زعزعة لإيمان المسلمين بقيمهم الإسلامية .

ثامناً : إن نزع الاعتقادات الإسلامية ملازم دائماً للمجهودات التى تبذل فى سبيل التربية الغربية ذات الطابع التبشيرى .

الباب الثالث
أبعاد التبشير مع القوى المختلفة

الفصل الأول

التبشير والاستعمار

إن (العالم الإسلامى) اليوم يمر بمرحلة دقيقة من حياته تختلف اختلافاً كبيراً عن المرحلة السابقة : مرحلة الاستعمار ، فقد أصبح معروفاً وواضحاً أن الاستعمار تخلى عن احتلاله لأغلب وحدات عالم الإسلام ، وأصبحت هذه الوحدات (مستقلة) بعد أن جلت قوات الاحتلال . وتركت الأوطان لأصحابها يديرونها .

هذه المرحلة الجديدة هى مرحلة ما بعد الاستقلال قد أعطت الناس شعوراً بالحرية والأمن ، ونقلتهم من مشاعر المقاومة والخطر والتحفز التى كانوا يعيشونها خلال فترة الاحتلال . وإبان حكم الاستعمار . إلى شعور بالدعة والطمأنينة دفعهم إلى الانطلاق إلى مختلف مجالات المتعة واللهو . حيث لم تعد هناك قضية من قضايا التحدى تشغلهم أو تستوعب جهودهم .

وهذا هو الخطر الحقيقى الذى يواجه شبابنا وأمتنا فى هذه المرحلة . ذلك أن النفوذ الاستعمارى عندما أجلى قواته وعساكره . إنما كان قد اطمأن إلى أن له نفوذاً دائماً أصبح قادراً على الحركة بدلا منه ، وهو فى نفس الوقت أخفى من الخفاء ، وأدق من الدقة نفسها . ذلك النفوذ هو (الغزو الثقافى) والاستعمار الفكرى . أو ما نطلق عليه نحن عبارة (التغريب) .

ويجب أن يكون موضع التقدير : إن الاستعمار لم يحقق الجلاء العسكرى إلا وقد حقق أكبر أهدافه فى فرض نفوذ دائم مستمر ، لن ينقطع مع هذه الوحدات التى استعمرها طويلا ، هذا النفوذ هو : النفوذ الفكرى والثقافى .

والمعروف أن حركة اليقظة الإسلامية العربية حين استعلنت فى منتصف القرن الثامن عشر . ومضت طوراً بعد طور . وحلقة بعد حلقة ، إنما كانت

قد جعلت من أكبر أهدافها مقاومة النفوذ الاستعمارى بأسلوب إسلامى عربى صميم . هذا الأسلوب هو تجديد طوابع الفكر الإسلامى بالتماسه مفاهيمه الأساسية وجذوره الأولى التى كانت مصدر قوته . والتى تخلفت وضعفت فاستطاعت القوى الاستعمارية أن تنفذ إليه يوم تخلف عن مفاهيمه وقيمه . وأتاح لنفسه فى نفس الوقت التماس أساليب الغرب ومناهجه . وأخذ علومه . والجوانب الجادة من حضارة كان هو مصدراً من مصادرها أساساً . غير أن هذا المنهج وهذا الأسلوب لم يكن مقبولا من الاستعمار والنفوذ الغربى . الذى لم يكن ليسمح لهذه الأمة أن تستيقظ وتقوى ، وهو إذ كان حريصاً على استمرار نفوذه واستدامة بقائه ، فقد خرق هذه الدائرة المرنة ، وكون دائرة أخرى قوامها منهج جديد هو التماس حضارة الغرب وفكره معاً . والذوبان فى الفكر الأممى ، والحضارة العالمية ، حتى يفقد المسلمون خصائص ثقافتهم . وملامح شخصيتهم . ويتقبل النفوذ الاستعمارى تقبل إيمان وثقة وصداقة . ومن هنا أراد أن يؤكد الاستعمار وجوده بالقضاء على الدائرة المرنة وتصفيتها . وإنماء الدائرة (الصماء) وفرضها وفرض ثمارها على مختلف مجالات القيادة الفكرية والاجتماعية والسياسية .

وقد كان على الاستعمار وهو يطمع فى البقاء الطويل أن يقضى على عوامل المقاومة . والمسلمون والعرب يستمدون عوامل مقاومتهم من أساس فكرهم الإسلامى العربى الذى يرفض الدخيل والنفوذ الأجنبى ، ويقاومه بالجهاد وحد السيف ، فلا بد إذن لهذا النفوذ أن يقضى على هذه الأسس من المفاهيم . ولذلك فلا بد من القضاء على أبرز مقومات الفكر الإسلامى .

ولم يكن ذلك يسيراً طالما أن هذا الفكر حى يتجدد ، وهذه الثقافة ما تزال مرتبطة بجذورها الإسلامية ، لذلك فقد كانت أخطر خطوة يخطوها النفوذ الاستعمارى هى العمل على فصل (الثقافة العربية) عن أمها (الفكر الإسلامى) . ومحاولة ربطها بأم أخرى هى الفكر الغربى الذى يحمل قيماً ومفاهيم وأسساً تختلف اختلافاً كبيراً . وكان للاستعمار لكى يحقق هذه الغاية أن يلجأ إلى وسيلتين هامتين :

الأولى : التربية والتعليم .

والثانية : الثقافة .

فعن طريق التربية والتعليم يستطيع أن يلتقط الشباب المسلم فى المراحل الأولى من حياته . وقبل أن تنمو مفاهيمه الإسلامية . وجذوره العربية . ويعمل على بنائه فى مدارس التبشير ومعاهد الإرساليات الأجنبية . وفق منهج دقيق الخطر وضعه دهاقنة الاستعمار والنفوذ الأجنبى . بحيث يخلق منه إنساناً لا يحمل أى معنى لحب لوطنه ، أو الغيرة لدينه . أو التعلق بأمته . أو التقدير لتاريخه . أو الاعتبار للغته ، وإنما هو إنسان متطلع إلى الغرب . هواه هناك . وتقديره لحضارة الغربية بالغ . ولأبطال الغرب كبير . ولتاريخ الغرب ولغته وثقافته بالغ الخطر . ومعه إيمان وعقيدة بأن وطنه المتأخر المتخلف المستعمر ، لا يستطيع أن يشق طريقه فى الحياة إلا أن يكون تابعاً لهذا الغرب . مصادقاً لهذه الحضارة . عبداً لهذا النفوذ . لا يرى فى الاستعمار خطراً ، ولا يوليه خصومة ، بل يراه صداقة وتقديراً وإعجاباً . مؤمناً بدور الغرب ودور الرجل الأبيض فى تمدين الأمم المتخلفة . ونشر رسالة الحضارة : هذا هو ما تبثه هذه المعاهد والمدارس والإرساليات المفتحة الأبواب فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى . والوطن العربى لغير القادرين على الالتحاق بالمدارس الأميرية ذات المصروفات الكثيرة ، ومن ثم . فإن أجيالا كثيرة متعاقبة ، ورجالا كثيرين من المسلمين والعرب قد تخرجت من هذه المعاهد والمدارس و الجامعات ، وقد صيغ فكرها على هذا النحو . وصنعت عقليتها وفق هذا المخطط ، ثم أتيح لها من بعد أن تتصدر مراكزها فى الحياة الاجتماعية والسياسة والتربوية ، وأن تجعل من مفاهيمها هذه عقائد . ومن النظريات هذه التى بثها الاستعمار عن طريق الإرساليات فى أنفسها حقائق تؤمن بها . وتدافع عنها وتذود من أجلها .

٢ — وفى مجال الثقافة كان عمل الاستعمار عن طريق الصحيفة ، والكتاب ، والفيلم السينمائى ، والقصة المسرحية ، بالغ الأهمية والخطر . فقد حملت هذه الأدوات كلها أفكاره التى قدمت بأسلوب غاية فى الدقة والفن ، وأضفى عليها قدر كبير من البراعة والطلاوة ، وكان قوامها خلق جو المتعة

والتحرر والانطلاق عن طريق ملذات الجنس والإباحية ، والكلمة الجريئة والصورة العارية والعبارة المكشوفة ، ووراء ذلك كله نظرية فلسفية تدعمها تقول : إن الكبت هو مصدر الشقاء والمرض . وأن إنطلاق الغرائز ، وتحررها . والكشف في الثوب ، والكلمة . إن الحرية في التماس متعة الشراب . والمخاصرة ، والرقص .

عن طريق هذا المخطط التبشيري استطاع النفوذ الأجنبي أن يخلق ركائزه التي اعتمد عليها في بناء أجيال ترضى عن الاستعمار ، وتتقبله فكراً وحضارة ، وبذلك يمتد بقاؤه ويصبح شرعياً متقبلا ، وليس خصماً يحارب أو يقاوم .

وهذا أخطر ما يواجه مرحلة ما بعد الاستقلال من تحديات :

فالغرب والمسلمون يجب أن يكونوا قادرين على ربط ثقافاتهم بجذورها من الفكر الإسلامي ، مصدره وأساسه ، لقد مرت الثقافة العربية بمرحلتين متواليتين :

أولاهما : مرحلة الجمود والتخلف، حين توقفت الأساليب الأدبية والمضامين الفكرية عن النمو .

والثانية : حين بدأت معالم اليقظة العربية الإسلامية مجددة للمناهج والأساليب ، ملتمسة مفهوم الإسلام نفسه ومقوماته الأساسية . وحين طغت تيارات الفكر الغربي تحمل عشرات من النظريات والفلسفات والدعوات

وقد كان للاستعمار والنفوذ الغربي أثره البعيد في فرض هذه النظريات التي تأثرت الثقافة العربية والفكر الإسلامي بها ، حيث جرت معركة ضخمة بين التبعية والأصالة ، وبين المحافظة على مقومات الفكر الإسلامي والشخصية العربية الإسلامية ببعث التراث الإسلامي وتجديده والتماس منابعه من القرآن والسنة ، وبين عوامل الترجمة والنقل والاقتباس . وعاش الفكر الإسلامي والثقافة العربية بين نظريتين :

• نظرية مستمدة من حركة اليقظة الإسلامية تدعو إلى بناء الجديد على أساس القديم ، والمواءمة بين إحياء التراث ، وترجمة الفكر الغربي .

• ونظرية قادها دعاة التغريب ، وحملة النفوذ الأجنبى وقوامها : تقبل الحضارة الغربية والفكر الغربى تقبلا كاملا .

وظل الصراع ممتداً بين النظريتين ، حتى جاء الوقت الذى أصبح من الحق فيه أن يقال : إن العالم الإسلامى والأمة العربية قد بلغت مرحلة الرشد الفكرى ، وإن الفكر الإسلامى الذى كان طوال تاريخه قادراً على تأكيد ذاته ووجوده ، ودعم مقوماته وقيمه ، وفتح الأبواب أمام الثقافات المختلفة يأخذ منها ما يزيده قوة وحيوية ، هذا الفكر قد أصبح اليوم على أبواب مرحلة هو فيها أكثر قدرة على أن يبنى قاعدة الأساس مستمدة من مقوماته الأصيلة ، التى هى عصارة مزاجه وشخصيته ومفاهيمه ، وأن يتقبل من الثقافات الإنسانية ما يزيد هذه القاعدة قوة ، وهذه الشخصية حيوية دون أن ينصهر فى الفكر الأممى أو يضيع فى ثقافات الغرب أو الشرق على السواء .

ومن شأن هذه النظرة الجديدة ، نظرة الأصالة والرشد الفكرى أن تعيد النظر فى كل المؤسسات والقضايا التى قد تركت منذ وقت طويل آثارها وبصماتها على حركة تطور الثقافة العربية ، والفكر الإسلامى ، وذلك حتى تتحرر من آثارها التى تحاول أن تقضى بمرور الزمن على مقومات الفكر الإسلامى والثقافة العربية ، وكذلك على الشخصية العربية الإسلامية نفسها ذات الوجود المتميز الصريح ، ومن هنا فإن أبرز ما تتجه إليه نظرة المثقفين فى سبيل تحرير الفكر الإسلامى والثقافة العربية وتأصيلها هو : مواجهة هذا الخطر الكامن الخفى ، الذى خلفه الاستعمار قائماً فى أوطاننا بعد أن سحب جيوشه وقواه العسكرية ونفوذه السياسى ، هذا الخطر المتمثل فى الاستعمار الثقافى ، أو الغزو الفكرى ، أو التغريب .

هذا الخطر الذى ركز عمله على دعامات ثلاث هى : التعليم ، والتربية ، والثقافة .

إن الحقيقة التى يجب أن تكون ماثلة فى كل عقل ونفس هى : أن النفوذ الاستعمارى الذى ما تزال مصالحه قائمة فى العالم الإسلامى والأمة العربية ، إنما يريد استبقاء هذا النفوذ عن طريق (تغريب) الثقافة العربية والفكر

الإسلامى وسلخ مقوماتهما وإضفاء مقومات الفكر الغربى والثقافة الغربية عليهما ، بحيث ينتزع من هذه الأمة مقدرتها النفسية والعقلية على مقاومته ، أو معارضته أو التخلص منه . وإحلال روح من التقبل له والتشبع به ، والصداقة له والدفاع عنه . بل والإعجاب به ، هذه الروح تحمل فى طياتها أيضاً الغض من شأن التراث العربى ، واللغة العربية ، والتاريخ العربى الإسلامى . والشريعة الإسلامية ، وإثارة الشبهات والاتهامات حولها جميعاً . إن أمتنا كى تحقق ذاتها لا بد أن تكشف هذه الصفحة الهامة من صفحات النفوذ الاستعمارى . وهذا التحدى الخطير الذى يواجه الإسلام واللغة والثقافة جميعاً .

هذا الخطر المتمثل فى حركة التبشير ومراحلها وتطوراتها التى إن تكن قد اختفت مظاهرها من العالم العربى اليوم ، فإنها لا تزال حية فى أعماق مناهج الدراسة والجامعات والثقافة ، فضلا أنها لا تزال حية على الصورة الصريحة فى أجزاء كبيرة من العالم الإسلامى ، وخاصة فى قلب إفريقيا ، وجنوب شرق آسيا .

لا بد للمثقف العربى من إحاطة بهذا الدور الذى يلعبه التبشير كقوة أمامية زاحفة مقتحمة تقدمت النفوذ الاستعمارى ، ومهدت له الطريق ، وخلقت له الركائز الأساسية التى استطاع بها أن يجلى جيوشه وقواته . ونفوذه السياسى اعتماداً على بقائها مؤثرة من بعده .

ومن حق أن يقال : إن أخطر تحد يواجه العالم الإسلامى والأمة العربية اليوم فى هذه المرحلة التى نعيشها إنما هو [**التغريب**] المتمثل فى التبشير الخفى المستتر ، فى الوطن العربى ، والواضح الصريح فى كثير من أجزاء العالم الإسلامى . وعلى قدر تفهم هذا الخطر والتماس الوسائل للتحرر منه يتشكل مستقبل العالم الإسلامى والفكر الإسلامى جميعاً ، والمعتقد أن المستعمر قد أنهى مرحلة النضال السياسى بالجلاء السياسى والعسكرى ، ليفسح المجال أمام استعمار فكرى وغزو ثقافى ، هو المختفى اليوم وراء التبشير الذى هو أداة الاستعمار والتغريب ثمرته . لقد ترك الاستعمار أندية السياسة ، وركز جهوده فى الجامعات والمدارس ، والصحف ، وأندية الثقافة بعد أن وجد أن حركته فيها حرة غير مقيدة ، ومتوارية عن الأنظار .

قال الشاعر الفيلسوف محمد إقبال عام ١٩٣١ :

(إن الإسلام مهدد بخطرين مصدرهما الغرب :

أولهما : الإلحـــاد .

وثانيهمـا : الاستعمار .

(وإن مستقبل الإسلام رهن بمستقبل العرب . ومستقبل العرب رهن بوحدة العرب . فإذا تمت الوحدة العربية علا شأن المسلمين فى كل أنحاء الأرض) .

ولقد ظل المسلمون يقاومون الاستعمار السياسى فلما بدأ ينكشف ، ظهر الاستعمار الثقافى من ورائه أشد قوة ، وتبين أن الاستعمار لم يكن ليخلى مكانه إلا بعد أن تأكد من وجود دعائم له وركائز يعتمد عليها فى تأصيل وجوده . والحق أنه من بالغ السذاجة أن يظن الرجل المثقف المحيط بالتيارات المختلفة للسياسة العالمية ، أن الاستعمار قد انتهى أو أنه فى طريق النهاية . وخاصة فيما يتعلق بسيطرته على العالم الإسلامى .

إنما الذى انتهى هو (صورة الاستعمار) التى بدأت فى أوائل القرن التاسع عشر .

لقد أتمت هذه المرحلة دورها وحققت نتائجها . أفكار لا بد أن تختفى . والاستعمار هو أحرص الناس على إنهائها حتى يستطيع أن يحقق استمراره من غير أن يخدش مشاعر الناس . بعد أن ظلت هذه الصورة تزعجهم طويلا فإذا اختفت هذه الصورة اليوم ، فمن السذاجة أن يظن أن الاستعمار قد انتهى . فهذا ما يطمع الاستعمار فى أن نقوله ، ولكن الاستعمار بعد أن حقق أهدافه فى (تثبيت البقاء) أصبح الآن قادراً على التخلى عن (أسلوب) العمل الذى يظهر به أمام الناس ، فقد أتم أداء الدور الصريح الواضح الذى ميطر فيه برجاله وقواته وجيوشه ، وأصبح الآن قادرا على أن يختفى وراء قوى قادرة على أن تؤدى دوره دون أن يظهر الاستعمار عياناً ، وهو حين يختفى اليوم يخفف عن الناس شعور التحدى ، فتتحول القوى الوطنية كلها إلى الانصهار تحت أضواء الحضارة والسهرات والانحلال ، نعم اختفى الاستعمار بصورته الصريحة بعد أن أقام دعائم نفوذه . هذه الدعائم التى صنعها

التبشير عن طريق التعليم والثقافة فى مجالين من أخطر مصانعه : المدرسة ، والصحيفة .

وقد خرجت من قلب هذه الحركة قوى تعمل ، وفق مخططه ، وتربط وجودها بوجوده ، وتواجه التحديات الموجهة إلى الاستعمار بأقوى مما كان يواجهها الاستعمار نفسه ، لأنها تدافع عن بقائها وترى أن فى محاولة تحطيم هذا النفوذ تحطيم لوجودها .

وهذا الدور يمكن أن يسمى مرحلة الاستعمار الفكرى والغزو الثقافى فى سبيل الوصول إلى غاية كبرى هى (تغريب الشرق) أو تغريب المسلمين أو تغريب العالم الإسلامى ، ومن عجب أن يرضى الناس عن انتهاء مرحلة الاستعمار . ولا يقدرون الخطر الذى ظهر نتيجة ذلك ، ذلك أن وجود (الاستعمار) واضحاً صريحاً على مسرح الحياة السياسية فى العالم الإسلامى ، إنما كان عاملا من عوامل التحدى الذى يجب أن تعبأ كل القوى لمقاومته . أما خروج الاستعمار فإنه يبعث فى النفوس عامل الأمن والدعة ، ويدع لقوى الاستعمار الثقافى الحرية فى الحركة والتأثير ، وللاستعمار مؤسسات أساسية ضخمة تقوم بالعمل فى سبيل تثبيت وجوده وتأكيد بقائه ، أهمها : التبشير والاستشراق ، وهذه المؤسسات تحمل دعوات مختلفة إلى التغريب والشعوبية ، ولكنها لا تظهرها بأسمائها هذه ، وإنما تخفيها وراء أسماء كثيرة براقة ، أغلبها تحتجب تحت أسماء ثقافية أو حضارية ، وأقوى القوى العاملة هى : (المدرسة) فى مجال التعليم ، والتربية ، وتكوين النشء ، والأجيال الجديدة ، و (الصحيفة) فى مجال الثقافة والقراءة .

وقد أكدت تقارير المبشرين المختلفة على الدور الخطير الذى قامت به المدرسة والصحيفة ، وما تزال تقوم به فى سبيل تحقيق غايتين أساسيتين هما :

١ — تمزيق وحدة العرب والمسلمين والحيلولة دون التئامها .

٢ — تدمير القيم الأساسية العربية ، والإسلامية الفكرية ، والحيلولة دون سيطرتها ، ومحاولة فرض مفاهيم أخرى غربية المصدر ، على الثقافة العربية والفكر الإسلامى رغبة فى القضاء على :

(أ) الرابطة بين الدين والمجتمع .

(ب) أخلاقية التعليم والتربية والمجتمع والسياسة .

(جـ) إذاعة أسلوب من التحرر فى مجال الفكر يصل إلى الإلحاد ، وأسلوب من التحرر فى مجال الحياة يصل إلى الإباحة .

ولكن لماذا يهدف الاستعمار عن طريق أدواته : التبشير والاستشراق إلى هذا الغرض ؟ والإجابة يسيرة : وهى إخراج المسلمين والعرب من القيم التى تدفعهم إلى الحرية ، ومقاومة النفوذ الأجنبى وعدم الانصهار فى الأممية ، وإقامة مجتمعهم الخالص المستمد من قيمهم ، وتاريخهم ، ولغتهم ، وعقيدتهم. فإذا استطاع الاستعمار إذابة المسلمين والعرب فى بوتقة الأممية ، وصهرهم فى الثقافة العالمية ، وإخراجهم من ثقافتهم وقيمهم ، لم يعد هناك مجال لتشكلهم بصورة خاصة ، بصورة الذات والشخصية الخاصة ، عندئذ تصبح الحضارة الغربية وقد حققت أكبر انتصاراتها بأن أحالت المسلمين والعرب إلى عبيد فى القطيع التى يسود فيه الجنس الأبيض الغربى صانع الحضارة .

* * *

الفصل الثانى

التبشير والتغريب

تجمع الوثائق والنصوص التى بين أيدينا وتؤكد حقيقة واقعة هى : أن هدف التغريب وأداته التبشير ، والاستشراق ، هو إخراج المسلمين من مقومات فكرهم وأهمها مقومات الإسلام ، ثم إخراج الإسلام من مقوماته أيضاً ، وذلك بتفسيره تفسيراً يقضى على قيمته الأساسية ، ويجعله ديناً تعبدياً خالصاً ليس له صلة بالمجتمع والإنسان . وليس لهذا من هدف إلا إبعاد الإسلام كنظام مجتمع ، وعامل حضارى وثقافى مؤثر عن فاعليته مع المجتمع والسياسة والاقتصاد والتربية والتعليم . وقد كانت محاولة التبشير لخدمة النفوذ الأجنبى تتركز فى إقصاء مفهوم الإسلام الحقيقى ، وإبقاء مفهوم الإسلام كدين تعبدى ، وتشكيل أجيال جديدة لا ترى إلا هذا الرأى . وبذلك يقضى على أهم عناصر القوة فى فكر المسلمين وحياتهم ، وهو القدرة والإيمان بمقاومة أى نفوذ أجنبى عليهم . ومحاولة صهرهم فى الأممية انصهاراً يفقدهم شخصيتهم وذاتيتهم الأصيلة ، والهدف من التغريب كما ذكره الغربيون فى كتاباتهم هو : (إنشاء عقلية عامة تحتقر كل مقومات الحياة الإسلامية ، بل الشرقية ، وإبعاد العناصر التى تمثل الثقافة الإسلامية عن مركز التوجيه) ، ويقوم التغريب على تحريف التاريخ الإسلامى ، وتشويه مبادئ الإسلام وثقافته ، وانتقاص الدور الذى قامت به الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى بقصد إيجاد شعور بالنقص فى نفوس المسلمين والشرقيين عامة تحقق قبول ذهنية للغرب والخضوع لها ، ويغرس مبادئ غربية فى نفوس المسلمين حتى ينشئوا مستغربين فى حياتهم ، وبعيدين عن موازين القيم الإسلامية .

وليس ما نقوله هذا استنتاجاً ، وإنما هو ثابت مما تحت أيدينا من عشرات من النصوص الصريحة الواضحة ،التى تكشف فى مجموعها الأهداف

النفسية العميقة التى تكمن وراء السيطرة الغربية ، والنفوذ الاستعمارى ، وتكشف عن تكتل هذه القوى جميعها (التبشير ، والاستعمار ، والتغريب) على احتواء فكر العرب والمسلمين ودينهم ولغتهم من أجل هذا الهدف الواضح الصريح . وكل هذه النصوص لباحثين لامعين يعدهم الناس فى مقدمة البارزين :

١ - يقول الفرد كانتل سميث : إن الغرب يوجه كل أسلحته : الحربية ، والعلمية ، والفكرية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، إلى العالم الإسلامى بغرض إذلاله وتحقيره ، وإشعاره بالضآلة والخنوع . وأن الغرب وقف فى صف الصهيونية ضد العرب المسلمين متأثراً بتلك العداوة القديمة بين المسيحية والإسلام .

٢ - يقول لويس ماسنيون : إن هؤلاء الطلاب المسلمين المغاربة الذين يصلون إلى فرنسا يجب أن يصاغوا صياغة غربية خالصة . حتى يكونوا أعواناً لنا فى بلادهم .

٣ - ويقول هنرى دى كاسترى : إن أحدّ علاج يستأصل به العرب ، وأمضى سيف يقتلون به هو : (الخمر) ، وقد جردنا هذا السلاح على أهل الجزائر فأبوا أن يتجرعوه فتضاعف نسلهم ، ولو قبلوا لأصبحوا أذلاء كتلك القبيلة التى شربت خمرنا ، وتحملت إذلالنا .

٤ - يقول المارشال ليوتى (كرومر المغرب) وعميد الحماية الفرنسية فى مراكش : إن فرنسا تعد العدة لإنشاء جيل جديد لا صلة له بالماضى ، هذا الجيل تصنعه وتنشئه على الإيمان بها ، فيفهمها ويقدرها ، وبذلك يتم لها عن طريقه وضع يدها على البلاد .

٥ - يقول روم لاندو : إن الصهيونية فى أوربا بالمرصاد لما ينشر من الإنصاف عن العرب والإسلام ، ومن هنا فقد خشى بعض المؤلفين تعطل كتاباتهم ، فأغفلوا أثر العرب والمسلمين ، وأفضليتهم على التاريخ والحضارة .

٦ - يقول هاملتون جب : إن الجزء الأكبر من مؤلفات الغربيين عن الإسلام ، قد صدر عن أولئك الذين يتحكم فى تفكيرهم كراهية الإسلام والحقد عليه .

٧ – يقول م . كويت فى كتابه (الإسلام والدولة البريطانية) : إن الكثيرين منا شبوا على كراهية الإسلام ، وقد ارتضعوا ذلك مع لبان أمهاتهم .

٨– ويقول لويس ماسينيون عن كلمة (التجديد) : لقد جردنا المسلمين باسم مدنيتنا ، وصاروا لا يعرفون إلا ما نقصده بكلمة (التجديد) التى سئموها ، لقد دمرنا كل ما هو خاص بهم ، فدمرنا فلسفاتهم ، ولغاتهم ، وأديانهم ، والمسلمون ليسوا من السذاجة حتى يعتقدوا بكرم أخلاقنا ، وقد تحققوا بالشواهد أننا نرغب فى أن نبقيهم ضعفاء .

٩ – ويقول جوستاف لوبون : إن حريتهم للتفكير فى الغرب تختفى لدى الأوربى عندما يمتد فكره إلى بحث فكر العالم الإسلامى ، حيث لا يزال هو المفهوم الناتج من الحروب الصليبية . وهو عميق الأثر فى النفس الأوربية . يحول دون حرية الرأى فى الإسلام .

١٠ – قال مسيو شاتليه : إن هدف بعثات التبشير : تثبيت الأفكار الأوربية . قال زويمر : إن الغرض من التبشير قتل الإسلام لاستعباد المسلمين.

وما أعتقد أن هذه النصوص فى حاجة إلى إفاضة أو شرح . فهى واضحة صريحة فى هدفها الواضح الصريح (إخراج المسلمين من الإسلام ليكونوا أداة طيعة فى يد النفوذ الاستعمارى) .

ومن أجل هذا الهدف عمل التبشير والتغريب فى مختلف المجالات !

وكان التعرض للإسلام ومحاولة إثارة الشبهات حوله عملا جريئاً استخدمت فيه كل أساليب الخداع والتضليل ، ويعد بعداً كبيراً عن الإنصاف والمنهج العلمى الصحيح ، وكان المسلمون يستطيعون أن يردوا بعمل مماثل لولا أن المسلمين يكبرون كل الأديان السابقة لهم ، ويعترفون بها ويكرمونها ، ويرون أن حقائق الإسلام الصريحة فى حاجة إلى مثل هذا الاتجاه – ويقول الدكتور عمر فروخ : (لو أننا تعرضنا للأديان كما يتعرض الغربيون للإسلام، لوجدنا متسعاً كبيراً للموازنة) وتقوم حملة التغريب على أساس استخلاص الثمرات النهائية للتبشير . وهى : تحويل العقلية الإسلامية ، والنفس –

الإسلامية . والمزاج الإسلامى ، تحت تأثير فرض الحضارة والقيم والفكرة الغربية ، والأخلاق والعادات والأساليب المختلفة ذات الطابع الغربى الوثنى ، وتغليبها على الطابع الإسلامى العربى الخالص . وبهذا الإلحاح المستمر الذى يستمد قوته من النفوذ الأجنبى ، ومن الدعوة إلى التحضر والتقدم ، وحرية الفكر يمكن أن يتحقق التغريب ويصل إلى قمته ، فيصبح العالم الإسلامى أمة غربية الطابع قد فقدت مقوماتها الإسلامية فى مجال السياسة ، والاجتماع ، والاقتصاد ، والتربية ، وانصهرت فى بوتقة الأممية والحضارة العالمية .

وأبرز ما ينصب عليه الإلحاح للتغريب هو تصوير الإسلام بأنه دين لاهوتى عبادى كالمسيحية . وليس نظام مجتمع ومنهج حياة يرتبط بمختلف شئون الحياة والمجتمع والفكر .

وكل المخططات التى رسمها دهاقنة الاستعمار ، وأساطين التبشير والتغريب ، كانت تدور حول هذا المعنى وحده الذى يتحقق من النجاح فى فرضه أمرين :

١ ــ القضاء على وحدة المسلمين ، وهى القذى الكبير فى عين النفوذ الاستعمارى .

٢ ــ القضاء على مناهج حياة المسلمين وقيمهم ومفاهيمهم الفكرية والاجتماعية .

وإذا رجعنا إلى جميع الشبهات التى أثيرت ، والمحاولات التى جرت عن طريق الإرساليات والمؤسسات والصحف والثقافة ، فهى لا تخرج عن حيز هذا التحدى الخطير .

ومن هنا تجرى دائماً على ألسنة دعاة التغريب كلمة : (العلمانية) ، وهى تعنى إقصاء الدين عن المجتمع ، وإقصاء منهج الإسلام نفسه عن الثقافة العربية ، وقد أشار زويمر فى كتاب له : إن مبدأ (القومية المحدودة) يعد أهم عامل للقضاء على الإسلام ، وقد وضعت الأمم المستعمرة هذا المبدأ نصب أعينها ، ومن ثم انفصلت الوطنية عن الدين ، وانفصل التعليم العصرى عن التعليم الإسلامى ، وظهرت دعوات الفرعونية ، والآشورية ، والبابلية ، والفينيقية ، والبربرية(١) .

---

(١) راجع كتابنا « الفكر العربى المعاصر » .

وتقرير (وزارة الخارجية البريطانية عام ١٩٠٧) يكشف عن هذا المخطط كشفاً صريحاً حين يقرر : أن الخطر ضد الاستعمار إنما يكمن فى البحر المتوسط ، حيث يعيش شعب واحد لو أتيح له قدر من اليقظة والقوة ، فستحل بالاستعمار الغربى الضربة القاضية . ولذلك فقد جرى التركيز على هذه المنطقة بكل أساليب التمزيق والتغريب والإذابة فى الأممية .

ولقد استغل التغريب فى سبيل تحقيق هدفه وسائل منوعة ودعوات مختلفة :

١ — الدعوة الإقليمية ممثلة فى الفرعونية فى مصر ، والفينيقية فى لبنان .

ولكى تعرف لماذا ركز التبشير والتغريب على الدعوة الفرعونية فى مصر علينا أن نراجع أصول العقائد الفرعونية المستمدة من الوثنيات المختلفة . وليس الغرض فى الحق هو إعادة حضارة تحجرت بقدر ما هو إخراج للمسلمين عن قيمهم ومفاهيمهم القائمة على التوحيد ، والباحث فى أصول الوثنية اليونانية ، والفرعونية والمسيحية الغربية ، يجد تقارباً واضحاً وتداخلا صريحاً ، فحين يعلى من شأن الفرعونية إنما يراد به القضاء على قيم التوحيد وتغليب قيم الطقوس والاكليروس ، ونظام الطبقات والكهنة ، وموسيقى المعبد والقرابين وغيرها ، وفى لبنان قال أصحاب الدعوة الفينيقية : أنها سيكون فيها للنصرانية مكاناً أوسع ، ولقد سقطت الآشورية ، والفرعونية ، والبابلية ، والبربرية ، ولم تجد مكاناً فى النفس العربية الإسلامية .

٢ — كما اهتم التبشير والتغريب بالطائفية وأولاها اهتمامه واحتضانه ، ونص عليها فى المعاهدات حين أعلن حمايته للأقليات ، ولقد كانت هذه الطوائف والأقليات تحيا مع الجموع الكبيرة من الغالبية المسلمة قبل الاستعمار فى صفاء ووفاق ، ولم يكن بينها خلافات ما إلا تلك التى أثارها النفوذ الاستعمارى عندما أعد عدته للانقضاض على العالم الإسلامى ، فلما وقع الاحتلال احتضن الاستعمار هذه الأقليات ونماها وجعلها سلاحه ، ولعل أخطر أثر حققه هذا العمل هو اعتماد النفوذ الأجنبى على الأقليات فى تحطيم الامبراطورية العثمانية تمهيداً لبسط نفوذه على العالم الإسلامى ، وكان للأقليات الأرمنية واليهودية على الأخص دور كبير فى التأليب على العثمانيين ، وكان

دور (الدونمة) وهم اليهود الذين أعلنوا الإسلام تقية ، وأقاموا فى سلانيك دوراً هاماً فى المخطط الذى نفذ . وما تزال هذه الأقليات فى مختلف أجزاء العالم الإسلامى قادرة على إثارة القلاقل السياسية والاجتماعية فى كل وقت ، مما يمكن للنفوذ الأجنبى من التدخل لتوطيد مركزه(١) .

ويشير إلى هذا المعنى الدكتور أنيس صايغ فى كتاب (الفكرة العربية فى مصر) فيقول :

(ثم نزل الإنجليز فى مصر والسودان ، واحتاج الإنجليز إلى موظفين أكفاء يتقنون لغتهم . ويقبلون أن يتعاونوا معهم ، وسد اللبنانيون والسوريون الفراغ . لذلك وصفهم اللورد كرومر فى مذكراته بأنهم منحة من السماء وأنهم خيرة البلاد . ومنهم من أنشأ صحفاً وأشهرها صحيفتا : المقطم والمقتطف ، وكانت الصحيفتان اللسان الناطق للسلطات والاحتلال باللغة العربية ، فأيدتا ذلك الاحتلال . وهاجمتا الحركات الوطنية) .

ويقول كابتن غوردون كانتج : إن الأقليات المسيحية واليهودية كانت تعامل على الدوام خير معاملة فى البلدان الإسلامية ، إلى أن تأتى دولة أوربية وتستخدم تلك الأقليات لقلب الحالة كما حدث فى مسألة الأرمن ، والأتراك. ويقول بيير روندو : (كان فى وسع الإسلام حل مشكلة الأقليات فى الشرق بالقضاء عليهم دفعة واحدة ، ولكنه لم يفعل ، لأن دعوته لم تقم على الفتح فى الأساس ، ولم يكن ثمة إكراه فى الدين ، لهذا لم يتعرض الإسلام للنصارى واليهود ، ولم يخيرهم بين الموت واعتناق الدين الجديد ، بل تركهم يمارسون طقوسهم دون أن يفرض عليهم شريعته .

٣ — واستغل النفوذ الاستعمارى فى مجال التبشير والتغريب (نظرية دارون) وعمل على توجيهها لتكون سلاحاً من أسلحة معارضة الفكر الإسلامى ومنازلته فى أهم قيمه وهى (التوحيد) ، وقد تنبه لذلك السيد جمال الدين الأفغانى حين ألف رسالة : (الرد على الدهريين) ، وحين وجد أن التبشير الاستعمارى فى الهند لم يثمر بين المسلمين لتحويلهم عن الإسلام . فتحول عن دعوته

---

(١) ص ١٦٠ من كتاب التبشير والاستعمار للدكتور فروخ .

إلى إذاعة نظرية (النيتشرية) إلى القول : إن الكون ماهى . ولا صانع له . وذلك رغبة فى إخراج المسلمين من إيمانهم بالله .

ولم يكن دارون فى الحق قد قال ذلك . أو تعرض للتوحيد أو للأديان ، وليس فى منطوق نظريته ما يتصل بذلك . ولكن النفوذ الاستعمارى وحركة التبشير ومن وراءها قوى التغريب استغلت هذه النظرية لإثارة جو من الشكوك والريب ، وفلسفة النشوء والارتقاء تنافى الإسلام فى جملتها كما أشار إلى ذلك السيد رشيد رضا ، ولكن الخطر هو فى الآثار التى ترتبت على نظرية دارون حين حاول هكسلى وسبنسر وغيرهم استغلالها فى شئون الاجتماع والتاريخ ، وإخراجها عن مضمونها العلمى الخالص لتكون نظرية عامة تطبق على الجنس البشرى كله .

ومعنى هذا أن خلفاء دارون من الفلاسفة — لا العلماء — أخذوا مذهب النشوء فنقلوه من تفسير توالد أنواع الحيوان والإنسان بعضها من بعض . إلى توالد الأخلاق والشرائع والقوانين وكل أعمال البشر . وقد مضى شبلى شميل خلف هؤلاء مقلداً وناقلا آراءهم ونظرياتهم التى لم تكن قد نضجت بعد أو تبلورت إلى اللغة العربية فأثار بها شبهات كثيرة .

وقد عارضه الدكتور صروف فى هذا الاتجاه ووصفه بأنه ليس عالماً متخصصاً فى العلوم الطبيعية ولكنه طبيب ، ويقول صروف : إن شميل لم يدرس العلوم الرياضية ، وكان حاد الذهن سريع التصور ، فيبادر إلى المجاهرة بما يعتقده صواباً ولو لم تكن له أداة قاطعة على تأثيره .

ويقول السيد رشيد رضا : إن الدكتور شميل قد كشف له عن حقيقة خطيرة تتصل بتحوله على هذا النحو إلى الدعوة المادية بعد أن كان مبالغاً فى الدين مواظباً فى العبادة ، وأن فكرة التعطيل ما طرأت عليه إلا بعد سفره إلى أوربا ، فقد لقى فى فرنسا عالماً مادياً قال له كلمة هدمت عقيدته الدينية هدماً .

ولم تكن دعوة شبلى شميل خالصة لوجه العلم أو تقدم الأمة العربية ، فقد سجلت له مواقف تأييد صريح للاستعمار البريطانى . وقد أيد مد امتياز قناة السويس وله كتابات يقول فيها : (الإنجليز يصلحون . فلماذا يكرهون ؟

وإن مصر تحت سيطرة الإنجليز انتظم ريها ، واتسعت زراعتها ، وأثرى فلاحها ، ونبعت فيها الحرية ، وتفتحت لها أبواب السجون ، وأن اللورد كرومر لا يسمح باهتضام الحقوق – البصير عام ١٨٩٨) .

وقد هاجم إسماعيل مظهر اتجاه شبلى شميل وقال : إنه اتخذ مذهب النشوء والارتقاء منسوبا إلى دارون ذريعة لإثبات المذهب المادى الذى اعتنقه طوال حياته ، وأن حملته على الدين هى متابعة لرأيه المادى وجرياً وراء غاية محدودة ، تلك الغاية هى أن يتبدل الناس بدينهم الأول ديناً آخر ، ذلك الدين هو عبادة المادة ، وقد أشارت بعض مصادر التغريب إلى أن الاستعمار والغزو الثقافى قد استغل نظرية دارون لخلق تيار المادية التى برزت فيه من بعد ، وممثلة فى نظريات لورنس ، وفرويد ، ودوركايم ، وماركس .

وفى مقدمة الذين استغلوا نظرية دارون : (نيتشه) الذى اتخذ من (زرادشت) مؤسس المجوسية معلماً مثالياً وضع على لسانه ما أراد نشره من آراء قوامها الإلحاد والإباحة فى كتابه (هكذا قال زرادشت) .

٤ – وجرت محاولات التبشير والتغريب إلى إعلاء شأن التاريخ القديم على تاريخ الإسلام ، أو خلط قيم الإسلام بالعادات القديمة المتوارثة ، ويصور هذا دكتور محمد عبد الرءوف فيقول : إن المستعمرين أرادوا أن يصدوا الناس عن مبادئ الإسلام بالمغالاة فى تمجيد العادات التى ورثوها عن أجدادهم وأسلافهم ، وأدخلوا فى روعهم أن لها قداسة حيث أنها تمثل تراث أسلافهم وكأن مبادئ الإسلام دخيلة أجنبية جلبها الأجانب من العرب ، وكانت المحاولات تستهدف رفع شأن العادة التى اكتسبت تدريجياً أهمية وقداسة تضارع ما للدين ومبادئه حتى ليكاد يجهل الكثير أن مجموع ما خلفه الآباء ديناً كان أو عادة وحدة غير متميزة ، كما عمل الاستعمار ما استطاع ويعمل ما يستطيع نحو إيهام البعض أن إسلام القوم إسلاماً خاصاً بهم : أى إسلام عربى أو صينى أو غير ذلك .

٥ – ومن أهم الدعاوى التى أثارها التغريب لتشويه الحقائق : دعوى الأثر الذى تركته (الثورة الفرنسية) فى المسلمين والعرب .

ولقد آن الوقت لأن يعرف الكتاب الذين يتشدقون بالكلمات التى توضع على أقلامهم خدمة لأهداف التبشير والاستشراق والاستعمار حقيقة الثورة الفرنسية ودور الماسونية ، تلك المنظمة التى استترت وراء الصهيونية فى القيام بها لتحقيق هدف خطير هو إعلان مساواة اليهود الذين كانوا إلى ذلك الوقت يعيشون فى أحياء الجيتا المنعزلة — إعلان مساواتهم بأهالى الأوطان — ومنحهم حق الاشتراك فى الحياة السياسية ، والوصول إلى كبريات المناصب . وحين يقول الدعاة : إن الثورة الفرنسية محت الفوارق التى كانت قائمة بين طبقات الشعب الفرنسى ، فإنما يعنون أنها أنهت عزلة اليهود . وفتحت لهم الطريق إلى ما حققوه اليوم فى العالم كله من السيطرة على كثير من المراكز الكبرى فى مجال السياسة ، والاقتصاد ، والثقافة ، والصحافة . والمال .

وخير ما فى الثورة الفرنسية إنما يعود إلى غلبة الفكر الإسلامى فى أوربا فى هذه الفترة وتأثر الغربيين بمفاهيم الإسلام فى الحرية والشورى والعدل والمساواة،ولقد أكثرت دوائر التبشير والاستشراق ترديد القول بفضل الثورة الفرنسية على النهضة العربية والإسلامية وهذا القول الظاهر الخطأ ما زالت تردده أقلام دعاة التغريب والشعوبيين تأييداً لمخطط الاستعمار الذى يحاول أن يوهم المسلمين والعرب أن يقظتهم لم تبدأ إلا بوصول النفوذ الغربى إليهم ومن الحق أن يقال : إن يقظة العرب والمسلمين بدأت قبل الثورة الفرنسية بكثير وقبل الحملة الفرنسية على مصر بوقت طويل أيضاً . وأن هذه الحملة الفرنسية لم يكن لها أى أثر فى النهضة العربية أو المصرية التى كانت قد بدأت فعلا قبل ذلك واتخذت خطواتها الثابتة . إن ربط اليقظة فى العالم الإسلامى أو البلاد العربية بالحملة الفرنسية هو من كلام المبشرين والمستشرقين أصلا وكل من يردده عن وعى إنما يؤكد هذا المعنى .

والاستعمار فى هذا يريد أن يخلق فهماً باطلا هو أن العالم الإسلامى لم يبدأ نهضته ولم يستيقظ من هجعته إلا عندما جاء الأوربيون فأيقظوه ومن هنا فإن كل فضل فى هذه النهضة يرجع إليهم .

وهذا رأى باطل بواقع التاريخ نفسه وقد تناوله كثير من الباحثين ، وتناولناه فى كثير من مؤلفاتنا .

٦ ـ وقد عمل التغريب والتبشير على اتخاذ الدعوة العربية سلاحاً لتمزيق الدولة العثمانية فلما تمزقت ناهض الدعوة العربية وغلب عليها نزعات الأقليميات الضيقة . فلما بلغت الدعوة العربية مكانها بحسبانها وحدة فكر مصدره الإسلام ظهرت الفلسفات والدعوات إلى تمزيق هذا المفهوم وإحلال مفهوم آخر قوامه وحدة عربية علمانية تقوم على التاريخ واللغة وحدهما .

وجرى ضرب الإسلام بالعروبة والعروبة بالإسلام والقول بأن الدين ليس عنصراً من عناصر القومية هو مفهوم إحدى النظريات الغربية التى حاول ساطع الحصرى وغيره فرضها على الثقافة العربية .

والقول بأن الدين ليس عنصراً من عناصر القومية ينطبق على مفاهيم الفكر العربى ولكنه يحتاج إلى بيان فى مفاهيم الفكر الإسلامى والثقافة العربية وإذا كان يراد بالدين هنا الإسلام رغبة فى عزله فإن الإسلام ليس ديناً لاهوتياً تعبدياً فحسب ولو كان كذلك لأمكن عزله عن أى حركة فكرية سواء أكانت قومية أم اشتراكية أم ديمقراطية ولكن الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع فهو بوصفه هذا يعد الأرضية الطبيعية لمفهوم الوحدة وما اللغة والتاريخ إلا بعض عناصره الجامعة إذ ليس هناك انفصال حقيقى بين تاريخ العرب وبين الإسلام، كما أنه لا سبيل إلى فصل اللغة العربية عن الفكر الإسلامى. والعربى هو من يفكر عربياً لا من يتكلم عربياً وما تزال اللغة هى أم الفكر وبوتقته ومن الأسف أن نستورد نظرية القومية من الغرب ونطبق نفس مضمون النظرية الذى طبقته شعوب وأمم تختلف فى واقعها وطبيعتها ومزاجها وظروفها عنا .

وهناك رأى قاطع يكاد يكون موضع الإجماع بين المسلمين والمسيحيين فى العالم العربى : أن الفكر الإسلامى هو فكرهم جميعاً ، وأن ليس للمسلمين فكر مستقل عن فكر المسيحيين وإن كان هناك دين مختلف .

وأمامى نصوص كثيرة كتبها كتاب مسيحيون عرب منصفون فى هذا الصدد تحدوا بها محاولة التبشير والتغريب فى إثارة الشبهات حول هذه الوحدة الفكرية وفى هذا يقول عيسى البندك : أن العربى مسلماً كان أم مسيحياً يرتبط بالإسلام والعربية اللغة التى يتكلم بها والأخلاق التى يتخلق بها ، والتقاليد التى

يزاولها وما يعتز به من إباء وشهامة ومروءة . إننا نؤمن بأن كيان النصارى العرب جزء من كيان إخوانهم المسلمين العرب .

وفى أوربا التى حاول التبشير والتغريب أن يفرض مفهومها للقومية المنفصلة عن الدين يوجد الدين عاملا أساسياً فى القومية : فالبروتستانتية جزء لا يتجزأ من القومية الهولندية والإنكليزية والأرثوذكسية جزء أصيل من القومية اليونانية والبلغارية .

ومن الحق أن يقال أن التبشير والتغريب فى كل هذه المحاولات يهدف إلى تمزيق القوى المتجمعة ، وإحلال الخلاف محل الوحدة ، ولذلك فهو لا يتوقف عن بذل الجهد فى إحلال نظرية مكان أخرى ، ولما فرض الفرعونية والفينيقية ثم تبين أن الفراعنة والفينيقيون عرباً ، عاد يدعو إلى تعزيز الإقليميات بطوابع جديدة ، ولما ظهرت دعوة العروبة حاول إلباسها ثوباً جديداً تكون فيه مناهضة الإسلام ومناقضة له ودعا إلى عروبة علمانية أو عروبة مجردة من الإسلام .

وقد كذبته الوقائع والأحداث فإن كل الحركات التحررية لما ولن تنفصل فيها العروبة عن الإسلام وتشهد بذلك ثورة الجزائر التى أكدت الجانب الإسلامى فى كفاحها وكان الإسلام – لا ريب – هو العامل الفعال فى قتال الجزائريين لخصومهم .

والفكر الإسلامى حين يتقبل العروبة إنما يتقبلها بمفهومه ووفق قيمه الأساسية ، حيث لا خلاف بين المسلمين والمسيحيين فى وحدة الفكر ، والتقاليد ، والقيم . وإن اختلفت الأديان من جانبها العبادى ، وليست الأمة العربية بمستطيعة أن تكون أمة منفصلة عن الإسلام تاريخاً ولغة . ولا تستطيع اللغة العربية ولا التاريخ أن يكونا بمفردهما مقوماً للعروبة ، دون أن يرتبطا بأرضية الفكر الإسلامى الذى انبثقت منه الثقافة العربية . وكما أثار التبشير والتغريب الالتباس بين فكرتى العروبة والإسلام ؛ أثار الالتباس بين فكرة اللبنانية والنصرانية .

٧ – كما حرص التبشير والتغريب ، على وضع هالات من البطولة حول كثير من الشخصيات الاستعمارية التى عملت على خدمة أهدافه ، فهناك لورنس

ملك العرب غير المتوج ، وهناك غردون بطل تحرير السودان . وهناك ولفنجستون وستانلى المكتشفين العالميين . وهناك لورانس بانتجيل وهنرى الملاح وهم جواسيس أو مبشرون .

ولقد كشفت صفحات التاريخ الحديثة خدعة هذه الأسماء اللامعة بعد أن عنيت صحف التبشير والاستعمار بتمجيد هؤلاء . والمعروف أن لورنس كان جاسوساً بريطانياً خطيراً ، دفع العرب إلى الانفصال عن الترك لحساب بريطانيا والصهيونية ، وكان يعلم مقدماً مدى هذه الخدعة الكبرى التى تكشفت فيما بعد وهى احتلال الوطن العربى والحيلولة دون قيام الدولة العربية الموعودة وقد سجل ذلك فى مؤلفاته وكتاباته . وكذلك أمر غوردون داعية تحويل السودان بالتبشير إلى النفوذ الغربى ، أما هنرى الملاح وولفنجستون وستانلى فهؤلاء مبشرون كشفت هويتهم تصريحاتهم وملابسهم التى كانوا يرسمون عليها الصليب .

* * *

الفصل الثالث

التبشير والاستشراق

لا ريب أن الاستشراق حركة مستقلة والتبشير حركة أخرى مستقلة والواقع أن مصدرهما بدأ فى أول أمره واحداً ثم اختلفا فى طريقهما ولكن التعاون والتنسيق بينهما ظل مستمراً وقائماً ومتصلا وما يزال ويمكن أن يوصف الاستشراق بأنه المصنع والتبشير بأنه المصدر أو الموزع للشيء الذى يصنعه الاستشراق .

والاستشراق بعضه متصل بالنفوذ الاستعمارى ، وبعضه متصل بالثقافات الغربية المسيحية ، وبعضه نزيه وبعضه متعصب . ومن هنا فقد كانت معطياته فى الأغلب نافعة لتغذية حركة التبشير وكانت آراؤه وملتقطاته (مادة) خام يستطيع التبشير استعمالها فى دعم خططه وفى إثارة عوامل الخلاف وتأريث الشبهات بما يحقق خططه .

والاستشراق إذا كان خاضعاً لنفوذ دينى أو سياسى فإنما هو يدرس القضايا بوجهة نظر مسبقة ، وبأحكام مقررة ، وبأهداف واضح فيها سوء النية فى الأغلب الأعم قوامه تعصب واتهام للشرق والإسلام والعربية . ومهما صيغت كتاباته فى أسلوب له طابع علمى فإنها تكشف عن عدم الحيدة وطابع الانحياز .

وقد عمل عدد كبير من رجال الاستشراق فى مجال التبشير . وكانت كتاباتهم وقوداً خصباً فى أيدى زويمر وأصحابه ، من هؤلاء : مرجليوث وماسنيون ، وهنرى لامنس ، ولويس شيخو ، وفنسنك ، وجولد زيهر . وهم من أشد المستشرقين تعصباً على الإسلام واللغة العربية .

ويكاد مجال العمل واتجاهه أن يجمع بين حركة التبشير وحركة الاستشراق الخاضع للنفوذ السياسى والدينى الغربى . فهو يلتمس نفس الأهداف وهى

الحيلولة دون وحدة المسلمين باستمرار تمزيقها والحيلولة دون الالتقاء على مقومات فكرهم بالطعن فيها وإثارة الشبهات حولها .

وربما أعطت كلمة الاستشراق طابعاً من التكريم وما زالت فى نظر الكثير تحتفظ بشيء من التقدير من حيث وجود طبقة من المستشرقين الذين يعملون فى نزاهة . ومن هنا أيضاً يمكن أن يقال أن حركة التبشير قد اعتصمت بعد الحرب العالمية الثانية بحركة الاستشراق بعد أن اسودت صفحتها وكرهها الناس . ونفروا من المتصلين بها وبعد أن كشفت الأحداث أعمالها المهينة ، ومن هنا فقد خلعت حركة التبشير أثوابها فى السنوات الأخيرة . واختفت وراء ستار الاستشراق . ولذلك فنحن فى أشد الحاجة إلى التنبه . والالتفات إلى الفوارق التى يجب أن تكون واضحة فى تقدير الباحثين المسلمين لكتابات المستشرقين والمنصفين منهم وهم قلة قليلة — وبين المبشرين الذين لبسوا ملابس الاستشراق . ومما يذكر فى هذا الصدد عن المستشرق ماسنيون الذى كان تابعاً فى عمله لوزارات الاستعمار قد عاد فى السنوات الأخيرة من عمره فعمل جهده فى معسكر المبشرين معتمداً على اسمه اللامع المحاط بقدر كبير من سمت العلماء .

وقد تبلورت فى السنوات الأخيرة مراكز العمل بين التبشير والاستشراق . فالأول قد ركز عمله فى مجال التعليم المدرسى والجامعات والهيئات الإرسالية المختلفة وأهمها دور الحضانة . ورياض الأطفال . والمراحل الابتدائية بحسبانها المجال الأسهل والأقدر على صياغة الأطفال المسلمين صياغة تجعلهم مرنين فى حياتهم الجامعية وفى تقبل آراء التغريب والشعوبية وتقبل النفوذ الاستعمارى على أنه حضارة . وتقدير فضل الغرب ممدن الأمم والشعوب وصاحب الحضارة . وانتقاص أمته ووطنه ودينه بحسبان أن بلاده المتأخرة إنما يرجع تأخرها إلى دينها وثقافتها القديمة ، هذا هو ما تريد أن تركز عليه المعاهد والجامعات . والمدارس التابعة للنفوذ الأجنبى وإرساليات التبشير وهى دعوى خطيرة يجب أن يكشف عنها فى التعريف بالفارق البعيد بين الحضارة والاستعمار . وقد حرص التبشير فى مخططاته المدروسة على تلقف الأطفال قبل أن تتكون فيهم مفاهيم الإسلام بحكم البيئة الطبيعية الإسلامية .

وبينما عمل التبشير فى مجال التعليم ، والمستشفيات ، والملاجىء ، والجمعيات الأدبية ، وجماعات الشباب ، عمل الاستشراق فى مجال البحث باسم المنهج العلمى ، وقد استخدم الاستشراق الكتاب والمقال وكرسى التدريس فى الجامعة والمشاركة فى المؤتمرات العلمية العامة(١) .

ومن هنا يقع التلاقى ، والتنسيق بين العملين فى دور العلم والصحافة بين الدعوة الصريحة فى التبشير وبين الدعوة المستورة فى الصحافة والكتاب والدراسات ذات الطابع العلمى ، وهكذا يشترك التبشير والاستشراق فى العمل من خلال أهم الجوانب التوجيهية الهامة فى التعليم والثقافة بوسائلها المختلفة .

ولم يعد عمل التبشير واضحاً صريحاً اليوم . بعد أن تكونت الأجيال الأولى الذى عملت ومهدت طريق المسرح والقصة والسينما ، فأمكن عن طريقها اليوم تقديم الآراء ووجهات النظر التغريبية فى لباقة ومرونة من خلال هذه النصوص سواء من حيث دعم المفاهيم الغربية أو تحطيم المفاهيم العربية الإسلامية ، وما تزال المجلات والأفلام السينمائية ترد إلى العالم الإسلامى من مختلف دول العالم باسم التبادل الثقافى ، وهذه الدول ذات المصالح الاستعمارية فى العالم الإسلامى لا تقدم إلا أنواعاً معينة من هذه الأفلام والكتب والقصص التى كتبت خصيصاً إلى أعماق النفس العربية والإسلامية لترويج هذه المفاهيم . حتى تصبح حقائق موحى بها ، تصل إلى مرحلة الاقتناع بتوالى ترديدها . وقد وصل الدكتور محمد البهى فى بحثه إلى أن التبشير والاستشراق كلاهما دعامة الاستعمار فى مصر والشرق الإسلامى (فكلاهما دعوة إلى توهين القيم الإسلامية والغض من اللغة العربية الفصحى وتقطيع أواصر القربى بين الشعوب العربية ، وكذا بين الشعوب الإسلامية ، والتنديد بحالة الشعوب الإسلامية الحاضرة ، والازدراء بها فى المجالات الدولية العالمية) . ولما كان الاستشراق معنياً بالتراث القديم فهو يستطيع أن يخدم التبشير حين يولى اهتماماً كبيراً إلى شخصيات مضطربة فى الفكر الإسلامى أمثال الحلاج السهروردى ،

---

(١) يراجع دكتور محمد البهى فى بحثه « التبشير والاستشراق » .

وأبو نواس . وبشار وإعلائها . وكذلك اهتمامه بكتاب الأغانى وألف ليلة وشعر عمر الخيام (وهو فى الحق منسوب إليه) وذلك بالإضافة إلى ما يستطيع أن يحصل عليه من الروايات الغامضة، أو المضطربة زوراً وبهتاناً التى يتصيدها من كتب المحاضرات التى كانت جماع ما يرويه القصاصون فى عصور الاضطراب والضعف ، وتقديم هذا كله على أنه حقائق علمية ، يمكن استغلالها كأسلحة لإثارة الشبهات حول حقائق الإسلام والفكر الإسلامى . والمعروف أن التبشير والاستشراق نشآ معاً بعد الحروب الصليبية ، فى حضانة الكنيسة . وكان الاستشراق يستهدف ترجمة القرآن إلى لغات أوربا للرد عليه، وإثارة الشبهات حوله ، مما يصل إلى أن يكون أداة طيعة فى يد المبشرين الذين انبثوا فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى يجادلون المسلمين . وإذا كان لنا أن نأخذ برأى واحد من أتباع المبشرين هو فارس الشدياق فلربما استطعنا إلقاء الضوء على حياتهم العلمية : يقول فى كتابه (ذيل الفارياق ص ٢) . إن هؤلاء الأساتيذ لم يأخذوا العلم من شيوخه ، وإنما تطفلوا عليه تطفـلا ، وتوثبوا توثباً . ومن تخرج فيه بشىء فإنما تخرج على القسس . ثم أدخل رأسه فى أضغاث أحلام وتوهم أنه يعرف شيئاً وهو يجهله . وكل منهم إذا درس فى إحدى لغات الشرق أو ترجم شيئاً منها يخبط فيها خبط عشواء فما اشتبه عليه منها رفعه من عنده بما شاء ، وما كان بين الشبهة والتبين حدس فيه فرجح منه المرجوح وفضل المفضول) . وهكذا نرى فساد عمل الأسانيد الذين يعول عليهم كثير من باحثينا وأساتذة الجامعات عندنا . حتى أنهم يأخذون آراءهم حقائق مقررة ويرددونها كالببغاوات .

وقد أكد الدارسون المنصفون ، أن أعمال البعثات التى قام بها المستشرقون إلى بلاد الشرق والعالم الإسلامى لم تكن بعثات علمية خالصة . وإن قامت باسم العلم وحملت أسماء الجامعات والمعاهد العلمية ، وإنما هى بعثات سياسية ذهب محصولها إلى وزارة المستعمرات ، ولا زلنا نذكر البعثات العلمية التى وردت إلى العالم العربى قبل الحرب العالمية الأولى ، والتى ساحت فى صحراء سينا ، وجزيرة العرب وكيف أنها كانت فى الحقيقة بعثات سياسية حربية ، أرادت أن تكشف عن الطرق والمياه، والسكك الحديدية ، ومواقع الجيوش ،

وتحركات العدو ، وقد جاء الجاسوس (لورنس) على هيئة عالم مستشرق ، ثم تبين من بعد من هو لونس الذى قاد العرب فى قتـال الترك شركائهم فى الإسلام ، ثم تبين كيف خدع الاستعمار العرب بعد أن حاربوا الترك واستولى على أرضهم التى وعدهم بأن يحقق لهم فيها قيام دولة عربية .

وعن طريق الاستشراق ، ظهرت مختلف النظريات ، التى استخدمها التبشير ، والتغريب ، والاستعمار فى توهين القيم الإسلامية ، وتفتيت الشعوب العربية الإسلامية ، فعن طريق الاستشراق ظهرت نظريات السامية والآرية من ناحية ، والفرعونية ، والفينيقية ، والبربرية من ناحية أخرى ، وقد كانت مؤتمرات الاستشراق ولا تزال ، لا يدعى إليها فى الأغلب إلا أصحاب الولاء الواضح للنفوذ الاستعمارى والتبشير . وقد وجد فى الأعوام المتقدمة ، من كان يقف فى مؤتمرات المستشرقين فيرد عليهم ويكشف اتجاهاتهم ، ويصحح أخطائهم أمثال عبد العزيز جاويش وأحمد زكى باشا . أما الآن فإن الأعلام الذين يحضرونها فإنما هم من يرددون ما قاله المبشرون ، والمستشرقون جميعاً لأنهم من تلاميذهم وأتباعهم .

٢ ــ الاستشراق فى خـدمة التبشير

إن أبسط تصوير للاستشراق وأعمقه هو أنه استخدام العلم فى خدمة السياسة . ولقد يتحدث الكتاب ببساطة عن الدور الذى حققه الاستشراق فى التراث العربى والإسلامى ، ونحن نقول أن مصدر اهتمام المستشرقين بالشرق والإسلام ووضع الدراسات المختلفة ، إنما يرجع إلى أن العالم الإسلامى واقع فى قبضة استعمارهم ، فهم يدرسون تاريخه وأدبه ليدرسوا نفسية هذه الأمم ليكيفوا موقفهم معها ، ويعرفون من أى جهة يستطيعون إخضاعها ، وما هى جوانب الضعف فيها للانتفاع بها ، وما هى جوانب القوة للقضاء عليها وذلك بقصد أن يبقى نفوذهم ويستمر ، وهم فى كل ما كتبوه قد عمدوا إلى وضع الإسلام ، واللغة العربية ، والثقافة ، والتاريخ فى قفص الاتهام وحملونا على أن نقف موقف الدفاع ورد السهام : ومن أجل هذا الهدف ، يركز الاستشراق فى جوانب معينة فهم يركزون على التصوف الفلسفى ، وأعلامه ، وإذاعة آرائهم ، وآثارهم ، وذلك غرض خبيث ، ولا شك فقد

وصل الفكر الإسلامى إلى تصفية مثل هذه الموجات التى مرت بالعالم الإسلامى نتيجة اتصاله بالفكر اليونانى ، والفارسى ، والهندى ، منذ وقت طويل ، والإسلام مفهومه الأصيل فى التصوف ، فمحاولة الاستشراق لبعث لون معين واحد هو اللون المشبوه المتصل بالاتحاد والحلول ووحدة الوجود أمر لا يقره الإسلام أصلا وإنما يكشف عن الغرض الخبيث . ويبدو هذا الاتجاه من الاستشراق ، فى الاهتمام بشخصيات بعينها فى تاريخ الإسلام والأدب العربى : كالاهتمام بالحلاج فى التصوف ، وأبو نواس فى الأدب (اهتم لويس ماسينيون بدراسة موسعة للحلاج واهتم بلاشير بدراسة المتنبى) . وفى نفس الوقت تساق التهم وأعمال الانتقاص إلى الشخصيات الأصيلة ، التى أضافت إلى الفكر الإسلامى إضافات هامة ولها مكانها الأصيل : كالحملة الموجهة إلى ابن خلدون . والمتنبى والغزالى . وقد أصدر أولياء الاستشراق والتبشير من الكاتبين باللغة العربية دراسات فى هذا الصدد ، جروا فيها وراء أهداف الاستعمار والتغريب وهناك ثلاث رسائل معروفة : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية لطه حسين . ومع المتنبى لطه حسين ، والأخلاق عند الغزالى لزكى مبارك . وهى فى مجموعها ترديد للاتهامات والشبهات التى أثارها المستشرقون والمبشرون .

وهناك محاولة دائمة لتصوير الفكر الإسلامى بأنه واجه الاضطهاد ، وحيل بينه وبين الحرية ، وأن هناك (أبطال) استشهدوا فى هذا الصدد وتلك محاولة باطلة لا أساس لها ، فإن الفكر الإسلامى ظل حراً قادراً على التعبير ، ما لم يصطدم المتكلمون باسمه صراحة بالخيانة ، أو الاتهام بموالاة أعداء المسلمين . وهم يقدمون دائماً فى هذا السبيل : أسماء الحلاج والسهروردى . ومن الحق أن يقال أن الحلاج ظل متمتعاً بحريته فى أن يقول ما يشاء إلى اليوم الذى ثبت فيه أن بينه وبين رئيس القرامطة اتفاق سرى على قلب الدولة . عندئذ قتل لخيانته ، لا لحرية فكره وكذلك الأمر بالنسبة للسهروردى . فليست هناك فى الحق قضية اضطهاد لحرية الفكر فى الإسلام كما حاول الذين كتبوا عن الحلاج وغيره أن يشوهوا الحقيقة .

ثم أن هناك محاولات تغريبية دائمة إلى تدمير أعلام الإسلام ، وإحياء خصومه ، والمشوهين من أسمائه أمثال بشار ، وابن الراوندى ، وأبو نواس ، والزنج ، والقرامطة .

وقد ركز الاستشراق على الأفكار الدخيلة على الإسلام . ومن ذلك : اهتمامه بفكرة وحدة الوجود ، والحلول والاتحاد . وفكرة وحدة الوجود معناها : تأليه المخلوقات ، واعتبار الكون هو الله . وهذا هو سر اهتمام المستشرقين . والمبشرين بابن عربى والحلاج .

أما مفهوم الإسلام ، فهو أن الموجود اثنان : واجب الوجود وممكن الوجود . واجب الوجود ، هو صانعها الواحد الفرد الصمد ، وممكن الوجود ، هو هذه الكائنات كلها التى تدركها بحواسنا الخمس مباشرة .

أما أصحاب مذهب وحدة الوجود فيقولون : إن كلاهما واحد . ومعنى هذا أن الكون هو الله ، وقد أنكر الإسلام عقيدة الاتحاد : أى حلول الخالق فى المخلوق . واستغراق المخلوق فى الخالق . والإسلام يميز طبيعة كل منهما ، ولهذا أنكر الإسلام فكرة الحلول ، والاتحاد والتجسيد .

ولا يتقبل الإسلام (وحدة الوجود) . لأن فيها انتقالا من عقيدته الأصلية (لا إله إلا الله) إلى ما يقوله الفلاسفة (لا موجود فى الحقيقة إلا الله) . وشتان بينهما وسياق كل منهما ينتهى إلى نتائج مختلفة أشد الاختلاف لنتائج أخرى ، والتصرف فى مفهوم الإسلام يبدأ من القرآن والسنة وينتهى إليهما .

وهكذا فإن فلسفة وحدة الوجود والحلول والاتحاد هى مفاهيم غير أصيلة فى الفكر الإسلامى ، ومستمدة من فلسفات وافدة ، وثنية ، ومجوسية ، وهذا هو ما يعجب المبشرين . والمستشرقين فى الصوفية . وهو الذى يدعوهم إلى الاهتمام بها .

وقد كانت للمستشرقين جولات جريئة يهاجمون فيها الإسلام واللغة العربية فى مؤتمراتهم : وكانوا يجدون من أمثال عبد العزيز جاويش . وأحمد زكى باشا ، وغيرهم . قوى عاتية تقف فى وجههم وتكشف شبهاتهم .

ولا نزال نذكر ما وقع فى مؤتمر المستشرقين بالجزائر عام ١٩٠٥ ، حين نهض مسيو فولار وتحدث عن اللغة العربية الفصحى وهون من شأنها ، وأعلى شأن اللهجة الدارجة . وقال (إنه لا يرى أن لغة القرآن هى أفصح لغات العرب أو اللغة العربية المحضة الناصعة التى تتخذ قاعدة من بين اللغات العربية ،

وقال (إذا أردنا أن نطلب اللغة الأنصع فصاحة ، والأصح أصلا وتركيباً ، فعلينا أن نرجع بالبحث إلى العصور التي سبقت ظهور الإسلام .)

وقال : (أن القرآن مدبج على طراز خاص من النثر) .

وقد رد عليه العلامة عبد العزيز جاويش باللغة الإنجليزية ودحض شبهاته ، وألقى بياناً مطولا عن اللغة العربية ، والقرآن ، وقال : (أين لكم وأنتم الأغراب عن اللغة العربية أن تحكموا على الفاسد ، والفصيح ، والأفصح ، فإن صحة الحكم في اللغة تستوجب وجود ملكة اللغة ، راسخة في الحس عريقة في النفس ، وهو ما لا يؤتى بالكسب ، إلا بعد انقضاء السنين الطويلة) .

وقد اصطدم المفكرون المسلمون بالتبشير ، والاستشراق . وقادته عندما رشح أحدهم ، وهو فنسنك . رئيس تحرير دائرة المعارف الإسلامية ليكون عضواً في المجمع اللغوى في مصر ، وهاجم هذا الإجراء : الدكتور حسين الهراوى ، وقدم صورة لآراء فنسنك في رسول الله وكشف عن اتجاهه واتجاه زملائه في النيل من الإسلام .

وقال ، إنه إذا (أراد أن ينال من الإسلام أمراً فإنه يفرض فرضاً ، ثم يبحث عن الآيات التي قد تتناسب مع هذا الرأى الذى فرضه فإذا وجد آية تدحض رأيه حذفها حذفاً ، وأنكرها إنكاراً . حتى يخرج بالنتيجة التي تزرع الشك في فؤاد من يطالع على أقواله من غير تمحيص ، وقال إن هذه هي طريقة المبشرين التي يتبعونها عند بحثهم في الإسلام نفسه ،أو في حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، أو عندما يريدون أن يستقصوا مسألة في القرآن ، وهذه الطريقة لم يبتدعها (فنسنك) ، بل هي طريقة قديمة في أقدم ما ورد في كتب المستشرقين والغرض منها ظاهر جلى ، وهو تزويد جماعة المبشرين والمستعمرين بحجج شبه منطقية يشوهون بها عقائد المسلمين ، ويقللون من تمسكهم بدينهم ، وهى إحدى الطرق التي وضعها رواد الاستعمار من زمن قديم ، وكانت إحدى وسائلهم مع تقوية اللغات العامية حتى لا يتفاهم بها المسلمون ولا يفهمون لغة قرائهم . وفي تقرير لجنة العمل المغربي يقول المستشرق سيكارد : أن الإسلام

فى روحه الخاصة قوة مخالفة لاحتياجاتنا ، ورغائبنا ، ونزعاتنا فمن مصلحتنا التقليل منه بين الشعوب الخاضعة لسلطاننا . وقد نقل التقرير فقرة من كتاب برنيو الذى يدرس لفريق من طلبة أوربا اللغة العربية حيث يقول : (أتريد يا صاح أن تتعلم الكلام مع الأهالى الذين حولك . . إلى أن يقول لا تظن) أنى سأعلمك لغة القرآن ، هذه اللغة قد ماتت ولا يتكلم بها أحد فهى (لاتينية) العرب ، وهى اللغة المستعملة فى جنة محمد ، وسأحبب إليك دراستها فى المستقبل إذا أردت أن تتذوق حلاوة الاجتماع بالحور العين .

ويقول الدكتور الهراوى : ويتمثل لك نتيجة عمل المستشرقين جلياً فى كل كتاب علمى ، أو عمرانى ، أو اجتماعى ، يكتب شيئاً عن الشرق ، وعن الإسلام ، فإنك ما تكاد تقرأ أى هذه الكتب حتى الافرنجية منها حتى ترى إجماعاً على الجهل بالإسلام ، أو إجماعاً على الطعن فى النبى الكريم ، وقد أنتج ذلك أن بعض المتعلمين من المسلمين الذين لم يلموا إلماماً كافياً بدينهم ، أخذوا يتبعون خطا المستشرقين ويقتفون أثرهم بالطعن فى نفس دينهم واخترعوا لنا اسماً غريباً فى هذه الحالة هو حرية الفكر ، والتجديد فى الأدب العربى ، ومباحث فى الشعر الجاهلى ، إلى غير ذلك من التفنن فى أنواع الجهالة المشعوذة بلباس سطحى من القيم لا تكاد تلمسه حتى يتمزق ويهتك سر لابسه . إنه قليل الثقة عالة فى معلوماته عن دينه على جماعة المستشرقين) . وضرب الدكتور الهراوى مثلا بما ورد فى دائرة المعارف الإسلامية فى مادتى (إبراهيم والكعبة) من شبهات ومغالطات . ودائرة المعارف الإسلامية : هى فى ذاتها عمل من أعمال التبشير ، والاستشراق ، لوضع الشبهات المختلفة التى توصل إليها خصوم الإسلام فى ثوب له مظهر علمى ، ولذلك فإن مراجعة مواد هذه الموسوعة يحتاج من الباحثين المسلمين إلى حذر شديد .

وقد عرض كثير من الباحثين لأخطاء دائرة المعارف المتعمدة . وأشار العلامة فريد وجدى إلى سيطرة البدع الدخيلة على الإسلام على مواد هذه الدائرة . باستفاضة مثيرة ، فقد أمعن مؤلفو الدائرة فى تسجيلها ، وشرحها ، كأنها حقائق مقررة . وتورد هذه (البدع) على أنها من المعارف الإسلامية ، بينما يبرأ الإسلام منها وهو ما جاء إلا ليحارب بها ، وقد اعتمد المبشرون

فى إيراد ذلك على كتب ليست علمية ، قاصدين التمويه ، بإدخال الأساطير والبدع إلى حقائق الشريعة كأنها كلها مواد الإسلام وقيمه .

ومن أهم الكتب المشبوهة التى اعتمدت عليها دائرة المعارف الإسلامية ، كتاب (شمائل المصريين المحدثين وعاداتهم) التى كتبه إدوارد وليم لين عام ١٨٢٥ عن المصريين . وقد كان كاتبه من الخصوم القاصدين إلى تشويه الحقائق ، ثم جاء مبشرو دائرة المعارف فنقلوا عنه خرافاته كأنها حقائق مقررة .

وكتاب (شمائل المصريين المحدثين وعاداتهم) يدرس الآن فى بعض المعاهد والجامعات فى العالم العربى . ألفه المستشرق المبشر (إدوارد وليم لين) الذى قدم مصر عام ١٨٢٥ بهدف واضح هو جمع عدد من الشبهات ، والصور المثيرة لصياغتها على نحو يوحى بأنها أخلاق المصريين . وتحقيقاً لهذه الغاية الماكرة فقد أخفى حقيقته وسمى نفسه منصور أفندى ، وتزيا بزى الأتراك ، وادعى الإسلام ، ليتمكن من محادثة المسلمين فى أسرار معتقداتهم (كما يقول) وجعل يغشى المساجد ، وحفلات الذكر ، وموالد الأولياء ، ويستمع إلى أحاديث المعجزات . والخوارق ، حتى يتسنى له أن يكتب مؤلفه الذى اهتمت به دوائر الاستشراق فى أوربا ، وتناقلته وترجم إلى اللغات المختلفة فى الشرق والغرب وأصبح بتوجيه الاستعمار والتبشير ونفوذهما مرجعاً شعبياً لمن يدرس العادات والتقاليد ، كما أصبح أحد المراجع الهامة التى اعتمد عليها مؤلفو دائرة المعارف الإسلامية ، الذين كانوا ينقلون عنه هذه الخرافات على أنها حقائق . وكذلك فعل التبشير والتغريب بكتابى الأغانى وألف ليلة ، إذ جعلهما من المصادر العلمية التى يعتمد عليها . ولا شك أن من أخطر أعمال التبشير هو وضع موسوعات كاملة أمام الباحثين العرب والمسلمين تمكنهم من أن يجدوا فيها ما يريدون البحث عنه فى سرعة وسعة ، فيلجأون إليها دون أن يكلفوا أنفسهم مؤنة البحث عما يتضمنه من حقائق ، أو أباطيل ، وذلك اعتماداً على طبيعة بعض المؤلفين والباحثين والعلماء من الثقة بالكلمة المطبوعة ، ومن الاعتماد على شهرة الأسماء التى وضعت على صدر هذه الأبحاث ، ومن هذه المراجع المشبوهة دائرة المعارف الإسلامية . والمنجد ، والموسوعة

العربية وبروكلمان وغيرها ، ونظراً لتقصير المفكرين المسلمين فى وضع مثل هذه الموسوعات ، فإن دائرة المعارف الإسلامية هذه ، تجد مكانها لدى الباحثين الذين لا يتنبهون إلى بعض التعليقات القصيرة . والهوامش التى وضعها بعض ذوى الغيرة للكشف عن الشبهات المدسوسة فى تلك النصوص .

والهدف الأكبر من مثل هذه الأعمال القاصدة إلى تشويه الحقائق ، هو خلق شعور بالنقص وإحساس بالازدراء ، من شأنه أن يسيطر على نفوس المسلمين والعرب .

ويصدق فى هذا قول الدكتور عرفان عبد الحميد من أن هدف الاستشراق هو خلق جيل يتنكر لتراث هذه الأمة ليصير إلى حيرة ، واضطراب فكرى ، فيسهل عنده غزو المجتمع الإسلامى بالفكر ، والمبادىء ، والمفاهيم ، والتصورات الغربية .

وقد أشار مالك بن نبى إلى أنه فى كل قضية ، أو مسألة ، أو معضلة تواجه المسلمين فإن الاستعمار والتبشير والاستشراق والتغريب قادر على طرح إجابات من محاولته المستمرة لتغيير مجرى التفكير الإسلامى .

ولقد يغرى هذا الاهتمام الذى يوليه المستشرقون التراث العربى الإسلامى إلى إنصافهم ، وقد يغيب عن بال هؤلاء أن مصدر اهتمام المستشرقين بالإسلام والشرق ، إنما ينصب أساساً على دراسة نفسية هذه الأمة للتعامل معها بما يحقق لهم هدفهم فى إذلالها وتغيير مجرى فكرها بحيث تصبح مستسلمة خاضعة لهم .

وقد أجمعت كتابات المستشرقين على أنهم لم يتخلصوا بعد من تعصبهم ، وأن علمهم لم يتحرر من الهوى ، وقد سجل برنارد لويس وجب هذا المعنى ، حيث أشار برنارد إلى ظاهرة التعصب الدينى الظاهرة فى مؤلفاتهم ، وأشار إلى ظاهرة الأحكام المسبقة على الإسلام التى لا تزال تحكم هذه الأعمال بالرغم من محاولات التحرر منها ، ولا شك أن زعم المستشرقين بأن أبحاثهم قد أخذت شكل الموضوعية والتجرد من الأهواء والأخذ بأسباب البحث العلمى ، هذا الزعم لا يثبت أبداً أمام الصور المشوهة والعبارات الحاقدة الدفينة التى تظهر هنا وهناك من وراء الوعى بالرغم من محاولة إخفائها .

ومجمل القول أن آراء المستشرقين منحرفة ، وهى منصبة على القرآن والرسول والإسلام ، فالقرآن عندهم صورة من الكتب الأخرى ، وأن له لغة فى مكة تختلف عن لغة المدينة والإسلام صورة مستقاة من الديانتين اليهودية والمسيحية .

وأن الرسول كان راهباً رومانياً غضب على البابوية وخرج عليها .

وما تزال كتابات ورسوم دانتى وفرجيل وفولتير وديدرو وهى من أوائل الكتابات المبغضة ، ما تزال تؤثر فى كتابات من تبعهم من أمثال لامنس ومرجليوب ولويس شيخو وسنوك وفنسنك وقد انتقلت آراءهم إلى طه حسين وعلى عبد الرازق ومحمود عزمى وسلامة موسى وحسين فوزى وزكى نجيب محمود ولويس عوض وتوفيق الحكيم .

* * *

الفصل الرابع
الدائرة المرنة والدائرة الصماء

إن هناك قوى ثلاث خطيرة تعمل فى مجال الفكر الغربى . وتلقى ظلها على الفكر الإسلامى والثقافة العربية هى :

(الشعوبية – التبشير – التغريب)

وجميعها قوى استعمارية فكرية تتخفى خلف الطامعين : النفوذ الغربى والصهيونى والشيوعى ولا بد – إزاء ذلك – من اليقظة التامة فى تقويم الآراء والمذاهب . والدعوات التى توجه إلينا كالسهام . ولا بد أن يكون لدينا قاعدة عريضة مستمرة من مقومات فكرنا وذاتنا وعقائدنا وشخصيتنا أساساً .

وعلينا أن لا نقف موقف المبهورين . أمام ضخامة الصحف . أو جلالة الأسماء والألقاب ذات الشهرة المادية فإن أغلب هذه الشهرة التى حصل عليها المفكرون إنما صنعت لهم صنعاً لإغراء البسطاء بهم . فيستسلموا إلى آرائهم وكأنها حقائق صحيحة ، وعلينا أن نلتمس مفهوم فكرنا فى هذا . وهو أن كل كلام يؤخذ منه ويترك إلا القرآن والسنة الصحيحة ، وقاعدة الحق الذى نقبله أن يطابق (التوحيد) ومنهج القرآن ، وأن نقره عقلياً وتثق ثقة كاملة بأن قائله ليس ممن ينطبق عليهم قانون (الجرح والتعديل) ، أى أن يكون اسمه نقياً بعيداً عن شبهة الولاء الثقافى للتبشير أو الاستشراق أو الاستعمار وفى ضوء هذا علينا أن ننظر فى هذه الحقائق .

أولا : أن اليقظة العربية الإسلامية قد طلعت بواكيرها فى منتصف القرن الثامن عشر (عام ١٧٤٠ تقريباً) بدعوة التوحيد التى قادها الإمام محمد ابن عبد الوهاب فى الجزيرة العربية ، ومن هذه الدعوة تفجرت كل هذه الدعوات والحركات التى توالت والتى كانت استمداداً واستمراراً لمفهوم

اليقظة . كانت الحركات السنوسية فى طرابلس الغرب والمهدية فى السودان امتداداً لها ، كما كانت حركة جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده من بعدها .

وعندما جاء النفوذ الفرنسى إلى العالم الإسلامى ، واجهته حركة اليقظة النامية التى بدأت تعمل فى مجال مقاومته بالإضافة إلى عملها فى مجال تحرير الفكر الإسلامى وإعادة تشكيله من جديد .

وقد أزعج النفوذ الاستعمارى ذلك الأسلوب العنيف الذى بدأ به (الجهاد) والمقاومة : فقد واجهه المسلمون الهنود فى سنة ١٨٧٥ فى مقاومة عارمة كانت تستمد مفهومها من حركة التوحيد التى قادها محمد عبد الوهاب فى الجزيرة العربية . وفى مصر واجه الإنجليز أحمد عرابى : الذى تعلم فى الأزهر . فى القرم واجه الاستعمار الروسى : الشيخ شامل ، وفى الجزائر واجه الفرنسيون الأمير عبد القادر الجزائرى . وكان جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده يؤلبون عليهم فى كل مكان وحمل السلطان عبد الحميد لواء الدعوة إلى الجامعة الإسلامية لمواجهة الخطر الزاحف ، واستجاب له المسلمون خارج الدولة العثمانية والسنوسى فى ليبيا والمهدى فى السودان إلخ .

هذا هو الخطر الذى واجهه النفوذ الاستعمارى الزاحف . ولذلك فإن العمل الأول الذى اتجه إليه هو خلق قوة تؤمن به . ولا مانع أن تكون معارضة له . شريطة أن تحمل لواء التفاهم معه . واستطاع كرومر فى مصر خلال ربع قرن تنمية هذه الدائرة التى خدعت الناس وموهت عليهم بأنا تباعها من تلاميذ جمال الدين ومحمد عبده ، فلما تمت هذه الدائرة الصماء ، واستحصدت قضى الاستعمار على الدائرة المرنة الأصيلة وصفاها قبل الحرب العالمية الأولى وأفسح الطريق لدائرته الصماء لأن تتولى أمور الحكم وتتصدر .

وأعتقد أنه فعل مثل ذلك فى كل أجزاء العالم الإسلامى . وكان من نتيجة ظهور : رضا شاه ومصطفى كمال وأمان الله خان وسعد زغلول .

وقد استطاع النفوذ الاستعمارى بدهائه ومكره إسقاط الوهابية عام ١٨١٨ فى الجزيرة العربية ، وإسقاط محمد على فى مصر عام ١٨٤٠ ، وإسقاط عبد الحميد فى تركيا عام ١٩٠٩ .

وبذلك صفى كل القوى الشابة التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر ، ثم مهد لعملية أمكن إتمامها من بعد ، وهي إلغاء الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤ ، وإقامة إسرائيل عام ١٩١٨ — ١٩٤٨ .

ثانياً : أن النفوذ الاستعماري لم يقبل أن تتحرك اليقظة من خلال هذه الدائرة وحدها ، وفرض دائرة أخرى استمدها من معاهد الإرساليات الأجنبية التي تركزت في استانبول والقاهرة وبيروت .

ومن هنا فقد ظهر جيل جديد من دائرة اليقظة ، وجيل مساو له من دائرة النفوذ الغربي وقد أطلق على الجيل الأول اسم المحافظين ، وأطلق على الجيل الآخر دعاة الحضارة الغربية ، غير أن هذا الجيل الذي وصف بالمحافظة لم يكن كذلك الا بمعنى إقامة النهضة على قاعدة الفكر الإسلامي ، وقيمه الأساسية ، وإخضاع النقل والاقتباس من الحضارة والفكر الغربي لهذه القيم ، أما الجيل الذي ظهر في الدائرة الصماء (الغربية) فأبرز دعاته : فرح أنطون ويعقوب صروف وشبلي شميل وجرجي زيدان وأديب إسحق من اللبنانيين والطفي السيد وسعد زغلول من المصريين وظهر في دائرة اليقظة الإسلامية العربية : رشيد رضا والكواكبي ومصطفى الغلاييني وعلي يوسف وعبد العزيز جاويش ومصطفى كامل وطنطاوي جوهري وفريد وجدي وقد تطعم هذا الجيل بعدد كبير من الباحثين المسلمين الذين أحرزوا أرقى الدرجات العالمية في مصر وأوربا من أمثال : فريد وجدي وعبد العزيز جاويش والدكتور يحيى الدرديري والدكتور محمد أحمد الغمراوي والدكتور علي مظهر والسيد محب محب الدين الخطيب والدكتور عبد الحميد سعيد فكل هؤلاء تعلموا في الجامعات الحديثة .

أما في المرحلة التالية بعد الحرب العالمية الأولى فقد ظهر في الدائرة الغربية :

طه حسين وسلامة موسى ومحمود عزمي وإسماعيل مظهر وعلي عبد الرازق وساطع المصري .

وظهر في دائرة اليقظة العربية الإسلامية :

مصطفى صادق الرافعى وشكيب أرسلان وتحول إليهما على تحفظ ومنصور فهمى والدكتور محمد حسين هيكل وعباس العقاد ولطفى جمعة .

ثالثاً: إن مختلف النظريات والشبهات التى يرددها المبشرون والشعوبيون ودعاة التغريب ، قد أوردها (لورد كرومر) فى تقاريرة السنوية التى كان يصدرها كل عام ويجعلها رسالته إلى الجيل الجديد من المثقفين الذين كان يعدهم لتسلم زمام الحكم من الاحتلال البريطانى .

وفى هذه التقارير ، سجل كرومر الخطوط العامة لتهديم كل عوامل الإيمان الوطنى والاعتزاز العربى الإسلامى . وكان أول من ساق الأكذوبة الضخمة التى تقول أن المصريين كانوا خاضعين أكثر زمانهم فقد حكمتهم دول الفرس ، فاليونان ، فالرومان ، فعرب جزيرة العرب ، وبغداد ، فالجراكسة ، فالترك آل عثمان .

وهذا بالضبط الذى كتبه كرومر عام ١٩٠٦ ، ردده الدكتور طه حسين عام ١٩٣٩ ، ومن قبله سلامة موسى ولطفى السيد ولقد كان كرومر وطه حسين ولطفى السيد جميعاً : ويعلمون أن صلة المصريين بالعرب لم تكن صلة استعمار وأن الرابطة بين العرب والدولة العثمانية لم تكن احتلالا .

وخلق كرومر فرية القول ، بأن مصر لم تبق جزءاً من أفريقيا أو من الشرق وهو ما ردده سلامة موسى من بعد .

وتحدث كرومر عن الحكومة الإسلامية ، ووصفها بالحكومية الثيوقراطية وهى العبارة التى ما تزال يرددها الشعوبيون ودعاة التغريب والمبشرين . وكذلك فإن كرومر هو الذى شن الغارة على الجامعة الإسلامية ورماها بعبارات الازدراء ، ونسب لها التعصب .

وقد أشار كرومر فى هذا المجال ، إلى أن أوربا ستتحول بكل ما تملك دون وحدة المسلمين حين قال (إنى واثق من قوة أوربا ، واقتدارها عند الاقتضاء على تلافى هذه الحركة من الجهة المادية وإن تكن غير قادرة على ذلك من الوجهة الروحية (تقرير عام ١٩٠٦) .

وفى تقارير كرومر : منهج كامل للحملة على الإسلام . والتشريع

الإسلامى . وما تزال عبارات كرومر هى نفس العبارات التى ترددها حتى الآن كتابات المبشرين دعاة الشعوبية والتغريب . ومن ذلك قوله : (أن الجامعة الإسلامية تستلزم السعى فى إصلاح أمر الإسلام على المنهج الإسلامى . والسعى فى القرن العشرين فى إعادة مبادىء وضعت من ألف سنة صدى لهيئة اجتماعية فى حالة الفطرة والسذاجة . هذه المبادىء مناقضة لآراء أهل البصر) . وقد رد الكثيرون من كتاب المسلمين على شبهات كرومر ، ودحضوا اتهاماته . وكشفوا عن عالمية الشريعة الإسلامية وقدرتها الخارقة على منح الإنسانية فى كل عصر ومصر حاجتها . وحل معضلاتها ، وقد شهدت بذلك مؤتمرات القانون والتشريع ، وعديد من أعلام الفكر الغربى المنصفين . وبالرغم من تحذيرات كرومر ، فإن الدعوة إلى الجامعة الإسلامية استمرت ولم تتوقف وأن الحركات الوطنية والقومية فى العالم الإسلامى كله إنما هى مستمدة من مفهوم الوحدة الإسلامية . وفى تقارير كرومر توجيهات إلى الجيل الذى أعده لتسلم مقاليد الحكم فى البلاد وفى مقدمة الأذكياء الذين استجابوا إليه : لطفى السيد وسعد زغلول وعبد العزيز فهمى ، وقد كان لهم مكان الصدارة عام ١٩٠٧ قبل أن يبارح كرومر مصر فتولى سعد زغلول وزارة المعارف وأصبح مشرفاً على شئون التربية والتعليم ، وتولى لطفى السيد قيادة الحركة الفكرية والصحفية رئيساً لتحرير (الجريدة) لسان (حزب الأمة) ، وهو صاحب الفلسفة الإقليمية الأرستقراطية المجافية للعروبة والإسلام وقيم الفكر الإسلامى نفسه .

وهو يحدث هؤلاء الطامحون حين يقول : لا ريب أن أحداث المصريين يبدئون يصيحون للحصول على نصيب أعظم فى حكومة بلادهم وإدارتها ، إنى صديق للمصريين أصدق من أن أتملقهم أو أغشهم ، فلذلك أسأل نفسى قائلا : ما الذى يروق الأحداث المصريون ، فهم يريدون أن يرتقوا إلى مناصب الحكومة العالية التى يتقلدها الأوربيون الآن وليس عندى كلمة ضد هذه الأمنية) .

ثم أشار توا إلى ما أسماه أتباع الشيخ محمد عبده الذى يشبهون فى آرائهم أحمد خان مؤسس مدرسة عليكرة ، وقال عنهم أنهم يرغبون فى ترقية مصالح

أبناء بلادهم وأبناء ملتهم (ولكنهم مجردون من صبغة الجامعة الإسلامية) وهكذا حدد كرومر مفهوم مدرسته وهدفها ، حين قال من بعد (وبيان مقاصدهم ومطالبهم لا يتضمن معارضة الأوربيون فى إدخال تمدين الغربيين إلى بلادهم ، بل معاونتهم فى ذلك .

ولهذا حقق كرومر هدفه فى بناء جيل على نفس الخطط الذى رسمه الاستعمار .

رابعا : حاول كثير من الكتاب أن يصف حزب الأمة الذى تصدره لطفى السيد عام ١٩٠٧ ، بأنه حزب وطنى خالص الوطنية ، وأنه كان خصما للاستعمار ، ولقد قدمنا فى مختلف كتبنا الدليل بعد الدليل على أن كرومر هو منشىء هذا الحزب ، ومخطط فلسفة أستاذ الجيل ، وأن سعد زغلول هو أبرز تلاميذ هذه المدرسة .

ونورد هنا عبارة اللورد لويد فى هذا الصدد من كتابه (مصر منذ عهد كرومر) الذى صدر عام ١٩٣٣ ، وترجمته الصحف المصرية ، ونشرت فصولا منه ، يقول اللورد لويد : كان كرومر يعمل على إيجاد خطة تكون الغاية فيها فى رأيه إيجاد عقبة أو حائل دون حملة الحزب الوطنى ، وكان يعرف أن فى مصر عدداً كبيراً من المعتدلين ذوى النفوذ والمكانة الذين كانوا أوسع مدارك وأبعد نظراً ، وكانوا يريدون تحقيق الرقى السياسى فى حذر بالوسائل الدستورية ، وكان كرومر يسعى بينهم لكى يؤلف منهم هيئة تنشر آرائهم .

وكان من نتائج ذلك أن ألف حزب الأمة فى أكتوبر عام ١٩٠٧ ، وصدرت صحيفته « الجريدة » ، وكان أحد أعضاء هذا الحزب الذى ينبىء عن مستقبل عظيم ، ذلك الرجل الذى أصبح اسمه أعظم الأسماء فى تاريخ مصر الحديث أى سعد زغلول (وكان قد اشتغل بالمحاماة ، وتولى قضايا الأميرة نازلى ، وكانت هذه السيدة هى التى شجعته على تعلم اللغة الفرنسية التى لولاها لما اشتغل بالسياسة ، وكانت خطوته الثانية زواجه بابنة رئيس الوزراء صديق كرومر (مصطفى فهمى باشا) ، وكان إذن متصلا اتصالات حسنة من الناحية

السياسية ، وكان قد انبرى بصفات تميزه من ناحية الاعتدال والشجاعة ، وكان إذن من الطبيعى أن يعمد كرومر وهو مقتنع ، بضرورة تشجيع الآراء المعتدلة ثم لسروره بأن يؤدى لصديقه مصطفى فهمى باشا معروفاً إلى ترقية سعد زغلول فيجعله وزيراً لوزارة المعارف الجديدة ، وكان هذا العمل افتتاحاً لخطة جديدة غايتها تقوية الرابطة بين مصر وانجلترا . . .)

• • •

الباب الرابع
التبشير وآثاره في بناء الفكر والثقافة

الفصل الأول

التعليم فى أحضان التبشير

اتخذ التبشير من التعليم أكبر أهدافه وأبعدها مرمى وأعظمها أثراً فى تشكيل أجيال المسلمين والعرب الجديدة على النحو الذى يضمن له استسلامه لنفوذه وتقبله واعتناقهم لمفاهيمه وقيمه . وإذا كان التبشير بوصفه أداة الاستعمار الأولى والكبرى قد عمل فى ميادين الثقافة واللغة والتأليف والصحافة ، فإن مكانه الأول هو التعليم على حد قول عميد المبشرين : (المبشر الأول هو المدرسة) .

وقد سجل دعاة التبشير هذه الحقيقة فى كثير من تصريحاتهم ومؤلفاتهم .

فى المؤتمر التبشيرى العام الذى عقد عام ١٩٢٤ ، حسبما تسجل محاضره المنشورة يوجه العمل إلى الأطفال : (فى كل حقل من حقول العمل يجب أن يكون العمل موجهاً نحو النشء الصغير من المسلمين ، وموزعاً فيما بين أطفال المسلمين باعتبارهم البذرة الجديدة الدانية القطوف ليحيط بهم وليكونوا منه على صلة مباشرة . ويجب أن يقدم هذا على كل عمل سواه فى الأقطار الإسلامية ، فإن تنور روح الإسلام فى الناشىء الحديث تبتدىء باكراً من عمره فيجب والحالة هذه أنه يؤتى بالنشء الصغير من المسلمين إلى (الإرساليات) قبل أن يتكامل نمو عقليتهم وأخلاقهم على القوالب الإسلامية ، فتقسو عقليتهم وأخلاقهم ، وحينئذ تستعصى على المبشر . ومن الأدلة والبراهين الجديدة التى تؤيد هذه الحقيقة . ما تقرر وسجل فى سجلات بعثات التبشير فى الجزائر وفى شمال إفريقية ، ويمكن أن يكون من القضايا المسلمة أن الجرى على قاعدة العمل فى النشء الصغير من المسلمين هو أفضل الأعمال وأعودها بالخير وحسن الثمار .

وتقول المبشرة أنا مليجان : ليس ثمة طريق إلى حصن الإسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة ، فإن المدرسة أقوى قوة لجعل الناشئين تحت تأثير

(الغرب والمسيحية) ، وهذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوماً ما قادة أوطانهم) وهذا الهدف فى الحقيقة : السيطرة على الجيل الجديد منذ مطالعه ، لإعداده على النحو الذى يكفل له عندما يصبح فى مكان القيادة السياسية والاجتماعية والثقافية فى وطنه أن يكون صاحب ولاء فطرى وثقافى قوامه الحب والإعجاب والتقدير للذين علموه ونشئوه .

ومن هنا اهتمت الدول المستعمرة خلال فترة ما بين الحربين . بتثقيف أبناء الأمراء والعظماء وكبار رجال السياسة ونقلهم إلى التعليم فى المعاهد الأجنبية وذلك لخلق هذه الطبقة ، وإعدادها ، وقد كان إغراءهم عجيباً لكثير من أصحاب المراكز العالية – حتى بعض كبار المسئولين فى مجال الإسلام على تعليم أبنائهم وبناتهم وقد أشارت تقاريرهم إلى ذلك بما أسمته (نزوع الطبقة الراقية إلى المدارس الأجنبية) .

وقد أكد المراقبون النتائج الخطيرة التى حققها التعليم التبشيرى فى تقريب المسافة بين الاستعمار وأهل الأوطان الإسلامية ، وما حققه من حل كثير من المشاكل . وأهمها المسألة الشرقية ، وقيام إسرائيل فى قلب العالم العربى . وليس أدل على أهمية ذلك من أن الذين حملوا لواء التشهير بالدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد وعملوا على تمزيق الرابطة بين العرب والترك وتمكين الدول الأوربية من تقسيم الفريسة فيما بينها ، كانوا من الذين تعلموا فى معاهد الإرساليات التبشيرية ، وهؤلاء الذين خدموا النفوذ الأجنبى فى مصر . وكانوا على إخلاص لكرومر والاستعمار ، وهم أصحاب الصحف الكبرى فى مصر (المقطم والهلال والأهرام) إنما كانوا من هؤلاء ومنهم من دعا عام ١٩٣٥ إلى إنشاء دولة يهودية فى فلسطين ودولة مسيحية فى لبنان ، ومنهم من عاود الدعوة عام ١٩٤٥ إلى أن تكون لبنان وطنياً قومياً للنصارى فى الشرق الأدنى ، ومنهم الدعاة إلى العامية والحروف اللاتينية ، وكل الدعوات التى تعمل على تعميق الإقليمية وتمزيق وحدة العرب والمسلمين الفكرية وإيقاع الخلاف بين العروبة والإسلام بعد أن تحقق إيقاع الخلاف بين العرب والترك ، وترجع أهمية مدارس الإرساليات التبشيرية والمعاهد الأجنبية إلى أنها لا تدرس الإسلام ولا اللغة العربية كلية ، ولكنها تدرس اللغات الأجنبية المختلفة والثقافة المسيحية المستمدة من التوراة والإنجيل فى أبواب الأخلاق وبعضها علمانى محض ينظر

إلى الأديان والأخلاق والعروبة والإسلام والتاريخ الإسلامى نظرة احتقار وتشكيك ويتناوله تناول النقد المشوب بروح الازدراء .

والمعروف أن المعاهد الفرنسية تعلم منهجاً فرنسياً استعمارياً فى كل شىء . يعرف فيه الطلبة جغرافية فرنسا ، وتاريخ فرنسا . والكتب التى تدرس هى كتب فرنسا ولا يعرفون فى نفس الوقت أى شىء عن وطنهم العربى ، أو عالمهم الإسلامى والمعاهد التابعة لبريطانيا تفعل نفس الشىء . وكذلك المعاهد التابعة لأمريكا .

وقد فرضت أغلب هذه المعاهد على الطلبة المسلمين الالتزام بتقاليدها الخاصة وأرغمتهم على حضور الصلوات يومياً فى الكنيسة . ولما احتج الطلبة أصدرت إحدى الجامعات سنة ١٩٠٩ منشوراً قالت فيه (أن هذه الكلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحى هم اشتروا الأرض ، وأقاموا الأبنية وأنشأوا المستشفى وجهزوه ولا يمكن للمؤسسة أن تستمر إذا لم يسندها هؤلاء . وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليما يكون الإنجيل من مواده فتعرض منافع المسيحية على كل تلميذ وعلى كل طالب يدخل مؤسستنا أن يعرف سابقاً ماذا يطلب منه ، إن الكلية لم تؤسس للتعليم العلمانى ، ولا لبث الأخلاق الحميدة ، ولكن من أولى غاياتها أن تعلم الحقائق الكبرى التى فى التوراة ، وأن تكون مركزاً للنور المسيحى وللتأثير المسيحى وأن تخرج بذلك على الناس وتوصيهم به) .

وفى هذا القدر كفاية عن أهداف التعليم التبشيرى . وفضلا عن ذلك فقد أشارت تقارير المبشرين المختلفة إلى أن التعليم التبشيرى ما زال أفضل طريقة للوصول إلى عقول المسلمين ، وأن الحاجة إلى توسيع هذا التعليم وزيادة نشره تتزايد وتعظم يوماً فيوماً من كل جهة . ويكاد يكون هناك إجماع بين المفكرين المسلمين والعرب ، وبين دعاة التبشير وكتاب الغرب من ناحية أخرى ، وبين خريجى هذه المعاهد من ناحية ثالثة . على هذا الهدف الواضح الصريح وهو تحليل المسلمين العرب عن قيمهم ودينهم وتاريخهم وأخلاقهم .

١ – أما المفكرون والمسلمون العرب ، فإنهم يعتقدون (أن أول هم للمبشر هو هدم الاعتقاد فى تلميذه فيصبح الطالب مستخفاً بالمعتقدات . أما الخطوة الثانية فهى محاولة غرس تعاليم جديدة فى أرض لم تعد صالحة للاعتقاد وذلك يؤدى إلى أشد النتائج فظاعة . وهو حض المبشرين للطلبة على المراءاة فالسلوك (العصرى الغربى المسيحى) هو مقياس الاستقامة التى يتوقف عليها تمهيد الطريق للراغب فى النجاح المدرسى . هذا ما سجله أحد خريجى هذه المعاهد (١) ، إذ قال : إن قولى ذات مرة أنى لا أوافق على هذه الأخلاق فى مناقشة مع مدير المدرسة ، وكان يحثنى على التمسك بها كاد يدخلنى مستشفى المجاذيب لشدة الاضطهاد الذى واجهته فى وقت كنت فيه تحت رحمة المدرسة .

وقد أشار ساطع الحصرى ، إلى تصريح المارشال ليوتى مؤسس الامبراطورية الفرنسية ' أفريقيا الشمالية فى خطبته عن اختياره عضواً فى الأكاديمية الفرنسية الذى قال فيه (أعترف بأن فرنسا قد استفادت من مدارس المستعمرات استفادة كبيرة ، فإن أبناء المستعمرات الذين جندوا فى الحرب العالمية ، قد وفروا على فرنسا بما قدموه من تضحيات بأرواحهم ملايين من الأنفس الفرنسية .

ويصور جبران خليل جبران أثر مدارس الإرساليات التبشيرية فى نفسه وفى جيله فيقول (فى سوريا كان التعليم يأتينا من الغرب بشكل الصدقة وقد كنا ولم نزل نلتهم (خبز الصدقة) لأننا جياع متضورون ، ولقد أحيانا ذلك الخبز ولما أحيانا أماتنا ، أحيانا لأنه أيقظ (بعض) مداركنا ، ونبه عقولنا (قليلا) ، وأماتنا بأن فرق كلمتنا وأضعف وحدتنا وقطع روابطنا وأبعد ما بين طوائفنا حتى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة مختلفة الأذواق متضاربة المشارب ، كل مستعمرة منها تشد فى حبل إحدى الأمم الغربية وترفع لواءها وتترنم بمحاسنها وأمجادها ، (فالشاب الذى يتناول لقمة العلم من مدرسة أمريكية قد تحول بالطبع إلى معتمد أمريكى ، والشاب الذى تجرع رشفة من العلم من مدرسة يسوعية صار سفيراً فرنسياً ، والشاب الذى لبس قميصاً

---

(١) حسين محمود – الرابطة الشرقية – ١٥ يونيو عام ١٩٢٩ .

من نسيج مدرسة روسية أصبح ممثلا لروسيا . إلى آخر ما هنالك من المدارس وما تخرجه كل عام من الممثلين والمعتمدين والسفراء .

وأعظم دليل على ما تقدم اختلاف الآراء وتباين المنازع . فالذين درسوا بعض العلوم باللغة الإنجليزية يريدون أمريكا أو انكلترا وصية على بلادهم . والذين درسوا بالفرنسية يطلبون فرنسا تتولى أمرهم ، وقد يكون ميلنا إلى الأمة التي نتعلم على نفقتها دليلا على عاطفة عرفان الجميل في نفوس الشرقيين ، ولكن ما هذه العاطفة التي تبني حجراً من جهة واحدة وتهدم جداراً من الجهة الأخرى . ما هذه العاطفة التي تستنبت زهرة وتقتلع غابة . ما هذه العاطفة التي تحيينا يوماً وتميتنا دهراً .

ومفكر آخر تعلم فى الإرساليات التبشيرية هو ميخائيل نعيمه ، يقول رأيه : فماذا يقول ! (لقد عرفت سوريا غزاة كثيرين . فلم يكن من شنار عليها وهى الضعيفة أن ترضخ لقوة فوق قوتها . إلا أنها منذ أواسط القرن الماضى اتخذت مهداً لغزاة ما عرفت مثلهم من قبل ، غزاة جاءوها لا تملكوا جسمها بل يقبضوا روحها . فقد شنوا عليها الغارة بالتوراة والإنجيل والريالات والعقاقير . فكانوا أشد قسوة عليها من كل من سبقهم ، افتتح هؤلاء سوريا باسم الدين ، كان على المبشرين أن يزينوا مدينتهم للسوريين كما لو أنها صفوة الكمال ، فحملوهم على احتقار مدينتهم واحتقار أنفسهم . ومن ثم فقد صوروهم للغرباء الذين أرسلوهم فى حالة تقارب الهمجية فمسلمهم جاهل ، ونصرانيهم وثنى ، وكلهم كذبة ضد المدنية . . .) .

أما الغربيين . فقد كشفوا عن هدفهم واضحاً : قال الكاتب الفرنسى إيتين لامى :

(إن مقاومة الإسلام بالقوة تزيده انتشاراً . أما الوسيلة الفعالة لهدمه وتقويض دعائمه فهى تربية بنيه فى المدارس التبشيرية أو المسيحية ونفث جراثيم الإلحاد فى صدورهم منذ نشأتهم من حيث لا يشعرون فإن لم يتنصروا فقد أصبحوا لا مسلمين ولا مسيحيين) .

والمستشرق هاملتون جب يكشف فى جلاء ووضوح عن أهمية التعليم

فى خطة تغريب المسلمين والعرب فى كتابه (وجهة الإسلام) . فيقول : التعليم أكبر العوامل الصحيحة التى تعمل على الاستغراب ، والحق أنه العامل الوحيد إن فهمنا من كلمة التعليم ما تدل عليه ، لا نستطيع الحكم على مدى الاستغراب فى العالم الإسلامى إلا بمقدار دراسته للفكر الغربى وللمبادىء والنظم الغربية .

إن انتشار التعليم (الغربى) سيبعث بازدياد فى الظروف الحاضرة على توسيع تيار الاستغراب وتعميقه ، ولا سيما لاقترانه بالعوامل التعليمية الأخرى التى تدفع الشعوب الإسلامية فى نفس الطريق .

وقد ذكر الدكتور زويمر كبير المبشرين فى العالم الإسلامى . أهمية ما قام به الاستعمار من إخراج القرآن وتاريخ الإسلام من برامج التعليم . مما أخرج ناشئة لا هى مسلمة ولا هى مسيحية ولا هى يهودية (ناشئة مضطربة مادية الأغراض لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقاً فلا للدين كرامة ولا للوطن حرمة) ، وقد علق دكتور واطسون على هذا التصريح بعد أكثر من عشر سنين فقال : (إننا نراقب سير القرآن فى المدارس الإسلامية . ونجد فيه الخطر الداهم : ذلك أن القرآن وتاريخ الإسلام هما الخطران العظيمان اللذان تخشاهما سياسة التبشير .

٣ — أما خريجى هذه المعاهد فإن أكبر حدث فى هذا المجال ، هو موقف عبد القادر الحسينى الذى كان طالباً بإحدى هذه المعاهد وتخرج منها « الجامعة الامريكية » ، فقد وقف فى يوم الاحتفال بتخريج زملائه وتخريجه ، وفى يده الشهادة التى أحرزها ، وقال إن لديه كلمة يريد أن يقولها :

(إن هذه الجامعة تظهر أمام الناس فى مظهر المدرسة العلمية ، ولكنها فى الحقيقة بؤرة إفساد للعقائد الدينية ، وهى تطعن فى الإسلام ، ولذلك لا يصح للمسلمين أن يبقوا أولادهم فيها ، وكشف عن عدداً من الكتب المقررة التى تمس النبى والإسلام : وقال مدير الكلية إن هذه الكتب ليست مقررة على الطلبة ، وإنما هى من بين أربعة عشر ألف كتاب فى مكتبة الجامعة ، وبعضها يشمل على الطعن فى الدين المسيحى وقد نشرت للصحف

فى هذه الفترة فقرات من هذه الكتب و نصوصاً تثبت صدق ما قاله عبد القادر الحسينى .

وأشار الدكتور عمر فروح فى كتابه التبشير والاستعمار إلى الموضوعات التى تدرس فى بعض معاهد الإرساليات . ومنها ما يأتى :

١ – نصارى لبنان هم الذين بعثوا النهضة العربية .

٢ – يقول أرنست رينان : أن الفلسفة العربية ليست إلا الفلسفة اليونانية ، مكتوبة بأحرف عربية ، وقال (الويل للتلميذ الذى ينتصر للفلسفة العربية انتصاراً ظاهراً . أما كلمة الإسلام وحدها فقد تفسح للطالب المجال ليجرب حظه مرة أخرى فى دورة تالية) .

٢ – التعليم التبشيرى والمرأة المسلمة

لم يقف أمر التبشير عند الإرساليات والتعليم الأجنبى وحده . ولكنه سيطر أيضاً بغاياته ومفاهيمه على التعليم الحكومى . وغزا وزارات التعليم . والمعارف فى العالم الإسلامى كله . حيث فرض على هذه الوزارات عدداً من المبشرين . وفى مصر أولى الاستعمار اهتماماً كبيراً بالغزو التبشيرى للتعليم . فكانت خطط كرومر التى نفذها المبشر دنلوب ودعمها رجلان من تلاميذ المدرسة العربية هما لطفى السيد فى (الجريدة) وسعد زغلول وزير المعارف .

وقد استهدفت خطة كرومر التى نفذها دنلوب ومن بعده : (عزل مصر عن الأمة العربية وعن العالم الإسلامى وعن جذور الفكر الإسلامى المستمد من القرآن) . وقد جيء بالقس دنلوب من مدارس إرساليات التبشير الإنجليزية إلى وزارة المعارف المصرية وسرعان ما أصبح مستشارها النافذ الرأى وقد عرف عنه أنه (كان إذا رأى الرأى الذى يحقق غرضه دعا إليه موظفاً مصرياً من موظفى وزارة المعارف فذاكره فيه واستدرجه لاستحسانه . ومن خلق الموظف أن يستحسن ما يستحسنه رئيسه ، ولو لم يكن مقتنعاً به ، فإذا أعرب لدانلوب عن استحسانه ذلك الرأى اقترح عليه أن يكتب له فيه تقريراً . ثم يعرض التقرير على الجهات المختصة مع التوصية بترويجه . ثم

يقال : (أن الموظف المصرى فلاناً هو مقترح هذا الرأى . ويكافىء (خيال الظل) على الدور الذى مثله بترقيته إلى درجة أعلا . وهكذا وضعت مناهج التعليم المصرى بكل درجاته . وهكذا رسمت طرائق تكوين النشء فى المدارس المصرية ، وبهذه الطريقة رسخت فى وزارة المعارف المبادئ التى نفذوها ومنها جعل التعليم الدينى صورة بغير روح ، وتجريد المدارس من التربية الإسلامية ومن تربية الرجولة . واعتبار الإسلام احتلالا . وترديد أحاديث فى بعض كتب الدراسة منها أن مصر احتلها الفرس ثم البطالسة ثم العرب ، وتجاهل الروابط الحقيقية فى الجنس واللغة . وذلك جرياً على خطة دنلوب التى ترمى إلى قطع أواصر مصر بكل من يرتبط معها فى اللغة أو الدين إضعافاً لها وإيهاماً لأبنائها بأنهم منفردون ولا علاقة لهم بالأقطار الأخرى . وكثير من الكتب التى كانت تدرس ، كانت تورد اسم العرب والإسلام فى سلسلة الأمم المحتلة لمصر . ولا تذكر من علاقات مصر بجاراتها قبل الإسلام وبعد الإسلام إلا الحروب ، إيهاماً بأن هذه الشعوب والأقطار كانت أعداء لمصر ولم يكونوا وإياها فى كيان واحد .

وقد أشار الدكتور هيكل إلى دور وزارة المعارف وهدفها الحقيقى فقال :

(إن وزارة المعارف تخضع اليوم وأمس وستخضع غداً وبعد غد إلى أن يتاح لها النصر السياسى إلى السياسة التى كانت تخضع لها أيام أن كان (دنلوب) مستشاراً لها مع فوارق عدد المدارس وعدد الأساتذة . إن سياسة التعليم فى وزارة المعارف ستظل اليوم وغداً كما كانت بالأمس وقبل الأمس خاضعة للسياسة الغربية والحضارة الغربية فى روحها . فالحضارة الغربية بالمعنى الذى يفهمه مفكرو الغرب ومؤسسو هذه الحضارة الحقيقيون . هذه الحضارة استعمارية عدوة للعلم على خط مستقيم . وهى كذلك حيثما ذهبت حاربت العلم وحاولت حصره فى طبقة ضيقة وفى حدود ضيقة لتتخذ من هذه الطبقة بطانة لها تروج للاستعمار ، أى لاستغلال البلاد التى تنزل فيها استغلالا مادياً يذهب كل خيره للغرب صاحب هذه الحضارة الاستعمارية . وكذلك وضعت يدها على وزارات المعارف حيثما ذهبت . وعملت دائبة على إفساد

هذه المقومات النفسية والخلقية والقومية مكتفية بطائفة من المعلومات العملية التى تحتاج إليها أداة الحكم .

لا شك تعطى هذه النظرة من أحد أساطين التغريب ورأس مدرسة السياسة التى ضمت طوال عام (١٩٢٢ — ١٩٣٢) طه حسين وعلى عبدالرازق ومحمود عزمى ، ودعمت مخططاً بالغ الخطورة فى طريق حزب الأمة ثمرة النفوذ الاستعمارى والتبشيرى والتغريبى التى رسمها لطفى السيد سنة ١٩٠٧ فى (الجريدة) ونفذها سعد زغلول فى وزارة المعارف بالاشتراك مع دنلوب . والتى طبقت تطبيقاً حاسماً مخطط اللورد كرومر فى السيطرة الفكرية والثقافية على العالم الإسلامى كل عن طريق مصر وصحافتها . هذه النظرة لم تتفجر فى نفس الدكتور هيكل إلا من خلال عاصفة التبشير المكشوف العاتية التى مرت على مصر عامى (١٩٣٢ و ١٩٣٣) ، فحولت اتجاهه تحويلا ضخماً إلى مقاومة التبشير بالتماس الحضارة الإسلامية وسيرة الرسول على النحو الذى أشار إليه حين قال :

لقد استطاعت السياسة فى هذه المرحلة أن تكشف دور التبشير فى خدمة الاستعمار فى ظل تحد سياسى هو خصومتها لحكومة صدقى باشا التى حالفت حزب الأحرار الدستوريين أول الأمر ثم تخلت عنه ، ومن هنا خرج الدكتور على مفاهيمه القديمة كلها وتحرر منها . غير أنه يمكن أن يقال — مع الأسف — أنه حين تولى وزارة المعارف بعد ذلك بسنوات قليلة صدق حدسه فى أنه لم يستطع أن يحررها من نفوذ دنلوب . هذا النفوذ العميق البالغ الخطر بعد أن ترك دنلوب وزارة المعارف عام ١٩١٧ .

ومن حق أن يقال أن حملة التبشير . قد كشفت آمال الأجيال فى العالم الإسلامى كله عن حقيقة واقعة هى أن التبشير قد تخفى وغير جلده وتحوط من أن يكون هدفاً مكشوفاً سرعان ما يهاجم أو يعطب . بأن غير أساليبه فجعلها مرنة بارعة دقيقة ودخل بها إلى مجال الجامعات والمعاهد والمدارس (الأجنبية) ، وتلك التى تخضع لمناهجه وأساليبه . وأنه اتخذ مجال الثقافة والصحافة عاملا هاماً وخطيراً فى سبيل تحقيق غايته — التى لم تكن بمفهوم

التبشير لنفس التبشير . ولكنها التبشير للتغريب . وإخراج المسلمين من قيمهم ومفاهيمهم وخاصة فى أمرين : القضاء على الرابطة الإسلامية التى تجمعهم ، وأن يكون الإسلام دين عبادة ولاهوت وليس دين مجتمع ومنهج حياة صالح للتطبيق .

وقد استطاعت مناهجهم فى الجامعات والمعاهد والمدارس أن تحقق ذلك الهدف : هدف إفساد مفهوم الإسلام والعروبة والقرآن ومحمد والتاريخ العربى الإسلامى وإقامة مفاهيم أخرى . وقد استخدم (التعليم) كسلاح غاية فى القوة والنفوذ فى سبيل تغيير النفس المسلمة . والعقل المسلم . وخلق قيم جديدة تجعل من المسلمين أتباعاً للثقافة الغربية وأولياء لها .

وكذلك استطاع الاستعمار أن يحقق هدفاً من أكبر أهدافه . وهو اتخاذ العلم وسيلة إلى استعباد الأفراد والأمم . وخلق طابع الاستكانة والاستسلام مع التقبل لسلطان الغرب . وحضارته ونفوذه — وفى هذا يقول المبشر الأشهر (جب) : إن المدارس شرط أساسى لنجاح التبشير . إن المدارس قوة تجعل الناشئين تحت تأثير التعليم (الغربى المسيحى) أكثر من كل قوة أخرى . ثم إن هذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوماً قادة لأوطانهم).

ومن توجيهات (جون موت) قوله : أن للمدارس الأجنبية رسالة ولرسالتها غاية قصوى هى أن تجعل الشعوب كلها فى المستقبل تابعة للغرب وأوربا والكنيسة) .

وعن طريق المناهج التى تدرس فى هذه المعاهد تتحقق العقيدة التى تتكون فى نفس الطالب :

أولا : عندما تعرض الأديان يعرض الإسلام عرض عداء وخصومة :

ثانياً : الدس على الإسلام وتاريخ الإسلام .

ثالثاً : النهضة فى العالم العربى تنسب إلى الإرساليات .

رابعاً : ليس هناك وحدة بين هذه الأقطار ولكل منها جذوره الإقليمية.

خامساً : هذه البلاد كانت محتلة بالرومان والفرس . ويعتبر العرب والأتراك من قوى الاحتلال . وتحمل هذه الدراسات فى ثناياها محاولة إيقاع الخصومة بين المسلمين والمسيحيين ، والسنة والشيعة . والعرب والترك والفرس . وذلك بإثارة مواقف الخلاف القديمة بينهم . وتحاول هذه الدراسات دائماً أن تعرض للحروب الصليبية وموقف شارل مارتل من المسلمين فى موقعة بلاط الشهداء . وتحاول أن تصور المسلمين وقد تقهقروا أمام الغرب وأن الهلال تأخر والغرب تقدم .

ومن عجب أن هذه الكتب والدراسات والمناهج لم تقتصر على معاهد التبشير والإرساليات بل تسربت إلى المعاهد والجامعات الوطنية . وأنها أصبحت مراجع وطنية يعتمد عليها . ولذلك فقد حاصرت الطالب المسلم فى مختلف مراحل الدراسة وأنواعها بحيث لا يفلت من التأثر بها . وقد حرصت حكومات الانتداب والاستقلال الذاتى عن طريق دعاة التبشير وأعوانه وأتباعه على تأصيل هذه الأبحاث كمراجع وما تزال إلى اليوم عشرات من هذه الكتب موجودة فى أيدى طلاب العرب والمسلمين ، بل وهناك موسوعات ودوائر معارف ومراجع أساسية . وكلها مليئة بالأخطاء والشبهات والأحقاد .

وقد تعددت مدارس الإرساليات الأجنبية ومعاهده . حتى شملت جميع فروع التعليم وأهمها :

١ — مدارس رياض الأطفال .   ٢ — مدارس البنات

وذلك إيماناً بأن الأطفال هم الصفحة البيضاء السهلة لتركيز مفاهيمهم . أما مدارس البنات فقد كان التركيز عليها مهماً جداً باعتبارها (الأم) التى ستخرج الأجيال القادمة ، فإذا صيغت نفسيتها وعقليتها وفق مناهج التبشير والاستعمار والتغريب فإنها ستؤثر فى الأجيال أسوأ الأثر والأم مدرسة إذا أعددتها !

وتحظى المدارس الداخلية بعناية خاصة واهتمام أكبر ، حيث يفصل الطالبات عن بيئاتهن الإسلامية ، ويصل النفوذ الغربى المسيحى إلى مداه

فى كل تفاصيل تلك الحياة . وأغلب البنات فى هذه المعاهد من أبناء الأسر الراقية . وقد وصفت هذه الخطة (بأنه ليس ثمة طريق إلى حصن الإسلام أقصر من هذه المدرسة) ، ويعتقد دهاقنة التبشير أن المدارس العالية هى أقرب الطريق إلى الطبقات المثقفة . وأن الآراء (الغربية المسيحية) إذا اعتنقها هؤلاء فإنها سرعان ما تتسرب من تلقاء نفسها إلى المجتمع الإسلامى ، ذلك أن هؤلاء الطلاب الجامعيين هم من بعد قادة الرأى فى بلادهم . ولذلك فقد أجمعت مختلف المؤسسات التبشيرية (إنكليزية وإيرلندية وألمانية وسويدية ودانمركية وأمريكية) على وضع التوراة فى أيدى الطلاب على أنه كتاب تدريس أساسى .

أما فى نطاق المدارس الأولية فقد حرصت جهات التبشير على البحث عن الأسر الفقيرة لاصطياد أبنائها وبناتها باسم التربية والتعليم واستهواء الأطفال بتوزيع الحلوى . كما عمدت إلى نشر المبشرات فى مختلف القرى والبلاد ، وهم (يجمعون طبقة معينة من التلاميذ هم طبقة الفقراء والمعوزين ويحشرونهم فى مدارسهم ويلقنونهم مع المعارف الأولية مبادئ دينهم ويستغلون حداثة التلاميذ وثقتهم بهم كأساتذة لهم وشكرهم لهم لتفضلهم عليهم بالكسوة والطعام والتعليم . فإذا بهم يغزونهم عقلياً وجسمياً . ويفسدون أخلاقهم ويستثيرون شهواتهم . وقد حدث هذا فى مصر ، وكشفت الصحف المصرية عن نماذج مخزية استعملت فيها أجهزة التنويم المغناطيسى وحالت الامتيازات دون إيقافه أو معاقبة فاعليه .

وقد ظلت دعوى حماية هذه الهيئات عن طريق الامتيازات سيفاً مصلتاً على مختلف بلاد العالم الإسلامى ، وكانت مصدر صدام كبير عندما حاولت مصر إلغاء الامتيازات الأجنبية فى مؤتمر مونترو سنة ١٩٣٧ . فقد طلبت كل دولة لها إرساليات ومعاهد فى مصر حماية معاهدها . وأعلنت الحكومة البريطانية أنها هى المسئولة عن سلامة الإرساليات الأجنبية جميعها .

٣ – التبشير والمرأة المسلمة

وقد عنى التبشير بإعداد دور خاص للمرأة المسلمة . واعتبر أن العمل فى مجالها من أخطر الأعمال وتلك خطته بالنص :

(بما أن الأثر الذى تحدثه الأم فى أطفالها – ذكوراً وإناثاً – حتى السنة العاشرة من عمرهم بالغ الأهمية . وبما أن النساء هن العنصر المحافظ فى الدفاع عن العقيدة ، فإننا نعتقد أن الهيئات التبشيرية يجب أن تؤكد جانب العمل بين النساء المسلمات على أنه وسيلة مهمة فى التعجيل بفتح البلاد الإسلامية » .

وقد أشار مسيو اتيين لامى منذ عام ١٩٠١ فى مجلة العالمين الفرنسية إلى أنه يمكن استغلال المدارس التبشيرية فى إلقاء بذور الشك فى نفوس النشء المسلم ، وإفساد عقيدتهم ، وأن الوسيلة لتقويض بنيانه ، هى تربية بنيه فى مدارس التبشير . وإلقاء بذور الشك فى نفوسهم منذ عهد النشأة) ، ثم قال (إن تربية البنات فى مدارس الراهبات أدعى لحصولنا على حقيقة القصد ، ووصولنا إلى نفس الغاية التى من ورائها نسعى بل أقول إن تربية البنات بهذه الكيفية ، هى الطريقة الوحيدة للقضاء على الإسلام بين أهله) .

ومن هذه التوصيات ، ما تردد من أن (تربية الراهبات لبنات المسلمين توجد للإسلام فى داخل حصنه المنيع عدوة لدوداً لا يمكن للرجل قهرها ، لأنه سهل على المرأة والحالة هذه أن تؤثر على إحساس زوجها وعقيدته فتبعده عن الإسلام ، وتربى أولادها على غير دين أبيهم) .

وفى ضوء هذه التوجيهات عمل التبشير . فأنشأ أول مدرسة للبنات فى الامبراطورية العثمانية فى بيروت سنة ١٨٣٠ ، وكان من أوائل عمل التبشير فى مصر فى أواخر عصر إسماعيل عام ١٨٧٠ تقريباً إنشاء مدرسة للبنات فى أسيوط ، كما نشر مدارس البنات فى سورية والسودان ، وقال رجال التبشير فى نتائج هذا العمل : (إن التبشير يكون أتم حبكاً فى مدارس البنات الداخلية ، حيث الصلة بالطالبات أوثق ، لأنهن ينتزعن من نفوذ حياة بيئة غير مسيحية ، حيث ترى بنات مسلمات من أسر باشوات وبكوات

يجتمعن تحت النفوذ المسيحي . وليس ثمة طريق إلى حصن الإسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة (المبشرة أنا مليحان) .

وقد أشار الدكتور هيكل عام ١٩٣٢ إلى دور الإرساليات التبشيرية في مجال تعليم الفتاة المسلمة وتربيتها وما يفرض عليهن من ضرورة أداء الصلوات . ومما قاله أن بنات الأستاذ أحمد علوبه المحامي بأسيوط . وكن في إحدى مدارس التبشير قد لاحظ أبواهن عليهن قلقاً وارتباكاً أدى إلى حالة عصبية جعلت الكبرى منهن تبكي حين سألها والدها عما بها وأخبراً قالت وبعد إلحاح .

إنها لكثرة ما تسمع عن الدين المسيحي ولما يشار به من عبارات موجزة ومن طرف خفي تشعر وهي مسلمة صالحة تحب الإسلام ورسوله . بشيء من تزعزع العقيدة هو الذي يدعوها لذلك الذي تعاني من ألم وحزن فإن الصلاة التي يؤديها التلاميذ والطلبة كل يوم . وما يشعرون به من عطف الأساتذة والمعلمات إزاءهم وإزاءهن ، تجعلهم يميلون إلى دين ينافس في قلوبهم وأفئدتهم دين آبائهم وأجدادهم ويورثهم هذا القلق وينتهي هذا التطاحن بين العقيدتين آخر الأمر إلى إسكات الضمير الديني إسكاتاً هو الإلحاد واللا أدريه والشك وهو الرغبة عن دينهم إلى دين معلميهم وأساتذتهم .

وقد كتب الأستاذ أحمد علي علوبه إلى الكلية الملحقة بها بناته مراعاة العاطفة الدينية للطالبات . (فلا تجبروا كريماتي وهن مسلمات على حضور الصلاة في كنيسة المدرسة . وعلى حفظ الإنجيل . وحضور الاجتماعات التي تبحث في الأمور الدينية . وقد أرسلت إليه الناظرة (٢٧ / ٢ / ١٩٣٢) تقول أنها تأسف لعدم إمكانها إجابة طلبه . لأنه مخالف للقواعد التي وضعتها الإرسالية لجميع مدارسها . وليس في مقدور مدرسة واحدة أن تسير على غير ما هو متبع في غيرها) . وكانت النتيجة أن سحب الرجل بناته من المدرسة .

وهذه واقعة تاريخية نشرت على صفحات الجرائد ، تكشف عن مدى عشرات الضحايا الأخريات اللائي تخرجن وتزوجن وقدمن للوطن أبناء ربوا وفق مفاهيم غير مفهوم الإسلام ومدى خطر ذلك على وجود أمتنا ومستقبلها .

الفصل الثانى
الشبهات التى أثارها التبشير

لن نستطيع التخلص من نفوذ الاستعمار إلا إذا تعرفنا على وسائله وأسلحته المختلفة : الخفية والظاهرة . لقد أصبحت حرب الاستعمار للعالم الإسلامى والأمة العربية ، منصبة على الغزو الثقافى عن طريق التبشير وللتبشير الآن وسيلتان كبيرتان : (التعليم والثقافة) لقد نفض التبشير يده من الصورة القديمة والمحاولة الأولى الساذجة ، بعد أن تأكد من أنه ليس من سبيل لتحويل المسلم إلى دين آخر ، ولكنه ركز على إخراج الإسلام من مفاهيم الإسلام وقيمه الأساسية عن طرق مختلفة :

١ – إعلاء شأن الثقافات الغربية وتاريخ عظماء الغرب .

٢ – إثارة الشبهات حول حقائق الإسلام واللغة العربية والتاريخ العربى الإسلامى .

٣ – إذاعة فلسفات مادية من شأنها انتزاع الشخصية الإسلامية والعربية من الأخلاق والدين ودفعها إلى الانحلال والإباحة ، إن التبشير الآن إنما يعمل على هدم مقومات الفرد والمجتمع بحيث يصبح عاجزاً عن مقاومة النفوذ الأجنبى ، بل خاضعاً له ، متحللا من عوامل القوة والنضال والإيمان ، متقبلا للاستعمار والنفوذ الأجنبى تقبل تقدير وتسليم وانصهار . إن التبشير قائم وإن تعدلت مناهجه وأساليبه ووسائله ودخل فى غلاف رقيق لا يكتشفه البسطاء . إن الهدف الذى عاش فى نفس الغرب زمناً وتوارثوه جيلا بعد جيل ، هو أن تأتى الفرصة يوماً لتحويل المسلمين عن الإسلام وما تزال مخططاتهم تسعى إلى ذلك مهما غيرت أثوابها .

وفى سبيل تثبيت نفوذ الاستعمار ومن أجل خلق ركائز أساسية للوجود الأجنبى فى العالم الإسلامى كانت الأسلحة هى التبشير . والاستشراق . وكان الوسيلة هى المدرسة . والصحيفة . والكتاب عن طريق التربية والتعليم والثقافة ، وكانت الغاية هى تغريب المسلمين والعرب ولذلك فقد تلاقت مختلف الدعوات فى أهدافها . على النحو الذى رسمه لها عمداء الاستعمار مخططيها أمثال : كرومر وليوتى .

ونفذها : دنلوب فى مجال التعليم المصرى .

لافيجرى فى مجال التبشير فى المغرب .

زويمر فى مجال التبشير فى العالم العربى .

وقد صورت مؤلفاتهم المتعددة أهدافهم الصريحة وخططهم الواضحة .

وأهمها : كتاب العالم الإسلامى اليوم لمجموعة من المبشرين وكتاب الإسلام : ماضيه وحاضره ومستقبله لزويمر وكتاب وجهة الإسلام لجب وأربعة من المشرقين وقد ركزوا على أهداف عامة : هى الحيلولة دون وحدة المسلمين والقضاء على جامعتهم الفكرية السياسية ، وقد ركزوا على الوسائل المختلفة ، وأهمها التعليم والسيطرة عليه عن طريق المدارس الأجنبية . والسيطرة على مناهج المدارس التى تديرها الحكومات المحلية وجعلوا هدفهم النهائى هو (التغريب) : يقول جب (تغريب الشرق إنما يقصد به إلى قطع صلة الشرق بماضيه جهد المستطاع فى كل ناحية من النواحى ، وإذا أمكن قطع صلة التفكير والعقيدة بين الماضى والحاضر ، حتى إذا أمكن صبغ ماضى الشرق بلون قاتم مظلم يرغب عنه أهله فقدت شعوب الشرق صلتها بماضيها ففقدت بذلك أعظم جانب من حيويتها ، وبقيت عيالا على الغرب تتطلع إليه تطلع إعجاب وتقديس وعادة ، ترى فى خضوعها له شرفاً كبيراً) هذا هو الهدف كما صوروه ، فإذا أردنا أن نعرف إلى أى حد مضى العمل والمعروف أن هذا التقرير صدر عام ١٩٣١ ، قال لنا مستر جب (وقد بدأت المجهودات ولا تزال تبذل فى هذه النواحى جميعاً بهمة ، لا تعرف اليأس ، ولا تعرف الملل ، وأحسب كتاب الغرب كانوا قد نجحوا إلى حد كبير فى تصوير تاريخ أمم الشرق فى لون قاتم جعل أبناء الشرق أنفسهم يخشون أن بينهم وبين أيام

بجدهم ألوفاً من السنين تقضت . وكانوا أثناءها خاضعين لألوان من الذلة لا يستطيعون اليوم أن يشعروا معها بمعنى الحرية) .

وهكذا يتجلى أن العمل الأساسى كان ولا يزال تزييف تاريخ الإسلام والعرب ، ومن بعدها تزييف العقيدة الإسلامية ليحمل المسلمون والعرب على الاعتقاد بأنها سبب تأخرهم ، وأن مصدر القوة والنهضة هى فى التخلى عنها . وهكذا يجعل التبشير أهم أهدافه قطع الصلة بين الماضى والحاضر ، وقد وكل هذا إلى المبشرين ، الذين كان أبرز أدواتهم فى العمل بالمدارس الأجنبية (فإلى أى حد يرى مستر جب دور هذه المدارس والإرساليات ؟ يقول : إنه منذ منتصف القرن التاسع عشر انتشرت شبكة واسعة من المدارس فى معظم البلاد الإسلامية ، لاسيما فى تركيا وسوريا ومصر وذلك يرجع غالباً إلى جهود جمعيات تبشيرية مسيحية مختلفة ، وربما كان أكثرها عدداً المدارس الفرنسية . وقد كانت المدارس الإنجليزية فى الامبراطورية العثمانية أقل منها فى الهند وكانت المدارس الهولندية قاصرة على جزر الهند الشرقية) ماذا فعلت هذه المدارس ؟ ويجيب : هذه المدارس صاغت أخلاق التلاميذ وكونت أذواقهم ، والأهم أنها علمتهم اللغات الأوربية التى جعلت التلاميذ قادرين على الاتصال المباشر بالفكر الأوربى فصاروا فى مستقبل حياتهم قابلين للتأثر بالمؤثرات التى فعلت فعلها أيام الطفولة . وفى أثناء الجزء الأخير من القرن التاسع عشر نفذت هذه الخطة إلى أبعد من ذلك بإنماء التعليم العلمانى تحت الإشراف الإنجليزى فى مصر والهند . ولعل هناك نصيباً من الحق فى التهم التى ترمى بها هذه المدارس الأجنبية من أنها مفسدة لقومية التلاميذ ، وإن كنا لا نستطيع القول بأن التطورات السياسية التى أعقبت ذلك فى البلاد الإسلامية أيدت هذه التهمة . ولكن الذى فعلته بلا ريب أنها ربت التلاميذ خروجاً على الأنظمة الاجتماعية والسياسية إلى حد ما فى أوطانهم الأصلية ، وأضعف من هذه الوجوه سلطان النزعة الإسلامية القديمة على التلاميذ ، وأخلت فى بناء المجتمع الإسلامى أداة هامة ، وقطعت بعض الأواصر التى كانت تربطه وتحفظه . وقد تحققت نتائج التعليم عن طريق الكتاب والمقال والمنهج الدراسى ، وقد كانت كتابات المبشرين الأولى كتابات قاطعة ، تحمل طابع

الحقد الواضح والشك الصريح والخصومة الجانحة والعاطفة المندفعة ضد الإسلام . وهذه مرحلة انطوت بعد أن تأكد دهاقنة التبشير وأساتذة الاستعمار من أنها لم تحقق شيئاً . بل ربما حققت ردود فعل معارضة . وقضت على الأهداف المقصودة منها فقد كان المبشرون السابقون يكشفون هويتهم ويذكرون الأديان فى مجال المقارنة ويستعملون الاصطلاحات الصريحة . والعبارات المقتبسة من الكتب الدينية فكان المسلمون يعرضون عنها إعراضاً . ويوضع الباحثون منهم فى صفوف المبشرين تواً . ولكن هذا الأسلوب قد تحول بعد تحولا خطيراً . ودخل مرحلة غاية فى الدقة . فقد اختفت أساليب العاطفة والحماسة . والعبارات الاصطلاحية والكلمات الموحية . واختفى المبشرون تحت أسماء وألقاب تستطيع أن تجعلهم فى صفوف المستشرقين أو الكتاب الغربيين المتخصصين فى الدراسات الإسلامية . واتسمت مؤلفاتهم ودراساتهم الجديدة بطابع أكثر مرونة . وربما يبدأ أحدهم كتابه على نحو من التقدير والإعجاب بالإسلام وترديد عبارات الثناء على القرآن والرسول . وربما طوى فصولا من كتابه دون أن يكشف عن الشبهات التى يريد أن يدسها والأكاذيب التى يثيرها فى دقة . وقد استعمل هذا الأسلوب رغبة فى كسب ثقة القارئ وخداعه . فإذا مرت الصفحات المعدودة وأحس بثقة القارئ به . بدأ يثير الشبهات فى دقة وخفاء . ثم أخذ فى أسلوب الاحتمال والاتهام وربما نفاها بعد ذلك ثم أوردها مرة أخرى ، وذلك بهدف واضح هو أن لا يدع قارئه حتى يكون قد أثار فى صدره مزيجاً من التحفظ والشك والخلط وزلزل قواعد الإيمان فى قلبه .

والمبشرون : ليسوا فقط هم الذين يدعون إلى المسيحية ويحاولون نقل المسلمين إليها فهذا عهد مضى ، أما المبشرون اليوم فإنما هم أدباء ، ومفكرون ومؤرخون ، يحملون أجازات من الجامعات الغربية الكبرى ، ويكتبون دراسات يهيىء لها التقدير والشهرة فى العالم الإسلامى . وهم حملة جميع الآراء الجريئة الخطرة التى تدوى بين حين وحين بقصد جس النبض ، ثم يتبعها صمت شديد ، إلى أن تعاد صياغتها من جديد . وكل هذه الأفكار إنما تمثل نقطاً حساسة من مخططات الاستعمار والنفوذ الأجنبى تحاول أن تأخذ طابعاً من طوابع الفكر أو الوطنية أو غيرها . ولعل النجاح الذى حققته هذه

الخطط إنما يعود إلى جرأة هؤلاء المبشرين ، وبراعتهم على سبك كتاباتهم المليئة بالشبهات في قالب علمي يحاول أن يعطيها صورة البحث المجرد البعيد عن الأهواء . وهي جرأة وبراعة ما نزال نفتقدها في كتابنا المسلمين والعرب الذين ما زالوا يندفعون وفق أساليب عاطفية ووجدانية صاخبة . ومن حق أن هؤلاء المبشرين قد تلقوا هذه المناهج في دراسات مستفيضة . وعاشوا سنوات تحت إشراف أساتذة متخصصين . حتى أحسنوا أداء هذا الأسلوب . وأجادوا مناهجه وأبرع ما في هذا الأسلوب . البرود العاطفي . والذكاء الذهني . والتخطيط . والتحليل . ثم غرس الأكاذيب والشبهات برفق وتوزيعها بدقة ، وإثارتها على نحو يحتمل الخطأ والصواب دون القطع بها . وقد تبين بوضوح أن كل الآراء التي يريد الاستعمار تداولها وانتشارها حمل لواءها المبشرون عن الإسلام . عن العرب . عن اللغة العربية . عن التاريخ . وذلك بهدف :

أولا : هو القضاء على الوحدة الإسلامية سياسياً . بإيجاد الخلافات الضخمة بين الدول الإسلامية . عن طريق السياسة والمذاهب واللغات والثقافة.

ثانياً : القضاء على الفكر الإسلامي المستمد من القرآن والإسلام كأساس للثقافات .

ثالثاً : قيام دعوات وأحزاب وهيئات تحمل طابع الإقليمية السياسية والعلمانية الفكرية . لمقاومة الوحدة السياسية والإصالة الفكرية المستمدة من المنابع .

٢ — الشبهات الفكرية التي أثارها التبشير

قدم (التبشير) عدداً من الشبهات في مختلف مجالات الفكر الإسلامي والثقافة العربية ، وما تزال هذه الشبهات تتردد على أيدي دعاة التغريب والشعوبية من خلفاء المبشرين ، ومن الحق أن يقال أن مختلف النظريات والشبهات التي رددها المبشرون والشعوبيون ودعاة التغريب . قد وضع بذرتها دهاقنة الاستعمار من أمثال كرومر وليوتي . وتابعهم عليها عمداء التبشير لافيجري وزويمر ودنلوب .

وإذا راجعنا تقارير اللورد كرومر السنوية التى جعلها رسالته إلى الجيل الجديد من المثقفين الذين كان يعدهم لتسلم زمام الحكم من الاحتلال البريطانى ، نجده قد وضع أسس هذه الحملات الضارية على الإسلام واللغة العربية والحضارة الإسلامية والتاريخ . فقد سجلت هذه التقارير الخطوط العامة لتهديم كل عوامل الإيمان الوطنى ، والاعتزاز العربى الإسلامى . وعندما نقرأ اليوم ما يكتبه خلفاء المبشرين ودعاة التغريب لا نعجب لأننا أحياناً نجد العبارات منقولة بنصها .

وأن معظم ما كتبه كرومر قد ردده من بعد سلامة موسى وطه حسين ومحمود عزمى وعلى عبد الرازق ولطفى السيد ومن هذه الاتهامات :

١ ــ أن المصريين كانوا مستعبدين على مدى التاريخ . حكمهم الفرس واليونان والرومان والعرب والترك (ذكر ذلك كرومر فى تقرير عام ١٩٠٦ وردده الدكتور طه حسين فى حديث له عام ١٩٣٩) .

٢ ــ وصف الحكومة الاسلامية بالحكومة الثيوقراطية وهى العبارة التى ما يزال يرددها الشعوبيون ودعاة التغريب .

٣ ــ هاجم الشريعة الإسلامية ، وقال (إنها مبادىء وضعت من ألف سنة لهيئة اجتماعية فى حالة الفطرة والسذاجة ومناقضة لآراء أهل العصر) .

٤ ــ هاجم الجامعة الإسلامية .

كما استغل التبشير الحملات التى وجهها خصوم الإسلام فى القديم من الشعوبيين والمجوس والباطنية ، فأعاد صياغتها من جديد . ورددها بحسبانها شبهات جديدة ، ولم يقف الأمر عند هذا ، بل استغلها فى سبيل إثارة الإحن وإيقاظ الخلافات القديمة .

كما استغل كتابات بعض خصوم (الأديان) من مفكرى الغرب كسلاح لمهاجمة الإسلام نفسه ، مع الفارق الواضح والبعيد بين مفهوم الدين وهو لاهوت خالص فى الغرب ومفهوم الإسلام وهو نظام مجتمع والدين جزء منه ، وفى مقدمة ذلك ما كتبه أوجست كومت ونيتشه وغيرهما ممن حاربوا

الفكر المسيحى والكنيسة ، وقد أصبحت هذه الآراء تنقل لتقال فى مواجهة الإسلام ، وتعرض ليحارب بها الإسلام .

أهم هذه القضايا :

أولا : محاولة التفرقة بين المسلمين ، وذلك بتقسيمهم إلى عرب وغير عرب ، والادعاء بأن الذين نبغوا فى تاريخ الإسلام لم يكونوا عرباً ، وأن العرب والمسلمين لم يكونوا منشئي حضارة وإنما هم مجرد نقلة لتراث من سبقهم من الأمم ، وهم دائماً يرددون تساؤلا يرمى إلى تمزيق الأواصر : هل الحضارة الإسلامية عربية أو إسلامية ؟ والواقع أن مفهوم الفكر الإسلامى والثقافة العربية تقوم أساساً على وحدة الفكر ، لا على وحدة الجنس أو الدم . وأنه كان للإسلام ولا يزال بيئة فكرية تجمع كل المسلمين على وحدة فكر قوامها القرآن . فلا عبرة فى هذا بالفارسى أو العربى أو الهندى وأن اللسان العربى والفكر الإسلامى يعد بمثابة الجامع الأكبر ، ومن هنا فإن نتاج هذه الحضارة وهذا الفكر كان نتاجاً إسلامياً ، شارك فيه العرب والترك والفرس وكل عربى اللسان إسلامى الفكر . أما دور المسلمين فى الحضارة فقد تولت الرد عليه أبحاث كثيرة ، ورد عليه الغربيون أنفسهم ، وفى مقدمة الكتابات الحديثة كتاب الدكتورة هونكة (شمس الله تشرق على الغرب) .

ثانياً : إثارة الشبهات حول الحديث النبوى (السنة) . فى محاولة الوصول إلى رأى يقول بأن يركز الاعتماد كله على القرآن ، وهى دعوة خطيرة بعيدة المدى مما لا يقع تحت النظرة السريعة .

إن رفض الحديث والاكتفاء بالنص القرآنى هى محاولة الفصل بين النص والتطبيق ، والتطبيق فى الإسلام أخطر الجوانب وأهمها ؛ هذا التطبيق المتمثل فى (الأسلوب) الذى اتبعه الرسول صلى الله عليه وسلم فى تنفيذ النص القرآنى ، ومن هنا فإن النص القرآنى لا يكفى المسلمين اليوم ، ولا يحقق لهم إسلاماً حقيقياً ، هذا فضلا عن أن السنة جزء من القرآن نفسه بنص القرآن « **ونزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** » فهذا البيان الذى يفسر للناس ويطبق ، هو بإقرار القرآن جزء أساسى ، وفى هذا المعنى يقول (محمد أسد) إن رفض الحديث يرجع إلى استحالة الجمع بين حياتنا الحاضرة المتقهقرة وبين

روح الإسلام الصحيح كما يظهر فى سنة النبى — فى نظام واحد ولكى يستطيع نقدة الحديث المزيفون أن يبرروا قصورهم وقصور بيئتهم . فإنهم يحاولون أن يزيلوا ضرورة اتباع السنة ، لأنهم إذا فعلوا ذلك كان بإمكانهم حينئذ أن يتأولوا تعاليم القرآن الكريم كما يشاءون على أوجه من التفكير السطحى أى حسب قبول كل واحد منهم وحسب طريقة تفكيره هو " .

هذا هو الخطر الكامن وراء مهاجمة (السنة) . وإثارة الشبهة حول الحديث النبوى .

ثالثاً : منطق القرآن ومنطق أرسطو .

ويردد المبشرون والمستشرقون القول بأن الفكر الإسلامى التمس منطق أرسطو . وأن أرسطو أصبح فى الفكر الإسلامى أساساً . والحق أن هذا القول ما زال ادعاءاً يفتقر إلى الدليل . فقد أخذ بعض الفلاسفة المسلمين منطق أرسطو كسلاح لمواجهة خصوم الإسلام . وفى الرد على دعاة اليهود والمسيحيين والمجوس لأنهم كانوا يصطنعون نفس السلاح . ولكن الإسلام لم يتقبل منهج أرسطو أساساً للمنطق الإسلامى .

وقد كشف الإمام ابن تيمية عن (منطق القرآن) فى كتاب له . أما الغزالى فقد فرق بين منطق القرآن ومنطق (الكلام) المستمد من أرسطو وقال : إن أسلوب القرآن فى الإقناع أبلغ وأنفع وأعم وأشمل الطبقات والمستويات الفكرية المختلفة . وأن علم الكلام علاج مؤقت . ومختص بما نشأ من شكوك وشبهات . ولا حاجة للطبائع السليمة إليه فأدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان .

رابعاً : ويعرض التبشير والاستشراق إلى (الجهاد) فى الإسلام بمراوغة وتضليل كثيرين . وقد عمد إلى إلغائه من جميع مناهج الدراسات التى سيطر عليها . وفى الجزائر كان لا يسمح بدراسته وكذلك فى الهند .

بل إن الاستعمار عمد إلى تأييد طائفتين دعتا إلى ترك الجهاد . واحتضنهما بل ربما هو الذى أوعز إلى أربابهما وهما البهائية والقاديانية ، وما زال كتاب التبشير والتغريب يضعان هذان الدعوبان فى صف دعوات الإصلاح والتجديد

الإسلامى مع جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ! بينما لا يرى المفكرون المسلمون هذا الرأى . وربما يرون عكسه تماماً . والمعروف أن النفوذ الاستعمارى قد اعتمد على هذين الحركتين فى فارس والهند وكلا الحركتين قد اعتمد على إلغاء أصل ثابت وخطير من أصول الإسلام . وهو (الجهاد) تقرباً إلى الاستعمار وقد أتاح النفوذ الاستعمارى للحركة البهائية حرية الحركة فى العالم الإسلامى . واهتمت الصحافة التغريبية التبشيرية فى مصر بالحركة وأولتها قدراً كبيراً من العناية فكتبت عنها المقتطف والهلال والمجلة الجديدة والعصور .

ومن العجب أنه عندما فضحت مخططات التبشير فى مصر عامى ١٩٣٢ - ١٩٣٣ . خفت صوت التبشير وعلا صوت الحركة البهائية . التى نشطت إلى العمل لتسد الثغرة . وكانت لها مراكز مفتوحة فى القاهرة والاسكندرية وبور سعيد وغيرها ولها نشرات متنوعة . وكتب يعلن عنها مؤلفوها أن بهاء الله مؤسس البهائية هو رسول الله الأعظم وسفيره الذى جاء بما يحقق أسمى رغبات الإنسان وتوحيد الأديان جميعاً تحت علم البهائية . وأن الإسلام كان لعصر خاص وعقليات خاصة . أما البهائية فهى دين العصر الجديد وقد أشار الأستاذ محمد محمود بدير إلى منهج البهائية . فقال أن لها أساليب تختلف عن أساليب المبشرين . وأن لهم فى إباحتهم الأخلاقية أكبر مبرر لهم . والذين يمدون المبشرين بالأموال يمدون البهائية . والحركتان تلتقيان عندنقطة أساسية : هى إخراج المسلم من عقيدته الإسلامية . وجعله يتشكك فى رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) وأنه خاتم النبيين وأن الإسلام هو خاتم الشرائع السماوية .

خامساً : يردد المبشرون والمستشرقون عبارة (هزيمة المعتزلة) ويعلنون أسفهم البالغ ويتباكون عليها ، بينما أن هزيمة المعتزلة نفسها ليست إلا مرحلة من مراحل تطور الفكر الإسلامى فى طريقه إلى منهجه الأصيل : مذهب أهل السنة والجماعة وموقف المعتزلة من الإسلام كموقف الصوفية من الإسلام ، لا يمثل أحدهما الإسلام بمفرده . فالإسلام يجمع بين ثقافة العقل وثقافة القلب ومنهج المعرفة فيه لا يعتمد على العقل وحده . ولا على القلب وحده . وإنما يجمع بينهما ولم يكن المعتزلة فى حقيقة الأمر يمثلون الإسلام تمثيلا صحيحاً ؛

ولكنهم كانوا مرحلة من مراحل الدفاع عن الإسلام بأسلحة الفلسفات الأجنبية التى كان يجيدها أصحاب الأديان الذين كانوا يقارعون دعاة الإسلام .

سادساً : هناك صيحة تتردد كثيراً على أقلام المبشرين ودعاة التغريب . هى نقص الثقافة العربية من جانب الفلسفات والدراسات الفلسفية . وهناك دعوة ملحة على ضرورة ترجمة الفلسفات الحديثة . بحسبان أن العرب والمسلمين لن يصلوا إلى مجال الصدارة إلا إذا عززوا هذا الجانب والواقع أن المسلمين والعرب لهم فلسفتهم المستمدة من قيمهم ومفاهيمهم . وهى تختلف عن الفلسفة الغربية أساساً من حيث أنها تقوم على عنصر التوحيد المستمد من الإسلام . وحين نلقى نظرة عامة على الفلسفات الحديثة نجدها جميعاً (مادية) الأساس . رافضة للقيم التى جاءت بها الأديان المنزلة رفضاً تاماً . وهى جميعاً تعمل على تقويض دعائم الاعتقاد بوجود (إله واحد) بغض النظر عن البديل المقترح . فمنها من يقترح ألوهية المادة أو ألوهية الإنسان . ومنها من يجعل الغريزة محور تفسير الوجود . وما يزال الإسلام هو الدين الوحيد الذى صفت فيه عقيدة التوحيد من الشوائب . وبالجملة فإن هدف دعوة التغريب فى الاهتمام بالفلسفات الغربية الحديثة إنما ترمى إلى تدمير العقيدة الإسلامية لأنها العقبة الضخمة فى طريق سيطرة الأهواء الحديثة .

سابعاً : يخدع المبشرون ودعاة التغريب البسطاء حين يربطون بين واقع المسلمين الآن وبين الإسلام . ويقارنون بين واقع الأوربيين وبين المسيحية . والحقيقة فى هذا أن الأمم الأوربية دخلت فى المسيحية بين القرنين الثالث والسادس من ميلاد المسيح . وبقيت كذلك فى غفوتها طوال عشرة قرون . ثم تيقظت من نحو أربعة قرون . بينما نهض الإسلام بمعتنقيه فى إقامة حضارته الباهرة منذ القرن الأول للهجرة . ولقد كانت الأمم الأوربية مثل الإغريق والرومان أكثر رقياً . بل كانت أرقى أمم الأرض . أو من أرقاها قبل اعتناقها المسيحية ونبغ فيها من الفلاسفة والعلماء ورجال لم تزل آثارهم قائمة .

ويقول العلامة مسمر الفرنسى : إن الغربى إذا صار عالماً ترك دينه بخلاف المسلم فإنه لا يترك دينه إلا إذا صار جاهلا . وبأى وجه يمكن نسبة التمدن الحالى إلى الدين النصرانى . والحال أنه ما جاء إلا بعد خمسة عشر قرناً

من ظهوره ، وبأى وجه يمكن نسبة انحطاط المسلمين الحالى إلى دينهم . وفى عام ٧٤٣ أى بعد مائة وأحد عشر عاماً بعد وفاة (محمد) كانت دولة الإسلام أكبر عن دولة الإسكندر المقدونى . وفى عام ١٥٦٦ عند وفاة السلطان سليم كانت أكبر من مملكة الرومانيين . وبذلك يتضح أن عظمة الإسلام مكثت ألف سنة . ولا يمكن الوصول إلى هذه الدرجة من الأمور السياسية والحربية إلا بالعلوم والتمدن .

ثامناً : ومن اتهامات التبشير والتغريب للفكر الإسلامى . أنه فكر تجريدى غير أن ثمرات الفقه والتشريع الإسلامى تكذب هذه الشبهة وهذا الاتهام . فإن الأصول ترينا واقعية الفكر الإسلامى . وكيف أنه كان يعالج كل حادث يقع فى حينه ثم يتناوله بالبحث ويضع له الحلول .

بل إن الفكر الإسلامى قد أثبت أنه أكثر إيغالا فى الواقع من الفكر الغربى . حيث تناول التشريع الإسلامى تفصيلات الحياة اليومية ، ولم يقتصر على مسائل اللاهوت كما هو الأمر فى الشرائع الأخرى .

• ◦ ◦

تاسعاً : قد حاول التبشير والنفوذ الاستعمارى إثارة طابع من طوابع الاستسلام والضعف فى الأدب العربى . وذلك بالدعوى إلى فكر مستمد من تولستوى وغاندى أساسه السلام والبعد عن العنف ، وهى محاولة للقضاء على مفهوم مقاومة العرب والمسلمين للنفوذ الأجنبى . ولا شك أن هذه الدعوة غير أصلية الجذور فى الفكر الإسلامى والثقافة العربية . فالإسلام يقرر السلام أصلا ، ولكنه لا يقبل العدوان ولا يستسلم للنفوذ الأجنبى وفكره وأدبه وثقافته تحمل هذا الطابع أساساً .

عاشراً : هاجم التبشير والاستشراق (الشريعة الإسلامية) . ووصفها بأنها مستمدة من القانون اليونانى . ومرة أخرى رماها بالجمود والتخلف .

وخير ما تُواجه به هذه الحملات تلك القرارات التى وصل إليها علماء القانون على غير هوى أو تعصب . وأقربها ما قرره مؤتمر لاهاى سنة ١٩٣٥ ، ومؤتمر واشنطون سنة ١٩٤٨ ، من أن الشريعة الإسلامية شريعة لها طابعها

الخاص . وأنها صالحة لأن تكون مصدراً عالمياً للقانون وتحضرنى هنا عبارة الدكتور مختار القاضى فى كتابه (تاريخ القانون) . حيث يقول : إن الشريعة الإسلامية تجمع بين عنصرى الاستقرار والتطور . وتوفق بينهما توفيقاً بديعاً فنياً . فبينما نجد فى هذه الشريعة نصوصاً تنزل إلى التفصيلات وتنأى عن التأويل والتغيير والتبديل كنصوص المواريث والحدود والكفارات . نرى نصوصاً أخرى تتيح للمشرع أن يبتدع أحكاماً فى غير الحالات التى جاءت بها النصوص التفصيلية . ما دام الأمر يحقق مسألة عامة للمسلمين وأصلح مثل لهذه النصوص المرخصة . هى المصالح المرسلة والاستحسان بالضرورة وقياس ما لم يرد فيه نص . ولعل الشريعة الإسلامية هى الشريعة الوحيدة فى الدنيا التى تطورت بوسائل داخلية دون أن تستعير نصاً من خارج نصوصها أو حكماً غير مستنبط من أحكامها ، وكل القوانين والشرائع تطورت بوسائل خارجية ما عدا الشريعة الإسلامية .

وفى العصور الأخيرة حاول المستشرقون فى مؤتمراتهم التى يستقدمون إليها بعض المشهورين من الأسماء العربية والإسلامية محاولة خطيرة ترمى إلى استخدام نصوص الشريعة فى تبرير أنماط الغرب الفكرية والاجتماعية . وهو شر من تقليد هذه الأنماط تقليداً أعمى لأن الناس يمكن أن يعيشوا على أمل التخلص من الدخيل إذا قامت حركة أصيلة للأحياء .

ويقول العلامة سانتلانا فى شبهة المقارنة بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى :

(عبثاً نحاول أن نجد أصولا واحدة . تلتقى عندها الشريعتان الإسلامية والرومانية) : إن الشريعة الإسلامية ذات الحدود والمبادئ الثابتة لا يمكن إرجاعها أو نسبتها إلى شرائعنا وقوانيننا ، لأنها شريعة تغاير فكرنا أصلا .

حادى عشر : حاول جبران وميخائيل نعيمه نقل الأسلوب العربى عن أصول البلاغة القرآنية فى محاولة لخلق أسلوب جديد . يحوى تضميناً مختلطاً من الظلال والأضواء الصوفية الفارسية والهندية القديمة الغارقة فى الأوهام والإضلال . والتى تعتمد على بعض عبارات التوراة . والشعر المنثور والمحاراة للقضاء على أصالة البلاغة العربية . ولكن هذه المحاولة . وئدت فى مهدها ،

ولم تحقق نتيجة ما . وغلب منهج البلاغة القرآنية الذى حمل لواءه كاتب معاصر هو المنفلوطى الذى كسب الجولة .

ثانى عشر : من الشبهات التى أثارها التبشير والتغريب . إدخال مفاهيم غامضة على القيم الأصيلة ، من الكلمات التى تتردد كثيراً اليوم : الخطيئة . الخلاص . التكريس ؛ والواقع أن هذه الكلمات لها مدلول تاريخى ودينى خاص . يجب أن يكون واضحاً فى تقدير الباحث أو الشاعر وهى تجرى على قلمـــه .

وهناك خلاف بين الفكر الإسلامى وبين الفكر الغربى فى أمر الخطيئة . التى ترى المسيحية أنها مصدر أساسى للدين . وهو ما يوصف بأن ما فعله آدم عليه السلام كان خطيئة ورثها عنه البشر . ثم رأت المسيحية أن تكفر عنها . وذلك بما وصف بأنه تضحية المسيح بنفسه . وهذه النظرية قد كانت بعيدة الأثر فى الذهنية الأوربية . وكانت منشأ كثير من المدارس الملحدة . وقد ظهر الخلاف حولها فى الأدب الغربى والفلسفة الغربية وفى كثير من النظريات السياسية الأوربية . وحين يعرض هذا الأمر كله على الفكر الإسلامى . نجد خلافاً واضحاً فالقرآن يثبت أن آدم عصا ربه فغوى . ولكنه يثبت بعد ذلك أن الله تقبل توبته (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) . والإسلام يقرر بمقتضى هذا عدم (وراثة الخطيئة) . وأن كل امرئ بما كسب رهين . فالفكر الإسلامى يحرص على أن لا يتأثر بما هو خارج عن عقيدته . ومن هنا فإن الخلاص الذى يتمثل فى مفهوم المسيحيين أن صلب المسيح قد حققه . يكون بالطبع غير موجود ما دامت الخطيئة نفسها غير موجودة ، وفى الإسلام أن المسيح لم يصلب . وأن من كرامة هذا النبى الذى أرسله الحق تبارك وتعالى . أن لا يجوز عليه الصلب بين أعدائه فإن الحق الذى أرسله لا يسلمه إلى خصومه لأنه قد أرسله بحمايته وحفظه من أن تناله يد العدو .

وقد تأثر الفكر الغربى بالفكر الإسلامى فى هذا المفهوم . وتحرر كثير من المفكرين المسيحيين من نظرية (الخطيئة الأصلية) متأثرين بالإسلام . وبذلك أقروا بأن الجنس البشرى قادر على إدراك الكمال كما فى الإسلام .

ثالث عشر : من الغريب أن تدرس الجامعات فى العالم الإسلامى : الطب

والعلوم والفلسفة والآداب والتاريخ والقانون بحسبانها علوماً غربية صرفة ، دون أن نكشف لهم عن الحقيقة التي تقرر أن هذه العلوم قد بدأها أجدادهم ، الذين وضعوا أسسها وبنوا (المذهب العلمي التجريبي) قاعدة العلم والحضارة ، بل إن تدريس هذه العلوم على هذا النحو إنما يصورهم لأنفسهم على أنهم عبيد للثقافة الغربية بينما ليس الأمر كذلك .

ولعل الأمر الجدير بالنظر ، هو أن يدرس المسلمون والعرب وجهة نظرهم الأصلية في هذه العلوم إلى جانب وجهة نظر الغرب ، ويفاضلون بينهما ، لا أن يدرسوا وجهة نظر الغرب وحدها على اعتبار أنها هي الحقيقة التي لا نقض لها .

والواقع أن الفكر الإسلامي له نظريات كاملة في الاقتصاد والاجتماع والسياسة والقانون والتربية هي أصلح لمجتمعاتنا من نظريات الغرب ، التي أنشأها إنبعاثاً من واقعه ، والتي تختلف مع أمزجتنا ونفسياتنا اختلافاً جوهرياً .

• • •

الفصل الثالث

التبشير والفكر الإسلامى

من أخطر الشبهات الفكرية التى أثارها التبشير فكرة : (علمانية الدولة) ، أو لادينية الدولة . وهى هدف الاستعمار الأول فى البلاد الإسلامية ، والمعول الأكبر لهدم القيم الإسلامية ، وعزل الفكر الإسلامى عزلا تاماً عن مجال المجتمع والاقتصاد والسياسة والتربية ، وهو هدف استعمارى صهيونى أساسى يفسح المجال أمام النفوذ الأجنبى . حتى لا يقف الإسلام حائلا دون مصالحهم ومطامعهم .

ومن الحق أن يقال : إن هناك فارقاً جذرياً بين الفكر الإسلامى والفكر الغربى ، يتعلق بوحدة الترابط العضوى فى الفكر الإسلامى بين الدين والمجتمع ، حيث لا سبيل إلى عزلها . وكل محاولة للفصل بينهما هى محاولة فاشلة ، ولن تتحقق إلا إذا انهدمت قوائم الفكر الإسلامى انهداماً كاملا وهذا ما ليس هناك سبيل إليه . ذلك لأن أول ركائز الاجتماع والثقافة فى العالم الإسلامى هو أن الإسلام دين ونظام مجتمع غير منفصلين .

ومن الحق أن يقال : إن المجتمع الإسلامى قد بنى والدين جزء منه لا ينفصل عنه ، وأهم سمات الإسلام وبالتالى الفكر الإسلامى والثقافة العربية ، أنه لا يفصل بين الدينى والدنيوى والقيم الروحية فيه غير مستقلة عن القيم المادية بل هى مكملة لها وكل محاولة لفصل الروح عن المادة يعد عملا عقيماً .

ولعل من أول ما يحاول التبشير والتغريب أن يركز عليه لتحقيق هذا الغرض هو الاتجاه إلى العلوم العصرية ، باعتبارها الهدف الحضارى الذى يوصف بأنه عامل النهضة والتقدم ، بينما تخفى وراءها غرضاً أساسياً ، هو عزل الفكر الإسلامى عن قيمه الأساسية . ولقد تنبه إلى ذلك رجل خبير منصف هو العلامة جوستاف لوبون ونصح بها الشباب المسلم فى باريس حين قال لهم :

(إن العلوم العصرية لا تفيد المسلمين إلا إذا اقترنت بتربيتهم الدينية وسارت جنباً إلى جنب مع أوضاعهم وعقلياتهم . وأن تهذيب المسلمين بالمعارف العصرية الأوربية خارجاً عن دائرة تقاليدهم وعقائدهم يزيدهم انحطاطاً وفساد أخلاق . ولن تنفعهم هذه العلوم إلا إذا كانت ضمن دائرة عقيدتهم وقوميتهم . وقد صور هذه الرابطة بين العلم والدين فى الفكر الإسلامى كاتبان غربيان هما : (رنفلن وسيلوفيكس) فى كتابهما الشرق الأوسط المعاصر :

إن أول ركائز الاجتماع والثقافة فى الشرق الأوسط . هو (الدين) الذى يحدد العلاقات بين أفراد المجتمع . ففى مجتمعات الشرق الأوسط خلافاً للمعهود فى المجتمعات الغربية . وحدة وثيقة بين الدين والمجتمع ولا انفصال هنا بين ما هو دنيوى وما هو أخروى . والروح الدينية منبثة فى جوانب الحياة كلها فى مواضعاتها ولغاتها ولهجاتها.ولسنا بحاجة إلى أن نصف الدور الهام الذى يقوم به الدين فى الحياة الثقافية والاجتماعية فى الشرق . فإن فى تاريخ أى بلد شرقى ما يثبت أن الدين ينفذ إلى كل نشاط اجتماعى وعقلى للشعوب . بل إنه فى الواقع هو العامل المسيطر على حياة الشرق . رجاله ونسائه . ولا يمكننا أن ندعى وجود طائفة لها اعتبارها من أبناء الشرق لا تهتم بشئون الدين السائد فى مجتمعها . لهذا من العسير على الغربى أن يفهم حياة الشرق الاجتماعية ، دون أن يفهم الدين الذى تدين به الجماعة والتى تحاول دراسة ثقافتها ، ويفهم من هذا (أميل درمنجم) ، ويعبر عنه أصدق تعبير حين يقول : إن حضارة الإسلام ترمى مثل أعلى رفيع بجمع بين الدين والدنيا والبعد عن النفعية والرهبانية إلى سواء . ولم يكن الإسلام هو مصدر تأخر المسلمين . بل كان مصدر تقدمها بينما كان الموقف مختلف بالنسبة للغرب والمسيحية . فإن الإسلام لم يلبث فى خلال قرن واحد من بزوغ فجره . أن أقام حضارة باهرة بينما ظلت الأمم الغربية عشرة قرون بعد دخول المسيحية قبل أن ينهضوا . وكانت الإغريق والرومان أرقى أمم الأرض قبل اعتناقها المسيحية .

والترابط بين الدين والمجتمع فى مفهوم الإسلام بوصفه نظام مجتمع ودين

عبادة معاً واضح فى مختلف كتابات الغربيين والباحثين ، الذين تخرجوا من المعاهد الأجنبية وأمامى كتاب الفكر العربى فى مائة عام ، يسجل هذه الحقيقة فى بحث الأستاذ نعيم عطية ص ٤٠٨ حيث يقول :

(إن الإسلام فى جوهره أكثر من مجرد إيمان دينى . إنه نظام حياة . يشمل جميع المؤسسات الاجتماعية . الدينية منها والزمنية . فكما يجد الإنسان فى الإسلام ما يشبع تفوقه الروحى عن طريق الإيمان بالله . والتعبد له بالصوم . والصلاة . والزكاة . والحج ، كذلك يجد فيه نظاماً من القيم الأخلاقية والشرائع المدنية ، التى تعطيه أجوبة مفصلة لما يعترضه من مشكلات فى المعاملات اليومية . فالإسلام نظام روحى ونظام زمنى . كلاهما متصل بالآخر وانعكاس له ، فلا مجال للفصل بينهما .

ومن مبادئ الإسلام أن المسلم أخو المسلم . وأن المسلمين أمة واحدة . ذات رابطة روحية تشهد جذورها فى التسليم بالله والاعتراف بأحكام الشريعة ، وما تنص عليه من واجبات على المسلم نحو المسلم ومن حقوق للمسلم على المسلم . فالشريعة هى القاعدة التى يجب أن تتم على أساسها المعاملات بين المسلمين . وتبنى عليها حياتهم المدنية بكاملها ، كما أن الجمع بين الحياة الروحية والحياة السياسية واجب دينى ، لأن وحدة الأمة روحياً منوطة بوحدتها سياسياً ، ولذلك فالأمة فى الإسلام لن تكتمل لما لم تتجسد فى دولة . تتيح للمسلمين أن يعيشوا بحسب فرائض دينهم ، لذلك ينبغى أن يكون على رأسها قائد يحوز السلطة السياسية ، ليسهر على تطبيق القوانين وحفظ الشريعة وحماية مصالح المسلمين ونشر الإسلام والمدافعة عنه ضد أعدائه ، ويجمع بين السلطتين الزمنية والروحية) .

وهكذا يبدو مفهوم الإسلام واضحاً فى الجمع بين الدين والمجتمع .

أما التبشير والاستشراق والتغريب ودعاوى كتابهم ، فإنها مستمدة من مفهوم خاطىء أصلا وهو خطأ متعمد ، هذا الخطأ يحول دون التفرقة الواضحة بين الإسلام وبين الأديان الأخرى ، فالإسلام ليس ديناً تعبدياً قاصراً على العلاقة بين الله والناس ، ولكنه دين ونظام مجتمع ، وهو منهج حياة متكامل ، ولما كان هذا هو عنصر الخطر فيه لمطالبته بإقامة هذا النظام

وتطبيقه . فإن (علمانية الدولة) التى تبثها معاهد الإرساليات . وتتمثل الآن فى مختلف الأحزاب التى يتصدرها رجال هذه المعاهد . لا تمثل مفهوم الإسلام أو مفهوم الفكر الإسلامى المتكامل ديناً ودنيا . ومادة وروحاً . وعقلا وقلباً .

ومن مفهوم الإسلام الأصيل يجب أن تستمد جميع الحركات الإصلاحية والسياسية . والوطنية والقومية . وقد كشف جهاد المسلمين فى الجزائر بصورة واضحة عن مفهوم الترابط بين الدين والمجتمع فى الإسلام . ولقد تأكد الفرنسيون أن الجزائريين كانوا يحاربون كالمسلمين فى الدرجة الأولى . وأن فرنسا كانت تحاربهم للقضاء على الإسلام . وأن المعنى الإسلامى كان هو العامل الأول فى النصر . وقد اعترف كتاب الغرب بهذه الحقيقة التى لا سبيل إلى إنكارها وهى : (أنه لم تقم حركة وطنية فى العالم العربى إلا وكانت الروح الإسلامية أساسها) وأكد جب وكثيرون أن العرب متمسكون بلغتهم وأدبهم ويعنون بمجد الإسلام . كما أكد كثيرون أن العرب لن يتنحوا عن لغة القرآن التى تربطهم بالعالم الإسلامى كافة . وأن الروح الإسلامية ستبقى تسود بلادهم وتتقدم أبداً بلا كلل ولا ملل . ولن يطرأ عليها أى ضعف أو وهن . ولذلك فإن الدعوة المضللة التى تنطلق تحت عنوان (تحرير الذات العربية من الإسلام) لن تجدى فتيلا . وستواجه ما واجهته الدعوات التى سبقتها .

وأن الشعوبيين ودعاة التغريب الذين يتحدثون عن هذا . ويظنون أنه سيحقق لهم تغييراً فى مختلف علاقات الإنسان بالدولة وبزوجه وأولاده لن يكون . لأن الدعوة إلى (علمنة الذات العربية) . ولإخراج الجيل الجديد من إطارات الدين . إنما هى صيحة استغل الاستعمار والتبشير فترة النكسة لإذاعتها .

وقد كانت الصلة ولا تزال بين كل الثورات المقاومة للاستعمار والإسلام وثيقة . مستمدة من المفهوم الصريح : مفهوم الجهاد . ومفهوم المقاومة . وقد ولدت ثورة ١٩١٩ فى ساحة الأزهر . وولدت ثورات المغرب فى ساحة الزيتونة والقرويين وثورات العراق فى ساحة النجف الأشرف) .

ومن هذه الشبهات أيضاً ما يحاول التبشير إذاعته من أسباب التخلف في العالم الإسلامى إنما تعود إلى عوامل أساسية فى صلب الإسلام . وهى دعوة أعلنها كرومر قبل سبعين عاماً ، وما زال أتباعه يرددونها وكل الدلائل تكذبها . لأن المسلمين هم الذين أنشأوا المنهج العلمى التجريبى الذى يقوم على الحضارة الحديثة ، وأن الإسلام بدعوته إلى العلم وإلى النظر إلى الطبيعة هو الذى حفزهم إلى ذلك ، ومن خلال مفهوم الإسلام كدين ومجتمع يمكن النظر إلى قضية فلسطين أيضاً . فقضية فلسطين لا يمكن أن تعالج إلا على أساس إسلامى قوامه الجهاد على نفس النسق الذى عرفته ثورة الجزائر . وفى هذا يقول الكولونيل عبد الله التل : (إن قضية فلسطين دينية مقدسة فى المقام الأول . وأن أية معالجة لها لا تكون على أساس دينى جهادى مكتوب عليها الإخفاق لا محالة ، وأن هذا الإيمان مبنى على تجارب عسكرية عاشها وحقائق تاريخية لمسها ووعاها . وقال : إن اللوم على دعاة العلمانية (لا ييك) فى الوطن العربى الذين تناسوا وأسقطوا من حسابهم العامل الدينى فى قضية فلسطين . وأنها القضية الوحيدة التى قامت فى العالم منذ ثلاثين عاماً . وما زالت تقوم على أسس روحية دينية ، وأنه إذا أمكن أن تعالج أى قضية على أسس مادية فإن قضية فلسطين لا تعالج إلا على أسس دينية بالدرجة الأولى . وأسس مادية بالدرجة الثانية) .

ويتصل بهذا القول بأن الإسلام ليس له هيئة خاصة تشرف عليه . ولا يقال للعالم المسلم : (رجل دين) وأن وحدة الإسلام هى وحدة فكر لا وحدة جنس ولا عنصر . وأنه لا توجد فى الإسلام الحكومة الثيوقراطية . التى يحكم بها رجال الدين من حيث أنه منتف قطعاً فى الإسلام وجود رجال الدين أو هيئة لاهوتية ما .

ومن النظريات التى يحاول النفوذ الاستعمارى فرضها على المسلمين ، النظرية القائلة بتقبل الحضارة العربية تقبلا كاملا . والتى رددها طه حسين وأحمد أغايف . ومن الغربيين رددها ارنولد توينبى . هذه النظرية تتطلب منا إلقاء نظرة إلى موقف الغرب من الحضارة الإسلامية عندما حاول اقتباسها ، وإلى أى حد بلغ به تقبلها وتكشف وقائع التاريخ الصحيح على أن حركة

النقل والترجمة من اللغة العربية إلى اللغات الحديثة بدأت منذ ١١٠٠ م إلى ١٥٠٠م تقريباً ،وقد سارت هذه الحركة على نحو يشهد بالقدرة الفائقة على حماية (الفكر الغربى) من مؤثرات الفكر العربى الإسلامى بإقصاء (روحه وقيمه) ، والانتفاع بكل ما أضافه الفكر الإسلامى دون نسبته إليه . ثم اقتباس منهج الفكر الإسلامى التجريبى وتحويله إلى منهج غربى خالص ، ثم الإصرار على عدم الاعتراف بأى فضل للحضارة أو الفكر الإسلاميين ، وإمعاناً فى التعصب والحقد عمدوا إلى إطلاق اسم (القرون الوسطى المظلمة) على مرحلة يقظة الحضارة العربية الإسلامية ، ثم القفز من الحضارة الرومانية التى بادت حوالى عام ٤٠٠ م إلى الحضارة الحديثة التى نهضت عام ١٥٠٠ م تقريباً ، وتجاهل فترة أكثر من ألف عام هى فترة (ضياء) الحضارة الإسلامية فى المشرق وأسبانيا ، بينما هى فترة القرون الوسطى المظلمة للغرب وحده ، وقد سار منهج الفكر الغربى على قاعدة مخالفة للأسس الإسلامية ، تجاهل الأثر العربى الإسلامى . وعمد إلى معارضته واتهامه والحقد عليه ، ونقده بتعصب .

ويبدو فى هذا المجال (توماس الأكوينى) علم الأعلام فى نظر الفكر الغربى . فهو الرجل الذى تصدى للفكر الإسلامى ، وعمد إلى غربلة الفكر الغربى . وتخليصه من آثاره ، وقد استطاع أن يبعد طابع التوحيد وروح الإسلام ومفهوم التكامل والوسيطة فى الفكر الإسلامى ، وأخذ عصارة هذا الفكر فى مجالاته المختلفة ، (الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية) ، ثم نسبها إلى محصلات الفكر الغربى ، وبالجملة فقد عمد إلى تصفية أثر الفكر الإسلامى من الفكر الغربى نهائياً .

ولا يمنع هذا من أن نذكر أنه فى السنوات الأخيرة برزت حركة منصفة ، تحاول أن ترد للفكر الإسلامى حقه فى كثير من معطيات العلوم الاجتماعية والطبيعية .

وطالما ردد الاستعمار الغربى نظرية أمانة الحضارة الموكولة إلى الجنس الأبيض .

وهذه نظرة قوامها تفرقة عنصرية غالية بين الأجناس . وهى مستمدة من نظرية رومانية قديمة . فالإنسان الأبيض (لا الإنسان عامة) هو تاج الخليقة . وهو السيد وهو صاحب الغلبة فى كل صراع ينشب على وجه الأرض ، وعبارة شتابنبلك تمثل هذا المعنى : (الرجل الأبيض لا يغلب) والغربيون عندما يكتبون تاريخ العالم ، يبدأون بتاريخ شعب أبيض ، هو شعب اليونان وينقلون زعامة البشر من بعده بين أجناس بيضاء من رومان وطليان ، وجرمان ، فإذا ظهر شعب ملون ، وارتفع إلى مستواهم ، عملوا على إسقاطه تأكيداً لنظريتهم الغالية فى التعصب ، وهم يجعلون الغرب طرفاً والعالم طرفاً آخر على حد تعبير توينبى فى رأس كتابه (العالم والغرب) . ويقول لورد لويد فى كتابه (مصر منذ عهد كرومر) : (إن للغربيين عقلية ، تجنح بهم إلى الاعتقاد بأن مبادئهم هى حقائق زاهية يجب على العالم أجمع أن يتقبلها وكثيراً ما يدهشهم أن يروا هذا غير الواقع) .

والحضارة الغربية التى يريد الغرب أن يفرضها على الحضارة الإسلامية ، هى اليوم موضع النقد والتجريح من أهلها أنفسهم . وقد تعددت الآراء التى تشير إلى قصورها فى تحقيق الأمن والطمأنينة لذويها فكيف يمكن أن تحقق ذلك لغير أهلها .

يقول أحد الباحثين الغربيين المنصفين : قصرت المدنية الغربية فى المهمة التى ألقيت على عاتقها فى الأجيال الأخيرة . أعنى المهمة التى ترمى إلى نشر تعاليم الإنسانية ، وتعميمها على وجه الأرض بحيث تؤدى إلى الوحدة الإنسانية . لقد وقع الغرب إلى أسلوب حب الذات وكان اختياره له جريمة . وكان من أثر ذلك ضياعه واضمحلال نفوذه . لقد أراد الغرب أن يوحد العالم . ولكن تحت سلطانه ومصلحته . والعالم لا يساس إلا بالعدل والحب والإخاء ورد الحقوق إلى أهلها . ولكن الغرب لجأ إلى القوة الغاشمة ، واعتمد عليها وعبث بالشرائع .

ومن الحق أن يقال : إن (وحدة الثقافة العالمية) ليست فكرة خالصة ، وإنما تحوى فى أعماقها هدفاً مضللا . وهى عبارة خلابة المظهر . ولكنها تضمر التعصب والاحتقار للثقافات الإنسانية . وهى تعنى فى الواقع سيادة

الثقافة الغربية وسوق الناس جميعاً إلى الولاء والعبودية للسيادة الغربية فى الفكر وإحلال قيم للفكر الغربى ومفاهيمه محل القيم الفكرية الإسلامية . كما أجمع المصلحون والباحثون المنصفون على أن الدعوة إلى العالمية فى فترة كفاح الأمم لمقاومة الاستعمار هى دعوة منحرفة ، لأنها ستكون بمثابة انصهار لهذه الأمم – التى لم تستكمل وجودها الذاتى النفسى – فى كيان الأمم الغالبة .

وعلى الرغم من كل محاولة إلى دعوة عالمية ، فإن الفوارق الطبيعية ، والأخلاقية والاجتماعية والروحية والتاريخية للأمم ما تزال عميقة الجذور ، ولن تستطيع قوى الاستعمار صهر الأمة الإسلامية ذات الحضارة والثقافة العميقة الجذور فى بوتقة الأممية أو العالمية .

ومن الحق أن يقال : إن الفكر الإسلامى لا يحاكم إلى مقاييس الفكر الغربى ، ذلك لأن لكل ثقافة طابعها الخاص ، وطريقتها المتميزة .

إن كفاح المفكرين المسلمين اليوم فى تحرير الفكر الإسلامى من سيطرة الفكر الغربى ، هى من أقوى المثل الدالة على سلامة الذاتية الإسلامية . وقد ظل المفكرون المسلمون أكثر من ثلاثة قرون يعملون فى سبيل تحرير الفكر الإسلامى من هيمنة الفلسفة الهلينية والهندية والفارسية القديمة .

لقد كان شغل المفكرين المسلمين الشاغل هو الحيلولة دون أن يذوب طابع الإسلام الحضارى فى حضارة أخرى ، هذا الرفض بالذات هو الذى مكن الجزائريين من الصمود فى وجه الاستعمار الفرنسى مائة وأربعة وثلاثين عاماً . وهذا الإيمان نفسه هو الذى مكن المسلمين الهنود أن يصمدوا ، ولا يذوبوا فى وجه أغلبية ساحقة ، وما يزال الإسلام هو وسيلة الاحتجاج ، والمقاومة والإرادة الفعالة ، وراء كل حركات التحرر الأصالة ودعوات الإصلاح والتجديد .

وما يزال هو القوة التى تواجه الغزو الصهيونى فى فلسطين ، والفكر الإسلامى لا يرفض ثمرات الفكر الإنسانى بل يتقبلها على أساس قيمه ، وذاتيته ، ومن هنا فهو يفرق بين الحضارة وبين الاستعمار .

هذه الحضارة التى يفرضها الغرب على العالم الإسلامى اليوم هى حضارة

استعمارية . قوامها إعطاؤه منتجاتها المصنعة والحصول على خاماته بأبخس الأثمان ودون أن يعطيه مصادر الإنتاج . وهو يقذف العالم الإسلامى بالجوانب الاستهلاكية التى تتصل بالترف فى التجارة والشهوات فى الأفلام الإباحية والعطور والخمور وأدوات التجميل والزينة وتطورات الأزياء والقصص والمذاهب الضالة فى الفكر ، ولكنه يحول بيننا وبين الجوانب القوية الإيجابية فى الحضارة كالصناعة والأسلحة والتكنولوجيا والأبحاث الذرية . ويعرض أرنولد توينبى فى سخرية بالغة بتركيا الحديثة حين ولت وجهها شطر الغرب . ولم تأخذ منه إلا هذه القشور المدمرة لشخصيته الإنسانية والمجتمعات . ويقول : إن تركيا قد تغربت منذ أكثر من أربعين عاماً . ولكنها لم تستطع حتى اليوم أن تقدم للعلم الحديث أو الحضارة أى إضافة بسيطة . ويعنى هذا بالطبع أن الغرب لم يرد أن يجعل من تركيا دولة غربية فاعلة . ولكنه أرادها دولة ممسوخة ، نضت عنها كل مقومات الفكر الإسلامى . وأصبحت ذليلة على أبواب الاستجداء الأوربى . وهذا هو الواقع الحى . والنتيجة الطبيعية لاعتناق تركيا نظرية تقبل الحضارة ككل ، خيرها وشرها .

والواقع أن هذه التجربة هى موضع نظر الباحثين المسلمين جميعاً . فنحن فى الواقع لسنا فى حاجة إلى أن تصرعنا هذه الحضارة ، وليس من مصلحتنا كمسلمين وعرباً أن نذوب فى خضمها ، وأن تمزقنا بتياراتها وصراعاتها . وعلينا أن نتقبل منها ما ينصهر فى كياننا ويزيدنا قوة وفاعلية . وأن نقيم ذلك على أساس من كياننا وقيمنا وذاتنا . ولنحذر من أن نمسخ وجودنا أو ندمر شخصيتنا ومقوماتنا ، وما زلنا نذكر قول ذلك المصلح الجليل الاستاذ حسن البنا الذى قال :

(علينا أن نقف فى وجه هذه الموجة الطاغية من مدنية المادة التى جرفت الشعوب الإسلامية ، فأبعدتها عن هداية القرآن) .

وفى مقابل هدف الغرب الأصيل فى فرض حضارته وجهت إلى الحضارة الإسلامية حملات ضـــارية ، لا يعرف فى العالم حضـــارة هوجمت بمثل ما هوجمت . ولولا أنها تملك ما تملك من عظمة الأصول وثبات الجذور ،

ما استطاعت أن تقاوم هذه الحملات الطاغية الظالمة . ونحن نعرف جوهر الحضارة الغربية الذى لا يتقبله الفكر الإسلامى والذى يتمثل فى تلك الصورة البشعة التى حملها التاريخ إلينا . عندما أهلك توركمادا الدومنيكى الأسبانى ستة آلاف بالنار . وأهلكت الامبراطورة تيودورا وحدها نحو مائة ألف من المانوسيين . وأهلك الكاثوليك من البروتستانت فى مذبحة سانت بارتلمى مائة ألف أيضاً . أما ديوان التحقيق فى أسبانيا فقد قتل وحده نحو مائة ألف كما يقول (زنباخ) فى كتابه (تاريخ الأديان) .

ولقد كانت كل محاولات التبشير والتغريب ، ترمى إلى تصوير الفكر الغربى والحضارة الغربية بصورة المثل الأعلى السامى . الذى يقدم المجتمع الإنسانى الحر الكريم . ولكن الأوربيين أنفسهم أصحاب هذه الحضارة يكذبون هذه الصورة الخادعة . وأمامنا عشرات من نقدهم لها وتصورها بالعجز والقصور عن إعطائها طابع المجتمع الحر السعيد .

تقول مدام سنت بوانت : أتهم المدنية الغربية بأنها قصرت عن القيام بالمهمة التى تزعم أنها ألقيت على عاتقها . أعنى نشر تعاليم الإنسانية وتعميمها . لقد أراد الغرب أن يوحد العالم . ولكن تحت سلطانه ولجأ فى ذلك إلى القوة الغاشمة . ولم يرع غير مصلحته وحدها . وأنكر فضل الشرق . وحجب فضل الغرب . وعبث بقواعد الحضارة الحقيقية .

وقال (هربرت سبنسر) الفيلسوف البريطانى للشيخ محمد عبده فى حديث لها عام ١٣٢١ هـ : (لقد محى الحق من عقول أهل أوربا واستحوذت عليها الأفكار المادية . فذهبت الفضيلة ، وهذه الأفكار المادية ، ظهرت فى اللاتين أولا فأفسدت الأخلاق . وأضعفت الفضيلة ، ثم سرت عدواها منهم إلى الإنجليز ، فهم الآن يرجعون القهقرى بذلك . وسنرى هذه الأمم تختبط بعضها ببعض وينتهى إلى حرب طاحنة) .

وقال جمال الدين الأفغانى : إن الثقافة الأوربية لم تتخل قط عن نصرانيتها ، وتعصبها .

وقد أشار هاملتون جب إلى هذا المعنى حين قال :

إن ثورة المسلمين على مبادئ الحضارة الأوربية التى تعارض قواعد الأخلاق ، سيدفع المثقفين حتماً إلى أن يزدادوا إصراراً على الدعوة إلى الأخلاق الإسلامية وأن يصروا خاصة على مبدأ الأخلاق الإنسانى . الذى هو أساس الأخلاق الاجتماعية فى الإسلام . بل إن أمامنا المثل الواضح فى تحول الكثيرين ممن وثقوا أول الأمر بكلمات الحضارة الغربية البراقة . ثم تبينوا أنهم خدعوا .

يقول الدكتور هيكل :

إننى كنت عظيم الثقة بالعلم ، وبالطريقة العلمية الحديثة . أنها ستؤدى بالإنسانية إلى معرفة الكون معرفة هى ملاك سعادة الإنسانية . فلما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، لبثت أنتظر نتائجها العالمية فى السلام العام . وحرية للشعوب ، وحقها فى تقرير مصيرها ، وكانت السنون كلما توالت بعد الصلح تفتح عينى على حقيقة بدأت تقوى صورتها عندى حتى بلغت غاية القوة سنة ١٩٢٠ ، وهذه الحقيقة هى أن العالم يعانى قبل كل شىء (أزمة روحية) إذ ذاك رأيت أن أدرس حياة النبى صلى الله عليه وسلم لعلى أجد الوسيلة لعلاج أزمة العالم الروحية ، ولإنهاض الشرق نهضة تبعث منه حياة جديدة كحياة الغرب بعد للقرن الخامس عشر ، ووجدت فى دراستى للنبى صلى الله عليه وسلم العربى ودينه وتعاليمه . والحضارة التى وضع أساسها ما خلق أمامى عالماً جديداً ، من عوالم التفكير لم يكن ذهنى متجهاً إليه من قبل .

ولقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتى ثقافة الغرب المعنوية . وحياته الروحية . لنتخذها جميعاً هدى ونبراساً ، ولكنى أدركت بعد لأى أنى أضع البذر فى غير منبته فإذا الأرض تهضمه ، ولا تتمخض عنه ، ولا تبعث الحياة فيه . وانقلبت ألتمس تاريخنا البعيد فى عهد الفراعين ، موئلا لوحى هذا العصر تنشىء فيه نشأة جديدة ، فإذا الزمن وإذا الركود العقلى قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من أسباب ، ورويت فرأيت أن تاريخنا الإسلامى ، هو مصدر البذر الذى ينبت ويثمر ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو :

وهكذا تدور دورة المفكر حول الفكر الغربى . الذى يبرز فى أول أمره مثالياً ، ثم إذا به يتكشف عن حقيقة قاسية : هى أن الاستعمار يقتل كل ما فيه من قيم ومثل والتبشير ينحرف به إلى عمل من شأنه أن يركز النفوذ الأجنبى . ويجد الباحث المسلم نفسه أخيراً أمام ضرورة ملحة : هى أن الفكر الإسلامى هو المصدر الحقيقى . الذى يستطيع أن يعطى هذه الأمة عوامل قوتها وحيويتها .

ولعل أهم ما يتصل بهذا وهو جديد من وجوه التغريب . يحتاج إلى الالتفات إليه . وهو ما يطلق عليه (التبادل الثقافى) .

ومن الحق أن ما يسمى (التبادل الثقافى بين الشرق والغرب) .

إنما هى فى حقيقته (إمداد ثقافى) من جانب واحد . هو جانب الغرب . إذ ماذا يأخذ منا الغرب الآن ؟ هل يترجم كتبنا أو يعرض أفلامنا ؟ .

الواقع أننا نحن الذين يغرقنا الغرب بمؤلفاته وأفلامه ومجلاته . وإلا فما معنى تبادل الأساتذة : البديل الوحيد هو القادم من الغرب ، ولا بديل له فالغرب الآن فى مواضع السيطرة ، ولذلك فإنه يفرض ثقافته فرضاً . ولذلك يجب علينا أن نحتاط أشد الحيطة فلا نتقبل كل ما يقدمه لنا بل نختار كل ما يزيد شخصيتنا قوة . والموقف اليوم هو أن للغرب خطة مرسومة فى هذا التبادل . فهو لا يقدم لنا خير ما عنده ، ولكنه يقدم لنا أفلاماً وكتباً قد وضعها على نحو خاص ليقدمها لنا ، يستهدف بها إما إعلاء شأن ثقافته وإبطاله وتاريخه . أو هدم مقوماتنا ، وخاصة الأخلاقية . ونشر سموم الإلحاد والإباحية . والدعاة إلى التبادل الثقافى هم دائماً من رجال التغريب ، وهم يفهمون الغرض الذى يرمون إليه ، ولا يكشفون عنه بل يقولون : نحن أعطينا الغرب فى الماضى ، ولا بد أن نأخذ منه فى الحاضر .

ومن حق أن يقال : إننا أعطينا الغرب ، ولكن هل أخذ الغرب منا إلا ما رآه مناسباً له دافعاً له إلى القوة والنهضة ، لقد تخير الغرب فى النقل والاقتباس والترجمة . بل لم يقف أمره عند هذا . لقد صبغ كل ما نقله وأعطاه طابعه وشخصيته وصهره فى بوتقته . وكان حقاً علينا أن ننتفع بهذا الدرس وأن نطبقه .

إن أصدق نظرة إلى التبادل الثقافي تحتم علينا أن نضع قيمنا موضع الأساس . ثم نتقبل على ضوءها ما يقدمه الغرب من ثقافته . على أن تظل ذاتيتنا موضع القوة .

أما القول بعالمية الثقافة فإن ذلك من مؤامرات التغريب بالنسبة للعـالم الإسلامي . وهو في موضع التخلف ، والوقوع تحت السيطرة الاستعمارية ، ويمكن أن يقال بعالمية الثقافة بين الثقافات القوية كالأمريكيين والأوربيين ، أما بالنسبة لنا فإن الأمر يجعلنا منصهرين في بوتقة الأممية مما يفقدنا ذاتيتنا وشخصيتنا ، وهو ما تسعى إليه حركات التبشير والاستشراق والتغريب جميعاً ، ويقول البعض : (إن جميع الثقافات تتلاقح ، ولا تكف عن الاقتباس العقيم من الأمم ، وهو قول له ظاهر الحق ، ولكنه في حاجة إلى تحديد وتعمق . فما هي حدود الاقتباس ، أن هناك مجالين : مجال القيم ، ومجال الثقافة أما في مجال العلم فلا شك في القول بعالميتها وسلامة الاقتباس منها . أما في مجال الثقافة المتصلة بالمزاج ، والذات ، والشخصية ، والقيم المختلفة فإن الاقتباس فيها إنما يجرى بتحفظ وتحرز شديدين ، وما ينقل يجب أن يصاغ في صورة ملائمة ، ولا بد أن يذوب في ثقافة الأمة فيضاف إليها كعامل قوة ، ينصهر في أعماقها ويتشكل بها ، لا أن يحولها ويخرجها من صورتها وطابعها . إن أي أمة تقتبس ثقافة أمة أخرى لا بد أن تتخلى عن ثقافتها ، ولو في حدود الحيز الذي تشغله الثقافة الجديدة ، وهي بالطبع ستتخلى بهذا القدر عن شخصيتها وذاتيتها ، ومن ثم فهي لن تكون الأمة الأصيلة ، ولا الأمة البديلة ، بل ستكون شيئاً آخر مضطرباً مهزوزاً ، وهو ما يطلق عليه (الأممية) .

• • •

الفصل الرابع
التبشير واللغة العربية

وجه التبشير إلى اللغة العربية حملة ضخمة . قوامها حقيقة أساسية : هي أن القضاء على القرآن مصدر الإسلام وقانونه الإسلامى . يتطلب القضاء على اللغة الفصحى . ولما كان التبشير والنفوذ الاستعمارى لا يستطيعا أن يكشفا هذه الحقيقة صراحة . فإنهما قد أخفياها وراء كل خطوة اتخذاها بشأن الدعوة إلى العامية ، أو مهاجمة اللغة العربية وانتقاصها أو الدعوة إلى الكتابة بالحروف اللاتينية .

وتكشف جميع النصوص من أن هذا الغرض الدفين الذى بين أيدينا واضح فى عقل وتدبير كل من تصدى لهذا الغرض . ويبدو خطر الدعوة إلى تحطيم اللغة العربية واضحاً حينما نرى أن عدداً كبيراً من المبشرين ، والمستشرقين قد تصدوا للكتابة فى هذا الموضوع . وأقاموا من أنفسهم خداماً لهذه الغاية . لا يرون بأساً فى التخفى وتغيير شخصياتهم فى سبيل تحقيق ما يريدون حتى أن (ولهلم سبيتا) أول الدعاه إلى العامية دار الكتب بالقاهرة ، يختار أن يعيش فى حى وطنى . (لكى يستقى العامية من منابعها الأصلية ولا يدون إلا ما يسمعه . ثم يدون ما يسمعه بإذنه على كم قميصه خوفاً من أن يلاحظه أحد المتكلمين . فيفقد طبيعته وحريته فى الكلام) .

وقد شغل عدد من هؤلاء الأجانب بأمر العامية ، واهتموا بها وألفوا عنها وفى مقدمتهم فى مصر : ولهلم سبيتا . وكارل فولرس وسلدن ولمور ، ووليم ويلكوكس وقد بدأ ذلك منه عام ١٨٨٠ . واستمر حتى عام ١٩٢٦ تقريباً .

وفى خلال ذلك كان لطفى السيد وقاسم أمين وسلامة موسى . قد حملوا

هذه الدعوة . ثم اتصل ذلك بالدعوة التى دعاها عبد العزيز فهمى عام ١٩٤١، عندما نادى بالكتابة بالحروف اللاتينية . هذا فى مصر . وأما فى المغرب فقد تولى لواء كولان ومن بعده ماسينون . لواء هذه الدعوة وفى لبنان ظهر كثير من الدعاة إلى الحروف اللاتينية والعامية اللبنانية ، وقد كان هدف هذه الدعوة التى حمل لوائها التبشير أساساً لخدمة مخطط السيطرة الاستعمارية الثقافية . إنما يرمى إلى تمزيق اللسان العربى فى العالم الإسلامى كله . وليس العربى وحده ، والقضاء على لغة القرآن كلية ، بإحلال اللهجات العامية محل اللغة الفصحى فى كل قطر وبذلك ينفرط عقد الوحدة الجامعة . التى يكون قوامها هذا الكتاب المنزل ، والذى حفظ وحدة اللغة العربية طوال أربعة عشر قرناً .

ويؤكد الباحثون على أن اهتمام الأجانب بالعامية (لم يكن من أجل البحث العلمى . ولا من أجل حاجتهم إلى معرفة لهجات البلاد العربية التى تقتضى مصالحهم أن يعيشوا فيها ، ويتعاملوا مع أهلها ، وإنما هو من أجل القضاء على العربية الفصحى ، وإحلال العامية محلها) .

ومن الواضح أن هؤلاء الأجانب من المبشرين هم الذين وضعوا فى مؤلفاتهم هذه الخطة الكاملة ، التى ما زال يستقى منها كل دعاة الشعوبية والتغريب وأتباع المستشرقين والمبشرين من ادعاءات حول ما يصفونه بصعوبة اللغة العربية ، وصعوبة الحروف العربية ، واتهام اللغة العربية بأنها لا تستطيع مجاراة العلوم الحديثة ، وما يطلق عليه اسم الفوارق الواضحة بين لغة الحديث ولغة الكتابة .

ولقد يدهش بعض البسطاء لاهتمام الاستعمار والنفوذ الأجنبى باللغة العربية بغية القضاء عليها ، ولو علموا مكان اللغة العربية من الإسلام والثقافة وكيان الأمم لما دهشوا ، فاللغة هى روح الأمة ومزاجها ، وهى ينبوع ما عند الأمة من المزاج الخلقى والشعور النفسى ، ولا تفكر الأمة إلا بلغتها ،

(١) كتاب تاريخ الدعوة إلى العامية .

فالرابطة بين الفكر وبين اللغة دقيق وخطير . ولذلك فإن القضاء على اللغة أو تهديمها ، إنما يراد به القضاء على روح الأمة وإفساده .

وفى هذا يقول المازنى : (إن الإنسان لا يستطيع أن يفكر إلا بالألفاظ . فهى وحدها أداة التفكير . فلا سبيل إليه بدونها . ومن المستحيل أن تتمثل معنى مجرداً عن ألفاظ معينة . ولكل لغة أساليبها وطرائقها . فأساليب التفكير . وطريقة التصور خاضعة للأساليب التى يتألف على مقتضاها الكلام فى اللغات المختلفة . ومن هنا يتفق ويتشابه أبناء كل لغة . ويختلفون عن أبناء كل لغة أخرى . وهذا فرق بين الإنجليزى والفرنسى . وما بين الإنجليزى والهندى) .

وتمتاز اللغة العربية فى هذا المجال عن اللغات الأخرى بأن لها كتاب هو رسالة السماء إلى المسلمين ، ومن هنا فهى تترابط بعد الجماعة العربية التى تتكلمها . بجماعة أخرى تزيد خمسة أضعاف من المسلمين الذين يجدون فى هذا الكتاب لغة دينهم ولغة ثقافتهم ، ومن هنا فقد أصبح للغة العربية بهذا الوضع مكان فريد وخطير كان على الاستعمار أن يواجهه بحسم ، فحيث يذهب الإسلام تذهب اللغة العربية ، ومن هنا فقد عمد الاستعمار إلى تجميد اللغة العربية فى مختلف بلاد العالم الإسلامى التى سيطر عليها . وأعان لغته الأجنبية على السيطرة ، كما خلق من اللغات المحلية . قوى يركز عليها لمحاربة اللغة العربية . ومن هنا وفى سبيل إقصاء القرآن عن ثقافات الأمم المسلمة سيطر النفوذ الأجنبى على وسائل التعليم . وأدارها بلغته التى أصبحت هى اللغة الأولى فى كل قطر محتل وجرى تجميد المعاهد الإسلامية الخالصة كالأزهر والقرويين والزيتونة . وقد أشار المبشر الأكبر (زويمر) ، إلى خطورة اللغة العربية حين قال :

(إن اللغة العربية هى الرباط الوثيق الذى يجمع ملايين المسلمين على اختلاف أجناسهم ولغاتهم) ، وكان هذا إشارة إلى ضرورة العمل على هدم اللغة العربية الفصحى التى هى لغة القرآن .

وهذا هو المعنى الذى تلفت إليه المرحوم مصطفى صادق الرافعى فى حملته على (لطفى السيد) ودعاة التسوية بين العامية والفصحى ، فقد كان الرافعى

يعرف أن الهدف من ذلك هو إحلال لغة وسطى بسيطة قريبة من العامية ، لتكون لغة الكتابة . وبذلك يبتعد المسلمون عن لغة القرآن البليغة ، ويصبحون عاجزين عن فهم القرآن أو التعامل معه . وهذا هو ما يهدف إليه الاستعمار .

° ° °

ومن أخطر دعوات التبشير والتغريب تلك الدعوة ، التي تتحدث كثيراً عن الأدب الشعبي والفلكلور ، ولا يفهم سر الإلحاح في هذه الدعوة إلا حين نرى حيرة سبيتا وفولرس وولمور وويلكوس في البحث عن ثقافة شعبية . يريدون إسنادها إلى اللهجات العامية . وبذلك يستطيعون أن يقولوا أنها لغة وشرط اللغة أن تكون لها ثقافة ، ومن هنا عمدوا جميعاً إلى جمع المواويل والأزجال . وقد جرت هذه الدعوة . في الوقت الذي كان (دنلوب) يستولى فيه على مقاليد التعليم في مصر . ويضع النظام الذي يجرى به تغليب العامية والإنجليزية ، وحين فرض دنلوب تعليم العلوم كلها بالإنجليزية واحتقر دراسة العربية وكل ما يتصل بها ثم جاء سلدن ولمور بعد الاحتلال . فأضاف إلى (دعوة من سبقوه إلى العامية) : العمل على كتابة العامية بالحروف اللاتينية . وآزرت مجلة المقتطف والجماعة من خريجي الإرساليات . والمعاهد الأجنبية هذه الدعوة ، ورددوا آراء هؤلاء التي تتلخص في إثارة الشبهات عن الخلاف بين لغة الكلام ولغة الكتابة . وضرورة إحلال اللغة الأجنبية في التعليم . نتيجة الارتباط بالدول الأوربية .

وكان سعد زغلول أول ناظر (للمعارف العمومية) ، وهو أكبر دعاة بقاء اللغة الإنجليزية لغة عامة للتعليم . وقد استطاع به الاستعمار والنفوذ الأجنبي أن ينقل السهام الموجهة إلى كرومر ، وإلى دنلوب إلى قلب وزير مصرى عربي . هو الذي يحمل لواء الدفاع عن بقاء اللغة الإنجليزية وإبعاد اللغة العربية

قال سعد زغلول . إن الحكومة لم تقرر التعليم باللغة الأجنبية لمحض رغبتها أو اتباعها لشهوتها ، ولكنها فعلت ذلك مراعاة لمصلحة الأمة ؛ إن مركز الأمة من الأمم الأخرى واحتلالها بالأجانب ، واشتباك المصالح الأجنبية بالمصالح الوطنية . كل ذلك أوجب تعليم العلوم باللغة الإنجليزية لكي يتقوى بها

التلاميذ . ويمكنهم أن يستفيدوا ويفيدوا بلادهم ، ويقدموا على الدخول مع الأجانب فى معترك الحياة . وقال إن الذين يتعلمون باللغة العربية لا يمكن أن يوظفوا فى الجمارك أو الوسيطة أو المحاكم المختلطة) . وقد واجهت سعد زغلول . حملات عنيفة . لأنه إنما كان يقول بلسان عربى ما كان يقوله كرومر فى تقاريره . وما يحاول الاستعمار فرضه على مصر وقد أشار الشيخ على يوسف صاحب المؤيد إلى مدى الخطر فى التعليم باللغة الإنجليزية . وكيف أنه يؤدى إلى حصر العلم فى طبقة ضيقة جداً من الأمة . ويقلل الأساتذة الأكفاء ، ويلاشى القدرة العلمية والفنية التى بلغة البلاد . بل ويميت هذه اللغة شيئاً فشيئاً وقال :

إن التعليم بلغة الأمة ينقل العلوم بكليتها بخلاف التعليم باللغة الأجنبية فإنه ينقل أفراد المتعلمين فقط من الأمة لهذه العلوم . وإذا كان بالعلم حياة الأمة فهو لا يحييها إلا إذا ذاب فى جسمها ، كالدم فى الشرايين وكشف مصطفى كامل مخطط التبشير والتغريب حين قال :

لما طلب اللورد كرومر تعيين سعد زغلول ناظراً للمعارف . حدثت فى مصر دهشة ورجاء وتساءل الناس ، لأى غرض اختار المعتمد البريطانى هذا القاضى لأكبر وأهم النظارات ، أهو الإصلاح شأن المعارف وترقيتها مرضاة للأمة ، أو هو لمحض خدمة السياسة الإنجليزية . على أن كثيرين من الناس كانوا يحسنون الظن بسعد باشا وبصدق أمياله ونياته .

وأشار مصطفى كامل إلى دفاع سعد زغلول عن اللغة الإنجليزية فى التعليم المصرى ثم قال . يدهشنا من هذا الرجل جرأته على التأكيد فى تعليم العلوم باللغات الأجنبية . أن الناس قد فهموا الآن بأوضح مما كانوا يفهمون . لماذا اختار اللورد كرومر لوزارة المعارف صهر رئيس الوزارة الأمين على وحيه الخادم لسياسته ، وفهموا أيضاً لماذا قامت الصحف الإنجليزية والصحف المتحزبة للانجليز . وذرت الرماد فى العيون قائلة إن الوزير الجديد هو من الحزب الوطنى ، وعرف الناس الآن لأى غرض اختار كرومر لإدارة المعارف الأهلية رجلا لم يدخل فى حياته مدرسة ولا علم تلميذاً . ولا عنى

مطلقاً بدرس شيء من مسائل التعلم والتربية إنه قد يمكن للمرأ أن يكون محامياً عظيما . وقاضياً فاضلا . ولكن لا يرام من هذا أن يكون أهلا لإدارة شئون تربية الشبيبة وتعليمها . أن سعد باشا قد فشل فشلا عظيما فى الجمعية العمومية ولو كان وزيراً أوربياً يتكلم أمام البرلمان لكان قد استقال من المجلس . ولكنه وزير فى مصر يعتقد أن ثقة اللورد كرومر به كافية وحدها لحمايته .

إن سعد باشا يخطىء بهذا الاعتقاد كل الخطأ فهو كلما اعتمد على هذه الثقة . فقد ثقة بلاده وتأييدها له . وأن كل التفات اللورد كرومر وإحسانه ولطفه لا يمكن أن يمحو فشلا ، كذلك الفشل الذى روى خبره فى كل أنحاء مصر ، إلا أن الذين كانوا يحترمون الوزير كقاضى ليأسفون على حاضره كل الأسف ، وليخافون على مستقبله كل الخوف ! (ونقول : من الحق أن يقال إنه مستقبله ظهر بعد ذلك فى زعامة شاملة للبلاد حيث توارى مصطفى كامل ومحمد فريد والحزب الوطنى) .

وقد أشار إلى هذا الخطر مستر بلنت فى تقريره الذى نشره اللواء(١) :

يظهر لمن يتحقق فى شئون مصر أن اللورد كرومر . وضع قانوناً لسياسة التعليم ، وقرر فى هذا القانون أن لا يتعلم النشء المصرى الحديث إلا لغة إنجلترا وكل ما كان مخالفاً للدين الإسلامى . وإلا فليبق هذا النشء بغير علم على الإطلاق . ولذا رأينا على رأس المعارف فى مصر المستر دنلوب ، وهو رجل إنجليزى ذو شهرة سيئة لأنه عدو للمسلمين . وعدو للغة العربية ويساعده فى عمله رجل أرمنى مسيحى اسمه يعقوب أرتين . وهو بلا ريب عمل مشين ، وقبيح فى بلاد إسلامية .

وإذا أراد المصريون أن ينالوا استقلالهم ويحرروا وطنهم ، فعليهم الاحتفاظ بما احتفظت به كل أمة مهضومة وهو الدين واللغة ، فإن الأمة التى تقبل لغة الغالب الفاتح تسجل على نفسها الذل والطاعة العمياء . والأمة التى تقبل دين من اغتصب بلادها تخون شرفها الوطنى . وأنا أنصح للمصريين أن لا يسمعوا

---

(١) ١٣ مارس عام ١٩٠٧ .

إلى أقوال بعض الصحف الفرنسية فى القاهرة ، التى تقول أن التعليم إذا كان وطنياً فلا ينبغى أن يكون دينياً على الإطلاق ، وأشير على مصر بأن لا تضيق على نفسها نطاق التعليم ، فإن الإسلام دين حق تام ولا يعرف حداً يقف عنده فى سبيل التقدم الحقيقى . ويمكن لمن يعرفه معرفة جيدة أن يصل إلى أسمى درجات المدنية الحديثة ، ولحل أغوص المسائل العلمية الكبرى) .

* * *

ولعل أخطر ما تحمله خطة التبشير بالنسبة للغة العربية ، هو ما حاول ويلكوكس أن يدعو إليه . حين قال إن العامية فى مصر هى لغة خاصة مستقلة عن اللغة العربية ، فقد نشر عام ١٩٢٦ رسالة بعنوان (سوريا ومصر وشمال إفريقيا ومالطة تتكلم البونية لا العربية) . زعم فيها أن اللغة التى يتعلمها الناس من حلب إلى مراكش بما فى ذلك مالطة هى اللغة الكنعانية أو الفينيقية أو البونية ، كما زعم أن اللغة البونية التى هى أساس لغة الحديث عندنا لا صلة لها باللغة العربية الفصحى ، فقد دخلت مصر قبل أن تدخلها الفصحى بألف سنة ، وأنها انحدرت إليها من الهكسوس)(١) . وهذه محاولة جريئة ومبطلة للقول بأن اللهجة العامية هى لغة قائمة بذاتها وأنها كانت موجودة قبل الإسلام . والهدف من هذا هو تأصيل الدعوة إلى العامية فى محاولة لإحلالها محل لغة الكتابة . حيث يردد هؤلاء جميعاً العلاقة بين العامية والعربية ويقارنونها باللغة اللاتينية ، واللغات الأوربية الحديثة ، وهى مقارنة باطلة ومضللة وقد رددنا على هذه الاتهامات فى كتابنا (الفصحى لغة القرآن) .

والمعروف أن ويلكوكس كان من أكبر دعاة العامية ، وأنه ترجم الإنجيل بالعامية كما ترجم بعض قطع لشكسبير ، وقد وجدت هذه المترجمات ازدراءاً ، واحتقاراً كبيرين ، ولم يتقبلها أحد كما أجرى هؤلاء الأربعة (سبيتا فولرس ، ولمور ، ويلكوكس) محاولات متعددة للدفاع عن العامية ، وذلك بادعاء القول بأن لها قواعد محددة وكان الهدف واضحاً من هذه الحملات المتوالية التى بدأت عام (١٨٧٠ – واستمرت إلى عام ١٩٧٦)

---

(١) زيادة التفاصيل (راجع كتاب تاريخ الدعوة العامية) .

هو ليس فقط كما يقول بعض الباحثين الذين لم ينظروا إلى الأمور نظرة عميقة : (إن الهدف هو فصل المسلمين والعرب عن ماضيهم وتفتيت وحدتهم اللغوية بالقضاء على العربية الفصحى) . ليس هذا فقط بل إن الهدف أكبر من ذلك ، وأخطر وهو السر المكتوم فى حنايا الصدور :

القضاء على لغة القرآن وإحلال لهجات تصبح لغات . فينطوى كتاب الإسلام الأكبر ويفقد خاصيته الكبرى وهى وحدة الفكر بين المسلمين .

ومن خلال هذه المخططات التى رسمها للتبشير والاستشراق ؛ انبثقت دعوات لطفى السيد وسلامة موسى وعبد العزيز فهمى فى مصر وغيرهم فى لبنان (اسكندر المعلوف والخورى مارون غصن) ، وما تزال كتابات دعاة العامية فى مصر والعالم العربى إلى اليوم تستمد مصادرها وهجومها . على الفصحى من هذه الكتابات .

وكذلك فعل التبشير والاستشراق فى كل جوانب الفكر الإسلامى هذا الفعل ، فأعد ركيزة أساسية بأقلام رجاله وترك لتابعيه ، وخدامه الانتفاع بها وترديدها ولقد قرأت فى الأعوام الأخيرة رسالة ألقيت فى أحد المؤتمرات الغربية عن العامية ، لا تكاد تخرج فى مضمونها عن كلام ويلمور وويلكوكس وإن كانت بحروف عربية وبتوقيع اسم عربى .

وقد واجهت هذه الحملة ردود فعل قوية وكتب الكثيرون ، يفندون آراء لطفى السيد ورد عليه مصطفى صادق الرافعى وعبد الرحمن البرقوقى ، وفند الدكتور أحمد الحوفى آراء سلامة موسى وفند عبد الوهاب عزام ، وكثيرون آراء عبد العزيز فهمى ، وما يزال يردد هذه الدعوة بعض التغريبيين فى هذا الجيل من أمثال : ميخائيل نعيمه ولويس عوض وسعيد عقل وسوف لا يكون رجاءهم بأكثر من رجاء من سبقوهم .

• • •

الفصل الخامس

أثر التبشير فى الثقافة العربية والتراث

لم يقف أثر التبشير عند ميدان واحد ، بل عمد إلى التأثير فى جميع الميادين ، وكان أبرز هذه الميادين ، ميدان التأليف فقد استطاعت معاهد الإرساليات التبشيرية ، التى تعمل فى العالم الإسلامى منذ مائة عام تقريباً ، أن تحقق نتائج ضخمة فى هذا المجال ، وأن تقدم مؤلفات وكتب تعد الآن (ركائز عامة) فى مختلف فنون البحث العلمى والأدبى والتاريخى .

* * *

هذه المؤلفات الأمهات هى الآن مراجع سهلة ، ومصادر أساسية فى يد أساتذة الجامعات والمدرسين فى مختلف أنحاء البلاد ، يرجعون إليها ويجدون فيها حاجتهم دون أن يجهدوا أنفسهم فى سبيل البحث ، وفى مقدمة هذه المؤلفات : الأدب العربى لبروكلمان ، ودائرة المعارف الإسلامية التى ألفها مجموعة من المبشرين المتعصبين ضد الإسلام والقرآن وقاموس الموسوعة العربية (فرانكلين) ، وتاريخ الآداب العربية للأب لويس شيخو . والتمدن الإسلامى لجرجى زيدان . وعشرات من المؤلفات التى تضم آراء فرح أنطون ، وشبلى شميل . وولى الدين يكن ولطفى السيد وطه حسين وسلامة موسى وعلى عبد الرازق . أما الكتب التى تدرس فى الجامعات . والمعاهد التابعة للإرساليات التبشيرية فإنها تفوق الحصر . بالإضافة إلى عشرات أخرى تظهر من حين وحين وتتداولها الأيدى .

ولقد حاول كتابنا ومفكرونا طوال الأعوام الخمسين الماضية . متابعة هذه الكتب واستعراضها والرد عليها وكان أكثر المشغولين بهذا العمل : فريد وجدى وشكيب أرسلان وزكى على وهى فى مجموعها كتب لا تخضع للبحث العلمى . وإنما هى حملات من الحقد والاتهامات ومجموعة من الألفاظ

النابية ، ومحاولة لوصف الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين والقرآن بأوصاف بعيدة عن الحقيقة . وهدف هذه المؤلفات تشويه الإسلام والمسلمين بغية توهينهم وأضعاف وحدتهم ، وإثارة الشبهات فى تاريخهم وفكرهم وخلق النزعات الشعوبية التى تفرقهم ، وتقضى على وحدتهم » .

والجهاز التبشير مؤلفات وكتاب . هؤلاء واضح غرضهم . ولذلك فإن كتاباتهم تسقط فى نظر القارىء المنصف . غير أن التبشير استعان بجماعة من الكتاب الاستعماريين الذين زاروا العالم الإسلامى بروح الاستعلاء والعصبية ونظروا إليه بروح الرجل الأبيض ممدن العالم فهاجموه ؛ فاستغل التبشير كتابات مثل هؤلاء الكتاب . كما انتفع بكتابات المستشرقين ، واستغل تناقضاتهم وقصورهم فى فهم بعض النصوص ، واستهدف آراء التابعين منهم لوزارات الاستعمار وهى آراء مغرضة سلفاً . وقد حمل هذا كله إلى العالم الإسلامى وأذاعه بأسلوب وأسلوب ، وفى مخطط نفسى دقيق ، وعلى مراحل فأثار به حملة ضخمة من الطعن فى الإسلام والقرآن تشوه صورتهما فى نفوس الناس ، وتخلق تياراً من الاستهانة والاستخفاف والكراهية له بين أهله .

ويمكن القول بأن دوائر المستشرقين إنما تمثل المصنع ، حيث تمثل دوائر المبشرين (السوق) التى تعرض البضاعة وتذيعها وتعلن عنها وتعاود التذكير بها فى كل مناسبة ، وفى مقدمة كتابها : نلسن وهنرى جب وفردريك بلس وليفونيان وهاربر ولا فيجرى ويوليوس رشتر وماسينون .

وقد أحدثت هذه المؤلفات أثراً بعيداً فى تغيير مناهج الأدب العربى والفكر الإسلامى بما حاولت إثارته من شبهات حول بعض الحقائق الأساسية . ففى مجال التشريع الإسلامى تجرى مضاربته بالتشريع الرومانى ، واتهامه بأنه تابع له وفى مجال الأدب تجرى المقارنة بينه وبين الأدب اليونانى ، بهدف انتقاصه فى مجال الأسطورة المسرحية .

ومن أمثلة اعتماد الكاتبين باللغة العربية على كتب المبشرين ، ما افتضح سره عندما أصدر الدكتور طه حسين كتابه (فى الشعر الجاهلى) وما حمله من آراء حول إبراهيم وإسماعيل عندما أراد المؤلف إنكار القرآن والتوراة

وقال : إن ورود اسميهما فى القرآن والتوراة لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى) .

فقد تبين أن هذه الآراء منقولة من كتاب للمبشرين طبعته فى القاهرة (مطبعة النيل المسيحية) اسمه : ذيل مقالة فى الإسلام باسم رمزى هو : هاشم العربى وهو كتاب مطبوع للمرة السادسة سنة ١٩٢٥ ، وهو العام الذى كتب فيه طه حسين كتابه وأقدم طبعه لهذا الكتاب عام ١٨٩١ .

وهكذا خلق طه حسين هذه البادرة فى اتخاذ كتب المبشرين مصدراً للأدب العربى . ونجد كثيراً مما أورده بروكلمان ومرجليوث وغيره عن الإسلام ، مسبوقاً فى كتب لويس شيخو وجرجى زيدان فى الأدب العربى . وهما الكتابان اللذان اعتمد عليهما معظم الباحثين فى الشام ومصر منذ ذلك الوقت البعيد عام ١٩١٠ وما بعدها . ويتصل بهذا عدد من المؤلفات التى نشرها المبشرون فى بيروت عن الأدب العربى . وقصد بها إخراج الأدب العربى عن روحه الإسلامية وتعزيز روحه الجاهلية .

وفى القاهرة وإلى عهد غير بعيد كانت المدارس الإيطالية ومدارس الفرير . تدرس كتباً مثل كتاب (غاية الأدب فى لغة العرب) ، وهو كتاب موضوع لتعلم اللغة العربية . ومن نماذج ما جاء به من إساءة للإسلام والعرب ما جاء فى صفحة ٢٨١ حيث يقول (وبالجملة يمكننا القول بأنه حيثما حل العرب . أكرهوا شعوب تلك البلاد على اعتناق الدين الإسلامى . فكان الفضل الأعظم فى هذا الانتشار العظيم راجعاً إلى السيف لا إلى الحجة والبرهان، على حد قول شاعرهم أبى الطيب المتنبى :

(المجد للسيف ليس المجد للقلم)

ومسألة الإسلام والسيف هى من هذه الاتهامات الكبرى ، التى رددها المبشرون وأكثروا من ترديدها : وذلك بالإضافة إلى عشرات الموضوعات والشبهات التى لا يتوقف ترديدها وأهمها إنكار فضل المسلمين فى الأدب والفلسفة والهجوم على اللغة العربية والدعوة إلى العامية ، واتهام القرآن بالوضع وبأنه مجموعة من آراء الكتب المقدسة السابقة عليه ، وإثارة الشبهات حول

بعض النصوص وإعلاء الروايات الضعيفة . ومحاولة جهل المؤلفات التي وضعت للترف مصادر أساسية للبحث كالأغاني وألف ليلة .

والواقع أن المجال الثقافي يعد الوسيلة الكبرى الثانية للتبشير بعد مجال التعليم . وقد ركز المبشرون شبهاتهم في قضايا كثيرة . ونثروها في عديد من المؤلفات . وخاصة دائرة المعارف الإسلامية التي أشرف على إصدارها فنسنك وليفي بروفنسال وشاخت وهاتمان وجميعهم من المبشرين اللابسين طيالسة العلماء فحيث تتحرك في مواد هذه الموسوعة . تجد السموم والشبهات مثارة على نحو أو آخر .

وفي مادة (أصول) مثلا التي كتبها (شاخت) يحاول أن ينسب إلى القرآن الخطأ . واتهام الرسول بالنسيان ووجود المتناقضات ، واتهام الرسول بأنه لم يكن يقصد إلى خلق نظام يضبط به حياة أتباعه . بل ظل القانون العرفي العربي القديم يسير في الإسلام سيره الطبيعي ، وهذا كله خطأ مقصود وليس نقصاً في الفهم ، أو عجزاً من الباحثين وإنما هي جرأة هادفة إلى رسم صورة مضللة منحرفة للإسلام أمام قراء دائرة المعارف الذين يعدون في معاهد التبشير والاستشراق للعمل في العالم الإسلامي .

كما ضم قاموس المنجد دسائس كبيرة . أريد بها إدخال عبارات جديدة غير عربية أصلا ، وتفسير بعض الاصطلاحات تفسيراً مختلفاً عن تاريخ الكلمات الأساسي . بل بعض المصطلحات الإسلامية قد فسرت تفسيراً خاطئاً . وقد قدم كثير من الباحثين مراجعات هامة في هذا الصدد في مقدمتها ما كتبه العلامة عبد الله كنون .

ومن أهم القضايا التي ركز عليها التبشير في مجال الثقافة :

١ — الدعوات القومية والإقليمية في مواجهة الوحدة الإسلامية .

والاهتمام بدعوات الفرعونية والفينيقية والبربرية ودعوة البحر الأبيض المتوسط .

وقد أشاد زويمر بروح القوميات وحرض زملائه وتلاميذه على اتخاذها

وسيلة للقضاء على الإسلام حين قال فى كتابه (الإسلام : ماضيه . حاضره . مستقبله) :

إن أول ما يجب عمله للقضاء على الإسلام هو إيجاد القوميات .

وقد أشاد بالتطورات التى حدثت بعد سقوط الخلافة الإسلامية ، واتجاه المسلمين إلى الإعلاء من شأن أسمائهم الوطنية على اسمهم الإسلامى ، كما ركز على الدعوة الدائمة على مقاومة التعليم الدينى فى برامج التعليم . وعلى إقامة الثورة ضد كل ما هو مأثور وقديم (مؤتمر التبشير عام ١٩٢٤) .

وأولى اهتمامه لقضية تحرير المرأة . على أنها الوسيلة إلى إخراج المرأة المسلمة من دينها وقيمها حيث يقصر المسلمون – على حد قوله – فى الموازنة بين تعليم المرأة ، ومشاركتها فى الحياة العامة ، وبين إعدادها إسلامياً لمواجهة أخطار الاختلاط ، والمجتمع والمحافظة على شخصيتها سليمة أمام تيارات الإباحة الزاحفة .

ومن أهم ما عنى به المبشرون : التركيز على جوانب الإباحة فى المجتمع . والإلحاد فى الفكر ويقول فى هذا زويمر : إن هدم الإسلام فى نفوس المسلمين له أهمية كبرى فى شىء واحد هو قبول الفكر الغربى كصديق (دولى) . وهذا يعنى أن إبعاد القيم الإسلامية عن مجال الثقافة يبعد من النفس المسلمة عناصر المقاومة للاستعمار ويخلق بدلا منها روح الولاء والصداقة والتقبل للنفوذ الأجنبى .

ورحب كثيراً بما يسمونه : (اكتساح الأفكار العصرية والحضارة الإفرنجية) للمسلمين ، ويرون أن فى ذلك قضاء نهائياً على مقومات الإسلام . وهذا ما يدفع اليقظين من مفكرى الإسلام إلى الإلحاح دوماً ، على التفرقة بين الحضارة والثقافة وبين العلم والثقافة وبين الفلسفة والثقافة . فنحن المسلمين والعرب نتقبل من الغرب جوانب القوة من حضارته ، ونتقبل العلم بحسبانه عالمياً ولكننا لا نعتنق ثقافات الغرب ، إيماناً منا بأن الثقافة قومية منبثقة من أمزجة الأمم وأرواحها وضمائرها وقيمها الأساسية ، ولذلك فإن الغرب نفسه عندما مر بهذه التجربة حين نقل الفكر الإسلامى فى أوائل عصر النهضة ،

تقبل الحقائق العلمية وحدها ورفض الطابع الإسلامي وأحل بدلا منه طابعه الغربي .

وقد أجرى المبشرون حول هذه النقطة بالذات أبحاثاً طويلة وحاولوا فرض نظرية خاطئة هي أن على المسلمين والعرب أن يتقبلوا الحضارة متصلة بثقافتها غير منفصلة عنها . (خيرها وشرها وحلوها ومرها) ، كما أشار إلى ذلك طه حسين في مصر ، وأحمد أغايف في تركيا ، وقد أثبتت التجربة كذب هذه النظرية وتضليلها ، وقد رفضها الفكر الإسلامي كما عارضتها الثقافة العربية ، استمداداً من قيمها الأساسية التي كانت دائماً قادرة على التقبل من ثقافات الأمم وحضاراتها بالقدر الذي يتفق مع طابعها ومزاجها ورفض ما سوى ذلك ، وقد تساءل زويمر على سبيل التشكيك . كما تساءل المبشرون وتلاميذهم في كل عصر عما إذا كان في إمكان الإسلام مجاراة تيار الحضارة مع مبادئ القرآن وتعاليمه .

وبالرغم من الأخطار التي واجهها المسلمون في خلال السنوات السبعين الماضية من نفوذ الاستعمار العسكري والسياسي والثقافي ، فإنهم ما زالوا مصممين على الاحتفاظ بقيمهم الأساسية المستمدة من القرآن ، ولا أعتقد أنهم سيضعفوا في الأيام القادمة عن هذا الإصرار ، بل المعتقد أنهم سيكونون أكثر قوة وتصميماً عليه .

(٢) كتب التراث

كان الغزو الثقافي والاستعماري والفكري من أكبر أعمال حركة التبشير بالاشتراك مع حركتي الاستشراق والتغريب ، وهي حركات ثلاث تتلاقى في عمل واحد . أو هي مراحل ثلاث لصورة واحدة ، أو وجوه مختلفة لحقيقة واحدة . هي إقامة ركائز أساسية لاستعمار عقول المسلمين وقلوبهم عن طريق الثقافة والفكر . وفي مجال الدراسات العقلية والروحية . وقد عني المبشرون منذ وقت طويل بترجمة القرآن وترجمة السنة ، والحصول على عشرات الألوف من كتب التراث الإسلامي التي تملأ الآن جامعات أوربا وأمريكا ، حيث تبلغ فهارس المخطوطات العربية في مكتبة برلين وحدها حتى عام ١٩٣٠ ما يملأ عشرة مجلدات ضخمة . ومثلها في روما . وميلانو

والأسكوريال فى مدريد والناسيونال فى باريس والمتحف البريطانى فى لندن ومكتبات فينا وبرلين وليدن وموسكو .

وقد بدأ العمل فى التراث الإسلامى برأى مسبق وغرض مبيت هو استغلال الشبهات والآراء المتضاربة والأخطاء فى سبيل ضرب الفكر الإسلامى فى نظر أهله وإثارة الشكوك حوله ، وخلق جو من الاحتقار والكراهية له . ولذلك فقد عكف المبشرون وأعوانهم عن استعراض آراء معينة ما زالوا يرددونها بعد عشرات الأعوام ، ويعيدون ترديدها . وكلها تدور فى دائرة اتهام القرآن بالوضع والرسول بأنه كردينال رومانى والإسلام بأنه مقتبس من المسيحية واليهودية ، وأن الإسلام انتشر بالسيف .

وقد كانت حركة التبشير وحركة الاستشراق جميعاً فى خدمة الاستعمار . ثم برزت حركة التغريب التى تعمل على صياغة الفكر الإسلامى . صياغة غربية تورائية تهدف أساساً إلى انتزاع الإسلام من حقيقته واعتباره ديناً تعبدياً . وإنكار وتجاهل ومحاربة كل رأى يقول : بأنه دين مجتمع ، وأنه جماع للدين والمجتمع ، وأنه نظام حياة ، وذلك هو أخطر هدف يرمى إليه الغزو الثقافى . إبعاد الإسلام عن مجال العمل فى المجتمع ، والدولة . والقانون . والاقتصاد . والسياسة والتربية وإحلال مفاهيم الغرب فى هذه الأمور بدلا منه وفرضها فرضاً ، وهذا ما استطاع الاستعمار أن يحققه خلال فترة الاحتلال الطويلة للعالم الإسلامى . وهو ما تعلو الأصوات الآن إلى النظر فيه روح الأصالة والاستمداد من الشريعة الإسلامية . والقيم الأساسية للفكر الإسلامى المستمدة من القرآن .

ولا شك كان (القرآن) هو أخطر الأصول التى حرص التبشير فى توجيه سهامه إليها . وإبعاده عن مجال التعليم ، والتربية والمجتمع والثقافة جملة . فإذا عرض فى بعض الجامعات عرض على أنه من أساليب البلاغة والبيان : وكان للدكتور طه حسين فى هذا آراء مثيرة . استمدها من كتب المبشرين عندما حاول اتهام القرآن بالوضع . وأنه من صياغة محمد صلى الله عليه وسلم

---

(١) بحث للدكتورة بنت الشاطىء (محاضرات الموسم الثقافى) الكويتية .

وأن له أسلوباً فى مكة يختلف عن أسلوبه فى المدينة . . . إلخ . وقد أورد ذلك الدكتور عبد الحميد سعيد رئيس الشبان المسلمين فى البرلمان قارئاً إياه من كراسة طالب فى كلية الآداب .

٣ ـ أولى المبشرون الاهتمام ببعض الأعلام والشخصيات على أساس :

أولا : الانتقاص والغض من قدر كثير من الشخصيات ذات الفاعلية الهامة فى التاريخ والثقافة أمثال : المعرى ، وابن خلدون ، والغزالى ، والمتنبى . وقد وجه بعض المبشرين انتقادات ظالمة إلى هذه الشخصيات وغيرها ، وتأثر بها كثير من الباحثين الذين يكتبون بالعربية ، أمثال : لويس عوض ، وطه حسين ، وزكى مبارك .

ثانياً : ركز التبشير على الاهتمام بشخصيات أخرى ، وإعلاء قدرها أمثال : أبو نواس ، بشار بن برد ، الحلاج .

ثالثاً : أولى اهتمامه بالدراسات الفلسفية الصوفية ، وإذاعتها رغبة فى أن تكون أفكارها عاملا فى بلبلة أفكار المسلمين ، وإدخال أفكار غير أصيلة عن الإسلام . وقد عنى المبشرون والمستشرقون بالسهروردى وابن عربى ومذاهب وحدة الوجود والحلول والاتحاد ، وهى مذاهب ليست إسلامية أساساً ، وإنما دخلت إلى الفكر الإسلامى من الفلسفات الهندية والفارسية واليونانية القديمة .

ومما اهتمت به هذه الدراسات كتابة بحث مطول عن (مسيلمة) الكذاب . ومن الأسف أن بعض المجلات العربية قد عنيت بترجمة هذا البحث ونشره . وبالطبع أن مجلة (الرابطة الشرقية) التى كان يرأس تحريرها على عبد الرازق ، التى ترجمت البحث ، إنما قصدت إلى هدف محدد فى مخطط التبشير والاستعمار والتغريب .

وبالجملة فإن تشويه الثقافة العربية والفكر الإسلامى كان هدفاً أساسياً

---

(١) راجع تفاصيل ذلك فى كتابنا (اليقظة الإسلامية) وكتابنا (طه حسين فى ميزان الإسلام) .

للتبشير . كوسيلة لحط من شأن العرب والمسلمين فى نفوس أهليهم وقومهم ؛ والمعروف أن القيم الأساسية للفكر الإسلامى . والثقافة الإسلامية هى الوسيلة الأساسية للنهضة واليقظة بين المسلمين . ولذلك فإن مخطط التبشير كان عاملا أساسياً فى الحيلولة دون تحقيق ذلك . وقد استخدم فى هذا السبيل عدداً كبيراً من الكتاب . الذين يكتبون بالعربية وأحاط أسماءهم باللمعان والبريق عن طريق الصحف الكبرى ودور النشر والمنابر البارزة فى الجامعات والجمعيات العالمية الكبرى .

وعلى الجملة فإنه يمكن أن يقال : إن التبشير كمخطط للاستعمار . قد عمد إلى النظر إلى الفكر الإسلامى على أنه (تراث) . بينما هو ليس كذلك فى الحقيقة . فالتراث عبارة لا تزال تعطى معنى القديم المتجمد ، بينما أن الفكر الإسلامى ما زال حياً متفاعلا مع الثقافات العربية والتركية والفارسية والهندية والأندونيسية والإفريقية وغيرها . وإنما استهدف التبشير هذا لكى يوحى بأن الفكر الإسلامى شىء قد وضع على رفوف المتاحف .

وفى مواجهة هذا التراث عمد إلى تحقيق عدة أهداف . يدسها ويدسها كتابة من المبشرين وخلفائهم ممن يكتبون باللغة العربية ، ترمى إلى توهين القيم الإسلامية وتفتيت وحدة الفكر الإسلامى والثقافة العربية . وإثارة الخلافات بين الشعوب الإسلامية والعربية ، ووضع أسفين ضخم بين العرب والترك والفرس والعمل على بعثرة القوى الوطنية فى كل بلد عرفى .

من خلال هذه الأهداف الخفية تبدو الشبهات المثارة . والعبارات التى تحمل طابع العلم وأسلوب البحث الجاد . وهى تدس السموم وتحاول أن تسخر من هذا النص أو ذاك رغبة فى خلق جو نفسى من الشك والاستهانة ؛ وعدم التقدير للقيم والأصول التى قام على أساسها هذا الفكر الإسلامى الشامخ ؛

* * *

الفصل السادس

التبشير والأدب العربي

وجه التبشير حملة ضخمة إلى الأدب والتراث العربي . استمد شبهاتها من كتابات المستشرقين . وعمل على إذاعة أنواع معينة من التراث . والإغضاء عن أنواع وفنون أخرى . وكان من أبرز ما عني به إذاعة وطبع كتابي ألف ليلة والأغاني . وإذاعة شعر منسوب إلى عمر الخيام .

والمعروف أن بعض الكتب القديمة من التراث . قد كتبت في ظروف مختلفة . وقصد بها إلى تزجية الفراغ فجاءت هذه الكتب حافلة بالقصص والفكاهة . وضمت خليطاً من المتعة والتسلية . وحاولت أن تجمع الطرائف . وأحاديث الأندية وروايات الرواة الذين انتشروا في القرن الثالث في أنحاء العالم الإسلامي . وفي عواصمه من القصاص والمداح . هؤلاء الذين ملأوا أجواء الحياة بعشرات الحكايات التي تضمنتها من بعد كتب المحاضرات والأقاصيص . هذه الكتب التي كتبت لغاية خاصة . لا يجوز أن تترك دون تذكير بأنها لا تصلح وحدها كمراجع علمية لدراسة عصر من العصور . أو تصور حالة المجتمع الإسلامي في ضوئها .

وفي مقدمة هذه الكتب : كتاب الأغاني الشهير بأجزائه ومجلداته العديدة . وكتاب ألف ليلة وليلة . وقد كان المفروض أن يوضع هذان الكتابان في مكانهما المعروف . المعزول عن كتب الثقافة والعلوم والأبحاث الجادة لولا تلك المحاولة التي قام بها بعض الناشرين الغربيين الذين جاءوا إلى البلاد العربية منذ منتصف القرن التاسع عشر . واهتموا اهتماماً كبيراً بإذاعة هذين الكتابين ، وإعادة طبعهما بكميات كثيرة . وألوان فاخرة . بالإضافة إلى ذلك الاهتمام الذي وجه إلى الشعر المنسوب إلى العلامة الفلكي الأشهر عمر الخيام .

وقد شكلت هذه الظاهرة فى نظر الباحثين المنصفين بالإضافة إلى اهتمام المبشرين والمستشرقين بشخصيات معينة فى الأدب العربى والتاريخ الإسلامى . وإبرازها والعناية بها . والحملة على شخصيات أخرى وإثارة الشبهات حولها . كل هذا شكل ظاهرة جديدة تحتاج دوماً إلى الكشف عنها والتذكير بها .

فقد كان العرب والمسلمون دوماً فى مراحل اليقظة والنهضة يتحركون فى مجال تجدد فكرهم بحرية مطلقة ودون ضاغط . ولكنهم فى مرحلة اليقظة الحديثة كان النفوذ الاستعمارى قد سيطر على معظم أجزاء العالم الإسلامى والأمة العربية ، ومن هنا فقد حدث نوع من التداخل ، والضغط بالنسبة لما يبتعث من التراث ، وما يترجم من الآداب العربية فلم تكن للفكر الإسلامى حريته المطلقة ، ولا قدرته المحررة فى تقبل ما يجده موافقاً لمجارى فكره ولقيمه الأساسية ، من خلال هذا التحدى . جرى ذلك الضغط على نشر بعض الكتب ، وفى مقدمتها ألف ليلة والأغانى والشعر المنسوب إلى عمر الخيام .

(ألف ليلة)

حاولت حركات التبشير والتغريب التى رافقت النفوذ الغربى والاستعمار . أن تجعل من كتاب ألف ليلة وليلة (وثيقة) لدراسة صورة المجتمع الإسلامى. ولذلك فقد ترجم إلى مختلف اللغات وأثيرت حوله اهتمامات كبرى ، وذلك ضمن المخطط المدروس والمنفذ الذى يشمل الأغانى ورباعيات الخيام ، وغيرها من المؤلفات المملوءة بالصور الإباحية فى محاولة خطيرة لإلقاء ظلال من الشك على سلامة الفكر العربى الإسلامى ، ومحاولة لإثارة هذه الموجة من الشك والإباحة عن طريق بعثها من (تراث) العرب والمسلمين أنفسهم ، ويتميز كتاب ألف ليلة وليلة فى نظرهم بأنه يعطى صورة لمختلف الطبقات فى المجتمع ، ويخلط بين الأمير والصعلوك والتاجر والشرير ، وأنه لا يقف بالصورة عند مجتمع السراة والولاة .

والمعروف أن كتاب ألف ليلة وليلة ليس وثيقة تاريخية ، وليست له مصادر أساسية ، وإنما هو مجموعة من القصص الخيالية ، التى جمعت ورويت

فى ظل اضطراب المجتمع الإسلامى وضعفه ، وقد تولى ترجمته المستشرق الفرنسى غالان عام ١٧٠٤ م . ومن ثم انتشر بصورة مذهلة فى جميع اللغات الأوربية ، وأعيدت طبعاته فى الإنجليزية والألمانية وغيرها .

وكانت الصورة التى أريد فرضها بالباطل من خلال هذا نشر هذا الكتاب ، أن الشرق يعيش فى الحريم والترف والبخور والخمور . وهى الصورة التى أغرت كثيراً من الكتاب الغربيين بالرحلة إلى الشرق . ورددت كلمات الإعجاب والتقدير . فقد كتب جوته . وبايرون وغيرهما كلمات تحمل معنى التطلع إلى الصورة المغلفة بالضباب للشرق ، والتى رسمتها ألف ليلة فى نفوس وعقول هؤلاء الكتاب وقد ظنوا أنها حقيقة وأن المجتمع الإسلامى كله يعيشها .

وفى ظل هذه الصورة كون الغرب رأيه فى الشرق . وحاول أن يستخرج منها قواعد للاجتماع والأسرة والمفاهيم . وكان فى ذلك مخطئاً أشد الخطأ فلم يكن الشرق فى حقيقته يعيش هذه الصورة . ولم تكن مفاهيم الترف والجنس والشهوات هى التى تسيطر عليه أو توجه فكره . ولقد عرف الغرب عندما زار الشرق كيف أن هذه الصورة لم تكن واقعية . وأن قيم العرب والمسلمين كانت لا تزال حية قوية ومفاهيمه سليمة . وذلك بالرغم من الضعف الذى كان قد انتاب الدولة ، والفساد الذى حل بالطبقات العليا منه . أما الطبقات الوسطى والدنيا فلم يكن قد أصابها الانحراف . وإن كانت قد تقوقعت وتجمدت .

وعرف بالتأكيد عن طريق البحث العلمى النزيه أن كتاب (ألف ليلة وليلة) لم تكن إلا مجرد صور خيالية تمثل الأساطير والأحلام والأوهام التى تعيش فى خيالات القصاص . وهى فى مجموعها مستمدة من تراث الأساطير الشرقية والغربية القديمة . وقد استطاعت براعة الرواة أن تخلق منها جواً عصرياً . فتضم إليها أسماء جديدة .

ولذلك فقد كانت محاولة دعاة التغريب المركزة على اعتبار ألف ليلة وليلة صورة واقعية للمجتمع الإسلامى العربى . كانت مضللة وكاذبة أساساً ،

ولا تعتمد على سند علمي صحيح . وأن محاولات المستشرق (لين) فى أن يتخذ من هذا الكتاب أساساً لشرح عادات العرب والمصريين . وكتابه بحث تاريخى عن المجتمع الإسلامى ليست إلا محاولة زائفة تخدم أغراض التبشير . والاستعمار والتغريب والغزو الثقافى . وكذلك كان مستر (بيرتون) غير منصف حين اعتبر أن ألف ليلة تستطيع أن تقدم لأهله طباع المسلمين وعاداتهم وأخلاقهم . وذلك على حد قوله : لتكون لديهم (الحنكة الضرورية ليحكموا المسلمين الواقعين ضمن امبراطوريتهم) . وقد كشف هذا عن الاتجاه الاستعمارى . وبقى أن نقول : إنه بهذا الاعتماد على ألف ليلة وليلة فإن المستعمرين لم يعرفوا حقيقة المجتمع العربى الإسلامى ولم ينفذوا إلى جوهره . ولأن ألف ليلة وليلة من صنع القصاص والرواة — وهم غالباً غير حائزين على قدر من الثقافة يؤهلهم لفهم مقومات الفكر العربى الإسلامى ، فإن ما يجرى فيها من حوار ساذج لا يمثل حقيقة الروح العربية الإسلامية . ومن هنا كان خطأ وزيفا اعتبار الأحاديث التى جرت فيها بأنها مصدر لاستخلاص قيم معينة . حيث يقال : بأن (حكاية الوزير نور الدين بن شمس الدين) هى أكثر بدائية . وفيها حرية الأطفال على حد تعبير المستشرقين . وعلى ضوء هذا الكتاب الملفق الذى لا يعرف مؤلفه . ولا تاريخ تأليفه ، تقوم نظريات غريبة تحاول أن تصطبغ بطابع العلم والبحث المجرد . وأن تجد من يدافع عنها ويتبناها من دعاة التغريب والشعوبية كالقول : بأن العرب عاطفيون يحبون من أول نظرة ..

وقد بلغ الأمر فى استغلال ألف ليلة وليلة إلى حد أن أضاف بعض المترجمين إليها ما ليس فيها من أقذع عبارات الوصف الجنسى . كما فعل المستشرق الإنجليزى الدكتور ماردروس فى أوائل القرن فأخفى معالم الأصل ، وحول ألف ليلة وليلة إلى كتاب لإثارة الشهوة والغريزة الجنسية .

(الأغـــانى)

وكذلك كان كتاب الأغانى . فى مقدمة الكتب التى حرص التغريب على أن تكون مرجعاً أساسياً لدراسة الأدب العربى والحياة العربية فى القرنين

الأولى والثاني . وعليه اعتمد كثير من الكتاب الذين قالوا : إن العصر الثاني الإسلامي – كذباً – كان عصر شك ومجون . وقد حاول بعض دارسي الأغاني أن يعتبروه (مصدراً لتصوير حياة) . وجرت محاولات كثيرة للكشف عن جوانب الشعوبية والتحامل والخطأ الوارد فيه . وأنه لا يصلح كمرجع تاريخي لتصوير الأمة العربية . ولا مرجعاً أدبياً لأنه اقتصر على لون واحد من الأدب في عصره ، هو أدب الأغاني بينما حفل الأدب العربي في عصره بفنون عديدة مختلفة .

وأبو الفرج الأصفهاني مؤلف الأغاني ليس مؤرخاً ، وقد وصفه العلامة اليوسفي بأنه كان أكذب الناس لأنه كان يدخل سوق الرراقين . وهي عادة الدكاكين . وهي مملوءة بالكتب فيشتري منها شيئاً كثيراً من الصحف . ويحملها إلى بيته ، ثم تكون رواياته كلها منها . كما ذكر عنه صاحب معجم الأدباء ج ٥ ص ١٥٣ قوله : (كان شأنه في معاقرة الخمر ووصف النساء . شأن الشعراء والأدباء الذين كانوا في عصره أو قبله حيث يقدم دكاكين الخمارين وكلهم من اليهود أو الصابئة والمجوس ، وقد عرف – أي مؤلف كتاب الأغاني – بمعاقرته لخمر . ولم تكن له عناية بنظافة جسمه وثيابه) . كما قال عنه الصابي . في كتابه الذي ألفه في أخبار الوزير المهلبي . وكان أبو الفرج الأصفهاني وسخاً قذراً . لم يغسل له ثوباً منذ فصله إلى أن قطعه . وكان الناس (يحذرون لسانه ويتقون هجاوءه . ويصبرون على مجالسته ومعاشرته على كل صعب في أمر . لأنه كان وسخاً في نفسه ثم في ثوبه وفعله ، وحكى القاضي أبو علي المحسن التنوخي في كتابه (نشوار المحاضرة) أن أبا الفرج كان أكولا نهماً . وكان إذا ثقل الطعام على معدته تناول خمسة دراهم فلفلا مدقوقاً ولا يؤذيه . ولا تدمع له عيناه وبعد ساعة أو ساعتين يفصد .

أمثل هذا يصلح كتابه مرجعاً . أننا ننظر إلى الكاتب قبل أن ننظر إلى الكتاب . فإذا كان أميناً شريفاً نزيهاً قبلنا منه . وإلا رفضناه وذلك وفق منهج (الجرح والتعديل) التي رسمته ثقافتنا العربية الإسلامية . وجاء المنهج العلمي الحديث على قاعدتها .

وقد أشار الدكتور زكي مبارك في كتابه (النثر الفني) إلى مكانة الأصبهاني وكتابه الأغاني يقول : (وشهرة الأصبهاني وكتابه مستفيضة . وإنما أريد أن أنص على ناحيتين في الأصبهاني وكتابه لم أجد من تنبه لهما من الباحثين . ولهاتين الناحيتين أهمية عظيمة في فهم الحياة الأدبية . وسيكون لهما أثر عظيم في دعوة المؤلفين إلى الاحتياط حين يرجعون إلى كتاب الأغاني . يلتمسون الشواهد في الأدب والتاريخ . الناحية الأولى خاصة بالأصبهاني . تلك الناحية هي خلقه الشخصي . فقد كان الأصبهاني مسرفا أشد الإسراف في اللذات والشهوات . وقد كان لهذا الجانب في تكوينه الخلقي أثر ظاهر في كتابه . فإن كتاب الأغاني أحفل كتاب بأخبار الخلاعة والمجون . وهو حين يعرض الكتاب والشعراء . يهتم بسرد الجوانب الضعيفة من أخلاقهم الشخصية . ويهمل الجوانب الجدية إهمالا ظاهراً ، مما يدل على أنه كان قليل العناية بتدوين أخبار الجد والرزانة . والتجمل والاعتدال . وهذه الناحية من الأصفهاني أفسدت كثيراً من آراء المؤلفين الذين اعتمدوا عليه . ونظرة فيما كتبه المرحوم جرجي زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية . وما كتبه مؤلف حديث الأربعاء – يقصد الدكتور طه حسين – تكفي للإقتناع بأن الاعتماد على كتاب الأغاني جر هذين الباحثين إلى الحط من أخلاق الجماهير في عصر الدولة العباسية وحملها على الحكم بأن ذلك العصر كان عصر فسق وشك ومجون .

ولا شك أن إكثار الأصبهاني من تتبع سقطات الشعراء ، وتلمس هفوات الكتاب جعل في كتابه جواً مشبعاً بأوزار الإثم والغواية وأذاع في الناس فكرة خاطئة هي اقتران العبقرية بالنزق والطيش .

أما الناحية الثانية فهي خاصة بكتاب الأغاني . تلك هي نظم ذلك الكتاب في مقدمته عبارات صريحة في الدلالة على أن مؤلفه قصر اهتمامه . أو كاد على إمتاع النفوس والقلوب والأذواق ، فهو كتاب أدب لا كتاب تاريخ وأريد بذلك أن المؤلف أراد أن يقدم لأهل عصره ، أكبر مجموعة تغذي بها الأندية ومجامع السمر ومواطن اللهو ، وأنه ليحدثنا في المقدمة بأنه أتى في كل فصل من كتابه بفقر إذا تأملها قارئها لم يزل متنقلا بها من فائدة إلى

مثلها . ومتصرفاً فيما بين جد وهزل . وأخبرنا بعد ذلك أنه اهتم بالغناء الذى عرف له قصة تستفاد . وحديثاً يستحسن ، وعلل ذلك بقوله : إذ ليس لكل الأغانى خبر نعرفه .

وهذه كلها شهادات باحثين متصفين فى تقدير كتاب الأغانى ووزنه بميزان الإنصاف وهذه صورة مؤلفة وحقيقة جوهره . ومن هنا كان علينا أن نذكر إخواننا الباحثين دائماً أن يتنبهوا إلى هذه الحقيقة . حقيقة أن كتاب الأغانى ليس له قيمة تاريخية . وأنه لا يصلح مرجعاً علمياً . فقد كان مؤلفه منحرفاً . وكان اتجاه الأغانى واضحاً أنه لا يرسم صورة المجتمع كله . وإنما يرسم ذلك الجانب القليل المضطرب منه . وهناك رأى بأن الأصفهانى له يد فى تكوين هذه الأخبار التى ساقها اشخصيات كتابه . وأنه وضعها فى قوالب يغلب عليها اللهو والمجون . (فهو لم يخلقها كلها ولكنه نفخ فيها من روحه) .

(١)

حول كتابى ألف ليلة وليلة والأغانى وقصائد رباعيات الخيام . ردد المبشرون والمستشرقون كثيراً من الشبهات . وجرت كثير من المحاولات لفرض هذه الآثار . كأنما هى مراجع أساسية يستمد منها مفهوم الحياة الاجتماعية والفكرية للمسلمين .

وقد ثبت أن بعض المراسلين الأجانب فى بيروت . هم الذين أعادوا طبع كتاب (ألف ليلة وليلة) عام ١٨٨٨ م . وحفلوا بنشره وتوالى طبعاته عن طريق دور النشر الموجهة من الاستعمار والنفوذ الغربى . ثم جرت أبحاث متعددة فى محاولة للقول : بأن القصص الذى يضمه (ألف ليلة وليلة) يصور حياة العرب أو المسلمين بصفة عامة بينما تكشف أقل مراجعة لمصادر (ألف ليلة وليلة) عن أن قصصها مأخوذة من المراجع الفارسية قبل الإسلام . وأنها لا تمثل بحال (مفاهيم الفكر العربى الإسلامى) . وأنها فى الأغلب مجموعة أساطير هندية بدأت بحكايات السباع الضوارى والمرجع لها (هزار إفسانة) ومعناه (ألف رواية) وقيل : إن الجهشارى قد ترجمها إلى العربية . وقد

حكى المؤرخ الكبير المسعودى المتوفى عام ٩٥٦ م القرن الثالث الهجرى فى كتابه (مروج الذهب) . عن وجود كتاب قديم بالفارسية أو بالبهلوية . تحكى عن ملك وعن بنت وزيره (شهر زاد) و (خادمتها) دين زاد . وكذلك أشار النديم مؤلف الفهرست المتوفى عام ١٩٠٥ م . إلى كتاب ألف ليلة وليلة مجملا . وقال : إنه كتاب الحماقة والسيئات . وأشار إليه المؤرخ القرطبى . وقد كانت كل إشارات الكتاب والمؤرخين العرب والمسلمين إليه إشارات مقبحة على أنه مصدر ساقط فى أنظار البعثات . وعلماء العرب على حد عبارة الدكتور ستيني كماجترجى (مجلة ثقافة الهند – يناير عام ١٩٦٢) .

ومعنى هذا أن كتاب (ألف ليلة وليلة) أصلا كان سابقاً للإسلام . وأن مصدره أساطير هندية وفارسية ، وقد ظل العرب يتناقلونه بعد ترجمته كوسيلة من وسائل التسلية ، ويضيفوا إليه حكايات جديدة . كما أضيفت إليه صور من العهود المختلفة ، وآخرها عهد دولة المماليك حيث أضيفت مسامرات أهل بغداد والقاهرة ، فهو مجموعة أساطير فارسية وتركية وهندية قديمة . ومن هنا يمكن تقدير الموقف حين يراد أن يكون مرجعاً من مراجع دراسة حياة المجتمع الإسلامى ، بل المرجع الوحيد الذى اعتمد عليه كثير من المستشرقين والباحثين ودلوا عليه تلاميذهم فى محاولة لرسم صورة ظالمة غير حقيقية .

وقد أشار الدكتور (ستيني كماجترجى) إلى أن الحكايات الأصلية الواردة فى كتاب (ألف ليلة وليلة) هى التى تكون فى منزلتها أساسية . هذه الحكايات كانت مستعارة من الهند بواسطة الفرس .

وعندنا أنه مهما تكن صورة الحياة التى ترسمها (ألف ليلة) . فهى ليست الصورة التى يرسمها المجتمع الإسلامى ، والمرأة التى تصورها (ألف ليلة) ليست قطعاً المرأة العربية أو المسلمة ، فقد غير الإسلام نظرة المرأة إلى الحياة ونظرة الرجل إلى المرأة . فلم تكن قط فى مفهوم الإسلام أداة جنس أو مصدر غايات حسية إلا فى مفاهيم المجتمع الجاهلى أو الوثنى . وحتى

بعد أن اضطربت الحياة السياسية فى العالم الإسلامى ، فقد ظل هناك فارق واضح وحاجز كبير بين ما يسمونه الغانية و (بنت الأصول) .

والواقع أن الأدب العربى يحوى عدداً من الآثار . ومن مثل كتاب (ألف ليلة) كالأغانى وكتب المحاضرات والأسمار . وهذه كلها لم تكتب أساساً بروح البحث العلمى أو التاريخى . وإنما كانت جمعاً لأسمار وقصص الظرفاء والندماء . وكان جامعوها وكاتبوها ضعاف المكانة . بحيث لا يستطيع أحد أن يضعهم فى صف العلماء والباحثين ذوى القدر والاحترام . وإنما يقوم البحث فى مجال الفكر الإسلامى أساساً على الثقة فى الكاتب من حيث شخصيته وخلقه وعقائده . فإذا عرف عنه سوءاً فى شخصيته أو خلقه أو تصرفاته ، كان ذلك عاملا من عوامل عدم التقدير له ، وبالتالى لا تكون إثارة موضع الثقة الكاملة .

ولذلك فإن (الأصفهانى) مؤلف (الأغانى) . وغيره كثيرون . قد عرفوا بإغراقهم فى حياة اللهو والعبث . وبذلك ضنت نفوس الباحثين عن الثقة فى كتاباتهم . ويشهد ابن الجوزى فى ترجمته لأبى الفرج الأصفهانى . بأنه كان من (بذاءة اللسان) بحيث (جعلت الناس يتحاشونه . ويخشون لسانه . وأنهم ليذكرون لنا أنه لم يسلم أحد من هجائه) .

ويقول مؤرخه (أنه كان من القذارة بمكان . دنس فى نفسه وفى ثيابه) ولعله من هنا كان بذىء اللسان ، لا يتورع عن دنس ولا يتعفف عن مكروه ولعل هذه الصفات لازمته منذ الصغر) .

ويقول صديقه التنوخى (إذا ثقل الطعام فى معدته وكان أكولا نهماً ، يتناول خمسة دراهم فلفلا مدقوقاً فلا تؤذيه ولا تدمعه . وأراه يأكل حمصة واحدة أو يصبغ بمرقة قدر فيها حمص فيسرهج بدنه كله من ذلك . وبعد ساعة أو ساعتين يفصد وربما فصد لذلك دفعتين . وأسأله عن سبب ذلك فلا يكون عنده علم منه) .

وهكذا يسقط أمثال (الأصفهانى) أمام ميزان الجرح والتعديل . ويسقط

كتابه وتسقط كل هذه الكتب التى لم يرد بها وجه العلم الخالص . وإنما أريد بها تقديم قصص مثيرة يتلهى بها الناس ويزجون بها فراغهم .

ومثل هذه الكتب لا يمكن أن تكون مصدراً تاريخياً . لأنها لا تستوعب صورة كاملة للمجتمع . بل أنها لم تستوعب صورة كاملة للشخصيات التى تناولتها . يقول الدكتور محمد أحمد خلف الله فى كتابه عن الأصفهانى وكتابه الأغانى :

(إن كل هؤلاء المغنين والشعراء الذين ترجم لهم فى كتاب الأغانى وصور لنا هذه الألوان من حياتهم لم يكونوا من اللاهين العابثين . وإنما أبو الفرج هو الذى يتتبع هذه الجوانب فى حياتهم . ويحرص عليها . إن أبا الفرج قصد إلى الهزل بشهادة مؤرخة لعوامل نفسية دفينة . وأنه لم يقصد إليه لأنه الحقيقة التاريخية . قصد إلى الرواية ولم يقصد إلى التاريخ . واختار من المرويات ما جعل الخبر ألذ وأمتع والقصة أشهى وأحلى . ليكون السمر اللذيذ ولتكون الندوة المرحة) . ومعنى هذا أن كتاب الأغانى إنما قصد إلى : (إدخال السرور — مادة السمر — للتنفيس وإزجاء الوقت (وليس للحق والتاريخ مطلقاً .

وقد نبه كثير من مؤرخى أبى الفرج إلى إهوائه الشخصية) .

ويصف الدكتور محمد أحمد خلف الله (الأصفهانى) خير وصف بأنه (حديد) سريع الغضب بذىء اللسان يغضب لأتفه الأشياء . ويضيق من أيسر الأمور . ويطلق لسانه فيمن يستثير فيه الغضب . حتى ولو كان من أوفى الأوفياء وأخلص الأصدقاء) .

وأعتقد أن هذا شأنه وهو شأن كتابه . فإنه لا يصلح أساساً كمصدر ومرجع للدراسة الجادة . وأعتقد أنه قد تأكد فى اعتبار الباحثين منذ وقت بعيد أن كتب الأدب التى يقصد بها عادة إلى الفكاهة والسمر وكتب المحاضرات هى مما لا يجرؤ باحث أو عالم على أن يعتبرها ميزاناً صحيحاً يزن به رجال التاريخ . أو تؤخذ منه تراجم العظماء . أو ترسم به الصورة الاجتماعية للأمم . وإذا كان مفهوم التاريخ فى أحدث مذاهبه هو اعتبار الوثائق مشكوكاً فيها .

وباطلة أساساً حتى تثبت صحتها . فما القول فى هذه الصور الأدبية المروية بغير توثيق أكيد . ومن خلال أسماء كلها موضع للتجريح والاتهام فى سلامة خلقها . أو إيمانها بالتحقيق العلمى . أو اتصالها بالشعوبيين أو الباطنية أو الزنادقة .

وإذا كان كتاب الأغانى يقصر حياة الترف والمجون على طبقة معينة أو مجموعات من الناس ، فإنه بلا شك أقل خطراً من كتاب (ألف ليلة) الذى يصور المجتمع كله على هذا النحو من التحلل والانحراف .

وقد كان لألف ليلة أثر جد مرير فى رسم صورة مشوهة عن المجتمع العربى الإسلامى ، وقد أضاف المترجمون الغربيون إلى بشاعة الصورة التى تحملها الكتاب إضافات زادته بشاعة فقد أشار المستشرق الفرنسى (غالان) الذى ترجم ألف ليلة لأول مرة عام ١٩٠٧ م . بأنه (فرنج) الكتاب ليلائم ذوق قرائه ، وأنه ركز صوره على رفاهية الشرق وترفه . وأنه رسم صورة الشرق الحيوانى :

وكان من نتيجة ذلك أن كتب كثير من الباحثين ، وفى مقدمتهم المستشرق (لين) ، كتاباً عن المجتمع الإسلامى اعتماداً على (ألف ليلة) . وأشار ريتشارد بيرتون الإنجليزى فى مقدمة ترجمته إلى ، أنها ترجمة تهدف إلى أن يتعرف أهل موطنه بما فيه الكفاية على طباع المسلمين وعاداتهم وأخلاقهم ليكون لديهم الحنكة الضرورية ، ليحكموا المسلمين الواقعين ضمن امبراطوريتهم

أما رباعيات الخيام فقد أغنانا السيد مبشر الدين الطرازى بكتابه (كشف اللثام عن رباعيات الخيام) ، أن نفيض فى موضوع دعوى نسبة هذه الأشعار التى تتسم بالانحلال إلى عالم مسلم نابه كان متخصصاً فى الفلك ، وله فى تاريخ العلوم الإسلامية مكانة جلى . ولكن هكذا أراد الشاعر الإنجليزى (فيتزجرالد) حين نسب إليه — ظلماً وزوراً — هذه الأفكار المجهولة الأصل .

وجملة القول أن هذه الأشعار إنما أريد بها أن ترسم صورة مغايرة تماماً لمفهوم الإسلام للنفس الإنسانية ، وقد كان للاستعمار دخل كبير فى التركيز على هذه الأشعار ، الذى جرى ذكرها على الألسنة فى مختلف أنحاء العالم

الإسلامى . وخاصة فى فارس والهند مستهدفة لنشر هذه السموم بين الشباب محرضة إياهم على تناول الخمور وملازمة السرور والغناء ومجانية السعى والعمل وحثهم على الإباحية والزندقة والحرية المطلقة . وكان ذلك ضمن مخطط النفوذ الاستعمارى لدفع الشرق إلى التراخى فى مقاومة الغزو والاستسلام له .

وقد أشار السيد الطرازى فى بحثه القيم ، كما أشارت مصادر كثيرة إلى أنه ليس هناك من مصادر أكيدة تؤيد نسبة هذا الشعر إلى عمر الخيام . وأنه لا وجود لمصدره الأصلى ، وإنما أسند إلى عالم عظيم شرقى وحكيم فلكى رائع . ومنجم لامع فى نفس الوقت الذى أغمضوا فيه أبصارهم عما ثبت عنه — عن عمر الخيام — فى مقولاته وآثاره التى تدل على ديانته . وتمسكه بتعاليم الشريعة الإسلامية . وحرصه على تطبيقها فى كل شئون الحياة . وهم لم يكرموا عمر الخيام لمكانته فى العلوم الرياضية وعلوم الفلك ، وإنما من أجل الأهداف السياسية فى إذاعة قصائد التحلل . والمجون المنسوبة إليه . وأنهم لم يفعلوا ذلك لابن سينا أو الفردوسى أو الغزالى أو الزمخشرى من أعلام الفكر الإسلامى ، لقد كان تعظيم الغربيين موجهاً فى الواقع إلى تلك الرباعيات الخليعة التى مهدت لهم سبيلا للنيل من الإسلام ، وتعاليمه . ودعوة أهل الشرق إلى التحلل الخلقى والحرية المطلقة والضعف والهوان .

وقد أشار مبشر الطرازى — وعشرات غيره من الباحثين — إلى أنه لم يثبت أصلا وجود نص حقيقى كتبه عمر الخيام ، وأن النسخة التى نسبوها إليه كتبت بعد وفاة الخيام بأكثر من ثلاثمائة وخمسون عاماً مما يؤكد أن الرباعيات موضوعة لا أصل لها . استغلها دعاة التبشير والاستعمار وساروا بها إلى كل مكان . مستغلين اسماً عظيماً وباحثاً مسلماً كبيراً فى سبيل تحقيق خطة من خطط التغريب والغزو الثقافى .

• • •

الفصل السابع

التبشير وتاريخ الإسلام

وجه التبشير إلى التاريخ العربي الإسلامي حملات عنيفة منوعة . استمد شبهاتها من نظرات بعض المستشرقين . وحرص دعاة التغريب والشعوبية على إذاعة هذه الشبهات . وترديدها من بعد لتشويه التاريخ الوطني والإسلامي جميعاً .

وهذه الشبهات حول حياة الرسول وحياة الخلفاء والأبطال والفاتحين وعديد من المواقع والمواقف المختلفة . مستهدفة الغض من قدر تاريخ الإسلام والعرب ولعل الشبهة الكبرى التي توجه إلى تاريخ العرب والمسلمين هي أنه لم يقم على أساس علمي . وهي فرية باطلة . فقد عمد المؤرخون العرب إلى منهج علمي دقيق أشبه بطريقة المحدثين في التثبت والدقة والتحري . وحاولوا أن يستفيدوا من قواعد علم الحديث في الجرح والتعديل ونقد النص . (ويفاخر الدكتور أسد رستم في كتابه مصطلح التاريخ) . بسبق المحدثين إلى هذه القواعد الجليلة التي تفوق دقة وضبطاً ما وصل إليه أساطين علم التاريخ ونقدته في أوربا وأمريكا ، وذلك وفق طريقة جمع الأصول ونقدها وتنظيمها . وتفسير النصوص والتعليل والإيضاح والعرض .

وقد أشار العلامة (نللينو) إلى مدى دقة العرب في كتابة التاريخ . وأنهم اتخذوا لذلك طرقاً بالغة الحيطة : (أولاها) ذكر عدد السنين سنة فسنة . ورواية ما جرى من الحوادث في كل منها مهما كانت البلاد التي وقعت فيها كما فعل الطبري وابن الأثير وأبو الفداء . وذلك بخلاف القدماء من اليونان الذين جعلوا غاية التاريخ في حكاية الحوادث (ثانياً) العناية برواية الحوادث باعتبار سياقها على قدر الاستطاعة كما فعل المسعودي في مروج الذهب . وابن خلدون وابن القفطي .

ومن حاول اتهام المؤرخين العرب ، بأن كتابتهم للتاريخ شيدت على أسس الطريقة الفارسية . الكاتب (فيليب حتى) صاحب كتاب العرب ، غير أن المنصفين من الباحثين أمثال الدكتور عبد العزيز الدورى والأستاذ محمد عبد الغنى حسن . أكدوا فى مواجهة هذه الشبهة ، أن علم التاريخ كان عربى النشأة والأصول ، وأن خطوطه الأساسية تحددت واستكملت قبل الترجمة من الفارسية ، ولذا فإن قول (فيليب حتى : بأن المثال الذى احتذاه المؤلفون فارسياً فى الأصل على طريقة (خدا ينامه) هذا القول مردود ، يقول الدكتور الدورى : هو مردود لأننا نعرف أن كتابة التاريخ على أساس السير . وعلى أساس الأسر الحاكمة عرفها العرب قبل ترجمة الخداينامه . وقد بدا علم التاريخ عند العرب من أصول متصلة بدراسة الحديث (المغازى) من جهة . ومتابعة الاهتمام الموروث من الجاهلية بالأيام كما ظهر لدى الإخباريين . وعندنا أن اضطراب فهم الغربيين للتاريخ الإسلامى — فيما غير الهوى والتعصب — يرجع إلى جوهر الخلاف الأساسى بينه وبين التاريخ الغربى .

والحق أن فهم المؤرخين الغربيين للتاريخ الإسلامى . يحتاج إلى نظرة تختلف كل الاختلاف عن نظرتهم إلى التاريخ الغربى الذى يمارسونه . وأن المقاييس التى يتبعونها فى فهم تاريخهم قد تختلف اختلافاً واضحاً فى التطبيق على التاريخ الإسلامى العربى ، وتأتى بنتائج قاصرة أو مختلفة تماماً . وأنه لا بد فى دراسة التاريخ العربى الإسلامى من مفاهيم مختلفة ، باعتبار أن التاريخ الإسلامى صورة من النفسية العربية الإسلامية التى صاغته .

وقد تنبه إلى هذا المعنى كثيرون . من بينهم مستر (هاملتون جب) حين يقول : إن التاريخ الإسلامى سار فى وجهة معاكسة للتاريخ الأوربى . على نحو يثير الاستغراب . كلاهما قام على أنقاض الامبراطورية الرومانية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولكن بينهما فرقاً أصيلا ، فبينما خرجت أوربا على نحو متدرج لاشعورى ، وبعد عدة قرون من الفوضى الناجمة من غزوات البرابرة ، انبثق الإسلام انبثاقاً مفاجئاً فى بلاد العرب ، وأقام بسرعة تكاد تعز على التصديق فى أقل من قرن من الزمان ، امبراطورية جديدة فى غرب آسيا وشواطىء البحر المتوسط .

وواجه هذا المعنى الأستاذ (تريتون) فى كتابه (الإسلام : عقائده وعباداته) ، حين قال : إذا صح فى العقول أن التفسير المادى للتاريخ يمكن أن يكون صالحاً فى تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى ، وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها . فإن هذا التفسير المادى يفشل فشلا ذريعاً حين يرغب أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم وقيام حضارتهم ، واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم . فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا فى العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة ، فرأوا أنها تقع فى هذا الشيء الجديد وهو الإسلام) .

ومما أثير من شبهات حول مفهوم التاريخ العربى الإسلامى . إنكار أن العرب والمسلمين قد بلغوا مستوى اليونان ، وبالتالى مستوى الأوربيين المحدثين فى إدراك فكرة الإنسانية) .

والحق أن فكرة الإنسانية ليست واضحة فى أمة ولا حضارة ولا دين وضوحها فى الفكر العربى الإسلامى . وقد تنبه إلى هذا المعنى (ولفرد كانتون سميث) الذى قال : إن المسلم يحس إحساساً جاداً بالتاريخ . أنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله فى الأرض . ويؤمن بأن الله قد وضع نظاماً عملياً واقعاً . يسير البشر على الأرض بمقتضاه ، ويحاولون أيضاً أن يصوغوا واقع الأرض فى إطاره ، ومن ثم فهو دائماً يعيش فى كل عمل فردى أو جماعى . وكل شعور فردى أو جماعى بمقدار قربه أو بعده من ذلك النظام الذى وضعه الله ، والذى ينبغى تحقيقه فى واقع الأرض ، لأنه قابل للتحقيق . والتاريخ فى نظر المسلم سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله فى الأرض . ومن ثم فكل عمل وكل شعور فردياً كان أو اجتماعياً ذو أهمية بالغة ، وأن الحاضر هو نتيجة الماضى والمستقبل متوقف على الحاضر) .

ويرى الدكتور (اليان وايد غراى) فى كتابه (تفسيرات التاريخ) : أن نظرة المسلمين نظرة بناءة ، فهم يرون أن البشرية إذا اعتنقت تعاليم الوحى (القرآن) فإن إرادتها حينذاك تتطابق وإرادة الله . ولا يوجد من يعصى أوامره ويعم الرخاء بين البشر . ومن صفات المؤمن أنه صابر . ويعلم أنه لا مرد لإرادة الله . وقد قدموا أفضل فيلسوف للتاريخ ممثلا بالفيلسوف ابن خلدون ،

فكان أول فيلسوف حلل درجات تأثير المحيط والدوافع النفسية التي تعمل عملها في الحياة الإنسانية ، وبسبب نشوء الحضارات وانقراضها) .

ومن الأمور التي يضطرب فيها رأي المؤرخين الغربيين : العلاقة بين التاريخ والأسطورة يقول العلامة محمد فريد وجدي :

(كان القائمون بتمحيص التاريخ في الثلاثة القرون الأخيرة من الملحدين الذين لا يؤمنون بخالق الكون ولا بالنبوات ولا بالوحي ، فإنهم نظروا إلى التواريخ المقدسة باسم (الميثيولوجيا) أي علم الأساطير ، وذهبوا في تفسير هذه الميثيولجيا كل مذهب غير مفرقين ، بين ما يصح أن تنطبق عليه هذه الكلمة من العقائد الوثنية والتقاليد الخرافية وبين الحوادث النبوية القيمة .

وجاءت الأجيال الحديثة فرأت بنفسها من أخبار الأمم حيال التاريخ والثيولوجيا ، ودربت على أن تعتبر الأول خلاصة ممحصة من حوادث الشعوب الماضية ، وأن تعد الثانية حكايات خيالية تدلت من عقول ساذجة ، اخترعها رجال مدلسون فألفوا أنفسهم متحللين من كل ما حمل الأقدمون أنفسهم من تكاليف عقيدية ، وتقاليد وهمية معتبرين كل ما يوجد في تاريخ الأديان ، وكتبها المقدسة من أخبار وحوادث وانقلابات لا يتفق والتاريخ المنشور ، خرافات لا أصل لها في الواقع .

فكان إنكار المعجزات التي أبدت المرسلين في دعواتهم الدينية ، باعتبار أنها تناقض العلم وتخالف قوانين الطبيعة ، وأن تعتبر كل هذه الأمور من الخرافات التي لا أساس لها في التاريخ ، وقد نوه الكتاب الكريم (القرآن) ، بأمم ماضية ومرسلين وقص من أخبارها وأخبارهم ما فيه موعظة للتالين والسامعين ، فلاحظ بعض المستشرقين وكلهم من غلاة الماديين أن من هذه القصص ما لم يرد في التاريخ ، وبعضه يعتبر من الخرافات ، وبالجملة فقد بحثوا التاريخ على ضوء المبادئ المادية البحتة التي لا ترى وجود الخالق والروح) .

ومن مجال التاريخ العربي الإسلامي شبهات متعددة ، أهمها مرحلة الضعف والتخلف وأسبابها وعواملها ، وهي من أبرز قضايا التاريخ العربي ، وقد

اقتضت هذه القضية بحوثاً مسهبة ، وحاول المستشرقون وكتاب الغرب من غير المنصفين ، أن يعزو هذا التخلف إلى الإسلام والفكر العربى الإسلامى .

وقامت الشبهة فى هذا على وصف الإسلام . بما وصفت به المسيحية الغربية التى كانت عائقاً للتمدن والنهضة فى الغرب فى عهد النهضة (الرنيسانس) ومن هنا نقلت نفس عبارات الاتهام إلى (الإسلام) . بوصفه ديناً وعلى أساس أنه هو مصدر التخلف الذى أصاب المسلمين فى القرون الثلاثة السابقة لهذا القرن . والواقع أن الإسلام بوصفه ديناً ومدنية لم يكن عاملا من عوامل الضعف والتخلف . بل كان الانفصال عن مفاهيمه وقيمه . والجمود من آفاقه الواسعة الفسيحة هو فى الأعم مصدر ما أصاب العالم الإسلامى من الاضطرابات

وقد ذهب بعض الغربيين إلى وصف هذه المرحلة بأسماء كثيرة . كان أقساها وأشدها إمعاناً فى التعصب . تسميتها باسم (مرحلة الانحطاط) . والواقع أن هذا الوصف لتلك المرحلة ليس منصفاً . وأن كل الأسماء التى يمكن أن تطلق : كالتأخر والانحدار والتخلف والضعف . ربما كانت كافية لوصف هذه المرحلة ، دون أن توصف بالانحطاط الذى يتمثل فى حالة سقوط النهاية . والواقع أن الجماعة الإسلامية بالرغم من أزمة الضعف الشديدة التى مرت بها ، فإنها لم تسقط ، وكانت أزمتها قد وقعت فى ظل مؤامرة كبرى استطاع النفوذ الأجنبى أن يحيكها أكثر من ثلاثة قرون . وإذا كانت الرابطة السياسية الإسلامية ممثلة فى السلطة العثمانية قد سقطت . فإن الفكر العربى الإسلامى لم يسقط وظل حياً قائماً متفاعلا مع (عالم الإسلام) الذى لم ينفصل عن جذوره ؛ ومقوماته . هذا بالإضافة إلى ما برز فى فترة الضعف هذه من مواجهة للتحدى . ورد الفعل المتمثل فى القدرة على حماية التراث ؛ والفكر والمحفوظات واللغة والعلوم عن ثلاثة طرق هامة :

أولا : المعاهد والجامعات الإسلامية الكبرى التى ظلت حية قائمة ؛ تؤدى دورها بالرغم مما أصابها من الجمود كالأزهر والزيتونة والقرويين ومعاهد النجف الأشرف والشام والمسجد الأقصى ومكة والمدينة . وزوايا صحراء ليبيا وخلاوى السودان .

ثانياً : هذه الحركة الضخمة لتأليف الموسوعات وضم مختلف فنون الفكر العربى الإسلامى إليها مجمعاً من نحو وأدب ولغة وفقه وتشريع وفلسفة ونصوص .

ثالثاً : الحركة الصوفية ممثلة فى تجمعاتها الواسعة. وتحركاتها الضخمة فى إفريقيا . وهجرات العرب فى جنوب شرق آسيا . وما كان لهاتين الحركتين من أثر فى نشر الإسلام . والثقافة العربية إلى أبعد مدى ، فى ظل هذه الفترة التى وصفها بعض كتاب الغرب بفترة الانحطاط ظلماً .

وقد عرض لقضية التأخر والتخلف كثير من الباحثين . وأعلام الفكر العربى الاسلامى المعاصر . وفى مقدمتهم الأمير شكيب أرسلان فقال : إن أهم أسباب تأخر المسلمين ، هو العلم الناقص الذى هو أشد خطراً من الجهل . وفساد الأخلاق بفقد الفضائل التى حث عليها القرآن . وبنوع خاص فساد أخلاق أمراء المسلمين . والعلماء الذين اتخذوا العلم مهنة العيش . وجعلوا الدين مصيدة للدنيا فسوغوا للفاسقين من الأمراء أشنع موبقاتهم . ومن أعظم عوامل تقهقر المسلمين : الجبن والهلع بعد أن كانوا أشهر الأمم فى الشجاعة ، واحتقار الموت .

وقد انضم إلى الجبن والهلع ، اللذين أصابا المسلمين ، اليأس والقنوط من رحمة الله . وفقدهم كل ثقة بأنفسهم حتى أصبح المسلمون فى الأعصر الأخيرة يعتقدون أن ما من صراع بين المسلم والأوربى ، إلا سينتهى بمصرع المسلم ولو طال كفاحه ، وقر ذلك فى نفوسهم ، لاسيما هذه الطبقة التى تزعم أنها الطبقة المفكرة العاقلة المولعة بالحقائق الصادقة عن الخيالات بزعمها . ولم تقتصر هذه الفئة على القول بأن حالة المسلمين الحاضرة هى متردية متدينة ، بل زعمت أن التعب فى مجاراة المسلمين للإفرنج من علم أو صناعة أو كسب أو تجارة أو حرب أو سلم أو أى منحى من مناحى العمران . وهو ضرب من المحال ، وكأن المسلمين من طينة والإفرنج من طينة أخرى .

ونحن نريد أن نقول إن كل من صار على الدرب وصل . وإن المسلمين إذا تعلموا العلوم العصرية استطاعوا أن يعملوا الأعمال العمرانية التي يقوم بها الإفرنج . وأنه ليس هناك فرق في القابلية البشرية ، ولكن على شرط أن ينفض المسلمون عن أنفسهم غبار الخمول ، وأن ينقضوا هذه القاعدة التي قد كانت أسباب شقائهم زمناً طويلا . وهي أن كل عمل عمراني في الشرق لا بد أن يستعار له شركة أوربية تقوم به وإلا فلا يستطاع عمله . .

ويرى الإمام الشيخ محمد عبده أن التناحر الذي أصاب الخلافة زمن العباسيين ، كان نتيجة لتسرب العناصر الأجنبية إلى جهاز الامبراطورية الإسلامية ، وأن تأخر العالم الإسلامي ، ووهن السلطة السياسية الإسلامية ، ليسا ناشئين عن فساد الإسلام ذاته ، بل عن تقاعس المسلمين وإغفالهم لتعاليم دينهم .

وقد دافع كثير من المنصفين عن اتهام الغرب لما رمى به الإسلام والفكر العربي الاسلامي من أنه مصدر التأخر ؛ يقول الدكتور نبية أمين فارس : إذا حسبنا أن الإسلام هو سبب تأخر الأقطار الإسلامية ، فبماذا نعلل تأخر أقطار النصرانية في البلقان ، وفي أمريكا الوسطى والجنوبية وفي أوربا نفسها .

وقال : ان ما قدمه المسلمون في القرون الوسطى من مآثر شتى في ميادين العلم والفكر يثبت أنه لم يكن في الإسلام – آنئذ – وليس فيه اليوم شيء أساسي معاد للتقدم ، لا – بل أن الأدلة تثبت عكس ذلك – أي أن الإسلام موات للتقدم – هي أكثر عدداً وإقناعاً .

(ولسنا هنا في موقف الدفاع عن الإسلام أو النيل منه ، لقد حمل المسلمون تحت لواء الإسلام ، وفي نطاق نظمه أعباء البشرية العلمية والفكرية في ميادين مختلفة ، وطوال مدة غير يسيرة ، ولم تقم أمامهم أي صعوبة ، إلا عندما ابتدأوا تدريجياً يشعرون بالقناعة بما صنعت أيديهم .) .

وفي محاولات متعددة لكتابة تاريخ العرب والمسلمين نجد أن المتصدرين لذلك هم من غير المتخصصين ، أو من كتاب اتصلوا بدوائر الاستشراق ، وممن حاولوا إثارة الشبهات عن طريق كتب المحاضرات ، وبعض المؤلفات التي كتبت للترف والتسلية وكتب الأدب ، وهي جميعها لم تكتب للبحث

العلمى الخالص وفى مقدمتها (الأغانى) . يبدو ذلك فى كتابات فيليب حتى وبركلمان وولاس أولبرى وغيرهم . وهناك من يمر على مرحلة المدنية الإسلامية خلال ألف سنة دون أن يذكرها بكلمة واحدة . ويربط الحضارة الغربية الحديثة بالحضارة الرومانية على مسافة ألف عام تفصلهما .

وأخطر ما يتعرض له تاريخ العرب المسلمين : (التفسيرات الخاطئة) سواء فى عجز عن الاستقصاء أو التعصب لوجهة نظر مسبقة . أو لخطأ فى فهم النص .

وفى أكثر من موقف حاول كتاب الغرب . ومن تابعهم من كتاب التغريب تصوير التاريخ العربى الإسلامى بصورة الانتقاص . وفى معركة بلاط الشهداء ، يتردد قول هؤلاء الكتاب عما يدعونه من الكسب الذى حققه الغرب . بإيقاف تقدم المسلمين إلى غرب أوروبا . بينما يرى المؤرخون المنصفون الغربيون عكس ذلك ، فهنرى دى شابمون يقول : لولا انتصار جيش كارل مارتل الهمجى على تقدم العرب فى فرنسا . لما وقعت فرنسا فى ظلمات للقرون الوسطى ، ولما أصيبت بفظائعها . ولا كابدت المذابح الأهلية الناشئة عن التعصب الدينى والمذهبى . ولو لا ذلك الانتصار البربرى على العرب لنجت أسبانيا من وصمة محاكم التفتيش . ولولا ذلك لما تأخر سير المدنية ثمانية قرون (وعبر عن هذا المعنى : الكاتب الفرنسى كلود فارير . وكذلك عرض له العلامة جيمس بريستد ، والمؤرخ مارك سمنوف)

من مجموع نصوص ما أورده هؤلاء المؤرخون المنصفون . يكاد ينعقد الإجماع على أن انتصار كارل مارتل على تقدم الإسلام فى قلب فرنسا ، هو الذى أخر سير المدنية . وأنه لم يكن كسباً بأى حال .

وفى قضية حريق مكتبة الإسكندرية ، تكاد مصادر التغريب أن تنتاش العرب والمسلمين بالاتهام الباطل واستخلاص نتائج غير صحيحة ، وقد تابع كتاب الغرب فى ذلك مؤرخون أمثال : إلياس الأيوبى وطه حسين وجرجى زيدان . بينما أنصف العرب ، وأيد وجهة نظرهم غربيون كثيرون ، فى مقدمتهم العلامة جيبون فى كتابه (سقوط الدولة الرومانية) حيث قال :

إن الفرية لفقها على المسلمين (أبو الفرج العبرى) فى كتابه (مختصر الدول) . وقد ترجم إلى اللغة اللاتينية فتنبه أهل الغرض من الفرنجة فأذاعوها . وأشار (جيبون) إلى براءة عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص من التآمر على حرق مكتبة الإسكندرية . وأثبت أن الذى حرقها هم الرومان بمراكبهم الحربية . فى حصارهم لجيوش كليوباترة بقيادة يوليوس قيصر . وقال جيبون : لقد تأكدت من أنها حرقت قبل الإسلام بمائتى عام وأن أبو الفرج بن العبرى لفق هذه الفرية بعد الإسلام بنحو ستمائة سنة ، ولم يتعرض قبل أبى الفرج مؤرخ واحد لذلك . حتى أن بطريرك الإسكندرية (افتيكوس) مع توسعة فى الكلام على استيلاء المسلمين على ثغر مصر . لم يذكر كلمة واحدة عن حريق عمرو بن العاص لهذه الخزانة . وكان الرحالة البغدادى قد زار مصر فى عهد الملك الكامل فنقل هذه التهمة . وقد طبعت رحلته فى أكسفورد سنة ١٨٠٠ وهى محشوة بالخرافات والأكاذيب . وقد نقض هذه الرواية وشنطون ارفنج . وفليبة وغيرهم كما نقضها أرنست رينان فى خطاب له فى المجمع العلمى الفرنسى حيث قال : إنه لا يعتقد أن عمر هو الذى أحرق خزانة الإسكندرية . لأنها أحرقت قبله بزمن طويل . وكشف هذا المعنى العلامة (البرسيم) فى خطاب إلى العلامة كرد على . وقد شهد للعرب الدكتور غريفيني أستاذ جامعة فلورنسا . وأكد أن اتهام العرب بحرق المكتبة فرية زائفة .

وما زال كتب جرجى زيدان : (تاريخ التمدن الإسلامى . وتاريخ الآداب العربية . وتاريخ العرب قبل الإسلام) ، تحمل كثيراً من الأخطاء ، والآراء المنحرفة ، وقد وجهت إليها نقدات متعددة . وهى فى مجموعها متابعة لآراء الغربيين وخاصة متعصبة المستشرقين منهم .

وما زال كتاب (تاريخ العرب) لفيليب حتى وتاريخ (الشعوب الإسلامية) . لبروكلمان من المراجع التى يعتمد عليها الباحثون . وأساتذة الجامعات . كمصدر سهل ميسور بالرغم مما يحمل كل منهما فى تضاعيفه من أخطاء وشبهات .

وقد أشار الدكتور عبد العزيز الدورى إلى أن تسمية (فيليب حتى) لمؤلفه (تاريخ العرب) يشعر بوجهة نظر مؤلفه الخاصة . فلم يسمه تاريخ الإسلام مثلا وأن التسمية تباين الكتاب فى استعمالها . وقال : إن نظرته إلى دور العرب الحضارى فيها مجال لإعادة النظر . غير أنه يشعرك بأن العرب هم محور هذا التاريخ وقاعدته . وقال : إن مؤلف تاريخ العرب قد وقع تحت تأثير مصادره فلم تكن له وجهة نظر واضحة . وأن فى بعض نواحى الكتاب تلخيصاً لآراء حديثة لبعض المستشرقين . وأنه لم يحاول وضع مفهوم جديد للفتوحات العربية . وردد مع غيره من غلاة كتاب الغرب الشبهة التى تقول : بأن العرب الفاتحين لم يكن لهم (أى ثقافة أو تراث فكرى) وأنهم تعلقوا بحضارة الأمم التى غلبوها فنقلوا عنها . وقال : إن شجرة الفكر (العربى) التى ازدهرت فى العصر العباسى . تأصلت جذورها فى ثقافات العهود السابقة فى الإغريق والفرس واليونان . وقال الدكتور الدورى : ونحن نعرف النشاط الفكرى فى العصر الأموى كما بان فى عرف المؤلف نفسه . وأن هذا النشاط الفكرى ظهر فى مراكز عربية صرفة . وهى المدينة والكوفة والبصرة . وأن الخطوط لهذه الدراسات وضعت فى العصر الأموى .

وقال الدكتور الدورى : إن المؤلف (فيليب حتى) يتابع نفس الوجهة حين يتحدث عن الأندلس . فهو يرى أن سبب تأخر أسبانيا فى نشوء فقه اللغة العربية والعلوم الدينية وكتابة التاريخ . يرجع إلى أنه لم يكن عند الأسبان أهل البلاد من العلم والفن ما يفيدون به العرب . بخلاف ما كانت عليه الحال فى الشام والعراق حين دخلها الفاتحون . ونسى المؤلف أن مركز الدراسات العربية الإسلامية كانت فى المدن العربية الخالصة . وليس فى المدن القديمة كدمشق والإسكندرية .

وناقش الدكتور الدورى ما ذهب إليه (فيليب حتى) من أن كتابة التاريخ عند العرب . شيدت على أساس الطريقة الفارسية . وأكد ما أجمع عليه الباحثون من أن علم التاريخ عند العرب عربى النشأة والأصول .

وأشار الدورى إلى عدد من الأخطاء التى وقع فيها فيليب حتى . ومنها تفسيره لانتشار الإسلام بأسباب مادية ، وقال : إنه قد فاته أن انتشار الإسلام فى أدوار ضعفه السياسى كان أوسع من انتشاره قبل ذلك ، ومن أخطائه قبوله لأسطورة العباسة لتفسير نكبة البرامكة دون تمحيص .

ومن وجوه تحامل الكتاب الغربيين على تاريخ الإسلام ، محاولة تصوير فترة ما قبل الإسلام من حياة العرب بصورة براقة زاهية ، وفى هذا محاولة واضحة للانتقاص من أثر الإسلام ، وفاعليته الواضحة فى خلق الوحدة الروحية والفكرية والاجتماعية فى حياة العرب .

ومن ذلك ما يذهب إليه كتاب الغرب بوصف الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بصفة (الزعامة) أو العبقرية ، فإن المقصود من ذلك هو نفى النبوة أو تجاهلها وعدم الإقرار بها .

أما مايتردد كثيرا من القول بأن الاسلام مشابة فى أصولة لليهودية والمسيحية ، وأن ما فى القرآن مشابه لما فى التوراة . فإن ذلك حق يراد به باطل ، وهى محاولة واضحة لانتقاص الإسلام والقرآن ، ولكن الواقع يؤكد أن الأديان الثلاثة كلها مستمدة من الدين الأول : دين إبراهيم عليه السلام ، وأن ما للعرب من فضائل عرفت قبل الإسلام ، فهى البقية الصالحة من ملة إبراهيم عليه السلام ، وأن مصدر الكتب السماوية الأصلية كله واحد .

أما ما أخذ على جرجى زيدان ، فإنه قسم عصر الإسلام إلى ثلاثة أدوار :

مدح سياسة الخلفاء الراشدين ، وقال بعد مدحها : (على أن سياسة الراشدين ليست على الإجمال مما يلائم طبيعة العمران أو تقتضيه سياسة الملك ، وإنما هى خلافة دينية توقفت إلى رجال يندر اجتماعهم فى عصر . فأهل العلم بالعمران لا يرون هذه السياسة تصلح لتدبير الممالك فى غير ذلك العصر العجيب . وأن انقلاب تلك الخلافة الدينية إلى الملك السياسى لم يكن منه بد) ، فأثبت بذلك أن سياسة الخلفاء الراشدين ليس فيها أسوة للناس ، وأنها من مستثنيات الطبيعة . أما دور العباسيين فمدحه ، لا لأجل دولة عربية ، بل

لكونها فارسية مادة وقواماً . أما دور بنى أمية . فلأنه يمثل الأمة العربية فقد حمل عليه حملة كبرى . وقد وجه له هذا النقد العلامة شبلى النعمانى فى كتاب مطبوع . كما وجهه إليه العلامة رفيق العظم ونشره فى مجلة الهلال ، وقد أشار النعمانى إلى أن معظم ما رمى به جرجى زيدان العرب فى كتابه ، منقول من الفصل الذى عقده ابن عبد ربه فى كتابه (العقد الفريد) . وأن صاحب العقد حين نقل هذه الأقوال . صدرها بقوله : (قال أصحاب العصبية على العرب) . وهى أقوال رددتها الشعوبية من الحاقدين على العرب والإسلام ودحضها النظام والجاحظ وابن قتيبة وغيرهم .

ومن المصادر التى كثر الاعتماد عليها من كتاب التغريب فى تصوير الإسلام والعرب : الأغانى وألف ليلة ، وقد اعتمد فيليب حتى على كتاب الأغانى ، وكتب المحاضرات إعتماداً كبيراً ، واعتبر ما جاء بهما من قصص ونوادر مصادر لتأكيد بعض ما نسبه إلى المسلمين من وقائع التاريخ لرسم صورة المجتمع الإسلامى . والحق أن أى كاتب منصف لا يستطيع أن يعتبر مثل كتاب ألف ليلة وقصص المسامرات والمحاضرات وكتاب الأغانى أساساً علمياً للتاريخ . لأنها ليست من المصادر العلمية ولكنها من كتب التسلية ، وبعد فهل توقفت الاتهامات لتاريخ الإسلام عند هذا الحد ؟ :

• • •

الفصل الثامن

التبشير والوحدة الإسلامية

ركز التبشير على عدة أهداف كبرى كان فى مقدمتها هدفين أساسيين :

الأول : إبعاد الإسلام عن مجال التأثير الإجتماعى والسياسى والاقتصادى باعتباره ديناً ونظام مجتمع فى محاولة لتصوير الإسلام على أنه دين عبادة قاصر على الصلة بين الله وعباده . مباعداً بينه وبين مفهومه الاجتماعى الأساسى فى بناء منهج حياة للأفراد والمجتمعات التى يحكمها .

الثانى : القضاء على وحدة الجامعة الإسلامية ، وفكرة الوحدة الإسلامية وذلك بخلق تيار قوى من الإقليميات . وإقامتها على أساس التاريخ القديم . والحيلولة دون قيام الوحدة العربية بحسبانها عاملا هاماً من عوامل قيام الرابطة الإسلامية .

ومن هنا فقد كانت الجامعة الإسلامية أكبر أهداف التبشير . منذ وقت بعيد فكان له عمله الخطير فى تحطيمها والقضاء على الدولة العثمانية . حاملة لوائها وإسقاط الخلافة الإسلامية . ثم إعلاء أمر الإقليميات والدعوات القومية الضيقة . حتى اختفى فعلا من وجه الدراسات والكتابات التاريخية والسياسية كل ما يتصل بالعالم الإسلامى بحيث أصبح لا يوجد كاتب فى العصر الحديث يعرض لهذا العالم كقوة متكاملة ، وإنما تجرى الأبحاث كلها حول الروابط الإفريقية والآسيوية والعربية ، ولقد بعدت الأبحاث عن العالم الإسلامى ، وكل ما يتصل بالأخوة الإسلامية أو الوحدة ، إلا فى فترات متباعدة بعقد عدد من المؤتمرات الجامعة التى كانت تنطفىء آثارها بعد انعقادها مباشرة وتعلو عليها موجات الإقليمية . والقومية حتى لا تترك أثراً فى النفوس بعيدها إلى مكان الصدارة .

ولقد عرض كثير من المبشرين والمستشرقين لهذا الأمر ، وكشفوا

عن هدفهم واضحاً صريحاً من مقاومة الدعوة إلى الوحدة الإسلامية : يقول لورنس براون : إذا اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً ، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير .

ويقول القس سيمون : إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السمر ، وتساعدهم على التخلص من الشعوب الأوربية . ولذلك كان التبشير عاملا مهماً فى كسر شوكة هذه الحركة ، ذلك لأن التبشير يعمل على إظهار الأوربيين فى نور جديد جذاب ، وعلى سلب الحركة الإسلامية من عنصرى القوة والتمركز اللذين هما فيها ، وإذا كانت الوحدة الإسلامية تكتلا ضد الاستعمار الأوربى فقد استطاع المبشرون أن يظهروا الأوربيين فى غير مظهر المستعمر ، فإن الوحدة الإسلامية حينئذ تفقد حجة من حججها . وسبباً من أسباب وجودها ، من أجل ذلك قالوا : يجب أن نحول بالتبشير مجارى التفكير فى الوحدة الإسلامية حتى تستطيع الفكرة (الغربية المسيحية) أن تتغلغل فى المسلمين .

ولا شك أن هذين النصين بالإضافة إلى نصوص أخرى تكشف بوضوح عن سر الكلمات الغاضبة التى يسرع بعض الكتاب ذوى الولاء لحركتى التبشير والتغريب ، إطلاقها عندما يتحدث أى باحث عن (الجامعة الإسلامية) ومحاولة تصويرها بصورة تاريخية رديئة . وكذلك حين يجرى عرض تاريخ العثمانيين مع العرب ، ومحاولة تصوير العلاقة بينهما على أنها كانت نوعاً من الاستعمار شبيهاً بالاستعمار الغربى .

ولقد أولى التبشير اهتمامه منذ وقت بعيد إلى (الجامعة الإسلامية) ، وتناولها بالبحث والدراسة ، وخاصة فى مؤتمر عام ١٩١١ بعد أن سقط السلطان عبد الحميد حامل لواء هذه الدعوة وسيطرة تركيا الفتاة من — الاتحاديين ، أصحاب الدعوة إلى الجامعة الطورانية على أزمة الحكم وانفتاح الطريق إلى النفوذ التبشيرى ، والاستعمارى والصهيونى جميعاً إلى قلب العالم الإسلامى .

وقد أشار القس نلسن والقس ورنر فى تقريرهما إلى أن اجتماع المسلمين بجامعة إسلامية بكل المعنى الذى يدل عليه هذا اللفظ ، (قد أصبح أمراً وهمياً لا ثمرة له غير توليد أحلام تقلق رجال السياسة) ، وأشار إلى أن مكة والطرق الصرفية ، هما من أكبر العوامل فى بث شعور الوحدة بين المسلمين .

ثم أشار إلى المخطط المنفذ والذى يقضى على استحالة تحقق الوحدة الإسلامية حين قال :

عبثاً يبنى هؤلاء آمالهم على الجامعة الإسلامية . لأن التربية الغربية المسيحية التى تقوم بها (الإرساليات التبشيرية) ، قد انبثت فى دمائهم بفصل مدارس التبشير وباحتياطات استمدتها حكومة هولندة — والإشارة هنا إلى أندونيسيا — من شأنها أن تزعزع آمال المسلمين .

ولكنه أشار إلى هدف الجامعة الإسلامية الحقيقى حين قال :

(إن العامل الذى يجمع الشعوب وربطها برابطة الجامعة الإسلامية هو (الحقد) . الذى يضمره سكان البلاد للفاتحين الأوربيين ، ولكن (المحبة) التى تبثها إرساليات التبشير ستضعف هذه الرابطة ، وتوجد روابط جديدة تحت ظل الفاتح الأجنبى) .

ومما يتصل بالتركيز على الإقليمية ما تحفل به الأبحاث عن تنمية (الكيان اللبنانى) . والاهتمام بالدعوة الفينيقية فى ربوع لبنان حتى يقول (جب) بمنتهى الصراحة : إن المدارس التبشيرية والصحافة شبه التبشيرية والكنيسة ، ستتضافر على تحقيق ميلاد فينيقية جديدة تكون النصرانية فيها أوسع انتشاراً .

ولعل من أكبر الخطط التى قادتها حركة التبشير بنجاح ، وحققت بها نتائج خطيرة هى خطتها فى القضاء على الوحدة الإسلامية وإسقاط الدولة العثمانية . — بحسبانها نقطة تجمع فى مواجهة النفوذ الأجنبى الزاحف — وإلغاء الخلافة .

لقد ركزت قوى التبشير على الدولة العثمانية بهدف إسقاطها وتمزيق الوحدة بين العرب والترك ، وتسليم الأجزاء العربية للاستعمار الغربى .

وقد استطاعت قوى التبشير بالاتفاق مع المحافل الماسونية لخدمة النفوذ الاستعماري والصهيوني السيطرة على حزب الاتحاد والترقي وجماعة تركيا الفتاة في مرحلتيها المتواليين : —

مرحلة حكم الاتحادين : عام ١٩٠٨ — ١٩١٨ م . ومرحلة حكم الكماليين عام ١٩١٩ و ١٩٣٩ م .

والإرساليات التي قدمت إلى استانبول وبيروت ومصر في منتصف القرن التاسع عشر ، قد استعانت بالقوى الماسونية في العراق والشام ومصر على تنفيذ مخططها . والمعروف أن المركز الضخم للعمل كله إنما كان في سلانيك مقر (الدونمة) . وهم اليهود الذين أسلموا تقية ، وعملوا على تقويض الإسلام . بالتعاون مع نفوذ الاستعمار والصهيونية . ويمكن القول : بأن هذا العمل أخذ مجراه الجدي بعد عام ١٩٠١ على أثر المقابلة التي تمت بين هرتزل زعيم الصهيونية . وبين السلطان عبد الحميد . وانتهت بقرار حاسم من السلطان هو استحالة التفريط للصهيونية في شبر واحد من فلسطين . وكانت الخطة هي اقتطاع فلسطين لإنشاء كيان يهودي يمثل رأس جسر للاستعمار . وتحقق خطة الاستعمار التي تقررت عام ١٩٠٧ وهي إيجاد حاجز بشري بين المسلمين بين قارتي إفريقيا وآسيا .

وقد سيطر الدونمة على حركة الاتحاديين الذين كانوا أساساً يتطلعون إلى تحرير بلادهم من التأخر ومن النفوذ الأجنبي بالتماس أساليب الغرب . ومناهجه في الحكم والحضارة ، ومن هذا المنفذ الدقيق استطاع مخطط التبشير أن يحطم القيم الإسلامية تحطيماً تاماً في حركة الاتحاديين . ويدفعهم دفعاً إلى مفهوم عنصري خطير هو الجامعة الطورانية ، ويدفعهم دفعاً إلى تحويل الرابطة العربية التركية إلى صراع دموي . وقد ظل هذا العمل يجري في الخفاء حيث انطلقت دعوة الجامعة الإسلامية التي حمل لواءها السلطان عبد الحميد ، والتي بعثت الرعب والفزع في صفوف الاستعمار والنفوذ الأجنبي . حين استجابت وحدات العالم الإسلامي إلى اللواء الذي رفعه السلطان عبد الحميد . ليس بحسبانه سلطان الدولة العثمانية . بل بوصفه خليفة المسلمين . وكان هدف دعوته التجمع والوحدة في مواجهة الزحف

الاستعمارى . هنالك شعر النفوذ الأجنبى بالخطر الماحق ، فلم يتردد الاتحاديون ثمرة التبشير . والنفوذ الاستعمارى الأول خريجى* الإرساليات الأجنبية من العمل على تقويض النظام السياسى القائم . وتسلم أداة الحكم لتصفية الدولة فى فترة لم تزد عن عشر سنوات . ونقلها إلى مرحلة أخرى أشد خطورة هى مرحلة الانقلاب . الذى قاده مصطفى كمال لتصفية الطابع الإسلامى كلية وإلغاء الخلافة وتحويل تركيا إلى دولة غربية خالصة .

وهذا العمل الذى حققه الاتحاديون للمسألة الشرقية التى كانت أخطر قضايا أوربا فى هذه المرحلة . هو ما أشار إليه كثير من المبشرين . وسجله مؤتمر التبشير العام المنعقد عام ١٩١٠ فى أدنبره وجاء بالنص :

(اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى فى عاصمة السلطنة العثمانية على أن معاهد التعليم التى أسسها الأوربيون . كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية ، يرجح على تأثير العمل المشترك الذى قامت به دول أوربا كلها) .

لقد تأكد مدى الترابط الخطير بين الإرساليات التبشيرية . والمحافل الماسونية التى تقدمت مخطط الصهيونية عام ١٨٩٧ . وكان الانقلاب العثمانى بالنسبة لها معاً عملا بعيد المدى فى فتح الطريق أمام إرساليات التبشير للعمل بحرية على النحو الذى صوره دكتور زويمر كبير المبشرين فى تقريره فى مؤتمر للتبشير العام فى لكنو عام ١٩١١ . حيث قال مشيراً إلى الانقلاب العثمانى عام ١٩٠٨ : (بأنه فتح طريق المبشرين التجول فى البلاد العثمانية والعربية دون موانع)(١) . كما فتح الطريق أمام الصهيونية إلى فلسطين .

أما الموقف الثانى الذى استطاعت أن تحققه حركة التبشير فهى تلك المعاهدة السرية التى ألحقت بمعاهدة لوزان التى وافق عليها مصطفى كمال وحكومة أنقرة وهى تصفية الإسلام . إسقاط الخلافة وإلغاء الحروف العربية . وذلك كشرط لتحرير تركيا . وجلاء القوات المحتلة عنها . وكان ذلك نصراً لا حد له لحركة التبشير . استطاعت أن تستغل آثاره فى العالم العربى وفى فارس والأفغان .

---

(١) ص ٧٣ كتاب الغارة على العالم الإسلامى لشاتليه .

وإذا كانت الدول الأوربية قد اتفقت على أن التبشير هو الذى قام محل المسألة الشرقية ، فإن التبشير هو الذى ألقى فلسطين كثمرة ناضجة فى يد الصهيونية العالمية لتلتهمها وقد كان الاستعمار والتبشير والصهيونية جميعاً يتنافسون على فلسطين منذ ذلك الوقت البعيد ، بحسبانها قوة ضاربة فى وجه الحرية والكرامة الإسلامية والعربية ، فقد كانت الصهيونية هى الجسم الغريب الذى حلم به (كاميل) ، وزير خارجية بريطانيا فى تصريحه الشهير .

وما يتحقق اليوم على أيدى الصهيونية من آثار بعيدة المدى ، إنما كان محسوباً فى ذلك الوقت ، لقد كانت كل الأهداف تلتقى حول هذا العمل ، وكان روتشلد المليونير اليهودى يساعد هذه القوى جميعاً ، ولقد جاء اليوم الذى تقول فيه البرقيات : إنه لولا بعض المدارس الأجنبية الكبرى فى الشرق ، لكان الحال أسوأ بين العرب وإسرائيل ، وأن هذه المعاهد كانت فى مستوى الهدف الذى أنشئت من أجله ، وأنها على كل حال قد بررت تماماً كل قرش وضع فيها (اقرأ تصريح أوتو اسمان فى جريدة النهار البيروتية ٢٣ / ٦ / ١٩٦٨) .

وإذا كان ثمة دول كثيرة قد شاركت فى تمزيق وحدة العالم الإسلامى، فإن بريطانيا هى أكبر الدول عملا فى هذا المجال : مجال تثبيت النفوذ الأجنبى فى العالم الإسلامى والقضاء على وحدة المسلمين ، فقد كانت تملك فيه أضخم نصيب من الغنيمة : الهند درة التاج البريطانى ومصر والعراق والسودان ، ولذلك فهى تعد فى مجال الغزو الفكرى عن طريق التبشير أكبر مخطط ومنفذ . ويبدو هذا فى مراجعة ماذكره (غلاد ستون) رئيس وزراء بريطانيا فى عهد الملكة (فيكتوريا) وهو يمسك بيده المصحف ويقول لأعضاء مجلس العموم البريطانى :

(إنه ما دام هذا الكتاب فى أيدى المصريين ، فلن يقر لنا قرار فى تلك (البلاد) ومن خلال هذه الصيحة بدأت حملة الغزو التبشيرى تنفيذ مخططها الذى برز فى (تعليمات) (دوفرين) الرجل الاستعمارى ، الذى قدم مصر بعد الاحتلال ووضع أسلوب العمل ، وركز على التعليم بحسبانه العامل الأساسى لتدعيم نفوذ الاستعمار البريطانى .

وجاء بعده كرومر الذى قنن النفوذ الاستعمارى الثقافى ، وأشار فى تقاريره المختلفة إلى أهمية التبشير والعمل فى مجال التعليم وفى مجال الصحافة والثقافة .

وعن طريق كرومر عمل فى مصر المبشر (دوجلاس دنلوب) ، مستشاراً لوزارة المعارف منذ عام ١٨٨٥ تقريباً إلى عام ١٩١٩ تقريباً وجاء بعده قزم آخر من أقزام الاستعمار الثقافى .

ومنذ صيحة غلادستون وضع الإنجليز سياسة تعليمية ، وتبشيرية خطيرة الأثر تركز على إقصاء الدين عن مناهج التربية والإسلام عن مناهج التعليم والثقافة ، فهو ليس سوى عبادات وصلوات وطرق صوفية ، والقرآن يقرأ للبركة أما الإسلام كدين ومنهج مجتمع ، ونظام صالح للتطبيق فى مجال القانون والدولة فقد أقصاه كرومر وهاجمه هجوماً عنيفاً ، وكانت مدرسته الفكرية هى التى حكمت بعد ثورة عام ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول ولطفى السيد .

* * *

ثانيًا
مخططات الاستشراق

مدخل إلى البحث
المقاصد والغايات
التي يقوم عليها الاستشراق

أولا :

إذا أردنا أن نعرف ماذا يهدف إليه الاستشراق ، وما هي مقاصد ذلك العمل الواسع الضخم المتصل بالتراث الإسلامي ، والفكر الإسلامي ، والثقافة الإسلامية ، فإن وقائع كثيرة تستطيع أن تلقي الأضواء الكاشفة على هذه الغايات . أنهم يصدرون عن ثقافتهم وعقيدتهم التي تختلف عن الإسلام من وجوه كثيرة :

ولا يستطيعون أن ينسوا ارتباطهم بأقوامهم ، وحضارتهم ونفوذهم السياسي المتمثل في الاستعمار ، والتفرقة العنصرية بين جنسهم الأبيض وبين الأجناس الملونة ، يقول محمد كرد علي(١) : (إني أعلم أنهم يعملون لسياسة بلادهم ، أولا وأن منهم متعصبين يتخذون الاستشراق سلماً ، لخدمة دينهم على نحو ما كان أسلافهم في القرون الوسطى) .

وهكذا تتقاسم اتجاهاتهم وأهدافهم الروابط السياسية والروابط الدينية ، ومن وراءهما وجوه أخرى في الاختلاف والاتجاه ، فهناك روابط سياسية بالاستعمار البريطاني والاستعمار الفرنسي ، وهناك ارتباط بالمسيحية ، وارتباط باليهودية ، وهم أحياناً يجمعون بين الهدفين والغايتين ، كما نجد في ماسينيون الفرنسي وجب الإنجليزي فهما متصلان بالكنيسة ووزارات الاستعمار .

ويرى كثيرون أن الاستشراق ولد من أبوين غير شرعيين هما : الاستعمار والتبشير ، وأنه ما زال يعمل من أجل هذا الغرض الذي وجد من أجله ، وإن

(١) الإسلام والحضارة العربية .

غير أساليبه وجلده مرات ومرات ليتلاءم مع الظروف المختلفة . وخاصة بعد أن تكشفت أغراضه للمفكرين المسلمين الذين أخذوا يدحضون شبهاته .

أما الاستعمار فهو يرى أن المفهوم الإسلامى السليم . من شأنه أن يعطى المجتمع المسلم قوة تحول دون سيطرته واستمراره . فهو يستهدف تقويض هذه العقيدة . وإحلال مفاهيم تحل الولاء والصداقة مع الأمم المحتلة . تحت اسم الحضارة أو العالمية أو وحدة الثقافة والفكر البشرى .

أما التبشير فإنه يستهدف الحيلولة دون توسع الإسلام وانتشاره . حتى لا يكون منازعاً أو منافساً للمسيحية فى البلاد التى تحاول أن تقوم بالتبشير فيها . والخطر الأكبر هو أن تصل مفاهيم الإسلام الصحيحة إلى عالم الغرب نفسه .

وقد أضيف إلى هذين الأبوين أب ثالث هو الصهيونية . التى تستهدف من سيطرتها على الاستشراق الحيلولة دون تجمع العرب فى وحدة تقاوم الصهيونية . وتواجه إسرائيل . ولذلك فإن مستشرقى اليهود يعملون فى هذا المجال .

ولقد كان للارتباط الجذرى بين التبشير والاستشراق أخذاً وعطاءاً . أثره فى أن كل ما أورده كتاب التغريب من العرب الذين صادتهم معاهد الغرب . هو من نتاج التبشير والاستشراق . ولقد كانت أهداف التبشير واردة فى أعمال المستشرقين ، ولقد وجد إنتاج المستشرقين ، رواجاً على أيدى المبشرين ، ومعاهدهم وإرسالياتهم . وجامعاتهم على صورة مناهج ودراسات فى مجال الدراسات الإنسانية ، على النحو الذى ينتقص القيم الإسلامية فى التاريخ والعقيدة واللغة وفى مجال الشريعة والاقتصاد والتربية .

وإذا كان بعض المستشرقين يرى أن هدف الاستشراق هو تقديم أضواء على الفكر الإسلامى والمجتمع الإسلامى من أجل القدرة على وضع الخطط السياسى للسيطرة الاستعمارية ، والبحث عن ثغرات فى الفكر الإسلامى ، لإثارة الشبهات حولها . وتحوير القيم الأساسية ، وتأويل بعضها . كما حاول الاستشراق بالنسبة لقضية الجهاد . وقضية كون الإسلام دنيا ودولة ونظام مجتمع .

ولعل أخطر ما يتصل بعمل المستشرقين : هو (النفوذ) : والقدرة على فرض هذا العمل المليء بالشبهات والزيف على مناهج التعليم والثقافة والفكر فى عالم الإسلام وكسب الأنصار له — هذا هو الخطر الحقيقى لمخططات الاستشراق . القدرة على فرض هذا الاتهام وإذاعته وتسليمه من يد إلى يد ونقله إلى أهل التبعية العرب من الشعوبيين وترديده فى كل مناسبة .وخلق معارك حوله لتعميق مفهومه ، وتوسيع دائرة الانتفاع به ولقد كان الدكتور طه حسين فى مقدمة الذين أعلنوا الإعجاب والتقدير لمناهج المستشرقين .كما هو حامل لواء الدفاع عنهم بل والدفاع عن أهوائهم حين كان يقول أن هذه الحقيقة أو تلك فى تاريخ المسلمين أو فكرهم ، مما لا يرضى عنها الاستشراق ويدعو إلى التخلى عنها ، وهذا أسلوب لا يقوم عليه إلا واحد من أهل التبعية الكبرى حتى قال بعضهم : أن طه حسين ليس إلا مستشرقاً من أصل عربى كانت أمانته للفكر الغربى ، وللمذاهب الاستشراق تفوق أمانة المستشرقين أنفسهم ، وكان متابعاً لهم مقتنعاً بما يقولون إلى أبعد حدود الاقتناع . حتى فى تلك المسائل الخطيرة كقولهم ببشرية الرسول وبشرية القرآن وكانت كتاباته توحى بذلك ، وإن لم يعلنه جهاراً ، وكان أبلغ ما فيه من ولاءه وعاطفته لانطواء المسلمين تحت لواء الغرب ، وانصهار الإسلام فى بوتقة الأممية والمسيحية واليهودية والغرب جميعاً . لا يرى للعرب والمسلمين سبيلا لحياة أو لنهضة إلا فى هذا الانصهار . وهذا الاحتواء وهذا الذوبان وقد صرح بذلك فى كتبه ، وخاصة ما أورده فى كتاب (مستقبل الثقافة) ، وكان يرى أن العرب قوم مستعمرون كالرومان والفرس . وقد حرص على طبع الكتب التى تثير الشبهات ، وفى مقدمتها رسائل إخوان الصفا ، وجدد ألف ليلة وجدد سيرة المجان جميعاً ، وخرج من دراستهم بشبهة مسمومة ، هى قوله أن القرن الثانى للهجرة كان عصر شك ومجون . وقد اعتمد على مصادر الاستشراق اليهودى فى كتاب أنساب الأشراف الذى طبع فى الجامعة العبرية فى إسرائيل وجاراهم فى إنكار شخصية :عبد الله بن سبأ ، وجارى الاستشراق اليهودى رأيه فى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وأعلن أنه يشك فى وجودهما بالرغم من الإشارة إليهما فى التوراة والقرآن .

وقد تابع طه حسين كثيرون فى هذا منهم سلامة موسى وحسين فوزى

وزكي نجيب ومحمود عزمي وعلي عبد الرازق ، ولقد لقحت مناهج المستشرقين في البحث والنقد العلمي قرائح كثيرة من تلاميذ المستشرقين فنهجوا نهجهم وأخذوا طريقهم فيما حاولوا من دراسات وخاصة في مجال الجامعة ، والثقافة والصحافة ، وحملوا نفس خصومة المستشرقين الدينية والسياسية للإسلام والمسلمين ، وكانوا أشد قسوة على أهليهم من الغربيين .

وفي مختلف الدعوات الخطيرة التي أحدثت تحولات فاصلة في تاريخ الإسلام والمسلمين في العصر الحديث كان الاستشراق هو قائد الشبهة ، ثم يتبعه الكتاب الذين يكتبون بالعربية من أهل التبعية والتغريب والشعوبيين . وكان ذلك واضحاً في الدعوة إلى العامية بدأها ويلكوكس وويلمور وغيرهم . وتابعها سلامة موسى ولطفي السيد وفي الدعوة إلى الإقليميات والقوميات الضيقة والفينيقية والفرعونية بدأها فمبري وكرومر وتابعه طه حسين ولطفي السيد وغيرهم .

ومن آثار الاستشراق الخطيرة تلك التوجيهات التي يقدمها المستشرقون لأممهم . وأغلب المستشرقين يجمعون بين العمل مع الكنيسة ومع دوائر الاستعمار في وقت واحد ، وأبرز هؤلاء (جب في الاستعمار البريطاني) ، و (ماسنيون في الاستعمار الفرنسي) (سنوك هرنجو ونجه في الاستعمار الهولندي) ، ومن توجيهات هذا الأخير لأمته التي كانت تحتل الملايو وأندونيسيا قوله :

(يجب على الحكومات الأوربية التي استولت على بلاد الإسلام ، أن تجتهد في إظهار التناقض بين الإسلام والمدنية العصرية ، وإقناع ناشئة المسلمين بأنهما ضدان لا يجتمعان فلا بد من رفع أحدهما : ولما كانت المدنية الحاضرة هي نظام كل شيء ولا مندوحة عنها لمن يريد أن يعيش ، كان من البديهي أن الذي سيرتفع من النقيضين هو الإسلام . وقد علق الأمير شكيب أرسلان على هذا التوجيه الخطير فقال هذا المشرق الهولندي ، وكرومر من قادة الاستعمار على إظهار عجز الإسلام عن امتصاص الأحكام العصرية ، وإثبات كونه نظاماً قديماً قد بلي . ولم يعد صالحاً على أمل أن الفوج الجديد من المسلمين

الذين لا غنى لهم عن الحياة ينبذون الإسلام ظهرياً ، وبنبذه تكون أوربا قد تخلصت من أكبر خطر يحيق بها وهو الحكم الشرعى الذى لا يجيز للمسلم أن يخضع لأمير على غير دينه . إنهم يتوجسون خيفة من الحكم الذى يوجب على المسلم أن لا يطيع غير المسلم . إلا ريثما يتيسر له نقض طاعته وما هناك من أحكام الجهاد ومن وجوب تضامن المسلم مع أخيه مما جعل الإسلام بناءاً واحداً .

ولا ريب أن الاستشراق قد استهدف من محاولاته . تزييف الفكر الإسلامى للوصول إلى غاية أساسية . وهى إخضاع المسلمين لحكم الاستعماريين سواء أكانوا بأنفسهم أم باتباعهم . ولذلك فإن أكبر ما يركز عليه هو هدم قاعدة الترابط بين الدين والدولة فى الإسلام ، وهدم قاعدة الجهاد وهدم قاعدة القرآن . كمصدر أساسى للتشريع ، وهدم الشريعة الإسلامية كمصدر أساسى للقوانين . وفصل الفكر الإسلامى الحديث عن الفكر الإسلامى العام تحت أسماء الثقافات العربية . والفارسية ، والتركية ، وغيرها . وإسقاط الخطر الكامن فى تأثير التاريخ الإسلامى ببطولاته وأمجاده بإثارة الشبهات حول وقائع التاريخ الإسلامى . وحجب جوانب عظمته وقوته وإيجابياته . وإعلاء شأن الخلافات والصراعات والفرق ومظاهر الانقسام والتفسخ .

وكذلك العمل بالخداع على استسلام الفكر الإسلامى المعاصر للفكر الغربى تحت دعوى زائفة بأن الفكر الإسلامى الأصل قد تأثر بالفكر اليونانى . وأنه لم يكن للمسلمين حضارة مستقلة ، وإنما كانت حضارتهم جزء من حضارة الغرب التى بدأت باليونان وانتهت بالإنجليز والفرنسيين .

وهكذا نجد أن الهدف الأساسى واضح . وهو محاولة دفع هذه الأمة الإسلامية عن النهوض وحجبها فى دائرة الزيوف والزيوف ومحاولة احتوائها فى دائرة التبعية العلمانية والأممية .

(١)

يدرس الاستشراق خصائص الفكر الإسلامى بروح مسبقة قائمة على أحكام متعارضة تستهدف القضاء على روح الإسلام ، وهو فى سبيل ذلك

تحاول استغلال الثغرات الموجودة فى المراجع العربية القديمة لتخرج منها استدلالات وتخريجات جديدة تتفق مع مقاصد الاستشراق الأساسية . وهم يعمدون إلى تصيد النصوص لتأييد الفكرة المسبقة القائمة فى نفس الباحث أساساً والإغضاء عما يعارضها أو يضادها . كذلك فإن اختيار المخطوطات التى يقومون بإحيائها له غاية واضحة ضمن مخططهم هذا ، فالتراث مسروق أساساً ، وهم يخفونه ولا يمكنون أهله من الاطلاع على (بعضه) ، وينشرون منه ما يتفق مع أهدافهم واتجاهاتهم المتأثرة بالكنيسة والاستعمار والصهيونية .

يقول الدكتور حسين الهراوى (متحدثاً عن المستشرق فنسك) ، إذا أراد أن ينال من الإسلام أمراً فإنه يفرض فرضاً ثم يبحث عن الآيات التى قد تتناسب مع هذا الرأى الذى فرضه ، فإذا وجد آية تدحض رأيه حذفها حذفاً ، وأنكرها إنكاراً حتى يخرج بالنتيجة التى تزرع الشك فى فؤاد من يطلع عليها من غير تمحيص . هذه طريقة المستشرقين التى يتبعونها فى كتاباتهم عن الإسلام نفسه ،أو عن حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) (وعندما يريدون أن يستقصوا مسألة فى القرآن وهى طريقة قديمة فى أقدم ما ورد فى كتب المستشرقين والغرض منها ظاهر جلى هو تزويد جماعة المبشرين والمستعمرين بحجج شبه منطقية يزرعون بها الشك فى عقائد المسلمين ، ويحولون بها دون تمسكهم بدينهم وهى إحدى الطرق التى وصفها رواد الاستعمار منذ زمن قديم ، وكانت إحدى وسائلهم مع تقوية اللهجات العامية حتى لا يتفاهم المسلمون ،ولا يفهمون لغة قرآنهم – ويقول المستشرق (سيكارو) أن الإسلام فى روحه الخاص قوة مخالفة لاحتياجاتنا ورغباتنا ونزعاتنا فمن مصلحتنا التقليل منه بين الشعوب الخاضعة لسلطاننا) .

(٢)

لا ريب أن التهجم على القرآن الكريم والرسول (صلى الله عليه وسلم) هو أكبر مقاصد الاستشراق ، ولأنه يخدم كلا من الغايتين السياسية والدينية فقد ركز المستشرقون معظم أبحاثهم حول هذا الموضوع . وكانت وجهات نظرهم مشوبة بالهوى حين يقارنون القرآن بالكتب المقدسة لا ينتبهون إلى فارق

بعيد المدى وهو أن القرآن كتاب موثق لم يتصل به أى تغيير أو تحريف . بينما أصاب الكتب المقدسة التحريف والتغيير . فالمقارنة بينهما باطلة .

كذلك فإن القول بأن هناك تشابهاً بين ما ورد فى القرآن وما ورد فى الكتب المقدسة . فإن ذلك لا ينقص من قدر القرآن ، لأن مصدر الكتب السماوية واحداً . وهو من عند الله . ولكن القرآن هو الذى احتفظ بالنص الربانى الأصيل بينما حرفت الكتب الأخرى . هذا فضلا عن أن القرآن فيه بيانات إضافية لم ترد فى الكتب المقدسة السابقة له .

(٣)

يعمل الاستشراق على الكسب من الدراسات الإسلامية من أجل تحسين وسائل التبشير وتجنب الثغرات . ومعرفة الجوانب التى يستطيع أن يثير الشبهات منها فى وجه المسلمين .

وقد صور هذا المعنى فى وضوح وصراحة كاملين المستشرق هومان استنجل أكبر فى كتابة (عقائد الإسلام) حيث يقول : أننا يجب أن نكسب وجهات نظر جديدة لعقائدنا المسيحية بناء على فهمنا العميق للتعاليم الإسلامية . وفهمنا لنفسية المسلم المتدين . وذلك حتى نتجنب نقاط الضعف فيما يستخدمه من أوله حتى اليوم ، وحتى نبنى من جديد دفاعاً جديداً عن العقيدة المسيحية . دفاعاً يضع فى حسابه روح الإسلام والتطور الفكرى للمسلمين فيما يتعلق بعقائدهم خلال ما يزيد على ألف عام .

وقد جرى هذا الاتجاه فى ظل الخطة . الذى عمل الاستشراق لها منذ وقت بعيد وهى أن يضع لكل مسألة أو قضية أو معضلة . إجابة مستمدة من محاولته المتعمدة لتغيير مجرى الفكر الإسلامى . وإخراجه من هدفه الحقيقى وغايته الأساسية .

(٤)

البحث عن العوامل الأجنبية التى كثرت فى آداب الأمم الإسلامية ، والبحث عن الفكر اليونانى فى دراسات الفلسفة وعلم الكلام والتوسع مع

المغالاة فى تصوير أثر الغرب فى الفكر الإسلامى ، ومحاولة القول بأن هناك حضارة واحدة ، وأن حضارة الإسلام رافد من روافدها ، وتسمية مراحل التاريخ الأدبى بأسماء أوربية . والسيطرة على مناهج البحث وأساليبه : وخاصة نظرية النقد الأدبى ونظريات الاجتماع والاقتصاد والسياسة .

هذا مع أن هذه العوامل الأجنبية لم تكن إلا على هامش الفكر الإسلامى الذى تشكل منهجه أساساً بالقرآن الكريم واكتمل فى حياة الرسول ، حيث اكتملت أصول العلوم الإسلامية قبل ترجمة الفكر اليونانى .

(٥)

المبالغة فى العمل لإيقاع الشك فى إصالة الفكر الإسلامى ، وإلى الادعاء بأن كل ما قدم من جوانب بناءة إيجابية إنما جاءته من الفكر الوافد بينما والعكس هو الصحيح إذ أن الفكر الوافد لم يقدم للفكر الإسلامى شيئاً ذا بال ، فقد كان قد تكامل قبل ذلك . وأن كل ما قدمه الفكر الوافد هو عبارة عن شبهات أمضى المفكرون المسلمون قرنين كاملين فى الرد عليها . ودحضها وتحرير الفكر الإسلامى منها ورده إلى إصالته .

(٦)

يكشف الاستشراق عن غلبة الهوى والغرض . حين يعنى عناية شديدة بالشخصيات الموصومة فى الفكر الإسلامى ، ويعلى من شأنها بينما يتجاهل الشخصيات السوية أمثال بن الراوندى ومسيلمة الكذاب والحلاج والسهروردى وبشار بن برد وأبى نواس .

ولا شك تجد هذا الاتجاه واضحاً فى مختلف المجالات التاريخية :

فى دراسات بروكلمان ولامانس . وفى مجال الشريعة الإسلامية فى دراسات جولد سيهر وشاخت ، وفى مجال الأدب ودراسات جب ولويس شيخو وبلاشيرو بيرك فى السيرة وتاريخ النبى فى دراسات مرجليوث وفنسنك .

بل نجد كثيراً من المستشرقين يهتمون بمسائل فرعية متناثرة يتصيدون منها شبهات فيجمعون بينها ليجعلوا منها كياناً متكاملا .

كذلك على الاستشراق بدراسة الفتن الأهلية . والخلافات المذهبية ، ومظاهر الانقسام والتفسخ ودراسة الحركات المضادة للإسلام مما أسموه دراسة إسلامية .

وحين يركزون الاهتمام بالتصوف الفلسفي — وهو مما يخرجه علماء المسلمون عن أصول الفكر الإسلامى لاختلافه مع الأصول الأصيلة للتوحيد — تدل وجهتهم على الهوى والغرض ، ذلك أن الإلحاح على هذه الدراسات . والإصرار على نشرها وإذاعتها ، وطبع كتبها فى أفق الفكر الإسلامى بعد أن تجاوزها هذا الفكر . وحدد موقفه منها لا ريب تدل على سوء النية والهوى المقصود والغرض المبيت .

ويرمى إلحاح الاستشراق على التصوف إلى هدم الفواصل الكبرى التى تضع للإسلام ذاتيته الخاصة مما يؤدى إلى انصهاره فى أتون ما يسمى بالتصوف البشرى ، بما فيه من معارضات للتوحيد ، وما فيه من سموم كوحدة الوجود والحلول والاتحاد والتناسخ وغيرها .

(٧)

التركيز على العاميات والعناية بدراستها واعتبارها اللغة المستعملة . وإثارة الاهتمام البالغ بها ، ويستهدفون من هذه العناية القضاء على اللغة الفصحى ، والقرآن ولا ريب أن وراء العاميات نوايا استعمارية ، وتبشيرية واستشراقية ، تستهدف القرآن بالذات وتعمل على توسيع الفجوة بين اللغة الفصحى والعامية لتمزيق الوحدة العربية ، ولبناء آداب عامية تجعل من العسير الارتفاع إلى مستوى اللغة الفصحى . وبذلك يعجز المسلمون عن فهم القرآن الكريم . الذى يرتفع إلى مستوى عال من البيان .

(٨)

التوسع فى بيان الفروق بين الشرق والغرب . وإنكار تقدم العرب والمسلمين واتجاههم إلى مستوى الغربيين ومحاولة إعلاء الغرب ، واعتبار الشرق تابعاً له فى الحضارة والثقافة ، والقول بأن منهجهم فى البحث وأسلوبهم فى الثقافة هو الأسلوب الوحيد الذى يجب أن يخضع له الشرق وأن تاريخ

العالم هو تاريخ الغرب وحده ، وأن على الشرق أن يتبع أسلوب فى البحث العلمى . وطرائقهم فى التفكير مهما كانت مختلفة ومتباينة ويغلبها الهوى .

(٩)

يبدو مكر المستشرقين وذكائهم فى تقديم كتب رئيسية عامة ، يرجع إليها الباحث السريع فلا يحتاج إلى الأصول الأساسية : قدموا للباحثين كتباً فى التاريخ الإسلامى والحضارة واللغة من قواميس ودوائر المعارف مكنت المثقفين من الحصول على المعلومات العامة فى سرعة ويسر وهى مطبوعة طباعة جيدة فأغنت الباحثين عن مراجعة الكتب الإسلامية الأصيلة . لقد وجد المثقفون والباحثون كتب الاستشراق سهلة حتى حين لم يتيسر لهم مراجعة المطولات من المصادر الإسلامية ، وقد أمكن أن يقدموا من خلال هذه الكتب وجهات النظر المضطربة الغازية ، التى تحقق أهدافهم فى تمزيق وحدة الفكر الإسلامى ، ونقله إلى مستويات إقليمية وإثارة السموم والشبهات

(١٠)

فى خطة الاستشراق تمزيق الجبهات الواحدة إلى أكثر من جهة ، ومن ذلك :

محاولة خلق تصور بوجود أكثر من إسلام ، للقول بأن الإسلام يتشكل فى كل مجتمع بصورة خاصة سواء عن طريق المجتمعات ، أو العصور التاريخية ، أو المذاهب (إسلام إفريقى أو أسيوى) ، (إسلام شيعة وسنة) ، (إسلام عصر الخلفاء وعصر الأمويين) ، الهدف تفريق وحدة المسلمين الفكرية ، والادعاء بأنهم لا يلتئمون على عقيدة واحدة .

والهدف هو تفريق المسلمين لصالح الاستعمار :

والمعروف أن المسلمين مهما تفرقوا فى مجتمعات وكانت لهذه المجتمعات عادات وتقاليد أو اهتمام بعنصر الوطن أو الأمة فإن ذلك لا يؤثر فى القيم الأساسية العامة التى هى أعلى عند المسلمين من الوطن أوالأمة ، والتى هى بمثابة الإطار العام للفكر الإسلامى الذى يربط هذه المجتمعات بوحدة أساسية

شاملة . كذلك فإن اختلاف مذاهب المسلمين إلى سنة أو شيعة أو غيرها فإنها لا تزيد عن الاختلاف فى الفروع مع وحدة المسلمين جميعاً فى الأصول العامة . وليس الأمر فى هذا شبيه بالاختلاف بين الكثلكة والبروتستنت ، والأرثوذكس فذلك خلاف يصل إلى الأصول العامة فى العقيدة .

(١١)

تحاول المستشرقون أن يصوروا الدين بأنه جملة من التقاليد والعادات ؛ فى محاولة لإعلان شأن هذه التقاليد وإعطائها قوة السيطرة فى المجتمعات مما تحجب الأخلاق التى هى جزء أساسى من الدين . والتى هى من الأسس الثابتة التى تختلف مع العادات التى تشكلت فى المجتمعات نتيجة عادات وثنية سابقة . والتى قضى عليها الإسلام .

(١٢)

أهداف المستشرقين :

أولا : إقناع قومهم أولا بعدم صلاحية الإسلام لهم كنظام حياة . وذلك بإثارة الشبهات حول جزئيات عقائده وتشريعه . ولعل هذا هو أخطر الجوانب التى قام من أجلها الاستشراق والتبشير وذلك على أثر ما حدث بعد انتهاء الحروب الصليبية . وعودة المحاربين إلى أوربا وما حملوه من صورة باهرة لمعاملات المسلمين لهم . ولسماحة الإسلام مما اعتبرته الكنيسة معارضة لوجهة نظرها التى دفعت بها حملتها الصليبية وادعائها المضلل عن المسلمين . ولذلك فقد عمدت الكنيسة إلى إخراس الألسنة المنصفة . ومحاولة ترجمة القرآن لتزييف مفاهيمه . ومحاولة انتقاص مفاهيمه ، وذلك هدف غربى خالص مصدره خشية الغرب من اقتحام المسلمين لفكرهم وبلادهم وكسب أنصار له . ومن هنا كانت الحملة المضادة بالتبشير فى محيط المسلمين . ومحاولة نشر شبهات الاستشراق فى المدارس والصحف والكتب الثقافية .

وقد استغل الاستشراق كراهية أوربا التى جاءت بعد السيطرة التركية على أجزاء من أوربا خلال ثلاثمائة سنة تقريباً . وما صحبها من كراهية . وتعصب

حمل الاستشراق على تعميقه . وتغذيته بالشبهات والأباطيل بهدف حجب الإسلام عن أوربا ، والحيلولة دون نفاذه إليها .

ثانياً : تأييد الاستعمار وخدمته فى تحطيم العوامل التى تحول بين المسلمين وبين الاستسلام للغزو الاستعمارى والنفوذ الغربى . وهى تأويل مادة الجهاد ، وتحطيم وحدة الدين والدولة فى الإسلام ، وعزل الشريعة الإسلامية عن التطبيق فى المجتمع الإسلامى ، وإحلال أنظمة قانونية واقتصادية تربوية . وسياسية لتحل محل النظام الإسلامى بالقوة .

(١٣)

فصل المسلمين عن جذورهم الثابتة الأصيلة بتشويه تلك الأصول ، وتقطيعها وعزلها عن مصادرها وأصولها ، وهدم المقومات الأساسية للكيان الفردى والاجتماعى . والنفسى والعقلى للمسلمين ومن شأن هذا أن يفتح الباب إلى الاستسلام أمام الاستعمار ، وثقافته وفكره من ناحية . والتأثير فى نفوس المسلمين وزحزحة عقائدهم بما يفتح للتبشير المسيحى طريقاً إلى تحويل بعض ضعاف العقيدة إلى ملاحدة واتباع .

إن (العلاقة الجذرية بين التبشير والاستشراق) . يجمعها الحقد على الإسلام والتعصب والنزعة الاستعمارية .

(١٤)

لم تتوافر فى المستشرقين شروط العلماء المتخصصين المتعمقين . ولم يتوفر فى الاستشراق القول بأنه منهج وفلسفة له مفاهيم أساسية ، وثابتة ذلك أنهم أقاموا مفاهيمهم وكتاباتهم على الرأى المسبق المصبوغ بالهوى والتعصب وعدم الإنصاف والرغبة فى الاهتمام بالفرق والشخصيات المنحرفة والمذاهب الضالة ، وإنكار أعظم ما يؤمن به المسلمون وهو الوحى والنبوة .

أهم وجوه الخلاف هو :

خطأ المقارنة بين المسيحية والإسلام ، أو بين القرآن والتوراة والإنجيل ، لما بينهما من فروق فى التفسيرات التى طرأت على الكتب ، والرسالات السابقة للإسلام فحولتها عن طابعها الأصيل .

وكذلك الاعتماد على اختلاف المصادر وتضارب الروايات .

ومن إخطائهم وضع مسلمات وأسس مفترضة حسب الهوى والغرض . ثم دفاعهم عنها ، فضلا عن إخضاع النصوص للفكرة التى يفرضونها والتحكم فيما يرفضونه ويقبلونه من النصوص . وتحريفهم لهذه النصوص فى كثير من الأحيان تحريفاً مقصوداً وإساءتهم فهم العبارات حين لا يجدون مجالا للتحريف وتحكمهم فى المصادر التى ينقلونها منها .

(١٥)

نقطة الخطأ التى ينطلق منها المستشرقون فى البحث هى : إنكار الوحى مما يصل بهم إلى القول : بأن القرآن من عمل محمد صلى الله عليه وسلم . وأنه متأثر بالتعاليم اليهودية والنصرانية ، وأنه اعتمد على الحضارة الرومانية وأن القانون الإسلامى متأثر بالقانون الرومانى .

وتتركز أبحاثهم جميعاً حول هذه الشبهات فمنهم من يتحدث عن التأثرات الخاصة بالتوراة والإنجيل .

ويرجع هذا إلى عدم القدرة على التحرر من الهوى والعجز عن استيعاب خصائص العصور الإسلامية ومقومات الإسلام . ولا ريب أن أموراً كثيرة يعجز المستشرق بتكوينه النفسى ومصادره العقلية عن فهم هذه المعانى ، وخاصة منها ما يتصل بالهجرة ومفهوم الإسلام كوطن وجنسية . ومن حيث أن الهجرة مبدأ التحول من الجماعة إلى الدولة . فإن المؤرخ توينبى يعتبر الهجرة مبدأ التدهور فى تاريخ الرسالة المحمدية .

* * *

ثانياً : دوافع الاستشراق

تجمع المستشرقون فى دوافعهم بين الدافع الدينى والدافع السياسى ، وكلاهما معاً يشكلان تحدياً واضحاً يرمى إلى استدامة سيطرة النفوذ الغربى على البلاد الإسلامية ، وهم يستجيبون لغاياتهم ومطامعهم ولا ينسون عواطفهم

يقول الدكتور هيكل : إنهم متأثرون بالنصرانية الأوربية بأثراً يجعل أكثرهم ينظر إلى الأديان نظرة تملؤها الريبة . ويجعل الأقلية المتمسكة بمسيحيتهم يتأثرون بما كان بين المسيحية والعلم من نضال . فيخضعون فى بحوثهم الإسلامية لمثل ما خضع له أمثالهم فى بحوثهم المسيحية . أو بحوثهم الدينية بوجه عام .

ويشير الباحثون إلى أن أهم بواعث الاستشراق تلك المصالح المرتبطة بالشرق . وأهداف التوسع فى الميدان الاقتصادى والتجارى .

ويقول الدكتور حسين الهراوى : إن المستشرقين هم طلائع المبشرين . وهم الذين يمهدون السبيل لتشكيك المسلمين فى عقائدهم . كما أنهم يمهدون للمبشرين سبيل الطعن فى الإسلام . وفى نبيه صلى الله عليه وسلم . ويزودونهم بأنواع شتى من الشعوذة العلمية . باسم الاستنتاج التحليلى .

أجمع الباحثون على أن المستشرقين يعملون على :

أولا : إخضاع النصوص للفكرة التى يفرضونها حسب أهوائهم . والتحكم فيما يرفضونه . أو يقبلونه من النصوص .

ثانياً : تحريف النصوص فى كثير من الأحيان تحريفاً مقصوداً . وإساءتهم فهم العبارات حين لا يجدون مجالا للتحريف .

ثالثاً : تحكمهم فى المصادر التى ينقلون منها فهم ينقلون مثلا من كتب الأدب ما يحكمون به فى تاريخ الحديث . ومن كتب التاريخ ما يحكمون به فى تاريخ الفقه . ويصححون ما ينقله الدميرى فى كتاب الحيوان . ويكذبون ما يرويه مالك فى الموطأ .

رابعاً : وضع مسلمات ، وأسس مفترضة حسب الهوى . والبحث عن نصوص تؤيدها .

خامساً : جمع ما تفرق من شبهات لإعطائها صورة كاملة : مثال ذلك ما قام به المستشرق الألمانى ، ولهلم هورنباخ من جامعة بون من جمع قطع ونتف . وشطائر من كتابه الإصابة لابن حجر على أنها كتاب الردة

لابن حجر التى ألفه أبو زيد وثيمة بن موسى بن الفرات المتوفى عام ٢٣٧ هـ . وهو فارسى الأصل . وقد ضاع هذا الكتاب . وإن كان ابن حجر قد أشار إليه فى بعض المواضع . فما كان من المستشرق وللم إلا أن جمع هذه القطع على أنها تراجم الأشخاص الذين ارتدوا عن الإسلام ، ولا يعمل مثل هذا العمل إلا مغرض صاحب هوى لأنه لا يتفق أساساً مع البحث العلمى الصحيح . ولكن الهدف هو جمع أسماء المرتدين عن الإسلام .

ومن أهوائهم :

شبهة القول : بأن العرب كانوا قبل البعثة الإسلامية على حضارة ونهضة ، وأن دور النبى صلى الله عليه وسلم لم يزد على أنه نهض بهم . فنهضوا والحقيقة أن العرب كانت قبل الإسلام قبائل متفرقة متصارعة . وأن الإسلام هو الذى وحدهم فى أمة ودفعهم إلى آفاق النهوض والتوسع .

من أساليب الفكرة المسبقة بالهوى والغرض . القول : بأن القرامطة ، وهم الذين انقضوا على الدولة الإسلامية بالتآمر وتعاونوا مع خصوم المسلمين هم : طلاب عدل وإصلاح وهم الذين عجزوا عندما امتلكوا إرادة الحكم أن يحققوا أى منهج يمكن أن يصورهم بأنهم دعاة حق بل انكشف باطلهم وزيفهم .

ومن الفكرة المسبقة بالهوى القول باختلاف الشعوب . وأن هناك إسلام للهند وإسلام تركيا وإسلام مصر ، وهذا القول ينكشف زيفه عندما نجد أن المسلمين جميعاً فى مختلف أجزاء الأرض ، مجمعون على الأصول العام للعقيدة والشريعة الإسلامية ، وأن الخلاف هو فى الفروع .

ومن الفكرة المشبعة بالهوى : الادعاء بأن المجتمع الإسلامى مجتمع مضطرب . واعتمادهم فى ذلك يأتى على قصص ألف ليلة ، أو شعر — أبى نواس وبشار .

كذلك عمد الاستشراق إلى إحياء التراث الباطنى المجوسى . والعنصوى القديم . مستهدفاً من ذلك أن يحطم إصالة مفهوم الإسلام . ولذلك ركزوا على إحياء كل المخطوطات القديمة التى تحمل هذه السموم . وخاصة ما يتصل

بالإلحاد والإباحية ، وما يتصل بوحدة الوجود والحلول ، وكل ما له صلة بالجنس والكشف .

من الأدب القديم أمثال : كليلة ودمنة ، ورسائل إخوان الصفا ، وشعر بشار ، وأبي نواس ، ومن الصوفية الحلاج وابن عربي ، ومن ذلك قولهم : بتأثر الثقافة الإسلامية بالفكر الإغريقي والفارسي ، والغض من شأن العرب ، وإضعاف لغة القرآن ، وإحياء النزعات القديمة ، كالفرعونية والفينيقية والآشورية ، وأمثالها ورفع لواء الدعوات إلى الانسلاخ من الماضي والتراث والتهوين من شأن فريضة الجهاد ، والتشكيك في ترابط الدين والمجتمع والدين والدولة والدين والأخلاق . ولا ريب أن أخطر ما يقع في المجتمع الإسلامي ، هو اعتبار كتب المستشرقين مراجع أساسية في التاريخ أو اللغة أو السيرة أو الفقه . وخاصة في الجامعات والمعاهد العالية . أو في دراسات المبعوثين إلى الجامعات الغربية ، والذين يقعون دائماً تحت سيطرة الاستشراق . والأساتذة اليهود ، والصهيونيون ، والمتعصبون من الغربيين (ومعظم الدراسات الإسلامية بالجامعات الأوربية والأمريكية مركزة في أيدي اليهود . والهدف هو تلقين المبعوثين (الإسلام) من خلال فهم المستشرقين له ومن خلال شبهاتهم وأباطيلهم ودسائسهم . حتى إذا ما عادوا إلى بلادهم ، واحتلوا مراكز التوجيه الثقافي والتعليمي فرضوا ما تلقوه في الغرب من سموم باسم التجديد والحرية في البحث .

وتنكشف آثارهم واضحة في عدة مجالات :

١ – إضعاف لغة القرآن .

٢ – الدعوة إلى اتخاذ الحضارة الغربية المثل الأعلى للمسلم .

٣ – دعوات الانسلاخ من الماضي والتراث .

٤ – دعوات الإقليمية والتجزئة (الفرعونية والفينيقية) .

٥ – الفهم التاريخي القائم على البحث عن التناقضات .

٦ – تشويه تاريخ الحضارة الإسلامية ، والفكر الإسلامي بالادعاء ، بأثر المصادر الإغريقية .

وقد كان هذا الخطر ولا زال متمثلا فيما يحاول اتباع المستشرقين في الجامعات ، ودوائر الثقافة والصحافة من أسباغ الثقة والتقدير على أعمال هؤلاء المستشرقين ، بما يؤدى إلى الإعجاب بآرائهم والتسليم بها ، واحتشد في الجامعة المصرية منذ نشأتها مجموعة منهم كانت آراؤهم حجة لا تقبل الجدل ، وكتبهم مراجع مقدسة بينما هي مجموعة من الزيوف ، والسموم التي لا تثبت للحقيقة العلمية .

* * *

ثالثاً : نماذج من أخطاء الاستشراق

ترجع أخطاء الاستشراق في الأغلب إلى عوامل عدة :

١ — ضعف الملكة الأدبية في فهم النصوص العربية .

٢ — جهلهم بحقائق التراث الإسلامي ، وعدم اطلاعهم عليه في ينابيعه الصافية .

٣ — انخداعهم بالأسلوب العلمي المزعوم الذي يدعونه .

٤ — وقوعهم تحت تأثير أهواء وانحرافات فكرية .

٥ — تتبعهم الأخبار الساقطة والمبتورة والمشتبه فيها .

٦ — فهم النصوص على غير حقيقتها .

وهم يعملون على استقطاع النصوص ، وقلب المحاسن إلى سيئات ، والتشكيك في كل خبر إيجابي بهدف تحطيم روح الأمة ، وإخضاع المسلمين بإضعاف الثقة في مقوماتهم العقلية ، وإشعارهم بحاجتهم إلى الأمم الغربية .

(١)

ومن أساليب المستشرقين في تحريف النصوص : أن يشير أحدهم إلى فكرة ما من طرف خفي ، ويليه آخر فيقرر أن هذه الفكرة جائزة ، ويأتي ثالث فيرفع هذا الحوار إلى مرتبة النظرية ، أما الرابع فيخلق من النظرية حقيقة ، وهكذا تتطور الفكرة أربعة أطوار أو خمسة ، إلى أن ينتهي

بها المطاف لأن تصحيح حقيقة مقررة . أشار إلى هذا الأستاذ خوجة كمال الدين في كتابه : المثل الأعلى في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهو بصدد الحديث عن تجربة واقعة اشترك فيها جماعة من المستشرقين .

يقول : جاء الدكتور (فيجانا) بقصة فحواها : أنه عثر على ترجمة سريانية للقرآن الكريم سقط منها بعض أجزائه . يريد بذلك أن يوهم القارئ أنه ربما ضاع شيء من القرآن ، وكان فيجانا قبل هذا يشكك في صحة القرآن . فباء بالفشل الذريع .

لذلك تراه الآن يحاذر أن يجازف برأي بيد أنه وضع العربة أمام الجواد . لإقامة البرهان على أن هذا الأمر لا يعنيني الآن . لأن أحب فقط أن أبين للناس عادة هؤلاء الدعاه ، وطريقتهم الفذة في خلق (حبة من قبة) وقد ضربت المثل بهذين السيدين بنوع خاص . لأنهما فرسا رهان في هذا الميدان ؛ يشير الواحد إلى فكرة ما ، ولكي يوحي الثقة إلى القارئ ، يحاول أن يصوغ فكرته في عبارة تنطوي على الحذر ، وهو يعلم تمام العلم أن زميلا له من حملة الأقلام ، سيتقدم ليتمم ما بدأه هو من إنكار وسيلة تتحول بها إشارته وتلميحاته الخفية إلى مرتبة الحقائق الثابتة (فيما هو ظاهر) . ولكي أزيد الأمر إيضاحاً أذكر أن الدكتور فيجانا نفسه شديد الارتياب ، في قدم هذه الترجمة السريانية المزعومة ، وإنما أنقل للقارئ ما قاله بفصه ونصه :

(نحن أشد الناس إدراكاً لخطورة ما أشرنا إليه آنفاً من قدم الترجمة السريانية . ونرجو أن يكون ما حرصنا عليه من دقة التعبير رادعاً قوياً . كما يقول المثل السرياني : لكل عالم عربي أو سرياني سواء كان مسلماً أو مسيحياً ، يحاول أن يتهمنا بعدم الحذر أو التسرع في الحكم . ونحن الآن أمام نص سرياني لا نعرف على وجه الدقة صفته ، وكنهه . وقد ذكرنا أسباباً تحمل على الاعتقاد بأنه لم يصدر عن (بارساليبي) . ولكننا لا نستطيع الجزم في ثقة بوقت خطره بالضبط) .

والآن أنقل للقارىء كلام (مرجليوث) في مقالته (اختلاف القراءات في القرآن) قال : لم يتعرض حتى شهر يناير في هذا العام إلى نقد أي نسخ

قديمة للقرآن . وقد عثر الدكتور فيجانا على نسخة سريانية عريقة فى القدم ، ووصفها فى نشرة مكتبة جون رايلاند فله فضل السبق فى هذا الأمر . وقد لفت المؤلف نفسه النظر فى كتابه (صحائف من ثلاثة مصاحف قرآنية قديمة) ، إلى وجود اختلافات ذات بال فى المخطوطات القديمة) يقول خوجه كمال الدين : إن الإنسان ليحار فى فهم المعيار الأدبى . الذى يتوخاه المؤلف فيما يكتب عن الإسلام . فالأمر الذى يشك فى قدمه نفس الشخص الذى عثر عليه يصبح أمراً عريقاً فى القدم عند مرغليوث فى أقل من عام . وتعتبر الجملة الأخيرة فيما اقتبسناه عن كلام مرجليوت مفتاحاً لسر الموقف الحقيقى . فإن الدعاية التى قامت على تلك الصحائف المزعومة قد تخلى عنها صاحبها لأنه قطع الأمل منها . . . ولكن هو ذا آخر يقوم فيذكرها بعبارات لا لبس فيها . ولا إبهام . وإنى لأتوقع أن يقوم ثالث يكتفى باقتباس هذه العبارة من كلام مرجليوث ، (اختلافات ذات بال فى المخطوطات القديمة) وبذلك تصبح حجة فى التدليل على عدم صحة القرآن فى الكتاب المقدس .

هذا هو الأسلوب الذى يلجأ إليه هؤلاء الحذاق فى استغلال الجماهير ، فليدبر مرغليوث الأمر قبل أن يقدم على أمر جديد ، أليس قد وضع فى يد الخصم سلاحاً يحارب به القرآن ، إن ما كتبه فيجانا قد يختفى ، ولكنه اسمه سوف يحتج به فى تأييد هذا الزعم الذى لم يقله . فهل يليق بمرجليوث أن يستعمل عبارة (عريقة فى القدم) ، مع أن الدكتور فيجانا نفسه لم يقل ذلك بل يرى خلاف هذا الرأى) ا . هـ .

رابعاً : تزييف النصوص

١ — من أبرز أخطاء الاستشراق تزييف النصوص :

فقد اتجه كثير من المستشرقين إلى تزييف النصوص ، لإثبات الافتراضات التى قدروها : وأمامنا محاولة المستشرق الأشهر (هاملتون جب) حين نقل نصاً من كتاب حجة الله البالغة الشاه ولى الله الدهلوى ج ١ ص ١٢٢ ، حيث قال الدهلوى أن النبى (صلى الله عليه وسلم) بعث بعثه تتضمن بعثة أخرى ، فالأولى إنما كانت إلى بنى إسماعيل هذه البعثة . تستوجب أن تكون مادة

شريعته ما عندهم من الشعائر . وسنن العبادات ووجوه الارتفاقات ، إذ الشرع إنما هو إصلاح ما عندهم لا تكليفهم بما لا يعرفونه أصلا ، نقل جب هذه العبارة تاركاً ما قبلها وما بعدها . والعبارة مغمورة فى كلام طويل من حولها ، وذلك ليحاول أن يستشهد بالدهلوى على ما ذهب إليه من انقطاع الصلة بين محمد وبين دين إبراهيم .

هذا الذى انتزعه جب له تكملة جاءت بعد ذلك مباشرة يقول الدهلوى : اعلم أنه صلى الله عليه وسلم بعث بالحنيفية الإسماعيلية لإقامة عوجها وإزالة تحريفها وإشاعة نورها ، وذلك قوله تعالى : « **ملة أبيكم إبراهيم** » ، ولما كان الأمر على ذلك وجب أن تكون أصول تلك الملة مسلمة . وسنتها مقررة إذ النبى إذا بعث إلى قوم فيهم بقية سنة راشدة فلا معنى لتغييرها ، وتبديلها بل الواجب يقررها ، لأنه أطوع لنفوسهم ، وأثبت عند الاحتجاج عليهم . وكان بنو إسماعيل توارثوا منهاج أبيهم إسماعيل . فكانوا على تلك الشريعة إلى أن وجد عمرو ابن لحى ، فأدخل أشياء برأيه الكاسد فضل وأضل . وشرع عبادة الأوثان وسيب السوائب وبحر البحائر . فهنالك بطل الدين واختلط الصحيح بالفاسد وغلب عليهم الجهل والشرك والكفر . فبعث الله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) مقيما لعوجهم ، ومصلحاً لفسادهم إلخ . ولا ريب أن (جب) وقف على هذا النص ، وتجاهله وتغافل عنه . واستند على الدهلوى فى نص آخر سابق له بأسطر ليؤدى به فكرة تتعارض تماماً مع ما جاء به الدهلوى .

٢ — من أخطائهم سوق الخبر مقطوعاً عن مصدره ، ومصبوغاً بصبغة التعميم :

من محاولاتهم اتخاذ أخبار الآحاد التى لم تثبت مصدراً لوضع قاعدة بينما لا توضع القواعد إلا نتيجة لأخبار يتعدد صدورها فى اتجاه واحد ، وتثبت مصادرها . ومن هذا نرى فون كريمر وجولد زيهر يقولان :

إن المسلمين بحثوا فى موضوع غريب . وهو هل تنكح العجم نساء العرب فى الجنة .

والهدف المسموم من وراء إيراد مثل هذه الأخبار معروف وذلك هو إيقاع الخصومة بين العرب والعجم من ناحية. والقول بأن الفتوحات الإسلامية لم يكن وراءها إلا محاولة للسيطرة العربية. والموضوع كما أورده المبرد في كتابه الكامل. لا يوحي بمثل هذه النظرية فإن الناس الذين بحثوا هذا الموضوع لم يكونوا غير إعرابي واحد جاء من البادية. وسمعه الأصمعي يقول للآخر :

أترى هذه العجم تنكح نساءنا في الجنة فقال : أرى ذلك والله بالعمل الصالح ، وهذا الخبر قد رواه المبرد وضعف ثبوته أي أنه شك فيه. ولكن المستشرقين كيف يتركونه من دون أن يعتبروه ظاهرة عامة. ويستخلصوا منه قاعدة عريضة !

٣ — من أعمال المستشرقين : (التزوير) :

وقد كشف الأستاذ محمد إبراهيم خبير الخطوط عن أنه في سنة ١٨٥٠ ، قام أحد المستشرقين الفرنسيين بتزوير أهم وثيقة تاريخية إسلامية تهم العالم الإسلامي كله ، ومضت الوثيقة المزيفة مكانها طوال هذه السنين ، دون أن يكتشف حقيقتها أحد هذه الوثيقة هي كتاب النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى المقوقس عظيم القبط في مصر الذي بعث للنبي (صلى الله عليه وسلم) في العام السابع من الهجرة ضمن الكتب الثمانية المرسلة إلى الملوك والقياصرة والعظماء ، يدعوهم فيها الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى الدخول في دين الله. ولم يقف المسلمون على أثر هذه الكتب الثمانية ، إلا الكتاب الذي أرسله للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى المقوقس حاكم مصر ، والذي نقلت صورة كتب التاريخ منذ أوائل القرن العشرين.

هذا الكتاب قد تبين للأستاذ محمد إبراهيم الذي حصل على صورة منه من دار الآثار النبوية في استانبول ، واستخدم خبرته في الخط العربي. وقراءة بعض الكتب التاريخية والإسلامية القديمة أنه خطاب مزيف. وأنه في ذلك العصر لم يمكن تنقيط الحروف مستعملا بل كانت مهملة. وهي لم تستعمل إلا في أواخر القرن الأول الهجري.

تزوير كتاب النبى محمد صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس

منذ أكثر من ١١٧ عاماً قام أحد المستشرقين الفرنسيين بتزوير أهم وثيقة تاريخية إسلامية . وبقيت الوثيقة المزيفة مكانها طوال هذه السنين دون أن يكتشف حقيقتها أحد رغم أن كثيراً من علماء الدين والآثار رأوها أكثر من مرة ، ولم يكتشفوا التزوير الذى كان واضحاً بها .

الوثيقة هى كتاب النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى المقوقس عظيم القبط فى مصر الذى بعث به النبى (صلى الله عليه وسلم) فى العام السابع من الهجرة ، ضمن الكتب الثمانية المرسلة إلى الملوك والقياصرة والعظماء يدعوهم فيها إلى الإسلام .

فى عام ١٨٥٠ كان المستشرق الفرنسى (إيتان بارتملى) ، يزور أحد الأديرة فى صعيد (أخميم) فلفت نظره مغلف بالجلد ، وعليه حروف وكلمات بالخط الكوفى ، استعان بالمستشرق الإنجليزى (بلين) ، لحل رموز هذه الأحرف . وأعلن الاثنان أن الورقة ربما تكون خطاب النبى (صلى الله عليه وسلم) إلى المقوقس حاكم مصر ثم حملها المستشرق الفرنسى بارتملى إلى الأستاذ لعرضها على السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين .

نشر بعد ذلك فى الصحف الفرنسية أن المستشرق الفرنسى بارتملى عثر فى ديسمبر سنة ١٩٥٠ ، على ورق بال قرب دير أخميم فيه آثار كتابة عربية ، وأن الرق كان ملصقاً بأوراق أخرى قبطية على جلدة كتاب قديم فاضطر لفصله باستخدام الماء ، لكنه ازداد تهرؤاً إلا أنه احتال فى حفظه وتسويته تسوية صحيحة ، ولكنه لم يجد عليه من الكتابة إلا كلمات متقطعة ، وأحرف مبعثرة ، وتبادر إلى ذهنه أنه خطاب النبى (صلى الله عليه وسلم) إلى المقوقس ، ولما عاد إلى الكتب التاريخية القديمة المكتوبة بحبر مشابه لما كان يستعمله العرب قام بإضافة بعض الحروف والكلمات التى زالت عندما اضطر لفصل الرق بالماء ورده إلى نحو ما كان عليه من قبل .

ويقول محمد إبراهيم أستاذ الخط العربى ، فى حديث إلى محمد حسين شعبان أنه بعد أن سافر فى رحلة قصيرة إلى تركيا وزار دار الآثار النبوية

فى استانبول . وقام بنقل صورة خطاب النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى المقوقس عكف على دراسة هذا الخطاب المدعى . لاستخلاص الحقيقة مستخدماً خبرته ، وفنه فى الخط العربى وقراءة بعض الكتب التاريخية الإسلامية القديمة وخلاصة الرأى قوله :

تبين من الوثائق التى بين أيدينا من الخطوط القبطية المقطورة إلى العربية ، ما يؤكد أن الخط الذى كتب به كتاب النبى (صلى الله عليه وسلم) إلى المقوقس . لم يكن هو المستعمل فى عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأن الكتابة العربية فى أول عهدها كانت متشابهة . ولم تكن هى الكتابة الكوفية كما هو شائع لأن مدينة الكوفة التى نسب إليها الخط الكوفى لم تكن قد أنشئت بعد . بل تم إنشاؤها فى عام عشرين للهجرة . ومن ثم فلم يكن ظهور الخط الكوفى إلا بداية تطور جديد للخطوط ، التى سبقته منذ عصر النبى (صلى الله عليه وسلم) وورد فى الرسالة كثير من الأخطاء . توضع النقط فوق الحروف والنقط فى ذلك العصر كانت مهملة ولم تستعمل إلا فى أواخر القرن الأول الهجرى .

(جريدة الجمهورية ١٥ ديسمبر ١٩٦٧)

• • •

الباب الأول
صفحات من تاريخ الإستشراق

١ – الاستشراق غربياً .

٢ – الاستشراق يهودياً .

الفصل الأول

الإستشراق غربيًا

بدأ الاستشراق (نصرانياً) يصدر عن الكنيسة . التي خشيت أثر الإسلام في نفوس أهل أوربا بعد عودة بقايا الحملات الصليبية الذين عادوا يحملون إلى الغرب صورة رائعة عن سماحة الإسلام والمسلمين ، ثم لم يلبث الاستشراق أن تحول (استعمارياً) في خدمة الدول الاستعمارية . وخاصة إنجلترا وفرنسا وهولندا ، وتبين أن العدد الأكبر من المستشرقين كانوا على صلات وثيقة مع الكنيسة ، وفي نفس الوقت مع وزارات الاستعمار .

ويمكن أن يوصف الاستشراق في هذه الفترة بأنه استشراق (غربي) . غير أن نوعاً آخر من الاستشراق ما لبث أن ظهر : ذلك هو الاستشراق اليهودى الذى قام به أمثال :

مرجليوت ، وبرنارد لويس . وجولد زيهر وردنسون في السنوات الأخيرة .

ولا ريب أن الاستشراق اليهودى كانت له أهدافه وغاياته ، التي قد تتفق مع أهداف الاستشراق الغربي وقد تختلف عنه ، والمعروف أن الاستشراق اليهودى قد عمل وما زال يعمل في خدمة أهداف الصهيونية ، ويحمل لواء فكرها ومفاهيمها ، في محاولة لتزييف مفهوم الإسلام ، وفرض مفهوم اليهودية التلمودية .

وقد تطورت أساليب الاستشراق مع هذا الزمن الطويل ، ولكن هذا التطور لم يكن إلا محاولة للخداع وتغطية الغايات الحقيقية وتجنب أساليب المراجعة ، غير أن هذه الأساليب ، وإن بدت تحمل طابع الاعتدال ، أو الترفق في المواجهة . إلا أنها ما زالت تستهدف إثارة الشبهات وبث السموم.

وآية ذلك ما يقوله المستشرقون المحدثون أنفسهم : فيقول (هاملتون جب) : لقد قامت فى صفوف المستشرقين فى السنوات الأخيرة ، محاولة إيجابية ، تحاول النفاذ بصدق وإخلاص إلى أعماق الفكر الدينى للمسلمين ، بدلا من السطحية التى صبغت دراساتهم السابقة . ولكن رغم ذلك فإن التأثر بالأحكام التى صدرت مسبقاً على الإسلام والتى اتخذت صورة تقليد منهجى فى الغرب لا يزال قوياً وبحوثهم لا يمكن إغفالها فى أية دراسة لهم عن الإسلام .

ويقول برنارد لويس : (إن آثار التعصب الدينى الغربى ، لا تزال ظاهرة فى مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين . ومستترة وراء الحواشى المرصوصة فى الأبحاث العلمية) .

ويقول الباحثون : إنه رغم ادعاء المستشرقين بأن أبحاثهم أخذت شكل الموضوعية والتجرد من الأهواء والأخذ بأسباب البحث العلمى ، وما تمليه النزاهة العلمية فإن الصورة المشوهة والحقد الدفين ما زال قائماً . وخاصة فى تصور القرآن ، وتصور الإسلام وتصور الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ذلك أن الصورة التى شكلها الاستشراق ، إنما استمدها من مصادر كنسية بيزنطية ، وأسبانية كتبت إبان الصراع الشديد ، وخلال الحروب الصليبية وحملات بطرس الناسك . وقد ظلت هذه الكتابات مصدراً لكل كتاب الغرب وفنانيه سجلها دانتى وفرجيل وفولتير وديدرو .

وقد ركز الاستشراق الغربى على عملين أساسيين :

أولا : إثارة الشبهات حول الإسلام ورسوله ، وكتابه ، وحول تاريخ الإسلام .

ثانياً : إعلاء شأن الجوانب الضعيفة والمضطربة . كالتصوف الفلسفى ، والفرق المعارضة للإسلام وشعراء الهجاء والغزل الجنسى وشخصيات الزنادقة والشعوبيين أمثال : أبو نواس وبشار وابن الراوندى والحلاج وابن عربى .

وقد عرف عن أبرز هؤلاء المستشرقين اتصالهم بالكنيسة ، ودوائر الاستعمار فى نفس الوقت ، وخدماتهم المزدوجة للجانبين بمفهوم أن الاستعمار هو المنطق الطبيعى للتبشير ، وإفساح المجال أمام الإرساليات وإعداد الأجيال

المسلمة إعداداً يجعلها خاضعة لبرامج التغريب . والغزو الثقافي فليس هناك في الواقع خلاف بين الهدفين المتكاملين .

ولقد كان من أخطر أعمال الاستشراق : العمل على فرض السيطرة على الجامعات ومجامع اللغة ، ودوائر التعليم ، والثقافة واستقطاب المفكرين المسلمين لآراء الغرب ، في محاولات دائبة للسيطرة على مناهج البحث ، وفرض نظريات للنقد الأدبي ودراسات الاجتماع والاقتصاد .

كما تمت السيطرة على دوائر المعارف . وخاصة دائرة المعارف الإسلامية والمنجد ، والموسوعة الميسرة . وهي جميعها موجودة الآن في أيدي باحثينا وشبابنا وكلها مليئة بالسموم .

وقد ضمت دائرة المعارف الإسلامية عند صدورها عدداً من متعصبي المستشرقين أمثال : هوار ، فولوس ، برتولد ، زترنستين ، هورفيس ، بكبر ، مارسي ، باسي ، وغيرهم من الهولنديين والفرنسيين والألمان ، وأغلب هؤلاء مسيحيون متعصبون ، أو موالون للصهيونية ، أو يهود ولهم دراسات معروفة من قبل عن الإسلام استهدفوا فيها إثارة الشبهات ، وإلقاء بذور الشك حول مفاهيم الإسلام وقيمة الثوابت ، ومن هنا فقد أصبحت دائرة المعارف الإسلامية حصيلة جامعة ، ومختصرة لكل السموم التي وزعها هؤلاء المستشرقون على مئات من الدراسات .

كذلك فقد سيطر المستشرقون على مجامع اللغة ، ومثلا فإن مجمع القاهرة الذي أنشئ عام ١٩٣٣ ، ضم جب (لندن) فيشر (ليبزج) نلينو (روما) ماسينيون (فرنسا) فنسنك (ليدن) ، وكلهم من متعصبي المستشرقين ، ومن الذين يجمعون بين العمل في دوائر الاستشراق الكنسي ، والاستشراق الاستعماري .

وفي الجامعة المصرية كان حشدهم الأكبر ، وكانت آراؤهم حجة لا تقبل الجدل وكتبهم مراجع مقدسة .

• • •

(٢)

إذا أردنا أن نلم إلمامة سريعة بأعمال الاستشراق الغربي (المسيحي الاستعماري) لنتعرف على الوجهة التي يقصد إليها . فإننا نجد هذه الاهتمامات :

نجد (ديلاس أو ليري) مؤلف كتاب الفكر العربي . ومكانه في التاريخ المترجم إلى اللغة العربية يضع نصب عينيه التفرقة بين الشعوب السامية . والآرية في الإصالة والخلق والتفكير ويبالغ في دعوى تأثر الفكر الإسلامي بالفكر الإغريقي .

والعرب في نظر أوليري ليسوا إلا مجرد نقلة للتراث الإغريقي ، الذي لم يكن لهم فضل الاتصال به مباشرة . وإنما قدمه لهم السريان .

وهو من الذين يرددون دعوى العنصرية فيقول أنه لم يحمل الثقافة العربية رجال من دم عربي محض . بل موالي من الشعوب التي فتح العرب بلادها .

ويسرف أوليري في تصوير تأثير التراث الإغريقي المترجم . فيراه الأساس الذي تشكلت وفقاً لمقتضياته الحضارة الإسلامية . وهو رأي باطل . ويتجاهل الأساس الأصيل للثقافة والحضارة الإسلامية . وهو القرآن والسنة .

كذلك فإن أوليري لا يفوته أن يتهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) . بأنه كان على صلة بمعلمين من النساطرة (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين) .

أما المستشرق أرثر جفري فقد كان اهتمامه بالبحث عن عمل من أعمال خصوم الإسلام ليجدده ويبعثه ويثير عن طريق إعادة طبعه الشبهات . ولذلك فقد قام على نشر كتاب عنوانه المصاحف ، وهو الكتاب الذي ألفه عبد الله ابن داود السجستاني وهو من آثار التشكيك التي أنكرها العالم الإسلامي منذ صدورها .

ويقوم هذا الكتاب على فكرة التشكيك في القرآن الكريم على ما جمعه الخليفة عثمان ، وفي الادعاء بأنه وقع بالكتاب الكريم كثير من الحذف والزيادة في مواطن مختلفة ينوه بها مؤلفه ، ويورد عليها أمثلة وعندما صدر

هذا الكتاب لم يحفل به علماء القرآن والمتكلمين المسلمين . وبقى مطموراً فى أقبية بعض المكاتب العامة والخاصة . حتى فكر المستشرقون فى نشره ، وتولى ذلك المستشرق أرثر جفرى ، ومهد له بمقدمة طويلة بها كثير من المغامز التى تؤيد غايته من نشر الكتاب .

أما المستشرق بلييف فهو يرى أن مسيلمة وتعاليمه سبقت القرآن ومحمد (صلى الله عليه وسلم) ، ويصل فى مغالطته إلى حد قوله أن مسيلمة كان معاصراً أسبق ومعلماً وحليفاً فيما بعد لصاحب الشريعة الإسلامية . وإن مواعظه تكاد تسبق السور المكية . ثم يقول إن القرآن قد اشترك فى وضعه أناس من جزيرة العرب وخارجها . وليس من تأليف شخص فرد (يعنى النبى) ، إذ أنه يجد مادته شديدة التنوع والاختلاف ، وكذلك ديباجته .

أما المستشرق يوسف شخت ، فهو يتابع أستاذه اليهودى (جولد سيهر) ، فى الغض من شأن الشريعة الإسلامية . ويحاول الادعاء بأن الشريعة الإسلامية لا تختلف عن أعراف الجاهلية . وهو ادعاء مكذوب تصدى له كثير من الباحثين .

ومن أكاذيبه وأضاليله : الادعاء بأن للفكر الإغريقى فضلا على الحضارة الإسلامية ، وقد أثبت علماء الغرب أنفسهم (سيديو - درابر - سارطون) وغيرهم أن الإسلام هو الذى أدخل إلى الغرب المنهج العلمى التجريبى . وأن الحضارة العالمية المعاصرة مدينة للمسلمين بهذا المنهج الذى هو أساسها الأصيل .

وقد اهتم (ادوار وليم لين) برسم صورة للمجتمع المصرى سنوات طويلة ، والقول بأن هذا هو المجتمع الإسلامى المصرى ، وقد عمد إلى جمع كل الخرافات والأساطير والتقاليد البالية ، وقد كان من أعماله ترجمة ألف ليلة وليلة ليتخذها ذريعة لتصوير المجتمع الإسلامى القديم . فى حين أن هذا الكتاب لا يمثل إلا مجتمعاً جاهلياً سابقاً للإسلام . واهتم كونيلوس فان ديك بالتركيز على المترجمين السريان . والنصارى ودراساتهم . ومحاولة نسبة الفضل فى الترجمة إليهم لا للعرب ولا للمسلمين . والقول زوراً بأن هذه المترجمات هى التى أعطت الفكر الإسلامى مصادره .

وعنى (استانلي لين بول) بتشويه تاريخ المسلمين في المغرب ، وصور نضالهم في مواجهة الغزوات البحرية الأوربية ، بأنه عمل من أعمال القرصنة . وله كتاب أطلق عليه قرصان البربر ، وفيه فصل عن الغارات البحرية التي كان يقوم بها عرب شمال إفريقية رداً على الغزوات الأوربية النصرانية على الإسلام والمسلمين في الأندلس خلال القرون ١٦ و ١٧ و ١٨ . وكان معظم قادة هذه الحملات من سلالة المسلمين الذين نفوا من أسبانيا .

وعنى (نولدكه) باللهجات العامية الحديثة ، وبذل مجهوداً كبيراً في دراستها ، كما اهتم بالنحو العربي في محاولة لتصويره متأثراً بالنحو الفارسي ، وهي نظرية باطلة حاول هذا المستشرق الترويج لها .

وعنى المستشرق (جلارزا) بأن يصور المسلمين والعرب أتباعاً للفلسفة اليونانية ، وأنهم لم يعرفوا إلا ما ترجم من أرسطو وأفلاطون ، وقال أن الفلسفة الإسلامية هي فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية .

أما سيديو فإنه حاول التقليل من شأن الدور الذي قام به المسلمون في مجال الحضارة والعلم .

وأنكر (برتلو) الكتب اللاتينية الكيماوية التي تحمل اسم جابر بن حيان لمجرد أن أصولها العربية فقدت ، وقد تصدى لبرتلو علماء آخرون ، وأوضحوا أنه كان مخطئاً تماماً ، بل لقد اتهمه البعض بالجهل والتحيز والعمد ، وقال جورج سارتون إن أي شخص يعرف العربية لا يخطئ مطلقاً في اكتشاف أن هذه الكتب اللاتينية ترجمات لكتب عربية ، إذ تبدو الأساليب العربية واضحة من الترجمة اللاتينية ، سواء أكانت لجابر أم لغيره من العرب .

وأنكر دوزي تأثر شعراء التروبادور بالشعر الأندلسي ، وقد أثبت كثير من علماء الغرب فساد وجهة نظر دوزي وصحة هذا التأثير .

أما جيوم فيفتري على الرسول (صلى الله عليه وسلم) افتراءات لا توجد في أي كتاب سيره ، ويدعي أن لديه بقايا من سيرة ابن إسحاق .

واهتم بلاشير بالمتنبي من أجل التشكيك في نسبه ، وتقديم حكاية نبوة المتنبي ، وقد نظر إلى شعر المتنبي بعين الغربي المتعصب فلم يفهم مداه من ناحية

البلاغة . فضلا عن أنه أراد الغض من شأن هذا الشاعر الذى جدده الأدباء العرب ، لأنه يمثل بطولة العرب ومقاومتهم للظلم . والمعروف أن أغلب شعر المتنبي كان في مدح سيف الدولة ، الذى هاجم الغزو الرومانى ، ويخطئ المستشرق كوبيتو في ترجمة الأسفار للملا صدراً فيتوهم أن المقصود بالأسفار السياحات ، ولذلك اختار كلمة Voyage ، والحال أن مقصود المؤلف من كلمة أسفار جمع سفر ومعناه الكتاب ، ومقصود المؤلف من الأسفار الأربعة الكتب الأربعة لا السياحات الأربعة كما فهم المستشرق المذكور .

يزعم سدرسكى أن جانباً عظيما مما ورد فى القرآن والتفاسير والسير من الأخبار يرجع إلى (الإجادة اليهودية) والأناجيل والتوراة الموضوعة . وقد أشار الدكتور بشر فارس إلى فساد هذا الرأى ، وقال إن بين النصوص الإسلامية والنصوص اليهودية والمسيحية مسافات ، وإن اتفق لبعضها أن تتقارب

وحاول (كارلو نلينو) أن ينفى الحقيقة التى تقول بأن قريشاً كانت أفصح العرب . وله فى ذلك مغالطات واسعة ترمى إلى التشكيك فى هذه الحقيقة ، ويقول أن تفضيل لغة قريش لم يكن مصدره سوى حب العرب للرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وهو من أوائل المشككين فى وحدة اللغة العربية فى الجزيرة . ومحاولة القول بأن هناك (لغتان) هما لغة الشمال ولغة الجنوب ، وهى النظرية الباطلة التى رد عليها كثير من الباحثين . واعتمد عليها الدكتور طه حسين فى التشكيك فى وحدة اللغة العربية .

وقد أولى الجاهلية عناية فائقة ، واهتم بها من باب الدعوى بأن العرب كانت لهم حضارة قبل الإسلام ، وأن ما جاء به الإسلام لم يكن أمراً ذا بال .

أما لويس شيخو فقد أخذ على نفسه أمراً غاية فى الصعوبة هو تنصير بعض شعراء الجاهلية ممن لم يكن لهم من النصرانية حظ كما فعل بالسموءل وقوله : أن بنى غسان نصارى . وهو قول لا يسلم به المطلعون على أخبار العرب فى عهد الجاهلية . لأن من غسان من كان على الوثنية ، ومنهم من دان

باليهودية . وطائفة كانت على النصرانية ، وممن نصرهم من شعراء العرب الأخنس بن شهاب ، وامرؤ القيس ، وأمية بن الصلت وجساس بن مرة ، كما نصر عدة قبائل وبطون مثل كندة ومذجح وطيء وتغلب .

أما هنرى لامنس فقد كان عمله هو تحريف النصوص ، وتشويهها ، والتلاعب بالعبارات للطعن فى العرب والمسلمين . لم يقصد الكشف عن الحقيقة ، بل الدس والتضليل ، ومن هدفه التشكك فى تاريخ ميلاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) المجمع عليه ٥٧٠ م ، وحاول أن يرسم صورة مشوهة لفاطمة الزهراء دون أى مستند تاريخى ، كما اندفع فى أهوائه ، ونسب إلى الرسول الخداع والتضليل .

وأكثر الباحثين الغربيين قد انتقدوا لامنس وفضحوا مغالطاته . وحذروا من الاعتماد عليه . وقد وصف أكثر غلط مارجليوث بأنه يرجع إلى التحكم فى الاستنباط القياسى الجزئى وبيان أسباب الحوادث .

وقد كان لامنس حريصاً على إيقاع التناقض بين نصوص القرآن وبين الأحاديث النبوية ، بهدف التشكيك فى الاستناد على الحديث كمصدر وثيق .

أما محاولة بروكلمان فهى للقول بأن المصادر الأصلية للقرآن مأخوذة من النصرانية . فقد حاول كل منهم أن يتخصص فى جانب من جوانب الشبهات المثارة :

قال كارنونا : إن القرآن فى مكة من وحى النصرانية . وفى المدينة من وحى اليهود .

وقال مرجليوث : إن الإسلام معناه الذل والخضوع .

وقال توينبى : إن اللغة العربية لغة دينية .

وحاولت اتهامات المستشرقين أن تقول : بأن القرآن فيه تعارض وتضارب ، وجرت أبحاثهم وراء كل الشبهات حول لغة القرآن وهل هى لغة قريش أو لغة الشعر الجاهلى ؟ .

نزول القرآن هل باللفظ أم بالمعنى ؟ . المحكم والمتشابه ، الناسخ والمنسوخ وهناك محاولة القول : بأن العرب كانوا أمة قبل الإسلام . وكانت

لهم حضارة . وأن دور الإسلام فيهم لا أهمية له . والواقع أن العرب لم يكونوا أمة قبل الإسلام . ولم تكن لهم حضارة . ولم يكونوا شيئاً مذكوراً إلا بالإسلام . ولم يكن لهم أدب . إلا قصائد العصبية وسجع الكهان .

(٣)

وقد ركز الاستشراق الغربي (المسيحي الاستعماري) على دراسة :

١ – الحركات المضادة للإسلام والتوسع فيها .

٢ – الفتن الأهلية . والخلافات المذهبية . ومظاهر الانقسام والتفسخ .

٣ – النصوص المتناقضة . والاهتمام بما كان منها مفرداً شاذاً مخالفاً للإجماع .

٤ – محاولة إعلاء الحضارات الشرقية القديمة .

٥ – البحث عن الأثر اليوناني والروماني . والمبالغة في تجديده وإكباره وجعله كأنه هو كل شيء .

٦ – التوسع في بيان الفروق الجوهرية بين الشرق والغرب . في محاولة للغض من شأن أمم الشرق . والإسلام ورميها بالتخلف .

٧ – الاهتمام بالمذاهب الكلامية . والفرق والتصوف والزندقة .

وهم يركزون دائماً على الاتهام : اتهام الأدب العربي والشريعة والفكر وغيره . بأنه إما فارسي الأصل ، أو يوناني الأصل .

والهدف الأكبر هو تصوير الإسلام في صور التجزئة . والضعف والصراع بين المذاهب المختلفة . وتجديد بعث الفرق القديمة حتى لا يلتئم جمع المسلمين .

ولقد حمل المستشرقون كل بذور السموم والدعوات الهدامة . التي انتشرت في عالم الإسلام فهم الذين حملوا مفاهيم القوميات ، والإقليميات بهدف تمزق الوحدة الإسلامية . ومن أبرز هؤلاء (ليون كاهون) الذي كتب عن الترك والمغول القدامى . وفمبرى المستشرق اليهودي الذي عمل في الاستانة . ودعا الأتراك إلى الخروج من الوحدة الإسلامية ، وهم الذين

حملوا لواء الدعوة إلى العامية وإلى الحروف اللاتينية : ويلكوكس ، وولمور ، وسبيتا ، وماسينيون وغيرهم وهم أصحاب دعوى أن هناك لغة عامية غير العربية هي البونية .

ومنهم جماعة السياسيين الذين عملوا على تمزيق البلاد العربية ، وإثارة الصراع فيما بينها أمثال لورنس وفيلبي .

وهم أصحاب المحاولة المضللة ، التي تقول : بأن نصارى لبنان هم الذين بعثوا النهضة العربية وليس المسلمون .

ومن أعمال الاستشراق (سرقة) المخطوطات الإسلامية من الشرق ، وهي جريمة بدأت منذ عام ١٣١١ م ، قام بها القناصل والرهبان ، واستولوا بها على أغلب المخطوطات الموجودة في المساجد ، والزوايا وقد جمع أحد الرهبان (زاتسي) ستة آلاف مخطوط من الشرق نقلها إلى ميلانو ، وقد توالت بعثات الاستعمار ، والفاتيكان إلى العالم الإسلامي لجمع المخطوطات .

وكان الهدف هو (حبس) التراث الإسلامي في مكتبات الغرب ، واتخاذه سلاحاً ضد المسلمين ، فهم يبرزون الكتب التي تثير الفتن : كتب الخلاف المذهبي والتصوف الفلسفي والشبهات ويخفون كتب العلوم ، فيأخذون نظرياتها وينسبونها إلى أنفسهم وعلمائهم ويحرمون أصحابها منها .

إن معظم الكتب التي جددها المستشرقون ، وأعادوا ابتعاثها ، كانت تستهدف إذاعة آراء معينة وتيارات مضللة ، ولذلك فإنه لا يمكن القول : بأن هذه الكتب قد طبعت أو حققت لخدمة الأدب العربي أو اللغة العربية ، ومن هذه الكتب : ألف ليلة وليلة ، تهافت التهافت لابن رشد ، أنساب الأشراف للبلاذري ، أخبار الحلاج ، الأغاني ، رسائل إخوان الصفا ... إلخ

• • •

ثانياً : المستشرقون في حملة الحقد والتعصب

من أبرز المستشرقين الذين لهم دور خطير في توجيه حركة الاستشراق الغربي : لويس ماسينيون ، وهاملتون جب ، وهنري لامنس ، وجوستاف فون جرونباوم ، وكرمليان سنوك هرجرونجه .

أما لويس ماسينيون فقد كان يعمل في وزارة المستعمرات الفرنسية ، وقد حمل لواء الدعوة إلى الحروف اللاتينية ، واهتم اهتماماً شديداً ببعث التراث الصوفي الفلسفي التي لا يعترف به الإسلام ممثلا في الحلاج وكتابه الطواسين وداوم على ذلك أكثر من أربعين سنة ، وقد كان ماسينيون قاسماً مشتركاً على الجامعة المصرية القديمة والمجمع اللغوي ، وألقى أكثر من أربعين محاضرة حول المذاهب الفلسفية في الإسلام .

ولم يقف اهتمامه بنشر سموم الحلاج ، بل اهتم بابن سبعين ، وأبي الحسن التستري ، وروزبهان البقلي ، كما اهتم بمذاهب الباطنية ، وما تفرع منها واهتم بالقرامطة والنصيرية ودرس المصطلحات الصوفية .

وكتب في دائرة المعارف الإسلامية ، مواد القرامطة ، التصوف ، الزنج ، ومادة : زنديق ، وزهد .

وحاول أن ينسب الإنجازات الإسلامية في الفلك إلى الغرب ، فكتب ما أسماه غيوم (مجلان) ، وهي الكواكب التي اهتدى بها مجلان عندما دخل المحيط الهندي ، وبواسطتها استطاع أن يتم دورته حول الأرض ، والمعروف أن الملاحين العرب قد اكتشفوا هذه النجوم قبل (مجلان) بزمن طويل ، وكانوا يهتدون بها في الملاحة ويسمونها (البقر) .

وقد أشار الباحثون إلى نشاطه الكبير بالتعاون مع تلاميذه في نشر العامية في المغرب ، والجزائر ، وتونس ، ومصر ، وسوريا ، ولبنان .

ومن تصريحاته المشهورة قوله :

لم نبحث في الشرق إلا عن منفعتنا ، ولقد دمرنا كل ما هو خاص بهم فدمرنا فلسفاتهم ولغاتهم وأدبهم

والشرقيون ليسوا من السذاجة حتى يعتقدوا بكرم أخلاقنا . وقد تحققوا بالشواهد أننا نعمل على أن نستبقيهم ضعفاء .

ولما هبط دمشق فى أوائل الاحتلال الفرنسى كان مما قاله المجمع العلمى :

إن إهمال الأعراب ييسر تعلم اللغة العربية على الأجانب . ويكون فى الوقت نفسه تجديداً يليق بمؤسسه كالمجمع . وكرر دعوته عام ١٩٢٨ فى أندية الشباب العربى فى باريس . غير أنه لم يجد آذاناً صاغية بل وجد رداً عنيفاً . ومعارضة شاملة . وكان الدكتور زكى مبارك من أبرز الذين حملوا عليه . وعارضوه ، فقد كتب فى جريدة المساء القاهرية من باريس فى ٢٧ فبراير عام ١٩٣١ ، تحت عنوان ماذا يريد بعض المستشرقين باللغة العربية ؟ قال :

إن الفرنسيين يريدون أن يختصروا الطريق . هم يريدون أن يستريحوا من اللغة العربية . ومن الإسلام . وسبيلهم إلى ذلك أن يقنعوا بعض الأنذال من أهل الشرق بأن اللغة العربية أصبحت فى عداد اللغات الميتة . وأن الإسلام لا يصلح أن يكون أساساً لمدنية جديدة . وأنه لا يليق بالرجل العصرى أن يكون متديناً لأن الديانات لم تكن إلا لهداية الرعاع . ومن المحزن أن هذه الدعايات يقوم بها أناس كنا نظنهم من أهل المروءة والشرف فإنى أفهم أن يكون الرجل من طلاب الملك والفتح والسيطرة . ولكنى لا أفهم كيف يتفق لرجل قضى خمسين عاماً فى التقرب إلى اللغة العربية . والإسلام . أن يزعم أن لغة الغرب لا تستطيع وعى العلوم الحديثة . ولا يمكن أن ينتشر بها التعليم الحديث ، وهم يقولون ذلك حرصاً على منفعة أتباعهم فى المستعمرات الفرنسية فيما يزعمون . ولكن الغرض المستور . وهو القضاء على التقاليد العربية . والإسلامية ليخلو الجو للغة المستعمرين .

ولقد وقف أحد المستشرقين الفرنسيين (يعنى لويس ماسنيون) يخطب فى بيروت ، وكان من همه أن يبث سمومه فى الشباب السوريين . فزعم لهم أن كرامة اللغة العربية توجب أن تتفرع إلى لغات عديدة . كما تفرعت اللغة اللاتينية . فيا سعادة الشرق العربى إذن حين تصير اللغة العربية إلى مثل ما صارت إليه اللاتينية فقد ماتت لغة الرومان حيث لا رجعة . وهذا هو الفخار الذى يطالبه ذلك المستشرق للغة العربية فأكرم به من صديق .

ومن نوع ذلك الخلط . ما زعم المستشرق المغرض عن الحروف العربية . فقد ألقى محاضرة فى الكوليج دى فرانس أبان فيها أن لا حياة للغة العربية إلا إذا كتبت بحروف لاتينية . إن القوم يريدون تقطيع جزء مهم من شخصية اللغة العربية ليسهل قطع ما بيننا وبين أسلافنا من الأواصر الأدبية والروحية . وفى ذلك تيسير لمهمة الدساسين الذين يريدون قتل الشرق باسم (العلوم والآداب) اهـ .

ومع هذا الدور الخطير الذى قام به ماسنيون . فإننا نجد من يكتب عنه بعد وفاته فى المجلات العربية ممجداً ومكرماً : هذا الرجل الذى لم يدع نحلة من النحل الغالية . كالقرامطة . والنصيرية . والإسماعيلية . والحركات السرية . إلا بشر بها ، وأعاد نشرها .

* * *

١ – هاملتون جب

عمل هاملتون جب فى دوائر الاستعمار . وكان من أبرز المستشرقين الإنجليز الذين يخدمون أهداف الاحتلال البريطانى . وقد عرف بقيادة أخطر حركة من حركات الاستشراق . وهى حركة التغريب التى تولى إعداد دراسة خطيرة عنها مع أربعة من المستشرقين تناولت العالم الإسلامى كله . فى محاولة لفحص مدى ما وصلت إليه محاولة تغريب الإسلام والمسلمين . وقد طبع هذا الكتاب وترجم إلى اللغة العربية تحت اسم (وجهة الإسلام) .

وتناولت الوسائل التى تعمل على احتواء الفكر الإسلامى والمجتمع الإسلامى ، وركز على التبشير فى مدارس الإرساليات ، وتأثير الاستعمار فى مناهج المدرسة الوطنية ، وأشار إلى الدور الخطير الذى تقوم به الصحافة ، وكيف يتقدم على قيادتها العلمانيون . والمتفرنجون . وأولياء الثقافة الغربية حتى تظل تؤدى عملها الخطير .

وأشار إلى الدور الذى قام به التغريب فى تنحية الإسلام عن عرشه من حيث هو قوة اجتماعية تسود الحياة ، وتوجهها ، وكيف أن القوانين الوضعية الغربية عملت على تقليص ظل الشريعة الإسلامية فى مجال الحياة والمجتمع .

وأشار إلى التصدع الذى أصاب الجامعة الإسلامية والوحدة التى كانت تؤلف بين وحدات المجتمع الإسلامى بعد سقوط الخلافة التى كانت تعد حجر الزاوية فى بناء هذه الوحدة ، وإن كان جب قد أشار إلى أن زوال الخلافة لم ينل من وحدة المجتمع الإسلامى.

ومن أخطر السموم التى أثارها جب فى كتابه (بنية الفكر الدينى فى الإسلام) ، هو إدعاؤه بأن الإسلام جاء ليضفى الصفة الدينية على تلك الإحيائية العربية القديمة التى تنسجها الأعراف ، والبيئة ، بعد إن لم يستطع محمد عليه الصلاة والسلام التخلص منها ، ويقصد بالإحيائية : تلك العقائد الروحية الخرافية كالإيمان بالسحر والتنجيم والكهانة .

وقد عرف هاملتون جب بأنه واحد من المستشرقين الذين عرفوا بمنهج محدد ، قوامه وضع فرضيات مسبقة يعبر بها عن غاية له ، ثم ينطلق فيبحث لها عن شواهد وأدلة ويجعل طرائق بحثه كلها خاضعة لسلطان تلك الفرضيات ، وإن جب كما يقول الدكتور البوطى : وضع أمام القارئ جملة من الدعاوى والمزاعم العجيبة بأسلوب من التقرير الثابت دون أن يمد بينه وبينها أى خيط أو شريان من المؤيدات أو البراهين العلمية ، وخلاصة هذه المزاعم أن بنية الفكر فى الإسلام إنما هى معظم ما كان لدى العرب فى جاهليتهم من العقائد الغيبية والطقوس الشكلية النابعة عن عقيدتهم بالأرواح (الإحيائية العربية) فقد تأمل محمد صلى الله عليه وسلم فيها فغير ما أمكن تغييره ، ثم عمد إلى الباقى مما استعصى عليه التخلص منه فكساه حلة الدين والإسلام ، ثم لم ينس أن يدعم جملة هذه العقائد والرموز بهيكل من الأفكار والمواقف الدينية الملائمة.

وهو قد سار (جب) إلى هذه الآراء من ثلاث فرضيات :

أولا : فرض أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن نبياً .

ثانياً : فرض أن ما كان لدى العرب من بقايا عهد إبراهيم عليه السلام إنما هو من مخترعاتهم وتقاليدهم التى ابتدعوها من أنفسهم .

ثالثاً : فرض أن الجان ليست إلا مخلوقات وهمية ، وإن كل ما جاء عنها فى القرآن والأخبار مجرد وهم .

وأنه فى سبيل تأييد هذا الرأى الباطل نقل عبارة مغمورة من كلام طويل.

ولا ريب أن الإسلام جاء فى جوهرة ثورة جارفة على كل إحيائية عربية كانت أو غير عربية قديمة ، أو جديدة ، وأنه يجب التفرقة بين ما هو عادات اجتماعية ، وما هو طقوس دينية .

وغير صحيح ما ذهب إليه (جب) من أن القرآن يعتمد على لغة الشعر ، إذ أن القرآن يلح عن ناحيتين : ناحية العقل وناحية القلب ، ويتحدث حديثاً موجها إلى العاطفة والعقل معاً . ولا ريب أن السحر والجن حقيقتان اسلاميتان لاريب فيها ولكن ذلك لايعنى خضوع المسلمين للسحر والجن أما الحجر الأسود فهو رمز اسلامى بمعبود لذاته قد سجل هذا المعنى عمر بن الخطاب حين قال :

« إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع » وهو فى دراساته عن الأدب العربى استعمل أسلوبه فى انتقاص الفضل والغض من قدر الجوانب الإيجابية ، وركز على الشعوبيين والزنادقة وشعراء الكشف أمثال : بشار ، وأبو نواس ، والحلاج ، وابن عربى ، وحاول أن يصور اتصال الأدب العربى بالأدب الفارسى على أنه تأثر وتبعية .

٢ – سنوك هورجرونجه

عمل (سنوك هور جرونجه) ، مستشاراً بوزارة المستعمرات الهولندية فى المسائل الإسلامية والعربية وقد استطاع أن يدخل مكة فى زى طبيب عالم ، ويقضى بها خمسة أشهر ، درس خلالها المجتمع العربى هناك بين وصول قوافل الحجاج ورجوعها وفى عام ١٨٨٩ ، أصدر كتابه فى عن مكة فى مجلدين وصف المجتمع العربى فى مكة (الأسواق – العبيد – الأماكن المقدسة – البيوت – الأعياد) .

كما درس الإسلام فى جزائر الهند الشرقية وعين عام ١٩٠٧ ، مستشاراً فى الشئون الهندية والعربية لحكومة هولندا ، وكتب عن سياسة هولندا إزاء الإسلام ، وهو فى خطته السياسية يريد أن يستبقى النفوذ الهولندى فى بلاد

الملايو أساساً ، وعلى ضوء ذلك ينصح حكومته بالتخفيف من عمل جمعيات التبشير فى تنصير المسلمين ، ويحذر حكومته من أخطار التعصب ، والاندفاع فيوصف بأنه من أقل المستشرقين تعصباً . غير أن النظرة الفاحصة لتقاريره وكتاباته تكشف عن خبيئته . يقول : يجب على الحكومات الأوربية التى استولت على بلاد الإسلام أن تجتهد فى إظهار التناقض بين الإسلام والمدنية العصرية وإقناع ناشئة المسلمين بأنهما ضدان لا يجتمعان فلا بد من رفع أحدهما . ولما كانت المدنية الحاضرة هى نظام كل شىء ولا مندوحة عنها لمن يريد أن يعيش . كان من البديهى أن الذى سيرفع من النقيضين هو الإسلام .

قال شكيب أرسلان : هذا المستشرق الهولندى وكرومر (الإنجليزى) من قادة الاستعمار ، يريدون إظهار عجز الإسلام عن امتصاص الأحكام العصرية ، وإثبات كونه نظاماً قديماً قد بلى . ولم يعد صالحاً للحياة على أمل أن الفوج الجديد من المسلمين الذين لا غنى لهم عن الحياة ينبذون الإسلام . وبنبذه تكون أوربا قد تخلصت من أكبر خطر يحيق بها . وهو الحكم الشرعى الذى لا يجيز للمسلم أن يخضع لأمير لم يكن على غير دينه .

ولقد كانت محاولة سنوك دائماً ترمى إلى دعوة الدول الأوربية المستعمرة . أن تتفاهم وتتفق على موقف موحد تجاه الإسلام ، حتى لا يتم تضامن بين المسلمين ويقول أحد مؤرخيه : إنه هو وبيكر ومارتن هارتمان يتفقون على العداوة للمسلمين ، والتشكيك فى ثورتهم على الإصلاح والتحذير من خطرهم على المستعمرات الأوربية .

ومن أقواله : إن الإسلام دين الكراهية ، والحرب ، ويجب أن لا نسمح له بالسيادة على العالم المتحضر .

ولا ريب أن الاستشراق الأمريكى هو امتداد للاستشراق الغربى ، وإن كان فى أغلبه استشراق صهيونى يهودى نتيجة سيطرة اليهود على مراكز البحث فى الجامعات الهامة أمثال : كولومبيا ، هافارد ، وبريستون ، وماتشجان وبروز عدد من المستشرقين الأمريكين ذى النحلة الصهيونية ، أمثال : جوستاف فون جرنباوم ، وفرانز زنتال ، وفيليب حتى .

وهناك بعض المستشرقين المعتدلين أمثال : جورج سارتون ، وتشارلز ادمز . وقد قام الاستشراق الأمريكي بإرسال بعثات أثرية إلى بلاد العالم العربي الإسلامي ، وأبدت اهتمامها بحضارات آسيا وإفريقيا ، ودياناتها .

ولا تخلو محاولات الاستشراق الأمريكي ، من العمل على احتواء الفكر الإسلامي ، والتعليم ، والثقافة ، وقد كان لها دورها القديم منذ إنشاء الجامعة الأمريكية في العالم العربي ، وخاصة في القاهرة ، وبيروت ، واستانبول .

٣- جوستاف فون جرونبوم

أما جرنبوم فإنه يدرس الإسلام من منطلق التفوق الغربي والحضارة الأوربية ، وتنتظم كتاباته مشاعر التعالي على الأجناس والشعوب الأخرى . وتدور دراسات جرنبوم في فلك واحد ، هو إثبات فضل الحضارة الهلينية على الحضارة العربية الإسلامية ، وهو حين يتحدث عن الإسلام ، يستعمل مصطلح (المحمدية) ، لأنه لا يريد أن يعترف بالوحي ، الرسالة ، وينسب الإسلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم . ويمثل جرنبوم ذلك التيار الجديد الذي يحاول أن يرد نهضات الأمم إلى مصادر ثلاث : تاريخ الإغريق ، وتاريخ بني إسرائيل ، وتاريخ روما ، ويحاول جرنبوم أن يقيم نظريته على قاعدة أن بغداد وارثة لحضارة الرومانية ، وبذلك يجرد الإسلام من ذاتيته الخاصة ، والدور الذاتي الذي قام به في مجال الحضارة ، والذي يختلف اختلافاً كلياً من مفهوم الإغريق ، والرومان تماماً ، وإن كان الإسلام قد استصفى خير ما في الحضارات القديمة ، التي يمكن رد أغلبها إلى الفراعنة ، والفينيقيين ، وهم عرب أصلا .

ويخطىء جرنبوم حين يحاول أن يرد تراث الإسلام إلى تعاليم المسيحية ، واليهودية من ناحية العقيدة ، والتاريخ الفارسي من ناحية المعرفة ، والتاريخ اليوناني ، من ناحية الفكر التجريدي ، فإن الإسلام قد أقام فكراً جديداً على أساس التوحيد الخالص ، يختلف بل ويتعارض مع مخلفات الفكر البشري ، والوثني ، والإباحي والمادي الذي كان معروفاً قبل ظهوره ؛

ولا ريب أن هذه المحاولة من جرنبوم هى محاولة ضالة متعصبة ، كما يقول فاروق خورشيد حيث يحاول تفتيت معطيات الحضارة الإسلامية إلى جزئيات صغيرة ، ورد هذه الجزئيات إلى حضارات أخرى ، وشعوب أخرى ، بحيث يصبح كل ما فى الحضارة الإسلامية مقتبس من الآخرين .

• • •

الفصل الثانى
الإستشراق يهوديا

منذ وقت بعيد جرتْ المحاولة على ظهور استشراق يهودى يتفق مع الاستشراق الغربى المسيحى فى الوجهة العامة من الهجوم على الإسلام ، ولكنه يختلف فى التماس جوانب معينة تخدم قضية الصهيونية ، ويستهدف القضاء على الوجود العربى فى فلسطين ، وما جاورها ويعمل على تزييف الحقائق الخاصة بالأصول العامة للحنيفية السمحاء التى حمل لواءها إبراهيم عليه السلام ، وما يتصل بأمر النبيين الكريمين : إسماعيل ، وإسحاق - عليهما السلام .

وقد ظهر فى أفق الاستشراق اليهودى : مرجليوث ، وإسرائيل ، ولفنسون ، وليفى بريل ، وجولدسيهر ، وبرنارد لويس ، ومكسيم رودنسون ، ومبرنبرجر .

ولم يتوقف الأمر عند هذا بل لقد استطاعت اليهودية استقطاب عدد من المستشرقين الغربيين لخدمة مفاهيمها منهم : الفريد جيوم ، وجرونباوم .

ولا ريب أن لليهود فى الإسلام شبهات خاصة تتصل بموقفهم من النبى والإسلام ، وأنهم هم صناع الإسرائيليات القديمة والمتجددة ، وقد نشطوا فى السنوات الخمسين الأخيرة لتجديد ما كان يردده اليهود فى الماضى منذ أول الدعوة ، ولهم فى التاريخ الحديث مواقف تكشف هذا المخطط الخطير منها ما يرددونه عن قضية الصلاة إلى بيت المقدس ، حتى أنه زويمر زعيم التبشير المسيحى وزع منشوراً فى الأزهر ، محاولا إثارة هذا الموضوع تحت عنوان (لماذا لا تعود إلى القبلة القديمة ؟) . ونجد أن طه حسين كان من أوائل من ألقى بذور الشك حول إبراهيم ، وإسماعيل عليهما السلام ، حين أعلن أنهما شخصيتان وهميتان ، وإن ورد اسمهما فى القرآن . واليهود هم

الذين علموه ما أذاعه فى طلبة كلية الآداب من أن القرآن مكى ومدنى ، وأن القرآن المكى جاف ، وأن المدنى رقيق ، والسر فى رقته هو اتصال النبى صلى الله عليه وسلم باليهود بعد الهجرة فى المدينة ، وهذا من سموم الاستشراق اليهودى أعلنه طه حسين فى محاضراته فى كلية الآداب فى القاهرة . وتبين من بعد أنه مما دونه واحد من أخطر المستشرقين اليهود . هو جولد سيهر فى كتابه الشريعة والعقيدة فى الإسلام ، ومن العجيب أن طه حسين نشر هذا الكتاب للمستشرق اليهودى عام ١٩٤٦ بعد أن تولى إدارة دار الكاتب المصرى -اليهودية- أى بعد أن أذاع هذه الآراء بأكثر من عشرين عاماً .

ومن محاولات الاستشراق اليهودى . تلك الرسائل التى ألفها إسرائيل ولفنسون عن اليهود فى جزيرة العرب . وعن اللغات السامية تحت إشراف الدكتور طه حسين ثم تولى تدريسها فى دار العلوم .

وقد استطاع اليهود التحكم فى مختلف وسائل النشر والإعلام فى العالم الغربى تحكماً مكنهم من بث أفكارهم . وأرائهم فى مختلف دوائر المعارف العالمية . والصحف والدوريات . ومن هذه المحاولات التى يدعون إليها ما يتصل بالتاريخ القديم ، وما يتصل بالأوضاع الحاضرة فى البلاد العربية فى محاولة لتصوير العرب أمام الغرب بأنهم أقل درجة فى الحضارة . وأنهم أى اليهود أحق منهم بأرض فلسطين ، وهم يقومون بتزييف مجموعة من الحقائق التاريخية الصحيحة للتمويه بأن لهم حقاً تاريخياً فى هذه المنطقة .

ومن أبرز هذه الدعاوى قولهم بالنظرية السامية سواء فى اللغة . أو التاريخ وهى التى يستهدفون من وراءها الادعاء : بأن اللغة العبرية أخت اللغة العربية ، وأن اليهود أبناء عمومة العرب ، وكلها محاولات باطلة مضللة ، أو القول بأن اليهودية غير الصهيونية ،وأن عبد الله بن سبأ الذى أحدث الفتنة فى عهد عثمان ليس شخصية حقيقية ، وإنما هو شخصية وهمية .

وقد استطاع الاستشراق الصهيونى تجنيد عدد من كتاب الغرب ، ومستشرقيه لخدمة أهدافه . كما تمكن من تجنيد عدد من الكتاب الذين يكتبون بالعربية لحمل لواء هذه الأفكار .

وتتمثل اتجاهات الاستشراق اليهودي فى عدة شبهات :

أولا : القول : بأن المسلم معناه فى الأصل الخائن . وتعليل ذلك بأن هذه الكلمة مشتقة من اسم مسلمة .

ثانياً : الادعاء بأن النبي عليه الصلاة والسلام . كانت تنتابه النوب العصبية ، ودليل ذلك ما كان يصيبه من الجهد خلال نزول الوحى . مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يعرف فى تاريخه كله أنه كان يصاب بمثل هذه النوبات العصبية قبل زمن البعثة ومقدماتها .

ثالثاً : الزعم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم عاشر بعض النصارى واليهود . فاستفاد منهم كثيراً من القصص ، واقتبس بعض أساليب التعبير التى لم تكن معروفة للعرب : مثل ذاق الموت . ونفخ فى الصور ، وفى آذانهم وقر . وهو ادعاء مسبوق ردده مشركوا مكة الذين قالوا : **« إنما يعلمه بشر »** . وقد بكتهم القرآن فقال :

« لسان الذين يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » .

« وما كنت تتلو قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون » .

رابعاً : الادعاء بأن محمد صلى الله عليه وسلم ما كان رسولا ، ولا نبياً فزعم للعرب فى تجسس الأخبار . والإسراع بنقلها بطرق لم يوفق أحد من المتحضرين حتى اليوم إلى كشف سرها .

خامساً : أن محمداً صلى الله عليه وسلم صادق الفراسة . نقاداً للرجال إذا لقى أحدهم انكشف له سره ، وافتضحت أمامه خفايا صدره . وعرف كيف يستميله ويجتذ به إليه .

سادساً : ما كان من بلاغ النبي صلى الله عليه وسلم ورسالاته لم يكن وحياً يوحى ، وإنما هى أنباء وروايات يجند لها جواسيسه . ورجاله أو حقائق يبلغها بحذقه وفراسته .

سابعاً : تزوج الرسول صلى الله عليه وسلم بالسيدة خديجة رضى الله عنها طمعاً فى ثروتها . وهى أكذوبة لا تتفق مع ما عرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من زهد فى الدنيا ، وأنه لم يورث أعقابه الزهيد مما خلفه

بل جعله لعامة المسلمين بقوله : (نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة) .

ثامناً : الزعم بأنه أنشأ جمعية سرية . واختار أبو بكر الصديق رضى الله عنه رئيساً لها . فجعل يروج لها ويتفانى فى نشرها . فكانوا يجتمعون فى بيت الأرقم . وأنهم كانوا يجتمعون سراً للصلاة . وقد حاول (مرجليوث) تشبيهم بالماسون . وأن هذا الجمع قد اتخذ له رموزاً منها (السلام عليك) .

تاسعاً : الزعم بأن النبى صلى الله عليه وسلم نظر فى تعاليم النصارى واليهود . فأخرج منها ما لا يقبله للعقل . وأنه وجد بين إله اليهود والنصارى وجعلها واحداً .

ولا ريب أن هذا القول باطل من أساسه . والحقيقة أن التوحيد هو دين جميع رسل الله وأنبيائه . وأن النصرانية واليهودية حرفتا هذه العقيدة .

على هذا النحو حاول الاستشراق اليهودى تصوير الإسلام ورسالته ونبيه صلى الله عليه وسلم . وهو ما أورده مرجليوث فى كتابه : (محمد وظهور الإسلام) . ورد عليه الشيخ عبد العزيز جاويش فوصف كتاب مرجليوث الذى ظهر عام ١٩٠٥ ، بأنه لم يؤلف كتاب بالإنجليزية أشد تحاملا على النبى صلى الله عليه وسلم منه فقد حاول أن يشوه كل ما يتعلق بالسيرة ، وأنه يشكك فى أسانيدها ولم يأل جهداً فى نقض ما أبرمه التاريخ .

ويصور الشيخ عبد العزيز جاويش الذى كان أستاذاً بجامعة أكسفورد كيف يتعامل مرجليوث بالنصوص التاريخية فيقول : إننى كنت مدعواً معه فى بعض المنازل فلما كنا على المائدة سألنى بعض الحاضرين : هل سبق لى أكل لحم الجزور ؟ فأجبته : إنى لا أذكر ذلك وربما اتفق لى هذا ، وأنا صغير ، فلما سمع الأستاذ مرجليوث هذا الكلام قال : كيف ذلك وعلى كل مسلم أن يأكل لحم الجمال ، ولو مرة واحدة فى حياته . عند ذلك أجبته وأنا دهش مما قال : يا سيدى إننى أعرف أن قواعد الإسلام خمس أما هذا السادس فلا أعرفه ، بيد أنى أستميح الأستاذ عفواً أن يذكر لى مأخذ هذا الحكم فقال : ورد فى صحيح البخارى أنه قد جاء أحد اليهود إلى الرسول

صلى الله عليه وسلم . وقال له : إنى جئت أشهد أن لا إله إلا الله . وأنك رسول الله ، فأجلسه . وأمر له بلحم جزور . ومن هنا استنبط المستر مرجليوث أنه يجب على كل مسلم أنه يأكل لحم الجزور ، وأن هذا من العوائد الإسلامية التى ينهدم الدين بانهدامها .

فلما فرغ قلت له : إن مع وجود هذا الحديث فى البخارى فالذى يفهمه المسلم الذى يفقه اللغة العربية منه أحد أمرين : فإما أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم أراد أن يقدم لذلك اليهودى شيئاً من الطعام لأنه ضيفه فى بيته . وإما أنه أراد أن يمتحن إيمان اليهود بإطعامه شيئاً مما حرمه الله على بنى إسرائيل فى التوراة . من أجزاء اللحم ثم تلوت الآية المفيدة لذلك فبهت الأستاذ ولكن لم يخسر قوة المكابرة ، وشدة العناد التى عليها الأوربيون ولا سيما — المستشرقون منهم — .

ويهتم الاستشراق اليهودى بإثارة مسائل ترتبط باليهود ، كإخراج اليهود من خيبر . وقصة قبيلة بنى قريظة التى تعاونت على المشركين يوم الأحزاب ناقضين العهد الذى قطعوه على أنفسهم ويقف مرجليوث موقف العداء أمام الغزوات التى قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم لاقتلاع الوجود اليهودى . ويصفها بأنها حرب انتقامية مع أن وقائع التاريخ تثبت تآمر اليهود ، وحكم النبى صلى الله عليه وسلم وصبره عليهم وإعطائهم الفرصة لإثبات حسن النية فى نفس الوقت الذى كانوا يواصلون مؤامراتهم ، وتعاونهم مع كل القوى المعادية للإسلام ويصل مرجليوث إلى أبعد حدود التعصب والحقد والتجرد من كل أصول الفهم للشرائع الإسلامية البشرية ، وأنظمة الدول حين يقول : إن محاولة أحدهم قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصح أن يكون سبباً يتذرع به للانتقام .

ومن أجل هدم محاولة اللغة العربية كانت محاولة الطعن فى الشعر الجاهلى ، هذه النظرية التى تلقفها تابع الصهيونية الدكتور طه حسين . والذى قال عما قالت به اليهودية فى شأن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، فى شأن عبد الله بن سبأ . والذى ادعى أنه كان لليهودية أثر أدبى . وحضارة فى الجزيرة العربية قبل الإسلام .

وقد تابع مرجليوث على نفس الطريق فى الاستشراق اليهودى — (جولد سيهر) . الذى نقل الدكتور طه حسين رأيه فى القرآن المدنى ، والقرآن المكى ، ويعد جولد سيهر من أكبر الناقمين على الإسلام . ويعد كتابه (العقيدة والشريعة) فى الإسلام مثلا لهذا التشويه الذى حاول به تمزيق الحقائق الإسلامية ، والذى يمثل تزويراً فادحاً وتحريفاً خطيراً لسمعة الإسلام بأسلوب يخالف كل المخالفة للدقة فى النقد ، ومناقض أشد المناقضة للتمحيص فى الاستنباط العلمى على حد تعبير الأستاذ محمد المنتصر الريسونى .

ويضيف جولد سيهر إلى مفهوم الاستشراق اليهودى عدة شبهات :

أولا : القول ببشرية القرآن : أى أنه ليس وحياً إلهياً . وأن القرآن لم يأخذ خطاً واحداً فى التعبير عن مدلول القضايا التى ساقها ، وأن أسلوبه متباين بين البيئتين المكية والمدنية ، وأنه كان فى المرحلة الأولى سجع وفى المرحلة الثانية سجع مجرد من الاندفاع العاطفى .

ثانياً : أن الثقافة الهلينية كانت صاحبة الأثر الأول فى تطور الإسلام .

ثالثاً : أن الإسلام كان مزيجاً منتخباً من الفكر اليهودى والمسيحى .

رابعاً : استقبال الرسول صلى الله عليه وسلم لبيت المقدس فى الصلاة كان استرضاء لليهود .

خامساً : إن قصة إبراهيم عليه السلام فى القرآن مفتعلة . وأنها نزلت فى المدينة إرضاء لليهود . والواقع أن القرآن تحدث عن إبراهيم عليه السلام فى أكثر من موضع فى القرآن المكى . وأهمها سورة إبراهيم عليه السلام :

سادساً : الفقه الإسلامى مأخوذ من الفقه الرومانى .

سابعاً : أن الإسلام قام على السيف .

ثامناً : الحديث النبوى من صناعة الصحابة والتابعين .

تاسعاً : الجيوش العربية أخرجها القحط والجوع .

عاشراً : إنكار عالمية الرسالة .

ولا ريب أن هذه الشبهات كلها ليست جديدة . وقد كشف كتاب المسلمين فسادها . ولكن الاستشراق اليهودى ركز على جوانب معينة نحاول عن طريقها مواجهة ما سجله القرآن عليهم من تزييف وتحريف . وإفساد لاتجاه رسالة الإسلام منذ جاءت على يد إبراهيم عليه السلام . ولسانه ، وما حاولوه لينتقلوا برسالة موسى عليه السلام التى جاءت على طريق الله الصحيح إلى محاولتهم العنصرية التى حرفت التوراة . ووقفت موقف المعارضة مما أنزل الله على عيسى عليه السلام . ومحمد صلى الله عليه وسلم .

فهم يحرفون تاريخ إبراهيم عليه السلام تحريفاً ، يؤيدون به دعواهم الباطلة فى أن يجعلوا وعد الله له ولذريته (إسماعيل وإسحاق) قاصراً على أبناء إسحاق وجدهم .وينكرون رحلته إلى مكة وبنائه الكعبة . والبيت الحرام مع ابنه إسماعيل . ويدعون إن الوعد لأبناء إسرائيل وحدهم . ومن ثم فهم ينكرون عالمية الرسالة الإسلامية . ويتهمون الإسلام أنه قام على السيف . ويحرفون موقف الرسول صلى الله عليه وسلم . والمسلمين من الصلاة إلى بيت المقدس إلى غير ذلك من القضايا التى يثيرونها بمفهوم التعصب والخصومة

(٣)

ولا يقف الاستشراق اليهودى عند تزييف تاريخ الإسلام بل إنه يعمد إلى مهاجمة واقع العرب القائم باعتبارهم هم العدو المواجه لهم وخصمهم الأول . ويركزون على انتقاص الوجود العربى ، ووصفه بالتأخر . ويحاولون خلق خصومة بين العرب ، وبين أهل الغرب ، ويتزعم هذه الدعوة كثيرون من كتابهم . وفى مقدمتهم ، المستشرق برنارد لويس الذى منحته الجامعة العبرية الدكتوراه الفخرية تقديراً لجهوده فى خدمة الصهيونية .

ولعل أخطر أبحاث برنارد لويس : هو بحثه عن المساواة العنصرية فى الإسلام . فى محاولة لتصوير الإسلام بأنه دعوة عنصرية معتمداً على بعض نصوص مقتطعة من سياقها من كتاب الأغانى ، وبعض كتب المحاضرات كما لجأ برنارد لويس فى الاستدلال على نظريته بأحاديث مكذوبة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وببعض الأمثلة السائرة التى لا يمكن أن تكون

منادا علمياً صحيحاً ، وهو فى سبيل تأييد رأيه يبطل قيمة الأحاديث الصحيحة التى جمعها ثقاة المسلمين .

ولا ريب أن موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من بلال وصهيب وسلمان الفارسى معروف ، وكذلك موقفه من حادثة أبى ذر مع بلال . ومن قوله : (لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى) .

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء) ، وقوله : (ليس منا من دعا بدعوى الجاهلية) .

وركز برنارد لويس على تصوير العربى بصورة مهينة . وحاول استعداء العالم الغربى على العرب بالادعاء بأنهم شعب من الهمج ، وأن اليهود أحق بأرض فلسطين ، وصحراء فلسطين منهم لأنهم متمدنون .

وهو فى بحثه عن العربى فى مقدمة كتاب (العرب فى التاريخ) يدور ويلف ليحاول القول : بأن العربى هو البدوى لا غير فيقول : إن العرب بالنسبة لمحمد صلى الله عليه وسلم ومعاصريه هم البدو سكان الصحراء . وقد استعمل القرآن هذا النص (أى العرب) على التخصيص فى هذا المعنى ولم يستعمله قط ليدل على سكان مكة والمدينة والمدن الأخرى) .

ولا ريب أن برنارد لويس يكشف بهذا القول عن تعصبه وعناده ، ذلك أن القرآن فرق بين لفظ عربى ، ولفظ الأعراب .

وهو فى هذا يحاول لصق صفة البداوة بالعربى حتى يظل الغربيون ينظرون إلى العرب هذه النظرة ، وفى لسان العرب وتاج العروس أن لفظ عرب اسم جنس يطلق على هذا الجنس من الناس الذين يقطنون بلاد العرب سواء أكانوا بدواً ، أم حضراً ، وأن هناك تفريقاً بين عربى ، وإعرابى ، وأن ذكر الأعراب تحديد لسكان الصحراء الرجل ، وقد جاء فى القرآن عشر مرات ، وأنه لا يجوز أن يقال للمهاجرين والأنصار : أعراب ، وإنما هم عرب لأنهم استوطنوا القرى العربية وسكنوا المدن . (أورد هذا التعليق الأستاذ جلال مظهر) .

حاولات الصهيونية منذ وقت باكر تركيز دعائم الاستشراق اليهودى فى البلاد العربية ، وفرض مفاهيمها من خلاله . وقد فتح الدكتور طه حسين هذا الباب واسعاً حين ألقى العديد من محاضراته عن أثر اليهود فى الأدب العربى ودورهم فى الجزيرة العربية ، وتبعه فى هذا تلميذه اليهودى إسرائيل ولفنسون ، وبول كراوس كما عمل فى هذا الميدان بمثابرة شديدة خريجو مدارس الإرساليات التابعة للبروتستانت ، والذين يؤمنون بدعوى اليهود من أن لهم حقاً فى فلسطين ، ويعطفون عليهم ، وفى مقدمة هؤلاء رجال الصحافة منهم أمثال : صروف ونمر ، ومكاريوس ، وتقلا ، وزيدان ، وسركيس ، وغيرهم الذين كانوا قد انبثوا فى مختلف أنحاء البلاد العربية ، وبدأ الحديث عما سمى إذ ذاك (إحياء الآداب العبرانية ونشرها) . ولقد شهد لطفى السيد ممثلا عن الجامعة المصرية افتتاح الجامعة العبرية فى القدس ، كما احتفل بموسى ابن ميمون فى الأوبرا المصرية فى تنظيم حشد له أعلام الأدب ، والصحافة . والجامعة ، وكان إنشاء كرسى لدراسة ما أطلق عليه اللغات السامية فى الجامعة . عملا من أهم الأعمال فى نشر اللغة العبرية ، وآدابها وخلق المقارنات بينها ، وبين اللغة العربية ، وكذلك ظهر أمثال : هلال فارحى ، ومراد فرج . وإيزاك شموس يدعون إلى إحياء الفكر اليهودى : سبينوزا وغيره .

ويتحدثون عن تاريخ اليهود فى جزيرة العرب ، ومصادر التاريخ الإسلامى ، وانضم إليهم إسماعيل أدهم أحمد ، واتسع نطاق البحث حول ما أسماه طه حسين : (المستعمرات اليهودية فى الجزيرة العربية) ، التى أثرت تأثيراً قوياً فى الحياة العقلية ، والأدبية للجاهليين من أهل الحجاز وكتب مراد فرج : ما أسماه الشعراء اليهود العرب عام (١٩٣٩) جمع فيه عدداً من الشعراء القدامى ، وكان ذلك فى مجال الاستشراق اليهودى مماثلا لكتاب الشعراء النصارى العرب الذى ألفه لويس شيخو .

وعقد فى موناكو بإيطاليا مؤتمراً اهتمت به الصحافة المصرية اهتماماً كبيراً ، أطلق عليه مؤتمر ثقافات البحر المتوسط ، وبرزت فى هذا المؤتمر الدعوة السامية فى الدين واللغة . وتعددت كتابات الأدباء عن آثار :

(ماكس نوردو) خليفة هرتزل فكتب عنه المازنى . والعقاد . وإسماعيل مظهر عديداً من الفصول . وتعددت الكتابات فى الأهرام ، والمقطم ، وصحف دار الهلال عن اللغات السامية . ومملكة يهوذا . وعن عدد الترجمات التى نقلت إليها التوراة فى متابعة مستمرة . وقد عمل فى هذا المجال كثير من الكتاب العرب الماسون . أمثال : محمود عزمى ، وفليكس فارس . وأمين الريحانى فى خبث واستدراج . وبدأ اهتمام الصحف بأمثال : أميل لدوفيج وفرويد وكارل ماركس .

وبدأ طابع العطف على الصهيونية من خلال الحديث عن اضطهادهم فى أوربا ، وعلت نغمة كاذبة بالقول : بأن اليهود أبناء عموم العرب . وأن اليهود يدافعون عن السامية إزاء الأرية التى هى أساس الحضارة . وأن الثقافة السامية هى مزيج من الثقافة العربية والعبرانية . بدعوى أن هناك ما يسمى بالحضارة السامية العربية اليهودية التى سادت التفكير الأرى فى أوربا .

ولا ريب كانت هذه دعاوى باطلة فلم يكن لليهود أى أثر فى الفكر الإسلامى الذى دخل أوربا . ولم تكن العبرانية أخت العربية . ولم يكن لليهود ذلك الدور الذى خلعه عليهم طه حسين فى الأدب العربى . والحياة العربية قبل الإسلام . وإذا كان لهم دور فهو دور النقل من الفكر الإسلامى . والأدب العربى .

ووجدنا أمثال : جاستون زنانيرى . وقدمى كوهين يدعون إلى ما أطلقوا عليه (الجامعة السامية) عام ١٩٣٩ ، وتقول الأبحاث المتعددة التى نشرت عنها : إنها ترمى إلى إنشاء اتحاد سلمى يضم جميع البلاد الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر . والإقيانوس الهندى . وإيران . وتركيا . وبين هذه الولايات المتحدة فى الشرق الأدنى توجد ولاية يهودية كبيرة تسع أبناء إسرائيل . والدعوة إلى اتفاق العنصرين العربى واليهودى .

وقد انزلق كثير من الكتاب والزعماء إلى تقبل هذه الدعوة . ومن هؤلاء : فيصل بن الحسين . وأحمد زكى باشا شيخ العروبة . وغيرهم ممن خدعهم التمويه الصهيونى الذى لم يستطع أن يستمر طويلا . والذى كشفت

الحقائق عن فساده، وعن العدوانية الضاربة التي بدأت بها الصهيونية رحلتها في الأرض العربية :

كذلك جاءت كتابات دوزى ومارجليوث . وريني لتتناول صلة الإسرائيليين بالعرب في الجزيرة العربية . وفي أرض كنعان في مغالطات . وادعاءات باطلة ترمى إلى القول : بأنه كان لليهود وجود في الجزيرة العربية . وتتنكر لحقيقة الواضحة . وهي أن اليهود هاجروا من الشمال إلى الجنوب . بعد أن حطم الرومان مدينتهم وهيكلهم للمرة الأخيرة عام ٨٠ ميلادية .

وقد حاول دوزى أن يثير دعاوى باطلة ليس لها ما يؤيدها من دليل مثل ادعائه أن الكعبة حديثة العهد عن عصر إبراهيم، وإسماعيل عليهما السلام. وادعائه الشبة القوى بين اليهود . وأهل مكة . وغير ذلك من كاذب الدعاوى التي استخدمت لحساب الصهيونية. وأنه مهما كان يوجد في جزيرة العرب من فلول يهودية هربت منذ هجوم نبوخذ نصر عليهم إلى أرض الجزيرة العربية فإن ذلك لا يمثل (وجود يهودى) أصيل في بلاد العرب .

ولقد عاش اليهود في الجزيرة العربية غرباء معزولون . ولم يتركوا أسلوبهم في الغدر والخيانة ، والإيقاع بين القبائل والطوائف . ولذلك كانوا موضع الكراهية والاحتقار حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فأكرمهم . وعقد معهم عقداً بالأمان ولكنهم لم يتركوا أسباب خيانتهم فسرعان ما تعاونوا مع خصوم الإسلام ، وتآمروا مع قريش ضد المجتمع الإسلامى بل إنهم تآمروا على الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه لقتله ، والقضاء عليه في أكثر من مؤامرة مما حمل النبي صلى الله عليه وسلم إلى إجلائهم .

ولذلك فإن كل ما ألقاه الاستشراق اليهودى من القول بارتباط اليهود العرب وتعاونهم قبل الإسلام . وبعده . كان من أضاليل التاريخ التي جرت محاولة إذاعتها بالباطل في عملية خداع واسعة وكاذبة .

وقد وجدت هذه المحاولة مواجهة ضخمة من حركة اليقظة الإسلامية كشفت زيفها ودحضت شبهاتها وسمومها .

أولا : تبين أن ما كتبه إسرائيل ولفنسون فى كتابه (تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام) هو بمثابة حلقة من حلقات الدعاية اليهودية التى نشرتها الصهيونية فى العالم العربى . وأنه لم يكن بحثاً علمياً بالمعنى المفهوم .

ثانياً : تبين كذب دعوى الاستشراق الصهيونى فى القول : بأن اليهود (أثروا) الأدب العربى . وأنهم قالوا كثيراً من الشعر فى الدين . وهجاء العرب . وأنهم انتحلوا شعراً لإثبات سابقتهم فى الجاهلية .

وقد كشف الدكتور فؤاد حسنين حقيقة موقف اليهود على هذا النحو الذى يدل على أنهم سرقوا من كل الحضارات . وكانوا عالة على كل المدنيات . فقد نقل اليهود من بابل وآشور شريعة (حمورابى) ومن مصر الشىء الكثير مما وضعوه فى سفر التثنية . ولما عاد اليهود من السبى البابلى نقلوا معهم من العرب البابلين الشىء الكثير مما نجده فى كتابهم المقدس ؛ ومن المعنيين السبأئيين نقلوا العمارة . وهندسة الرى والتجارة . وقصة ملكة سبأ . والدور الذى تلعبه فى تاريخ الإسرائليين . وحياتهم الاقتصادية لا يخفى على أحد .

والتاريخ اليهودى يحدثنا أن العرب أحسنوا معاملة اليهود عندما كانوا يهربون من وجه الطغاة فى حكامهم فى فلسطين . أو فزعاً من اضطهاد اليونان . والرومان ، فقد نزل أولئك اليهود الجزيرة العربية فوجدوا أهلا وسهلا لهذه القبائل اليهودية التى كانت تنزل بيثرب وخيبر ووادى القرى . والتى وفد أفرادها على العرب بعد أن أفقدتهم القرون التى مرت بهم منذ زوال دولتهم ولغتهم المقدسة ، تذوق اللغة العبرية وتجديدها حتى أصبح من المألوف لدى اليهودى أن يعبر عن أفكاره وشعوره فى لغة ركيكة هى خليط من العبرية ، والكلدانية واليونانية ، فحالت ظروفه هذه دون خلق آداب عبرية فما كان أولئك اليهود بمستطيعين قول الشعر ، أو إجادة النثر فغير نزولهم بين العرب هذه الأوضاع فأخذ اليهود من جيرانهم العرب فن الكلام . والنطق الصحيح ، وفصاحة التعبير فلما رحل بنو قنيقاع ، والنضير ،

وقريظة ، ويهود خيبر ، ووادى القرى ، وغيرهم إلى العراق ، والشام ، وفلسطين كانوا يتكلمون لغة عربية ، ويتأولون بأدب عربى ، ويتطبعون بطباع عربية ، وقد فتح العرب أمام اليهود دور العلم على مصراعيها ، ولم يفرقوا بينهم وبين غيرهم ، لذلك استطاع اليهود القيام بدور الرواة من الشعراء ، وانسابوا فى بعض البلاد المسيحية ، وأخذوا إلى جانب بعض علماء العرب يلقنون الأوربيين ما انتهت إليه معرفتهم .

ويحدثنا التاريخ اليهودى أن الإسلام أحسن معاملة اليهود ، وحتى أولئك الذين اضطر النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون إلى إجلائهم عن قلب الجزيرة العربية تأميناً لرسالة الإسلام ، واتباعه ، فقد أقطعهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، والإمام على كرم الله وجهه ، الأراضى الواسعة بالقرب من الكوفة ، على ضفاف الفرات مما دفع المؤرخ اليهودى الشهير جريتز إلى الإشادة بعدالة العرب ، وإنسانيتهم فى كتابه تاريخ اليهود فقال :

إن تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى القرن السابق للنبوة المحمدية ، وإبان حياة الرسول صلى الله عليه وسلم صفحة ناصعة فى التاريخ اليهودى : لقد وزع عمر أراضى اليهود على المسلمين المحاربين ، وعوض اليهود المطرودين — وهذه هى العدالة — أخرى بالقرب من الكوفة على الفرات حوالى عام ٦٤٠ م حقاً رب ضارة نافعة ، أن سيادة الإسلام قد نهضت باليهودية من كبوتها .

وهكذا نجد أن العرب هم الذين أهدوهم العربية بعد أن كانوا يرطنون خليطاً لا شرقياً ، ولا غربياً ، ولا سامياً ، ولا هندياً أوربياً ، والعرب هم الذين هذبوا ذوقهم اللغوى ، ورفعوا مستواهم الأدبى فمكنوهم من خلق ملكة أدبية .

وهكذا نجد أن كل شبهات اليهود ودعاواهم باطلة بالدليل والبرهان .

وأن كل محاولاتهم فى احتواء عدد من الكتاب الذين يكتبون بالعربية لم يحقق لهم شيئاً ذا بال ، وأن الأمر قد انكشف عن فساد كل هذه الدعاوى .

وقد أشار الدكتور حسن ظاظا إلى أن الصهيونية حاولت احتواء عدد من أمثال : ولفنسون ، شادة ، برجستراسر ، جويدى ، كراوس ،

شاخت وغيرهم كما تتلمذ عليهم عدد من الأساتذة العرب من أمثال : على الصانى ومراد كامل ، ويحيى نامق ، وغيرهم مما يدل دلالة قاطعة على ما بين الاستشراق ، والصهيونية من صلات براد بها النفاذ إلى الفكر الإسلامى . ولقد كان للدكتور فؤاد حسنين صلة بالدراسات الصهيونية ، ولكننا نرى أنه كشف زيفهم فى بحثه الذى أوردناه الآن .

وقد ذكر الدكتور إسماعيلوفيتش فى أطروحة عن الاستشراق : أن أكثر المستشرقين الذين قاموا بدراسة الأدب العربى القديم والحديث هم اليهود :

ليفى بروفنسال بول كراوس ، وإسرائيل ولفنسون ، كما أشار إلى أن أغلب هؤلاء : بريل ودوركايم ، وجولد زيهر ، ومرجليوث ، وبرنارد لويس ، وردونسون ، وغيرهم كانوا أساتذة لعدد من أعضاء البعثات العربية إلى الجامعات الغربية مثل طه حسين ، ومنصور فهمى ، وزكى مبارك ، ومحمود عزمى .

وإذا كنا قد أشرنا إلى دور الاستشراق الصهيونى فى مجال الجامعات ، فإن دوره كان أكثر قوة فى مجال الصحافة فقد كان جرجى زيدان ، وإسكندر مكاريوس ، ويعقوب صروف ، وفارس نمر من أعيان المحافل الماسونية ، ولأكثرهم كتابات ومؤلفات ، وقد أصدر مكاريوس مجلة اللطائف فى أول أمرها مجلة ماسونية خالصة ، ثم حولها بعد الحرب العالمية الأولى لخدمة الاستعمار البريطانى ، والحلفاء ، وتأييدهم ، ونشر صور انتصاراتهم ، وكانت تطبع منها مئات الألوف ، وتنقل بالطائرات لتوزع على معسكرات الجيوش المتحالفة .

وكان داود بركات رئيس تحرير الأهرام أكثر من ثلاثين عاماً من أقرام الصحافة ، ودهاقين الاستعمار ، وأولياء النفوذ الفرنسى كما كان فارس نمر ، وصروف ، وخليل ثابت من أولياء النفوذ البريطانى ، ولكنهم ومعهم جرجى زيدان يعملون لغاية أكبر وأبعد من النفوذين الفرنسى والبريطانى . ذلك هو النفوذ الصهيونى . وهو دس السموم الخطيرة ثم يدعون بعض الكتاب المصريين ليمهروها بأسمائهم مؤيدين للتبشير ، وعارفين

بمجريات الأمور بالنسبة لترجمة التوراة ونشرها ، وبالنسبة للدعوة إلى ما أسموه اللغات السامية . أو الجامعة السامية ، أو الروابط بين المسيحية والصهيونية . ذلك لأن أغلب هؤلاء كانوا من المتخرجين فى الجامعة الأمريكية فى بيروت ذات الاتجاه البروتستانتى الموالى للصهيونية .

وإذا التفتنا إلى أثر الاستشراق اليهودى . وجدنا أن رسالة طه حسين عن ابن خلدون وضعت تحت إشراف مستشرق يهودى هو دور كايم ، وأنها عملت على النيل من هذا الرائد العظيم ، وتوجيه التهم والشكوك إلى عمله العظيم . وأن رسالة منصور فهمى وضعت تحت إشراف مستشرق يهودى هو ليفى بريل ، وكان قد اتخذ من تعدد زوجات النبى صلى الله عليه وسلم منطلقاً للاتهام . وقد واجهت حركة اليقظة الإسلامية هذه المحاولة بالشجب والتفنيد ، وعرف منصور فهمى خبيئة المؤامرة بعد وقت . ويتصل بهذا المخطط تلك الكتابات المؤيدة ، والمحبذة للبهائية التى كانت قد استقرت فى فلسطين لخدمة أهداف الصهيونية . وكذلك فى الحملة على السلطان عبد الحميد الذى قاوم إغراءات . ومطامع الصهيونية ثم ظهرت مقالات الهلال عن الحل اليهودى للمشكلة الصهيونية . ثم الحملة على العرب التى وجهها أحمد أمين . وتوفيق الحكيم .

وكان للتراث دور فى هذا المخطط أبرزه : إعادة طبع جزء واحد من كتاب أنساب الأشراف للبلاذرى ، للاعتماد عليه فى إثارة قصة عبد الله ابن سبأ على النحو الذى كتبه عنها طه حسين فى كتابه : (الفتنة الكبرى) .

قام المعهد الشرقى بالجامعة العبرية بالقدس بنشر الجزء الخامس من كتاب أنساب الأشراف . وقد كان اختيار هذا الجزء وحده دون سائر الكتاب موضع الاشتباه .

ولكن الأمر تبين تماماً بعد أن كتب طه حسين معتمداً على كتاب البلاذرى منكراً وجود شخصية عبد الله بن سبأ لأن البلاذرى لم يوردها فى هذا الجزء ، وقد كشف الأستاذ محمد محمود شاكر هذا الادعاء ، وأشار إلى أن البلاذرى ربما ذكر أمر عبد الله بن سبأ فى أى جزء من الأجزاء الأخرى .

وفى السنوات الأخيرة عمدت الصهيونية إلى السيطرة على مؤتمرات الاستشراق ، وفرض وجهة نظرها ، ورجالها ، وقد شاركهم فى هذا الاستشراق الروسى : وقد أشار أحد الباحثين الذين حضروا مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى كمبردج عام ١٩٥٥ إلى هذه الظاهرة الخطيرة فقال :

دلت المهازل التى وقعت فى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى أغسطس عام ١٩٥٥ بمدينة كمبردج ، على أن الاستشراق أخذ ينحط فقد انبث فيه يهود مغرضون ، وروسيون متعصبون ، جاءوا لبث الدعاية الرخيصة . وقد كثر الأعضاء اليهود الذين جاءوا من مختلف البلدان يحملون فى قلوبهم التعصب الإسرائيلى المنافى لأخلاق العلماء ، وقد زعم أحدهم أن قصر الحمراء الذى شيده ملوك بنى نصر فى غرناطة هو من صنع اليهود . ولما توقف اليهودى فى دعواه تبين أنه يملى قوله من فرض الخيال مدفوعاً إلى ذلك بسقطة التعصب .

أما مهزلة المهازل التى أتيح لها أن تمثل فى مؤتمر المستشرقين هذا فهى أكاذيب موسكو على صدر الإسلام ، وادعاءها أن مسيلمة الكذاب كان له تأثير مباشر فى آيات القرآن ، وأنه كان قبل أستاذاً ثم خليفة لخاتم رسل الله إلى غير ذلك من السفاسف التى تحول بها مؤتمر المستشرقين إلى بيئة لا تليق بمن ينتسب إلى العلم أن يتعاون معها .

ويتصل بهذا تجنيد الصهيونية لعدد من المستشرقين الغربيين لخدمة أهداف الصهيونية .

وأمامى فى هذا الصدد الفريد جيوم ، وجوستاف فون جرينباوم .

أما الفريد جيوم فقد استخدمته الصهيونية فى تأليف كتاب ليرد به على كتاب (جب) المحمدية . ومع أن كتاب جب لا ينصف الإسلام وإنما يدفع عن نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم بعض الاتهامات ، فقد أثار غضب اليهود والكاثوليك أكثر من غيرهم ، وقد نشرت دار النشر اليهودية (بنجوين) كتاب جوم مرتين ، ولم تنشر كتاب جب .

وقد أعطته إسرائيل وساماً من الحكومة الإنجليزية . يقول الدكتور عبد الجليل شلبي أن جيوم تخرج من أكسفورد . واتصل بقسم الدراسات اللاهوتية ، والعبرانية فيها ، ويبدو أنه من ذلك الوقت صهر فى بوتقة يهودية ، وأصبح لا يهودياً فقط بل صهيونياً أشـــد تعصباً من الصهيونيين الحقيقيين ، وأدنى لليهودية من اليهود ، ومن مؤلفاته كتابة الأحاديث النبوية ، وأثر اليهودية فى الإسلام .

ومن تاريخه أنه كان عضواً فى مجمع اللغة فى دمشق ، والقاهرة ، وبغداد ، وأنه كان مدرساً فى الجامعة الأمريكية فى بيروت . وقد عمل طوال الحرب فى المخابرات الإنجليزية بالشرق الأوسط إلى جانب عمله فى مدارس التبشير ، وتلاميذه كانوا يعملون فى الكنائس الشرقية .

ويقول الدكتور عبد الجليل شلبي : إنه يجرى فى ذلك المخطط الذى يقوم به اليهود ، والذى يرمى إلى تحطيم الأديان كافة لأن اليهودية نفسها ديانة غير منتشرة فلا تقبل بين أفرادها من ليسوا من سلالة اليهود كثيراً ما يبدأ اليهودى بنقد اليهودية وتحطيمها ، ولكن هذا مجرد قناع يتذرع به إلى نقد الديانات الأخرى ، بينما هو مصر على دينه ، وعنصره ، وهذه الحركة أصبحت معروفة ، ويظهر أنها نشأت مع موجة الفكر المادى منذ القرن الثامن عشر أو نتيجة لها . ولكن مما لا ريب فيه أن هناك تركيزاً أقوى على محاربة الإسلام ، فهذا التركيز ليس إلا نوعاً من الأسلحة الصهيونية .

أما جوستاف فون جرينباوم . فإنه يختلف عن المستشرقين الغربيين الذين يردون أصول الحضارة إلى الأصلين الإغريقى ، والرومانى . فإنه يضيف إلى ذلك أصلا ثالثاً هو تاريخ بنى إسرائيل .

ولا ريب أن هذا التقسيم قد اعتمده فريزر فى دراسة الخرافة ، والفلكور ، والأساطير القديمة ، ولكنه لا يكون صحيحاً فى دراسة الحضارات ذلك أن اليهود كانوا عالة على الحضارات اليونانية والرومانية بشهادة كل الباحثين والمؤرخين أمثال جوستاف لوبون ، وتوينبى ، وغيرهما .

ويحاول جرونيادم أن يربط بين المسيحية وبين التوراة ، ويدعى أنها

مقدمة طبيعية ومسلم بها للإنجيل . وهو ادعاء باطل ، ولقد ثبت أن هناك عشرات التناقضات بين الكتابين ، ولكن اليهود عمدوا منذ وقت بعيد إلى الربط بينهما ، وإلزام البروتستانت والإنجيليين بهذا الربط وجعلوا فى ذلك مادة فى دراسات الجامعات والمعاهد حتى يتمكنوا من احتواء الأجيال الجديدة من المسيحيين إلى دعواهم . ومفاهيمهم الزائفة .

والمعروف أن الحضارة العالمية القائمة الآن ذات مصادر إسلامية وأن المسيحيين والأوربيين هم الذين قاموا على تنميتها . أما اليهود فلم يحضروا هذا العصر . ولم يشاركوا فى هذا العمل فقد كانوا مطرودين إذ ذاك من أوربا فلما عادوا أنشأوا ما أطلقوا عليه [عصر التنوير] وهو عصر قام على أساس العلمانية المادية فى النظرة إلى الأشياء ، وإخراج أوربا من الدين بعامة إلى الفلسفة المادية . وأن اليهود ليس لهم دور حقيقى فى الحضارة إلا السيطرة عليها . وإنشاء المذاهب الاجتماعية التى يرمون بها تصوير الإنسان بصورة نداء الجنس فى فلسفة فرويد أو نداء الطعام فى فلسفة ماركس .

وهكذا نجد أن محاولة جرونيام باعتبار اليهودية أصل للحضارة أكذوبة ضخمة . دحضها كتاب الغرب . ولقد كان جرونيام خادماً للصهيونية جرياً مع كبار رجال الاستشراق اليهودى . يحاول أن يحجب الحضارة الإسلامية عن دورها الأصيل . وهى محاولة تبوء الآن بأشد الفشل بعد أن ظهر من مفكرى الغرب من يقدرها ويؤمن بها ويعتذر عن مؤامرة الصمت التى قام بها الغرب ضد إعلان فضل المسلمين .

ونستطيع أن نشير إلى مخططات الاستشراق الروسى . الذى احتفل بالذكرى التسعين لأقدم الجمعيات الاستشراقية التى تأسست عام ١٨٨٢ ، للقيام بدراسات حول سوريا ، وفلسطين . ولبنان ، والأقطار المحاورة لها ، وكذلك للقيام بنشاط تربوى فى هذه المنطقة منذ عام ١٨٥٨ . حيث أنشئت لجنة فلسطين . حيث كانت روسيا تقوم على الوسائل لكى تقدم فى القدس مأوى . ومستشفيات للحجاج . وإنشاء قصر البعثة الأرثوذكسية الروسية ، وبواسطة اللجنة الاستشراقية الفلسطينية . من إنشاء أكثر من مائة مدرسة

فى أقطار الشرق الأوسط كان يطرقها حسب تقدير رسمى ١٠ آلاف تلميذ .

كذلك فقد كونت الجمعية أفواجاً من المستشرقين الروس اللامعين ، الذين اهتموا بالتاريخ والآداب العربية . وفى عام ١٨٩١ نظمت بعثة أثرية إلى سوريا . وفلسطين لدراسة الآثار القديمة . وارتبطت أعمال الجمعية الفلسطينية الروسية ارتباطاً وثيقاً بالدراسات العربية فى روسيا أمثال :

ستزوف وكراسكوفسكى . وبورتشيف . تولستوف . بلينو نفسطايا . وكان من أهم أعمالها بحث تأثير الديانة المصرية فى نظرية التوحيد فى الكتاب المقدس .

ومن أبرز المستشرقين اليهود الماركسيين : المبربرجر . وردنسون .

ويحاول هذا الاستشراق اليهودى الماركسى تفسير الإسلام تفسيراً ماركسياً فى محاولة تغض من طوابعه ، واتجاهاته . فى نفس الوقت الذى يدعى فيه المبربرجر . وردنسون أنهم أصدقاء للعرب غير أن كتابة ردنسون فى كتابه عن الإسلام ، والماركسية ، تبدو مسمومة عنيفة التعصب . والحقد لأنها تجمع بين الحقد اليهودى ، والحقد الماركسى ، وهو يصل فى حقده إلى أن ينفى نفياً كاملا أى علاقة بين الإسلام ، والحياة الاقتصادية للمسلمين . ويدعى أن القرآن حيادى بالنسبة للاقتصاد ، وأبرز أخطائه هو الخلط بين عقيدة الإسلام ، وواقع المسلمين اليوم ، ومغالطته فى تجاهل الحقيقة التى تقوم على أن واقع المسلمين ثمرة عقيدتهم ، ودينهم ، وأن الإسلام قد طبق فى فترات متعددة فكان كأروع ما يكون فى نظام الاقتصاد ، والاجتماع . وإن تفشى الربا فى المجتمع الإسلامى خلال العصر الحديث إنما كان نتيجة لسيطرة اليهود العالمية على الاستعمار ، والأوضاع السياسية التى ظهرت فى ظل الاستعمار البريطانى . والفرنسى ، والهولندى فى العالم الإسلامى ، وفى هذه المرحلة حجبت الشريعة الإسلامية عن التطبيق ، ولا ريب أن هذه المرحلة لا تكون موضع محاسبة الإسلام عن فساد المجتمع . وهى كما يقول بعض الكتاب بمثابة بقعة ظلام فى محيط نورانى .

ولا ريب أن نظام الإسلام الاجتماعى . والاقتصادى كان مثلا عالياً فى بناء المجتمع الربانى الذى ما زالت البشرية تتطلع إليه عندما قام على العدالة ،

والأخاء . والرحمة وهو ما تعمل الصهيونية ، والماركسية معاً على الحيلولة دون قيامه .

وبالجملة فإن محاولة الاستشراق الصهيونى ترمى إلى تزييف وقائع التاريخ الإسلامى . والعربى القديم . وذلك بالسيطرة على دوائر المعارف العالمية ، والجامعات من أجل فرض بنوعات العهد القديم ، وفى سبيل فرض هذه النصوص من التوراة المكتوبة بأيدى الأحبار . والتلمود يرسم للاستشراق اليهودى دوره فى تزييف الإسلام .

وهم يركزون على العرب كأمة ، وقوة قائمة ، ويحاولون تهديم قيمها ، ومفهومها ، وتاريخها ، ويفسدون علاقتها بالغرب لتحقيق هدفهم فى السيطرة على العالم الإسلامى ، وتركيز نفوذ امبراطورية الربا ، وخدمة أهداف الاستعمار الغربى ، والروسى على السواء ، ويرى الاستشراق الصهيونى أن تمزيق الأمة العربية فكرياً ، ولغوياً وجغرافياً هو من أكبر الأهداف التى تقضى على وحدة العالم الإسلامى ، مما يمكنهم من السيطرة على فلسطين فى طريق وثوبهم إلى ثروات العالم الإسلامى وقد حوى البروتوكول ٢٤ الذى وضع عام ١٩٠٥ ، فى بال مادة التآمر على شعوب العالم والسيطرة على الجوييم باسم ملك داود .

• • •

الباب الثاني
سموم الاستشراق في الفكر الإسلامي

أولا : الإسلام .

ثانياً : الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثالثاً : القــرآن .

رابعاً : اللغة العربية .

خامساً : التراث .

سادساً : السنة .

سابعاً : الحضارة .

ثامناً : الشريعة .

تاسعاً : التاريخ .

الفصل الأول

الإستشراق والإسلام

كان موقف الاستشراق من الإسلام موقفاً مستمداً من الفهم الديني الغربي أساساً وهو فهم قاصر ، ومحدود ، ومغلوط فى نفس الوقت . لأنه مأخوذ من التفسيرات التى قام بها الأحبار ، والرهبان لدين الله الحق ، وهى تفسيرات تحول دون فهم الإسلام ديناً خاتماً للأديان السماوية ، أو مصدقاً لما بين يديه من الأديان . ذلك لأن هذه التفسيرات فصلت نفسها عن الإسلام ، بينما جاء الإسلام فى كتب الأديان السابقة مرحلة تالية لها ، وجاءت رسلها مبشرين به ، وبنبيه ، ومن هنا فقد نظر الغربيون إلى الإسلام على أنه شيء معارض لما يعتقدون ، وما هو بمعارض ، ونظروا إلى أنه مأخوذ من كتبهم ، وما هو كذلك ، وإنما التفسير الصحيح هو أن الأديان كلها من عند الله ، وهى متكاملة المراحل ، يسلم بعضها إلى بعض حتى يكون الإسلام ختامها ، فالأصول العامة لدين الله فى العقيدة واحدة . ولذلك فلا عجب أن تلتقي فيه الأديان كلها ، وإن اختلفت فى الشرائع ، والنظم ، ومن هنا يثير المستشرقون الشبهات : شبهات مصدرها هذا الالتقاء فى الأصول ، وإن تبين بعد أن وجه المقارنة مفقودة من حيث أن القرآن كتاب سماوى ، وغيره من الكتب قد أصابها التحريف .

(٢)

ويذهب المستشرقون إلى فهم الإسلام فهماً مادياً خالصاً فهم ينكرون الوحى ، وينكرون النبوة ، وينكرون المصدر الربانى للقرآن ، وهم فى ذلك يصدرون عن مفهومهم المحدود للأديان الأخرى ، حيث يوصف الإنجيل بأنه من كلام الرسل ، وحيث تختلط المفاهيم فى العلاقة بين الألوهية والنبوة .

وحاول المستشرقون تعليل معجزة الإسلام الكاسحة فى الانتشار السريع فى العالم . وفى التمكن اليسير فى الجزيرة العربية بتعليل يخالف الحقيقة . ويقلل من حقيقة ذلك الأثر الذى أحدثه دين الله الحق فى البشرية . وخاصة فى الشعوب المغلوبة التى حررها الإسلام من ظلم الرومان فيصورون ذلك . بأن العرب كانت ناهضة ولها حضارة . وأنها كانت مستعدة للنهوض فلما جاء الرسول (صلى الله عليه وسلم) قادها إلى النهوض فنهضت .

وهذا التعليل لا يصور الحقيقة أساساً فضلا عن أنه يقلل من أهمية الرسالة الإسلامية التى أخرجت الناس من الظلمات إلى النور . وبين أيدينا تاريخ الدعوة الإسلامية . وكيف قاومها أهل مكة ثلاثة عشر قرناً كاملة . حتى اضطر الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى البحث عن بيئة أخرى تكون أكثر قابلية لدعوة الله . وقد وجد ذلك فى يثرب بعد أن عاند أهل مكة عناداً شديداً ، وعارضوا دعوة الله معارضة بالغة . ولم يكونوا فى حقيقة حياتهم مستعدين على النحو الذى يعين على النهوض . بل كانوا يعبدون الأصنام . ويأكلون الميتة . ويئدون البنات . ويشربون الخمر ، ويقتتلون . ويزنون . فلم يكونوا على أى وجه على صورة من صور الاستعداد للنهوض . ولكن الإسلام هو الذى نقلهم هذه النقلة السريعة الخطيرة إلى الإيمان بالله ورباهم على التضحية والبذل حتى إذا ما انطلقوا فتحت أمامهم أبواب الممالك . وتقبلهم أهلها رضاء بهم . وثقة فى عدلهم ورحمتهم .

ولقد أولى الاستشراق اهتماماً كبيراً للجاهلية . وحياة البداوة قبل الإسلام . واهتم بالوثنية العربية . وحاول أن يتخذ منها منافذ للدس فى مختلف المجالات وخاصة فى مجال الشريعة . فحاول أن يصور الجاهلية بأنها عصر البطولة كما عبر عن ذلك هاملتون جب ، مستهدفاً إظهار بعض جوانب القوة . والغنى فى حياة الجاهلية . ولا عجب أن تكون فى الحياة الجاهلية جوانب قوة ، وهى بقية ما تركته الأديان من آثار خلقية . اجتماعية : وخاصة دين إبراهيم ، وإسماعيل عليهما السلام الذى ظلت بقاياه قائمة فى نفوس كثير من العرب حتى جاءت الرسالة الخاتمة .

ولقد حاول الاستشراق إعلاء الجاهلية ، واعتبار الإسلام اقتباساً منها ، وخاصة ما حاولوا التشكيك فيه مما يتصل بآثار صلة المسلمين باليهود في المدينة ، كما أولى الاستشراق اهتماماً كبيراً بالأديان السابقة بالإسلام . وبالغساسنة ، والمناذرة بالذات في طريق الادعاء بأن المسلمين عرفوا عن طريقهم شيئاً من الكتب القديمة .

(٣)

ومن أخطاء الاستشراق ما يذهب إليه هاملتون جب في كتابه (بنية الفكر الديني في الإسلام (. حين يقول : إن الإسلام جاء ليضفي الصفة الدينية على تلك الإحيائية العربية القديمة) . التي نسجتها الأعراف والبيئة . بعد إن لم يستطع النبي (عليه الصلاة والسلام) أن يتخلص منها ويقصد بالإحيائية القديمة : تلك العقائد الروحية الخرافية : كالسحر والتنجيم والكهانة .

ولا ريب أن المستشرق جب قد اتخذ نفس طريقة الاستشراق التقليدية في أن يقدم فرضيات مسبقة ثم يحاول البحث عن نصوص . وقرائن لكي يضعها موضع القطع واليقين ولا يبالي في ذلك بتزييف الأدلة . أو نقضها . أو نقل شطر منها . وترك شطر آخر كما فعل فيما نقل في تأييد رأيه هذا من كتاب حجة الله البالغة لشاه ولي الله الدهلوي بينما لم تبعد السطور بعد ذلك عن نفي ما ذهب إليه .

وقد ذهب جب إلى هذه الآراء من خلال افتراضه أن محمداً لم يكن نبياً ، وأن ما كان لدى العرب من بقايا عهد إبراهيم عليه السلام إنما هو من مخترعاتهم ، وتقاليدهم التي ابتدعوها من عند أنفسهم ، وقال إن تقديس الكعبة ليس أثراً من آثار دعوة إبراهيم عليه السلام ، وإنما هو شيء نسجته البيئة العربية فكان تقليداً ، وفرض أن الجان ليست إلا مخلوقات وهمية ، وأن ما جاء عنها في القرآن . والأخبار مجرد وهم . وتحمل تحريف الكلم عن مواضعه فنقل عبارة مغمورة من كلام طويل .

وتبدو غلبة الهوى على الاستشراق في معارضته للحقائق الكبرى البارزة .

وحيث ينتصر المسلمون فى جميع معاركهم . وإعدادهم أقل من إعداد عدوهم بمراحل كثيرة يجيء مثل الجنرال جلوب فى كتابه الفتوحات العربية الكبرى ليثير شبهة تخلف المسلمين من ناحية الفن العسكرى . بينما عرف المسلمون بالاقتدار فى مجال العسكرية . وأساليب الحرب . وقد اعترف لهم المنصفون بالفن العسكرى المتطور ، والقيادات الاستراتيجية ، والتكتيكية على أعلى مستوى . بل لقد انفردت الحروب التى خاضها المسلمون والعرب أيام الفتوحات الأولى بمزايا سبقت أوانها بعصور (علم الحرب : لمنير شفيق) فقد قفز المسلمون فى العصر الأول بفن الحرب قفزة علت على أية قمة سبقتها ، وقد بقيت أرقى من أى قمة بعدها حتى جاء نابليون : ولم يكن فى الجهاد الإسلامى جانب الفن العسكرى وحده ، وإنما كان إلى جانب ذلك الإيمان . والحماسة التى تقوم على الرغبة فى الاستشهاد .

(٤)

ويحاول بعض المستشرقين أن يثير شبهة الترابط بين الدنيا والآخرة فى الإسلام ، بأنه انصراف عن الدنيا فيقول فون جرونباوم : إن الإسلام يدعو المسلمين إلى الانصراف عن الدنيا ، ومظاهرها ، ويدعوهم إلى تركيز العمل من أجل الآخرة ونعيمها المقيم ، وبهذه النظرة إلى الحياة يكون كل ما فيها عرض زائل ، بما فيه العلم ، والأدب ، والسياسة ، والاقتصاد أما الجوهر فهو عبادة الله من صوم وصلاة .

ويرد على هذا الدكتور إبراهيم أحمد رزقانة فيقول : إن هذا التفسير لتخلف المسلمين لا يتفق مع روح الإسلام : فالإسلام لا يغلب العبادة على العمل بل لعله يغلب العمل على العبادة . والمسلمون كانوا قادة العلم . وكانوا وراء النهضة الأوربية الحديثة زودوها بالزاد العلمى الذى لولاه لما قامت هذه النهضة ، ثم كان رد الجميل أن استعمرت أوربا العالم الإسلامى . وعملت على تخلفه . ومنعه بالقوة العسكرية من أن يساير الركب العلمى ، والاقتصادى فالتخلف فرض على المسلمين من أعدائهم ، وليس فرضاً من دينهم . ولعل المسلمين فى المستقبل القريب يقدمون الدليل على أن التخلف ليس من صفات دينهم بل إن دينهم هو دائماً سبب كل تقدم .

ذلك أن الإسلام يدعو إلى الربط بين التمسك بالدين وبين القوة الدنيوية برباط وثيق ، ويعتبر التمسك بالدين دعامة للتقدم فى العلم ، والعمل ، والاقتصاد والسياسة . وإذا كان هناك انحراف فى التطبيق ، فليس معنى ذلك أن العيب كامن فى المسلمين ، أو أن التخلف أصبح نمطاً حضارياً ثابتاً عند المسلمين كما أراد جريناوم أن يقول . بل إن تخلف المسلمين عرض تاريخى ، لا يلبث أن يزول بزوال أسبابه ، وأكبر دليل على ذلك أن المسلمين شاعرون بتخلفهم ولو كان التخلف نمطاً من أنماط حضارتهم لما شعروا به .

المسلمون فى مختلف أنحاء العالم يتكلمون عن التخلف ، ويكادون يقفون على سببه الرئيسى بانصرافهم عن الإسلام ، وهو الانصراف الذى أغراهم به الاستعمار الغربى ، ومدى استعداد المسلمين للنقل من الحضارات الغربية ، وقد حرص كتاب الغرب على دفع المسلمين إلى النقل من الحضارات الأخرى ، وتباكيهم على أن المسلمين لا ينقلون قبل أن يستوثقوا أن ما ينقلوه لا يتعارض مع أصول دينهم) ا . هـ

(٥)

تحت جناح الهوى ومن وراء مشاعر التعصب . عالج المستشرقون مستقبل الإسلام . وحاول الكثير منهم القول بأن الإسلام لا مستقبل له . أعلن ذلك مرجليوث منذ عام ١٩٠٤ و(لامنس) منذ عام ١٩٣٠ ، وكذبتهم الأحداث . وتدفق الإسلام فى قوة فاتسع نطاقه فى إفريقيا ، وجنوب شرق آسيا . وظهرت دول إسلامية جديدة فى باكستان ، وأندونيسيا ، وغيرها . وعاش الإسلام بعد أن ذهبت الخلافة وكانوا يتنبئون أنه سيسقط مع سقوط الدولة العثمانية . وكانوا يدعون أن الإسلام لا يبقى ، وإذا ترك لنفسه إذا ما احتك بالتمدن الحديث فإنه يموت لا محالة ، واتصل الإسلام بالحضارة الحديثة طويلا . وتحداها ، وكشف عن زيفها ، وتحرر من كثير من محاولات احتوائه لها ، وسيطرته عليها ، وتجددت الفكرة الإسلامية ، مستمدة قوتها من منابعها الأولى .

وقالوا : إن التبشير المسيحى الغربى سوف يقضى على الإسلام ، وعجز

التبشير بكل قوته ، وماله ، وموارده أن يخرج مسلماً واحداً عن دينه إلا من كان بطبيعته غير صادق الإيمان بالله .

ودخل المسلمون أفواجا فى دين الله فى بلاد لم يكن لدولة الإسلام فيها نفوذ . وفى نفس المناطق التى ينفق فيها التبشير المسيحى الملايين . ويبنى المؤسسات . وليس للمسلمين فيها نفوذ ، ولكن الإسلام كان دائماً القادر على كسب النفوس بالفطرة ، والبساطة .

وبالرغم مما ذهب إليه المستشرق جب من أن التغريب غالب على الكيان الإسلامى فإن آثار هذا الاستغراب قد أخذت تتناقص ، وقد تنبه المسلمون إلى منابعهم الأولى ، وإلى شريعتهم يطالبون بتطبيقها ، وأن الإسلام يتصاعد الآن بحيث يكشف عن جوهره فى مجال الاقتصاد ، والسياسة ، والاجتماع ، والتربية بعد أن انكشفت المناهج الغربية عن فساد كثير ، وتخلف كثير كان دائمـاً .

وعندما كان مرجليوث يتحدث عن الإسلام كان يردد قول برايس السياسى المؤرخ من أن الإسلام لم يبق من عمره إلا قرنان ، وأن عدد أهله لا يقلون عن مائتى مليون نفس . ولقد تضاعف عدد المسلمين الآن حتى بلغ ألف مليون فى أصدق التقديرات . وقد اتسع الإسلام خلال هذه الفترة بالحسنى ، والإقناع ، ومن تحت حراب الاستعمار ، ومن خلف مدافعه فعاد مرة أخرى إلى أوربا ، واقتحم أمريكا ، ولم يبق مكان فى القارات الخمس لم يرتفع فيه منارة ، ويهتف باسم الله : الله أكبر .

يقول مرجليوث المستشرق اليهودى : (لا يخلو قول القائلين بسرعة ذهاب الإسلام من وجه يستدعى النظر) ، وجهلوا أنه هو الحق الباقى على وجه الأرض ، وأن البشرية تتقدم الآن يوماً بعد يوم ، وبالعلم لتعرف ربها وتتحطم كل الأساطير ، والأوهام ، والتفسيرات الباطلة ، وأن الإسلام قد تحرر من كثير من نفوذ الدول العظمى السياسى والعسكرى ، وبقى يقاوم نفوذها الاقتصادى والثقافى .

وحين يرى (لامنس) أن الخلافة الإسلامية ، وسقوطها سيكون بعيد

الأثر على مستقبل الإسلام تكشف الأحداث عن زيف هذا التوقع ، وأن المسلمين قد أقاموا بعد سقوط الخلافة قوائم وحدة ، ولقاءات ، ومؤتمرات تعالج قضاياهم كما وقع التقارب بين السنة ، والشيعة على نحو أذهل المراقبين الذين كانوا يظنون أن دعوات الإقليمية ، والقومية الضيقة ، والتفرقة العنصرية ستقضى على وحدة المسلمين الفكرية ، وتتقسم ثقافتهم ، وعقائدهم ، وقد وجد المسلمون حلولا صحيحة لمعضلات العلاقة بين العروبة ، والإسلام ، وبين الفرعونية ، والعروبة ، وبين الفينيقية ، والإسلام .

وقد كشفت التقديرات عن زيادة عدد المسلمين فى السنوات الأخيرة زيادة كبرى على نحو يجعل لهذا التفوق البشرى آثاراً بعيدة المدى فى قوتهم ونمو مستقبلهم .

وكذلك فقد عاد التعليم القرآنى يتوسع من جديد بعد أن توقف تحت تأثير المناهج الدراسية الغربية ، والعلمانية ، وقد تأكدت للمسلمين حقيقة لا سبيل إلى تجاوزها : إن التقدم فى عالم الإسلام لن يكون إلا فى إطار الشريعة الإسلامية ، وفى محيط القرآن ومفهومه الجامع بين العلم ، والدين ، والروح ، والمادة ، والدنيا ، والآخرة .

• • •

الفصل الثانى

الاستشراق والرسول ﷺ

كانت شخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم محور المخطط المسموم الذى حمل لواءه الاستشراق فى مراحله المختلفة سواء فى مرحلة التعبير الجارح ، أو فى مرحلة المدارة الكاذبة .

يقول الأستاذ كامل عياد : ظل الأوربيون فى العصور الوسطى . وحتى القرن السابع عشر يتناقلون أسخف الأساطير عن الإسلام . ويوجهون إلى مؤسسه أبشع المسبات والشتائم . ثم يرى أن الاستشراق قد أعلن من بعد تظاهره بالتحرر من التعصب الدينى ، ويدعى أنه يريد معرفة سيرة محمد صلى الله عليه وسلم كما رونها المسلمون أنفسهم . وفى هذه المرحلة أخذ (بعض) الكتاب الغربيين منذ القرن ١٨ . يتحاشون التهجم على شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويحاولون التزام العدل ، والإنصاف فى الحكم عليه ، ولكنه يشهد بأنهم لم ينفذوا هذا الالتزام ، ويقول : ولا بد من الاعتراف بأن أكثر المستشرقين ظلوا دوماً يقصدون تشويه الحقيقة وطمسها(١).

ونجد من يعرض حياة الرسول صلى الله عليه وسلم من وجهة النظر المسيحية (غليوم بوستل) ، ومنهم من يستقى معلوماته من المصادر الكنائسية (ميشيل بوديه) . ومنهم من يقصد إلى التبشير بالمسيحية من خلال عرض سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم (هويتجر) . ومنهم من اختار ما يعتقد أن فيه مجالا للطعن . ثم أضاف إليه الأساطير السخيفة ، والمزاعم الوقحة (٢) وفى الاستشهاد بالآيات . وجه اهتمامه إلى الآيات التى فيها ذكر للمسيحية ؛ فادعى مخالفتها لما ورد فى الكتاب المقدس .

---

(١) ، (٢) مجلة المجمع العلمى العربى م ٤٣ - تموز عام ١٩٦٨ . م

وقد ركز المستشرقون على جملة مواقف فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم منها التقائه بالراهب بحيرا .وورقة بن نوفل ، وقس بن ساعدة . وقد زعموا أن الرسول عليه الصلاة والسلام التقى ببحيرا الراهب . وتلقى عنه التعاليم الدينية مدة من الزمن .

والمعروف أن لقاء النبى صلى الله عليه وسلم بالراهب بحيرا كان فى سن التاسعة أو الثانية عشرة . وهذه سن لا تسمح بتلقين أو تعليم . فضلا عن أنها لا تمكن من استيعاب المسائل الدينية بحيث يمكن أن يلقيها الرسول صلى الله عليه وسلم من بعد على الناس . وعمه الذى صحبه فى هذه الرحلة لم يكن يفارقه البتة فكيف تسنى لبحيرا أن ينفرد بالطفل ليعلمه .

وبالرغم من أن هذه الحادثة لا أهمية لها . فإن المستشرقين يركزون عليها . ويجمعون عليها معرفته بورقة بن نوفل . ويصورون ورقة . كداعية إلى النصرانية . مع أن ورقة كان موحداً . وهو الذى تنبأ للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه النبى المنتظر الذى بشر به المسيح عيسى ابن مريم . ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم قد أخذ من ورقة لروج ذلك أعداؤه من المشركين ولسار خبره فى الناس جميعاً .

أما قس بن ساعدة فقد كان موحداً . ومؤمناً بالبعث .

٢ — يتعرض المستشرقون لتعدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم كى ينفذوا إلى الطعن فى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم . والتشكيك فى رسالته الخالدة . وتصويره بصورة الميل إلى إشباع الجنس مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعدد زوجاته إلا بعد الأربعين لغايات تتعلق بالدعوة أما فى الفترة الأولى من عمره . فإنه صلى الله عليه وسلم قد اقتصر على زواج واحد . هو زواج السيدة خديجة رضى الله عنها .

٣ — ويتعرض المستشرقون للوحى ، ويصورونه بصورة الأمراض النفسية ، والعقلية . وهم فى ذلك عاجزون عن تصور هذه العلاقة التى تقوم بين النبى صلى الله عليه وسلم المبشر المرسل ، وبين سيدنا جبريل عليه السلام

الملك الذى يحمل الوحى من الله إلى قلب النبى صلى الله عليه وسلم . فعجزوا عن فهم هذه الأحاديث التى تكلم فيها النبى صلى الله عليه وسلم عن حالة الوحى . وما يكون له من أثر عليه . وصوروها على ذلك النحو الباطل .

٤ - ويحاول بعض المستشرقين الادعاء بأن النبى صلى الله عليه وسلم كان قادراً على معرفة حاجة عصرة . وتحديات بيئته . وأنه صورها على صورة منهج إصلاحى فهو عندهم مصلح . أو داعية إلى الحرية . أو العدل الاجتماعى . أو غير ذلك مما يوصف به الزعماء . والمصلحين . ويقوم هذا التصور على عجز عن فهم الوحى . ورسالة السماء . أو إنكار له .

ويرجع ذلك الخطأ إلى عدة أسباب أبرزها :

• حرص بعض المستشرقين على تحريف النصوص . وتشويهها . والتلاعب بالعبارات للطعن فى العرب والمسلمين .

• عدم القدرة على التجرد من التعصب الدينى .

• القصد إلى الدس والتضليل . ومن أشد هؤلاء تعصباً . وانحرافاً مرجليوث . ولامنس .

وقد أخذ على مرجليوث . هو الذى ألف كتاباً ضخماً عن سيرة النبى صلى الله عليه وسلم . كما أشار الباحثون إلى أن أكثر أخطائه . ترجع إلى التحكم فى الاستنباط . والقياس الجزئى . وبيان أسباب الحوادث . وأقله عدم فهم اللغة . كما أخذ عليه عدم فهم النبوة .

أما لامنس فقد عمل على تحريف النصوص . وحرف تاريخ ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم . وحاول أن يرسم صورة مشوهة عن فاطمة الزهراء رضى الله عنها . دون أى مستند تاريخى موثوق . وقد انتقد أكثر المستشرقين (لامنس) . وفضحوا مغالطاته . وحذروا من الاعتماد عليه .

ويقول محمد كامل عياد : إن أكثرية المستشرقين لم يتوصلوا إلى تكوين فكرة صحيحة عن محمد صلى الله عليه وسلم بسبب تعصبهم الدينى . أما القلائل الذين تحرروا من هذه النزعة فيرجع فشلهم فى فهم شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مبالغتهم فى النظرة التاريخية .

ومن نماذج كتب المستشرقين المليئة بالأخطاء ، والشبهات ، كتاب المستشرق (ز . ف . بودلى) الذى ترجم إلى اللغة العربية دون الاعتناء بإجراء التصحيح اللازم لأخطائه .

١ – نسب بودلى إلى النبى صلى الله عليه وسلم عبادة الأصنام ، ووصف النبى صلى الله عليه وسلم بأنه (وارث الهاشميين حراس أصنام الكعبة) .

٢ – زل قدمه فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وأزواجه الطاهرات .

٣ – ادعاؤه استمداد الرسول صلى الله عليه وسلم من الرهبان فى رحلاته البعيدة ، والمتعددة ومن الوعاظ فى سوق عكاظ .

وأبرز ما فى كتاباته (غلبة الروح التبشيرية) ، على كتابته عن النبى صلى الله عليه وسلم والقول بتأثره ببحيرا ، وقس بن ساعدة ، وورقة بن نوفل.

٤ – ادعاء كثرة رحلات النبى صلى الله عليه وسلم إلى الشام ، واليمن وفلسطين ، وآسيا ، وآسيا الصغرى ، وفارس . وكل هذا غير صحيح فإن رحلات النبى صلى الله عليه وسلم بإجماع المؤرخين إلى الشام لم تزد على المرتين ، أو الثلاث ، ولم يجتمع مع بحيرا إلا فى المرة الأولى .

وهكذا نجد أن كتابات المستشرقين حول سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم مغلوطة محرفة ، سداها الهوى ، ولحمتها التعصب ، وقد أشار (إتيان دينيه) فى كتابه عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى حين قال :

إن هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقد سيرة النبى صلى الله عليه وسلم لبثوا ثلاثة أرباع قرن يدققون ، ويمحصون مزاعمهم حتى يهدموا ما اتفق عليه الجمهور من المسلمين من سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك لم يتمكنوا من إثبات أقل شيء جديد ، بل إذا أنعمنا النظر فى الآراء الجديدة التى جاء بها المستشرقون : (فرنسيين ، وإنجليز ، وألمان ، وبلجيكيين ، وهولانديين ، لا نجد إلا خلطاً وخبطاً) .

وعلى الاحتمال فهم قد حاولوا إعطاء صورة خاطئة تماماً عن شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام :

أولا : بإيراد أحاديث غير ثابتة أو موضوعة .

ثانياً : بعرض الأخبار الثابتة بطريقة تعطي عكس المراد .

ثالثاً : إيراد مواضيع مشكوك فيها ، أو آراء من كتب بعض رجال الدين المحدثين .

رابعاً : إسقاط أجزاء من الأحاديث لتصويرها بصورة محرفة مثال ذلك ما أورده مرجليوث في حديث : (إنما حبب إلى في دنياكم الطيب والنساء) . وإخفاء باقي الحديث (وجعلت قرة عيني في الصلاة) . حتى يظهر شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم مشغوفة بأمور الدنيا .

• • •

الفصل الثالث

الإستشراق والقرآن

وقف الاستشراق من القرآن الكريم موقفه من الإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم : موقف الخصومة والإنكار . وهذا طبيعى بالنسبة للاستشراق المسيحى الغربى . وبالنسبة للاستشراق اليهودى . ذلك أن القرآن وقف من التوراة والإنجيل الموجودين فى أيدى الناس موقفاً واضحاً هو : إنهما مما كتب البشر . وليس مما نزل من عند الله . كذلك فإن القرآن هو الذى قدم تلك الحقائق المغايرة لما جاءت به التوراة المكتوبة بأيدى الأحبار . والإنجيل المكتوب بأيدى الرهبان . وخاصة فى التوحيد الذى هو طبيعة دين الله الحق دون التعدد ، ونبوة المسيح عليه السلام . وإنكار ألوهيته . وفى رفع عيسى عليه السلام دون قتله أو صلبه . وإنكار قضية الخطيئة والفداء . وإنكار قضية شعب الله المختار إلى غير ذلك من القضايا .

وقد أقام القرآن الحجة فى أمور كثيرة اختلف فيها الرأى . وخاصة فى نبوات موسى . وعيسى . وداود ، ولوط عليهما السلام ، وما ورد فى الكتب القديمة من صور لهم مغايرة لمكانهم كأنبياء ، ورسل لله تعالى مكرمون معصومون .

وعندما نراجع ما كتبه الاستشراق عامة نجد أن هناك إجماعاً على الوقوف فى وجه القرآن . وإنكار مصدره الربانى ، والقول : بأنه من عمل محمد صلى الله عليه وسلم . ويجىء هذا الرأى تعصباً ضد القرآن ، ونبيه صلى الله عليه وسلم . أو عجزاً على فهم الوحى فى تقدير الباحثين الذين يعتمدون النظرية المادية . أو فى التشابه مع موقف الفكر المسيحى الذى يرى أن الإنجيل ليس كتاباً من السماء ، وإنما هو من عمل الرسل .

والشك فى ربانية القرآن هو ما ردده المستشرقون ، وتأثر به كثير من الكتاب ، والباحثين العرب أمثال طه حسين ، وزكى مبارك وغيرهما .

ثم هم يذهبون إلى القول : بأن النبى صلى الله عليه وسلم استقى مادة القرآن ، ولا سيما قصصه من الأحبار والرهبان الذين كان يلقاهم ، أو يتصل بهم فى مكة . ولكن هذه الشبهات سرعان ما تتبدد عندما نقارن بين روايات التوراة ، والإنجيل ، ورواية القرآن لقصة من القصص . حيث يبدو عمق الخلاف ، نجد فى القرآن صياغه على نسق عال من البيان ، والحكمة ، وبيانات أعمق وأوسع ، هى فارق بين البيان الربانى ، وبين القصص البشرى . فالقرآن يتميز بالصدق المطلق ، ويتميز بالتماس العبرة ، والبعد عن التفصيلات الأسطورية ، ويرتفع عن سذاجة العرض ، إلى قدر من الحكمة يتفق مع النظم القرآنى الذى بدأ به دخول البشرية فى عصر الرشد الفكرى ، وعصر الرسالة الخالدة .

وما يردده المستشرقون ليس جديداً فقد ردده فى كل عصر خصوم الإسلام ، وقيل فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم نفسه ، وعرض له القرآن ، وأشار إليه ، وكشف زيفه ، وكان مشركو مكة يزعمون أن القصص الذى جاء بها القرآن إنما تعلمها محمد صلى الله عليه وسلم من نصرانى أعجمى اللسان كان بمكة ، وقد رد القرآن على زعمهم فى سورة النحل .

ويردد هذا المعنى جولد زيهر المستشرق اليهودى ، وبلاشير فى كتابه معضلة محمد ، وغيرهم ، وجميعهم يشيرون إلى ما جاء فى العهد القديم أو الإنجيل . ويشيرون إلى رحلات النبى صلى الله عليه وسلم إلى الشام وغيرها . ويردون إليها ما ورد فى القرآن من قصص .

ثانياً : حاول جولد زيهر ، ونولدكه الادعاء بأن القرآن حرف بعد وفاة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيدعون أن اسم الرسول صلى الله عليه وسلم قثم أو قثامة ثم أبدل وصار محمداً لتيسير وضع الآية : « **ومبشراً برسول يأتى من بعدى أسمه أحمد** » .

ولقد كان للرسول صلى الله عليه وسلم أسماء كثيرة ، ولقد التقط هذا الاسم ، مما جاء فى الروايات التى تروى عن محاولة جده عبد المطلب فى إطلاق اسم قثم عليه قبل اختيار اسم (محمد) صلى الله عليه وسلم .

وتشير روايات المستشرقين المبطلة إلى ما كان يجهد له النبي صلى الله عليه وسلم ، في حالة الوحي فيصورون هذا بأنه نوبات من الصرع ، فيقولون: إنه كان عليه الصلاة والسلام يفقد وعيه ، ويسيل منه العرق ، وتعتريه التشنجات ، وتخرج منه الرغوة ، فإذا أفاق ذكر أنه أوحى إليه ، وتلا على أتباعه ما يزعم أنه وحي من الله .

ولا ريب أن مسألة الاتصال البشرى فى الرسول صلى الله عليه وسلم بالملائكى فى جبريل عليه السلام إبان الوحى من الأمور الخطيرة التى تحدث عنها العلماء ، والباحثين ، والتى يعجز عنها مفهوم العلم المادى فإذا أضيف إلى ذلك التعصب ، والتحيز ، والتماس العيب للبرءاء كانت على هذه الصورة التى رددها بعض متعصبى المستشرقين .

ثالثاً : ذهب بعضهم إلى البحث عن الحروف المفردة فى أوائل بعض سور القرآن ، وقال نولدكه : إنها اختصارات لأسماء مالكى النسخ التى استخدمها زيد بن ثابت لجمع القرآن فى مصحف واحد ، وهو استنتاج باطل وساذج ؛ وذهب ادوارد جوستر إلى أن هذه الحروف المقطعة ليست إلا اختصارات للأسماء القديمة للسور ، ولا ريب لو أنها كانت أسماء للسور لوجب أن توضع قبل البسملة لا بعدها . ولو كانت كذلك لعرضها المفسرون من الأوائل وأشاروا إليها .

وواضح أن المحاولة ترمى كلها إلى هدف واحد هو اعتبار هذه الحروف المقطعة ليست من الوحى ، وأنها عمل متأخر عن زمن الرسول ، والواقع غير ذلك تماماً ، وأن هذه الحروف هى من صلب القرآن ، وأن هذه الحروف قد وردت على لسان النبى صلى الله عليه وسلم ومن صميم الوحى .

وقد ادعى لويس جارديه ، والأب قنواتى فى كتابهما (فلسفة الفكر الدينى بين المسيحية والإسلام) : أن عثمان بن عفان أقبل إلى القرآن فى خلافته فقسمه إلى سور وآيات ، ورتب السور وراء بعضها حسب طولها فأطولها أولا ثم ما دونها طولا وهكذا .

وهذا القول ينسب إلى سيدنا عثمان ما ليس وارداً بالتحقيق ذلك لأن

ترتيب سور القرآن أمر توقيفي تم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم تحدث تغيير له أو تبديل له من بعد .

ولقد حاول بعض المستشرقين ترتيب القرآن ترتيباً آخر يختلف عن الترتيب القرآني الأصيل . ومنهم وليم موير . وويل ورودويل . وقد باءت محاولتهم بالفشل . وهناك من حاول أن يشكك في لغة القرآن ذاتها . وحاول أن يرميها بأنها لا تتميز بالعصمة ، واستند في ذلك على بعض روايات حاول استخراجها من الروايات الضعيفة ، حاول بها إثارة الشبهة بأن هناك فقرات لم يتفق أصحاب النبي فيما بينهم عليها ولا ريب أن هذه محاولات باطلة لا يعتد بها .

رابعاً : هناك محاولة للقول : بأن القرآن ليس بنظام مجتمع كامل ، وإنما هو محاولة للإصلاح . اتجه إليها النبي صلى الله عليه وسلم نتيجة لما رآه من فساد النظام الطبقي عند قومه في عصره ، وأنه من أجل ذلك لجأ إلى التخويف بيوم القيامة لكي يرغب المعارضين في الإصلاح . ومن ذلك الحديث عن المطففين ، والهمزة اللمزة ، ونهيه عن قهر اليتيم . ونهر السائل . وأن محمداً صلى الله عليه وسلم قد تأثر بالوضع الاجتماعي في مكة تأثراً شديداً .

ولا ريب أن هذه المحاولة باطلة في أساسها ، إذ أن هذا النظام الكامل الجامع الذي جاء به القرآن وحياً من الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم . حين يدرس دراسة عميقة ، فإن الباحث المنصف يجد فيه منهجاً متكاملا جامعاً . رباني المصدر مما لا يقدر بشر على تنسيقه على هذا النحو . وهو في قدرته على البقاء غضاً طرياً مع تغير الأزمنة . والبيئات . وعطائه المتصل في كل عصر وبيئة . وعدم اصطدامه بالمتغيرات . والتحولات ليؤكد كذب الادعاء بأنه من صنع بشر .

ومهما قال المستشرقون في تأثر النبي صلى الله عليه وسلم بتعاليم اليهود والنصارى – وهو ما لم يحدث لسبب أساسي هو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف القراءة والكتابة .

فإن التوراة والإنجيل لم يرد في أحدهما مثل هذا النظام الذي قدمه القرآن ، وأن القرآن في مفهومه للتوحيد الخالص يختلف معهما . فضلا عما قدمه من

مناهج : منهج المعرفة ، ومنهج السنن الكونية ، وسنن الحضارات ، والأمم فإن ذلك كله لا يوجد منه شيء فى كلا الكتابين المدعى أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم قد أطلع عليهما .

خامساً : فساد القول : بأن القرآن أسير السجع ، والقافية كما يقول لويس مارسيه فإن فى القرآن أساليب متعددة ، وأسلوب السجع واحد منها ، وهو فى القرآن له طابع خاص معجز مختلف أشد الاختلاف عن التأثر بسجع الكهان فى الجاهلية ، ويختلف عن الشعر كله حتى قيل عنه : (والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة) .

(٢)

كانت ترجمة القرآن من خيوط المخطط الذى بدأه الغرب المسيحى بعد الحروب الصليبية تحقيقاً لتوصية لويس التاسع ، وفى محاولة لتحطيم الرأى العام الذى أخذ يتكون فى أوربا نتيجة لمقولة العائدين من المعارك فى الشرق ، والذين تحدثوا عن سماحة الإسلام فى التعامل مع الغزاة ، وعظمة الإسلام فى الأداء الحضارى ، مما أزعج الكنيسة ، ودفعها إلى العمل على مقاومة ذلك عن طريق ترجمة القرآن ، وتفسيره على النحو الذى يثير التكذيب لرسوله صلى الله عليه وسلم ، والتشكيك فى سلامته ، يقول أحد الباحثين : إنه بعد الغارة الصليبية الأولى ، رأى رجال الكنيسة أن استيلاء الأوربيين على البلاد المقدسة ، لم يأت بالنصر الحاسم ، ولم يؤد إلى اعتناق المسلمين للمسيحية بل على العكس قد نتج عنه أن تركت حضارة الإسلام ، وعاداتهم ، وطرق معيشتهم تأثيراً ملموساً فى الصليبيين ، وعند ذلك قامت الأصوات تدعو إلى ضرورة استخدام الوسائل الفكرية فى محاربة الإسلام ، وفى مقدمة هؤلاء بطرس المحترم سنة ١١٥٦ ، الذى أوفد إلى أسبانيا ، وسنحت له الفرص للاطلاع على المناقشات بين المسلمين ، والمسيحين فى أسبانيا ، وعلى سياسة الذين يرون أنه لا سبيل إلى مكافحة العقيدة المحمدية إلا بالحجج العقلية ، وقوة المنطق ، ومن أجل معرفة آراء الخصم جيداً تقرر ترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية ، وتعد أول طبعة لنص القرآن تلك التى نشرها باجانينى فى

البندقية عام ١٥٣٠ . وقد أحرقت جميع نسخها فى الحال بأمر من البابا بولس الثالث .

ثم أصدر البابا إسكندر الرابع أمراً بمنع طبع نص القرآن ، وترجمته . وحتى عام ١٦٧٧ لم يجسر القس الألمانى إبراهيم هيكلمان من طبع ترجمته التى نشرت عام ١٦٩٤ ، والتى قال فى مقدمتها : إنه من الضرورى أن نعرف القرآن معرفة دقيقة ، إذا أردنا مكافحته ، وتمهيد السبيل لانتشار المسيحية فى الشرق .

وهكذا نجد أن المنطلق فى ترجمة القرآن كان لحساب التبشير ، والاستشراق . على أساس إعطاء الغربيين القدرة للتعرف على الجوانب التى يستطيعون منها مهاجمة الإسلام ، ومجادلة المسلمين ، ومن هنا نجد أن جميع المستشرقين الذين كتبوا بعد ذلك أبحاثهم اعتمدوا هذه الوجهة ، وهذه الطريقة . وكانت منطلقاتهم جميعاً الادعاء بنصرانية الأصل أو يهودية الأصل الذى جاء منه القرآن ، وماذا اقتبس محمد صلى الله عليه وسلم من التعاليم اليهودية . ان الإسلام من نبات أفكار محمد صلى الله عليه وسلم . وأن القرآن من تصميم محمد صلى الله عليه وسلم .

هكذا نجد كتابات بوهل عن مادة محمد فى دائرة المعارف الإسلامية . وتوينبى فى بحث التاريخ ونجد وارنر ،وجابجر ،وبورى كلهم يجرون فى طريق واحد لا يصدر عن أسلوب علمى ، ولكن عن هوى ، وتعصب قوامه الزعم بأن القرآن من تأليف محمد ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم أخذ من التوراة ،والإنجيل ، وتأثر بهما ، ويقول بروكلمان : إن النبوة كانت أمراً يتوقعه الرسول صلى الله عليه وسلم ،والذى كان يكلمه هو صديق له . واتفاق المستشرقين فى ذلك كله ليس عفوياً بل هو استنتاج متفق عليه على حد تعبير محمد أسد حين يقول : يظهر من بحوثهم ، وكأن الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع من البحث العلمى ، بل أنه متهم يقف أمام قضاته .

وقد رد مفكرو الإسلام على هذه الشبهات جميعاً وزيفوها ، ومما قالوا : إنه لو كانت التوراة والإنجيل مصادر للقرآن كما يزعمون لكان اليهود أعرف

الناس بهذا ، وهم من هم خبثاً ، وحقداً على كل نبي ورسول ، ولقد كانت صداقتهم للمشركين فرصة لمساعدتهم فى الطعن بوحى القرآن ، وبيان مشابهته للتوراة لو كان ذلك به أدنى ذرة من الصحة ، بل لقد شهد بعض كتاب الغرب بفساد رأى الاستشراق — يقول العالم أرنست باركر فى كتابه الإسلام والمسيحية الحقيقية (: إن العقيدة والنظام الدينى الذى جاء فى الأناجيل ليس الذى دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله ، وأن مرد النزاع القائم بين المسيحية اليوم ، وبين المسلمين ليس إلى المسيح بل إلى دهاء بولس ذلك المارق اليهودى المسيحى ، وشرحه للصحف المقدسة على طريق التجسيم ، وأن بولس هو واضع ذلك المزيج من القصص ، والأحاديث المتعارضة ، ومن هنا فإن هناك اختلافاً أساسياً من حيث الأسلوب لأن لكل إنجيل كاتباً (لوقا ، متى ، يوحنا ، مرقص ، برنابا) .

ومن هنا جاء القرآن مخالفاً لهذه الأناجيل ، وللتوراة مادة وأسلوباً .

أما الذين يدعون بأن للقرآن مصدر من الإنجيل ، والتوراة ، فإنهم يجهلون ما أورده القرآن من أصول عديدة لم ترد فى الكتابين ، ومن تفصيلات فى بعض الأحداث لم يعرفها اليهود والنصارى . فقد أخبر القرآن بأشياء ما كان يعلمها أحد حتى أهل الكتاب أنفسهم مع أنها تتعلق بصميم مسائل دينهم فهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن كفالة زكريا للسيدة مريم بعد ولادتها ، كذلك فقد أخبر القرآن بأشياء كثيرة تحققت تحققاً تاماً بعد الأخبار بها منها إخباره عن انتصار الروم بعد انخذالهم ، وكان الفرس قد غلبوا الروم عام ٦١٠ ، وأن دولة الروم كانت مختلة مضطربة بحيث لم يكن أحد يرجو أن تعود لها الكرة ، والغلبة ، ومع ذلك فقد أخبر القرآن بانتصار الروم فى بضع سنين ، والبضع ما بين الثلاث والتسع .

كذلك فإن القرآن أخبر بأمور ما عرفت إلا فى العصر الحديث ، وما كان أحد يعرفها أو يؤمن بها إلا المسلمون ، ولم يرد بها أى إشارة من علم فى التوراة أو الإنجيل . ومن ذلك إخباره بانخفاض الضغط الجوى فى أعالى

الجو : « **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء** » ، وكذلك الاخبار عن اهتزاز الأرض عند نزول المطر عليها : « **فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت** » .

وفى القرآن أمور لا يمكن أن تنسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لأنها تحوى معاتبته على تصرف من التصرفات . وما كان الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكتب القرآن ثم يعاتب نفسه ، وذلك فى أمر إطلاق أسرى بدر ، وفى مسألة الأعمى ، وفى مسألة الصلاة على المنافقين ، وفى مسألة زينب بنت جحش .

أما الزعم بأن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ من التوراة ، والإنجيل ، وتأثر بأسلوبهما فأبسط الرد عليه أن ما فى القرآن مخالف للتوراة ، والإنجيل مخالفة تامة . وهناك أمور فيها مخالفة جوهرية ، وذلك شأن مريم ، وعيسى ، عليهما السلام ومعارضة القرآن التثليث ، والصلب ، والخطيئة .

أما الزعم بأن النبوة أمر كان يتوقعه الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورغب فيه ، وبأن النبى صلى الله عليه وسلم كان له صديق يكلمه فإن الأخبار الثابتة الصحيحة لم ترد مطلقاً بأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يرجو أن يكون النبى المنتظر ، ولو كان لدونه المحدثون ، والمؤرخون كما دونوا عن أمية بن الصلت بل لقد صرح القرآن : « **وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك** » ، وقد شهد أعداؤه جميعاً له بالصدق ، وخاصة أبا جهل ، ولو كان شىء من ذلك صحيحاً لكان كفار قريش أدرى به من (روكلمان) ، ومن شايعه ، وكان يكون من أكبر الحجج بين يد المشركين ، والمنافقين واليهود .

كذلك فقد برئ القرآن الرسول صلى الله عليه وسلم من أن يكون له من يعلمه : « **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ،لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين** » .

كذلك فقد كشف الباحثون مقطع الأمر فى قضية المفردات الأجنبية التى التقطها المستشرقون ليلمزوا القرآن بأن عربيته ليست كاملة فهذه الكلمات التى تبدو أجنبية ، وهى ليست كذلك ، إنما جاءت عن طريق الاشتراك

فى أصل اللغات العربية القديمة ، أو اتصلت عن طريق النقل ، والتعريف بالتجارة والأسفار ، والمحاورة ، واستعملت فى اللغة استعمالا جارياً ، وفق قوانينها . ولهذا استعملها القرآن . وخاطب بها ربنا العظيم عباده بلسانهم لأنه لا يعقل أن يستعمل القرآن كلمات غير عربية وغير مفهومة عند العرب ثم يخاطبهم القرآن بها ويسميه عربياً مبيناً ليكلفهم بعد هذا كله شيئاً لا يفهمونه (أحمد نصيف الجنابى) .

وقد أثبت عديد من الباحثين أن الكلمات الأجنبية التى أوردها بعض المستشرقين كانت فى أصلها عربية ، نقلت إلى هذه اللغات الحبشية ، والسريانية ، والفارسية ثم عادت إلى عربيتها مرة أخرى . وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام الطبرى حين قال : إنه غير جائز أن يتوهم ذو نظرة صحيحة مقر بكتاب الله ممن قرأ القرآن ، وعرف حدود الله أن يعتقد أن بعض القرآن فارسى لا عربى ، وبعضه نبطى لا عربى ، وبعضه حبشى لا عربى بعد ما أخبر الله تعالى ذكره عنه إنه جعله قرآناً عربياً بل أن الله تبارك وتعالى نفى عنه العجمة ، ونفى أن يكون بعضه أعجمياً وبعضه عربياً : « **ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته** » .

• • •

الفصل الرابع

الإستشراق واللغة العربية

كانت حملة الاستشراق على اللغة العربية مرتبطة بحملته على القرآن الكريم . وكان الهدف واضحاً وهو خلق فجوة بين بيان القرآن . وبين لغة الكتابة . ولذلك فقد توالت دعوات المستشرقين إلى العاميات ، والحروف اللاتينية . قام ماسينيون المستشرق الفرنسى بذلك فى المغرب وسوريا ، وقام بذلك المستشرق مرجليوث المستشرق البريطانى اليهودى فى البلاد العربية . وكان التركيز على دمشق من كلا المستشرقين الكبيرين . وكان الهدف أنه إذا حلت اللغة ، واستعجمت الألسنة انقطع الطريق إلى الإسلام . وتمزقت الأواصر . ولقد تجمعت شبهات الاستشراق حول اللغة العربية فى أمور عديدة :

أولا : رميها بالقصور وعدم الكفاية العلمية .

ثانياً : صعوبة النطق وصعوبة الكتابة .

ثالثاً : ارتفاع مستواها عن فهم الناس .

رابعاً : التفاوت بين طريقة النطق وطريقة الكتابة .

وكان لويس ماسينون من أخطر الدعاة إلى الحروف اللاتينية . واتخاذها أداة لكتابة اللغة العربية . ومما كان يدعو إليه (إهمال الإعراب) على اعتبار أنه ييسر تعليم اللغة العربية على الأجانب . وقد دعا ماسينون رجال المجمع العلمى فى دمشق أن اتخاذه وسيلة للتجديد . وكرر دعوته فى أندية الشباب العربى فى باريس . وقد وجدت دعوته رداً عنيفاً ، ومعارضة واسعة ، كذلك فقد بذل مارجليوث جهوداً واسعة فى محاربة الحرف العربى . والعمل على استبداله بالحرف اللاتينى . وركز دعوته على دمشق كما فعل ماسينون كما

حاول مرجليوث دعوة الإيرانيين إلى تغيير الحروف العربية ، واستبدالها بالحروف اللاتينية . وقد عارض الإيرانيون هذه الدعوة ، وشجبوها واحتفظوا بالحروف العربية أساساً للغتهم الفارسية . وقد جاء دور المستشرقين فى مقاومة الفصحى لغة القرآن . بعد دور المبشرين : وليم ويلكوس ، وويلمور وسبيتا . الذين بدأوا حملتهم إلى العامية ثم جاء المستشرق فنسنك فنشر رسائل عديدة مكتوبة بحروف أوربية فى اللغة المصرية القديمة . ومن بينها رسالة للمقتطف أسماها (أجرومية مصرى) . كتبها على هذا النحو :—

(بل لسان المصرى ومعها أملة)

يقصد باللسان المصرى ومعها أمثلة

٢ — تعددت محاولات المستشرقين للوصول إلى أغراضهم . خاصة عن طريق مجامع اللغة العربية التى اشتركوا فيها ، ومنها دعوتهم إلى كتابة القرآن بلغة العصر فى محاولة للقضاء على النهج الذى كتب به القرآن منذ عهد النبى (صلى الله عليه وسلم) ، والذى وضع على النحو الذى يضمن الاستجابة لكل اللهجات العربية . ولكل القراءات المنزلة ، وقد رد الإمام أحمد بن حنبل رداً حازماً على هذه الدعوى منذ قديم . وقال إن القراءة يجب أن تكون على ما كتبه الصحابة فقد نزل القرآن على سبعة أحرف ، وأن الكتابة جاءت موافقة لهذا فلو تغيرت الكتابة لضاعت هذه اللغة .

٣ — حاول الاستشراق الغمز لعلوم النحو والصرف ، والادعاء بأنها من عوامل صعوبة اللغة العربية : وهذه أيضاً من مؤامرات الاستشراق ذلك إن حماية اللغة العربية تتطلب المحافظة الكاملة على ما هو مقرر ، ومنقول من الأصول . والقواعد السليمة فى علمى النحو والصرف ، وعلى ما هو محرر مقبول فى علوم البلاغة التى هى المعانى والبيان والبديع دون السماح بما يؤدى إلى اللحن أو مسخ الأسلوب العربى المتين والديباجة الرائعة . والجمل والأساليب التى تمتاز بها اللغة العربية .

٤ — حرض الاستشراق بعض أعوانهم من رجال التغريب إلى إطلاق تلك النغمة التى تقول إن اللغة العربية هى لغتنا . ولنا الحق فى القبول منها

والرفض والتغيير . وهى نغمة مبطلة لأن اللغة العربية ليست ملك المصريين أو السوريين أو العرب جميعاً . وإنما يشاركهم فيها سبعمائة مليون من المسلمين تعد اللغة العربية بالنسبة لهم هى لغة الثقافة . والفكر . والعقيدة . ومن هنا فإن هذه الدعوى التى قد تصلح فى اللغات الأوربية القومية لا تصلح بالنسبة إلى اللغة العربية التى لا يملكها العرب وحدهم . وليس لهم حق التصرف فيها تصرف الوارث القاصر . إن محاولة القول بأن اللغة العربية لغتنا . ونحن أصحابها . ولنا حق التصرف فيها قول مردود . يرده واقع التاريخ ومنطق البحث العلمى .

٥ — كذب الواقع دعوى المستشرقين من القول بأن من عيوب اللغة العربية وجود لغة للكتابة ولغة للكلام . وتبين من البحث العلمى الدقيق أن جميع لغات العالم تتسم بهذه السمة . وأن أرقى اللغات الأوربية تختلف فيها بين الكتابة والكلام . ولكن هذه المسافة قد تقصر . وقد تتسع حسبما ينتشر التعليم الذى يرفع الأمم من لغة الكلام إلى لغة الكتابة . ولذلك فإن الدعوى إلى إنزال لغة الكتابة إلى لغة الكلام هو عمل مضاد لطبيعة اللغة . وتطورها .

٦ — عندما يتحدث المستشرقون عن ضعف اللغة العربية . أو جمودها . فإنما هم يتنكرون لمصدر هذا الجمود أو الضعف . وهو ما قام به الاستعمار فى سبيل الحيلولة دون امتداد اللغة العربية . وتغليب لغة المحتل عليها . وتشجيع اللهجات العامية على النحو الذى حال بين اللغة العربية . وبين التطور والنمو . وقد رسم دهاقنة الاستعمار من أمثال دنلوب سياسة التعليم على أساس أن تحول بين اللغة العربية . وبين أن تصبح الأداة الثقافية لأبناء الأمة المتطلعين إلى أن ينهلوا من معين التقدم العلمى فإذا أصابوا قسطاً من علم دعوه فى قوالب أجنبية متضاربة . منها ما هو مشدود بولائه الثقافى بأكسفورد أو كمبردج . بتراكماتهما التقليدية . ومنها من لا يؤمن بالفكر السربونى الواضح الرقراق . ومنها من اتجه كلية إلى الأسلوب الألمانى الموغل فى التحليل . وقد حرم الاستعمار التعليم بلغة الأمة حتى لا تنقل العلوم بكليتها إلى تلك الأمة فى حين تلقى العلوم عن طريق اللغات الأجنبية بحيث نقل بعض من أفراد الأمة إلى تلك العلوم .

٧ — كشف رجال اللغة عن فساد المقارنة التي حاول المستشرقون عقدها بين اللغة العربية وبين اللغة اللاتينية . تلك المحاولة التي يستهدفون بها وضع اللغة العربية في متحف اللاتينية . وتحويل اللهجات المصرية . والسورية . والعراقية إلى لغات وهو ما لا يتحقق مع وجود القرآن الكريم . الذي هو العروة الوثقى لوحدة اللغة العربية .

والواقع أنه لا يوجد أي تشابه سواء من ناحية التاريخ . أو الأوضاع أو التحديات بين اللغتين : وأن اللغة اللاتينية إنما تقلصت . وانفسح المجال أمام لهجاتها لأسباب سياسية منها انكماش الدولة الرومانية . وتقاص نفوذها السياسي ولأن الدين المسيحي كان عاملا مساعداً على انتشار اللهجات العامية . لأن التبشير بذلك الدين بدأ بين العوام فمن الطبيعي أن تكون الدعوة له باللهجة العامية . بينما كانت الدعوة إلى الإسلام عن طريق القرآن نفسه فبلاغة القرآن هي روح الدعوة إلى الإسلام . ومن هنا قضت العربية على السريانية . والقبطية . والبربرية . والحبشية . والآرامية .

٨ — إن اللهجات المحلية والعامية واللغة الوسطى . والحروف اللاتينية كلها من مؤامرات الاستشراق . وهي التي تسربت إلى دعاة التغريب حتى نرى واحداً مثل الدكتور محمد كامل حسين يقول : أدعو إلى قتل الفصاحة . وإلى تجاهل البلاغة فقد أصابنا منها شر كثير . وهو قول يدل على العجز عن فهم علاقة اللغة بالعقيدة . أو فهم تاريخ الإسلام . وعلاقة العرب هي كلمة من كلمات استعلاء مفهوم عصر العلوم . ولغة العلوم . وهو تيار مهما بلغ من سلطانه فلن يستطيع أن يقضي على سلطان العقائد . والفكر وعلى المفهوم الأصيل بأن المسلمين هم حملة لواء البيان الذي ارتقى بالبشرية من الأساطير الساذجة . والعاميات إلى عصر الرشد الفكري . والأخلاق . والإيمان . وكلها ترتبط ارتباطاً أساسياً ببلاغة القرآن التي جاءت قمة لتعطي النفس الإنسانية أشواقها . ومطامعها .

ولا ريب أن هناك عداوة للغة العربية . مصدرها عجز المستشرقين عن فهم اللغة العربية . ومصطلحات البلاغة والبيان . وهي عدوى سرت إلى دعاة

التغريب . وإلى أولئك الذين يعادون القرآن والإسلام فهم يعادون الفصحى ومن هؤلاء من يدعو إلى كسر اللغة العربية وكسر عمود الشعر العربى . ولا ريب أن الذين يشجعون اللهجات العامية هم أعداء الإسلام الذين يهمهم إبعاد المسلمين عن كتابهم الكريم . وإضعاف شأن الفكر الإسلامى . وتبديد قوى المسلمين الذين وحدهم الإسلام . وكتابهم الواحد كتاب لغتهم الواحدة . وقد أصدر مؤتمر العالم الإسلامى قراراً تاريخياً عام ١٩٤٩ . بوجوب اعتبار لغة القرآن لغة عامة للمسلمين فى جميع أنحاء العالم والعمل على نشرها . وكتابة لغات العالم الإسلامى بخط النسخ العربى .

٩ — عمد الاستشراق إلى إفساد اللغة العربية على النحو الذى نجده فى كتاب «المنجد» من إدخال مصطلحات غير عربية إلى صميم النص العربى . وما نجده من خطأ فى تفسير بعض المصطلحات العربية أو تفسيرها تفسيراً لاهوتيا .

مثل محاولة تفسير كلمة (الطلقاء) بقولهم أنهم الذين أدخلوا فى الإسلام كرهاً . وتفسيره كلمة (ع م د) بأنه غسيل الولد بماء العمودية ، فى حين أن المعمودية ليست كلمة عربية . إنما هى كلمة قبطية تنطق معموزيت بالذال المعجمة . يقول الدكتور مصطفى جواد أن أغلاط المنجد لا يمكن لأحد أن يستقصيها ، وقد نبهنا على ثلاثمائة . وأربع وعشرين منها . ونحن لم نقرأ فيه إلا عند الحاجة .

الفصل الخامس

الاستشراق والتراث

وقف الاستشراقى من التراث الإسلامى موقفين متعارضين :

١ – موقف التنكر لقيمة هذا التراث ، وتصوره بأنه متخلف ، وأنه لا يستطيع أن يعطى العصر الحديث شيئاً نافعاً ، وينكر أن كان لهذا التراث فضل على الحضارة الحديثة .

٢– بعث الجوانب الضعيفة والمختلف عليها من هذا التراث . وخاصه ما يتعلق بالفرق السياسية . ودعوات الباطنية والزنج . والقرامطة ، وغيرها من الجوانب المضطربة . والتى لايتفق مع جوهر الإسلام .

ولقد أنكر بعض المستشرقين نسبة الكتب اللاتينية الكيماوية التى تحمل اسم جابر بن حيان إليه لمجرد أن أصولها العربية فقدت . ومنهم المستشرق برتلو . كذلك أنكر المستشرق دوزى الحقيقة التى أعترف بها المؤرخون المنصفون من أن الأدب الفرنسى (التروبادور) قد تأثر بالشعر الأندلسى الإسلامى . وقد تصدى له علماء راسخون مثل لمبادر وستيل . وأوضحوا إنه كان مخطئاً . ومعتمداً للمغالطة وقال جوج سارطون أن أى شخص يعرف العربية لا يخطىء مطلقاً فى اكتشاف أن هذه الكتب اللاتينية ترجمات لكتب عربية ، إذ تبدو الأساليب العربية واضحة فى الترجمة اللاتينية . وأثبت ريبرا وينكل بما لا يدع مجالا للشك أن شعر التروبادور متأثر إلى حد بعيد بالشعر العربى الأندلسى ، وبالموسيقى العربية ، ولولاهما لما ظهر التروبادور . وقد يقال أنهم مستشرقون ينكرون . ومستشرقون يعترفون .

ونقول : إن حركة التغريب لا تنقل لنا إلا وجهات نظر المنكرين والمعترضين والمنتقصين لتراثنا فى محاولتها الدائبة الغض من شأن كل ما يتصل بالإسلام وتراثه ؛ وأن هؤلاء المنصفون فى الأغلب علماء لا د إ لهم بدائرة

الاستشراق . ومن مثل هؤلاء العالم درابر الذى كتب فى منتصف القرن التاسع عشر معلقاً على أسلوب الإنكار الذى يتخذه الأدب الأوربى إزاء الأدب العربى . وقال أنه آسف لهذه الطريقة التى عمد بها الأدب الأوربى إلى التحايل (لإخفاء أفضال العرب العلمية علينا) . وأشار سديو إلى ذلك فقال : نحاول الأوربيون التقليل من شأن الدور الذى قام به العرب . ولكن الحقيقة ناصعة مشرقة . ليس أمامنا من سبيل إلا أن نضفى عليهم الشرف الذى يستحقونه . إن عاجلا أو آجلا .

ولقد أشار جارودى إلى ما أطلق عليه (مؤامرة الصمت) التى استمرت أكثر من ثلاثمائة عام تقريباً . والتى تجمع على التنكر للتراث الإسلامى . وأثاره فى النهضة العلمية الحديثة .

(٢)

وفى الوقت نفسه عمدت حركة الاستشراق إلى استخدام التراث الإسلامى استخداماً سيئاً . فقد بدأت المؤامرة على التراث منذ وقت بعيد . وهى ترمى إلى الاستيلاء عليه بأى ثمن ونقله إلى دوائر الغرب ثم كانت محاولة إبراز الجوانب الضعيفة منه . والمعقدة والمتضاربة . والمتصلة بالخلاف والصراع بين الفرق الإسلامية . وكل ما يتصل بما يشكك فى العقيدة الإسلامية . وخاصة دعوات الباطنية والقرامطة . والحلاج وابن عربى والسهروردى حتى يعكف ماسنيون أربعين سنة على إحياء آثار الحلاج . وإعادة طبعها . ونجرى طبع كتب ابن عربى وابن سبعين وغيرهما .

فى نفس الوقت الذى يجرى فيه التجاهل تماماً لكتب الإيجابيات الإسلامية والرد على الزنادقة . والباطنية مما كتب الغزالى وابن تيمية وابن القيم .

وكذلك نجد أن الاستشراق قد استخدم التراث استخداماً خطيراً فقد : أبرز ونشر . وأذاع كل ما يفرق . وأخفى كل ما يجمع . وأحيا كل ما يتصل بالشبهات والفرق . وأغفل غيره :

فقد جرى المستشرقون على إحياء أنواع معينة من التراث ليست من

جبرها ، وفى مقدمتها النصوص الفلسفية ، وخلافات المذاهب ، وتضارب الآراء ، وأبحاث الاعتزال ، والباطنية ، وكل هذا ليس من صميم الفكر الإسلامى ، ولكنهم قصدوا من ذلك إحياء تلك الشبهات ، وإعادة طرح الخلافات القديمة فى أفق الفكر الإسلامى لتمزيق المسلمين شيعاً ، ومن ذلك اهتمامهم بالأدب المكشوف ممثلا فى بشار ، وأبى نواس ، وألف ليلة ، والأغانى ، والزنادقة أمثال ابن المقفع ، وابن الراوندى ، وكل عملهم فى مجال التراث يستهدف طرح مفاهيم من شأنها أن تزاحم مفهوم الأصالة فى الإسلام لتزيفه وتفسده .

ومع ذلك فقد وجدنا من يقول : سوف نرى عندما تخرج إلى النور تلك الكنوز المودعة فى دور الكتب الأوربية أن تأثير العرب الخالد فى حضارة العصور الوسطى كان أجل شأناً ، وأكبر خطراً مما عرفناه الآن .

• • •

الفصل السادس

الإستشراق والسنة

إن موقف الاستشراق من السنة هو موقفها من القرآن وسيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) . تماماً ، فإن السنة هي جزء من حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) . وهي تفسير للقرآن فلا بد أن تنالها الشبهات ، وتصل إليها السموم . وعوامل التزييف . ويقول العالم الفرنسي (إيتان دينيه) : إنه من العسير أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم . ونزعاتهم عندما يؤرخون حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) . أو يدرسون سنته . وقد صرح في مقدمة كتابه (تاريخ حياة سيدنا محمد) . أنه من المتعذر بل من المستحيل أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم . ونزعاتهم المختلفة . وأنه من أجل ذلك قد بلغ تحريف بعضهم لسيرة محمد (صلى الله عليه وسلم) مبلغاً غطى على الواقع ، وأخفى الصورة الحقيقية ، وذلك بالرغم مما يزعمه المستشرقون من اتباعهم لأساليب النقد البريئة . ولقوانين البحث العلمي المحايد . وقد عرض إيتان دينيه لكثير من اتهاماتهم للنبي (صلى الله عليه وسلم) ورد عليها ، واتخذ من لامانس مثالا واضحاً على صحة ما ذهب إليه ، وحكم به ، وقال لقد اخترت (لامنس) لأن شهرته العلمية خدعت الكثيرين فأحسنوا الثقة به مع أن ما ساقه من أدلة . وبراهين في كتبه أغلبها من قبل التمويه على القارئ ، والكذب على الحق والتاريخ .

قال لامنس : إن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يكره الوحدة . وأكد (دينيه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يتعبد في غار حراء بنفسه ليستجمع ذهنه . وشعوره منصرفاً كل الانصراف عن هذا العالم المادي .

وحكم لامنس على النبي (صلى الله عليه وسلم) بأنه كان نؤوماً . والقرآن يشهد للنبي (صلى الله عليه وسلم) **« إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه »** .

واتهم لامنس النبي (صلى الله عليه وسلم) بأنه كان أكولا ، وبين إتيان دينيه أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) كان زاهداً فى الطعام ، وملذات الدنيا . وحكم على لامنس بجنوحه ، وانحرافه بدليل أنه إذا تحدث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه لم يسلم أحد منهم من غمزاته ، وطعناته أما إذا تحدث عن أعداء الإسلام أبى جهل ، وأبى لهب ، والمنافقين ، وأعداء الدين فإنه يشيد بهم ويمدحهم .

والمعروف أن إتيان دينيه قد آمن بالإسلام ، وهو من أمثال اللورد هدلى . و (ليو بولدفايس) محمد أسد وعبد الكريم جرمانوس وجارودى وبوكاى .

وهناك منصفون لم يعلنوا إسلامهم أمثال : كارليل وهنرى دى كاسترى الذى يقول إن العقل يحتار كيف يتأتى أن تصدر الآيات عن رجل أمى ، وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بنى الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظاً ومعنى . لقد أتى محمد (صلى الله عليه وسلم) بالقرآن دليلا على صدق رسالته . والقرآن الذى نزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) لا يزال إلى يومنا سراً من الأسرار التى يتعذر فك طلاسمها .

(٢)

وتتركز شكوك المستشرقين فى السنة حول تأخر تدوين الحديث . فهم يرون أن تأخر تدوين الحديث الذى بدأ فى المائة الثانية للهجرة ، قد أعطى فرصة للمسلمين ليزيدوا ، وينقصوا فى الحديث ، وفى وضع أحاديث لخدمة أغراضهم .

يردد هذا جولدزيهر ، ودوزى ، وشبرنجر .

وقد شك جولدزيهر فى صحة وجود صحف كثيرة فى عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) . ويرى من وراء ذلك إلى إضعاف الثقة باستظهار السنة ، وحفظها فى الصدور . وهو يرمى أيضاً إلى وصم السنة كلها بالاختلاق ، والوضع على السنة المدونين . وهو يزعم أن هؤلاء المدونين لم يجمعوا من الأحاديث إلا ما يوافق هواهم . ويرى شبرنجر فى كتابة الحديث عند العرب أن الشروع فى التدوين وقع فى القرن الهجرى الثانى . وأن السنة انتقلت

بطريق المشافهة . أما دوزى فهو ينكر نسبة هاته (التركة المجهولة) — كما يسميها ظالما — من الأحاديث إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وقد رد عليهم دكتور صبحى الصالح فى كتابه (علوم الحديث ومصطلحه) كما رد عليهم كثيرون . وكشفوا زيفهم .

وجملة الرأى فى هذا ما أورده الدكتور مصطفى السباعى حين قال : حرص الصحابة على حفظ حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . ونقله وحرص التابعون . وتابعو التابعين من بعدهم على نقل هذا الحديث . وجمعه . وتنقيته من شوائب التحريف . والتزيد . وما قام به علماء السنة من جهود جبارة فى تتبع الكذابين . والوضاعين . وفضح نواياهم . ودخائلهم . وبيان ما زادوه فى السنة من أحاديث مكذوبة حتى جمعت السنة فى كتب صحيحة ، وأشبعها النقاد بحثاً . وتمحيصاً ثم خرجوا من ذلك الاعتراف بصحتها والتسليم بها . وإذا أمعنت النظر فى ذلك كله أيقنت أن هؤلاء المستشرقين يتخبطون فى أودية الأوهام . ويتأثرون بأوهامهم ونقصهم فى الحكم على حقائق يعتبر العبث بها فى نظر المحقق المنصف إسفافاً . وتلاعباً بالعلم . وإخضاعاً لحقائق التاريخ إلى نظريات الهوى والبغض .

ولعل من الخرافات التى جرى وراءها المستشرقون ، وأتباعهم فرحين بأنهم التقطوا شيئاً ما أطلق عليه معراج بن عباس . والكتاب مكذوب لا يتداوله إلا عامة الناس . وليس له سند يربطه به لا رواية ترقى إليه . وقد احتفل به المستشرقون وقارنوا بينه . وبين الكوميديا الإلهية .

وليس أشد تعصباً من مستشرق مثل أندرسن الذى أسقط أحد المتخرجين من الأزهر فى رسالة عن حقوق المرأة فى الإسلام . لأنه برهن على أن الإسلام أعطى المرأة حقوقها كاملة .

وقد لخص الدكتور مصطفى السباعى بعد جولة ضخمة مع المستشرقين فى جامعات أوربا . (أشرنا إليها فى كتابنا الإسلام والثقافة العربية) أهدافهم على هذا النحو :

أولا : إخضاع النصوص للفكرة التى يفرضونها حسب أهوائهم .

ثانياً : تحريف النصوص فى كثير من الأحيان تحريفاً مقصوداً .

ثالثاً : إساءة فهم العبارات حين لا يجدون مجالا للتحريف .

رابعاً : تحكمهم فى المصادر التى ينقلون منها : ينقلون من كتب الأدب ما يحكمون به فى تاريخ الحديث ، ومن كتب التاريخ ما يحكمون به فى تاريخ الفقه ؛ فهم يصححون ما يقوله الدميرى فى كتاب الحيوان ، ويكذبون ما يرويه مالك فى الموطأ .

* * *

الفصل السابع

الإستشراق والحضارة الإسلامية

وجهت حركة الاستشراق إلى الحضارة الإسلامية كثيراً من الاتهامات والشكوك . والشبهات فهم لا يطلقون اسم الحضارة الإسلامية عليها بل ينسبونها إلى العرب حتى يثيروا الخلافات ، ويوقعوا بين المسلمين والعرب .

يقول رينان : إن الحضارة العربية حضارة سطحية ظاهرية أنتجتها عقول أوربية ، ومنابع يونانية فارسية هندية غوطية ، وحيثما وجد الإنسان ظاهرة من ظواهر الحضارة فى البلاد العربية فلا بد من إرجاعها إلى عقلية آرية ، وإنتاج غير سامى .

ويزعم (يوسف شخت) أن أحد أركان المدنية الإسلامية راجع إلى المدنية الإغريقية فى آخر مراحلها ، فلم يكن العرب يشتركون فى تدعيم صرح تلك المدنية العظيمة إلا بلغتهم ، ودينهم أما المواد الأخرى فإنها مأخوذة من ذلك التراث الذى تركه اليونان ،والذى قد توطد فى البلاد الشرقية منذ عصر الإسكندر ، ثم جاءت الدولة العربية ، فأكملت توطن العلوم ، والآداب الإغريقية فى الشرق الأدنى .

ويقول ماسنيون : إن كبار رجال الحضارة ، والآداب لم يكونوا ذوى دم عربى محض بل موالى مستعربون .

وقد رد كثير من كتاب العرب على هذه الاتهامات ، ويقول الدكتور جواد على : إن هذه النظريات لا قيمة لها أبداً إذا لم تدعم بالنصوص ، والبراهين . كما أن الاستشهاد بحادثة أو رواية لا يتخذ حجة للحكم به على أمة ، وإنى أستطيع أن أجعل من الأمة الجرمانية همجية بربرية مادية ، خاملة لم تنهض إلا أخيراً بالاستناد إلى النصوص الجرمانية نفسها المجموعة من المصادر والمنابع عن التاريخ الجرمانى ، ويستطيع كل مؤرخ أن يفعل ذلك فى تاريخ

أى أمة . وأعتقد أنه لو كانت الأمة العربية قوية فى الوقت الحاضر لكانت النظرية على عكس ذلك تماماً .

ويقول : إن الحضارة الإسلامية ليست حضارة عنصرية . وقد اشترك فيها كل الذين اعتنقوا الإسلام بصرف النظر عن أجناسهم ، فإن القرآن . واللغة العربية . والتوحيد كانت هى العناصر التى شكلت القدر الذى صنع الحضارة . ولقد جاءت حضارة الإسلام بعد حضارات العبودية الفارسية . والفرعونية . والرومانية . وعبادة الفرعون ، والقيصر . لتقدم للبشرية الأخاء البشرى ، والعدل ، والرحمة ، والسماحة ، وترفع العبودية عن العقيدة ، وعن علاقة الإنسان بالإنسان ، وذلك هو جوهر الحضارة الإسلامية وقد قامت على التوحيد الخالص ، وبذلك فهى تختلف أشد الاختلاف عن الحضارات اليونانية ، وغيرها ، وعن الفكر اليونانى ، وغيره ، ولكن هذه الحضارة استطاعت أن تصهر فى بوتقتها ما كان موجوداً فى العالم من علوم ، ومعارف بعد أن امتحنتها ، واستصفتها ، وأدخلتها فى بوتقه التجريب الذى هو المنهج الذى صنعه المسلمون ، وقدموه للبشرية ، وقامت عليه الحضارة المعاصرة .

وأن ما وجده المسلمون لدى اليونان لم يكن سوى نظريات بعضها صحيح وبعضها خاطئ ، فضلا عن الأساطير ، والتنجيم ، والخرافات التى استبعدها المسلمون تماماً .

ولقد حاول المستشرقون اتهام العرب ، والمسلمين بأنهم أحرقوا مكتبة الإسكندرية ، وهى دعوى باطلة كذبها المؤرخ البريطانى جيبون ، وكثير من المؤرخين الذين تبين لهم أن مكتبة الإسكندرية أحرقت قبل الإسلام ، وقد أحرق نصفها يوليوس قيصر الرومان ، وأتم إحراق الجزء الباقى بطارقة الإسكندرية قبل الإسلام .

وقد كذب الدكتور بطلر رواية يوحنا النحوى ، وقال : إنه مات قبل دخول عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى الإسكندرية بأربعين سنة ، أو ثلاثين على الأقل .

وأن أبو الفرج روى عن يوحنا النحوى . فإذا سقط البطل سقطت الرواية . كذلك ذكرت دائرة المعارف الفرنسية أن مجموعة المؤلفات التى كانت بالسرابيوم ، قد أحرقها النصارى فى القرن الرابع الميلادى .

ويقول الدكتور عمر فروخ : إن محاولة المستشرقين إنما تهدف أن لا يصل الإسلام صحيحاً إلى أهل الغرب ، فيؤمنوا به فهم يعملون على رد الإسلام وتشويهه بتقديمه مهلهلا ، وإن كتاباتهم مشوهة ، وأحكامهم مزيفة قوامها : الجهل ، والسطحية ، والتعصب ، وأنهم يهدفون إلى اقتناص الحجج الغالطة لتقديم إلى المبشرين حتى يستغلوها فى الجدل ، وقد أشار إلى ذلك كرارى فو حين قال : إن محمداً ظل وقتاً طويلا معروفاً فى الغرب معرفة سيئة ، فلم توجد خرافة ، أو فظاظة إلا نسبوها إليه وقد رد ما زعم هؤلاء الكتاب ، والشعراء المرتزقة من الغربيين يهاجمون العرب ، ولم تكن مهاجمتهم إلا تهماً باطلة بل متناقضة .

وإن المستشرقين لا يرجون من تفضيل الآداب الغربية على أمثالها فى تاريخ العرب إلا خلق تخاذل روحى ، وشعور بالنقص فى نفوس الشرقيين ، وحملهم من هذا الطريق إلى الرضا بالخضوع للمدنية الغربية .

• • •

الفصل الثامن

الإستشراق والشريعة

لما كانت الشريعة الإسلامية هي الغاية الكبرى من الإسلام ، فقد كان لا بد للاستشراق من توجيه الشبهات إليها ، ومحاولة البحث عن تناقضات يستطيع من خلالها أن يصل إلى هواه ، وقد وضح حقد المستشرقين على الشريعة الإسلامية فيما كتبه : كوفن ، وريناك ، وكلامون ، وجانو ، وجولد زيهر ، ومرجليوث ، ولامنس ، وقد حاولوا إيهام المسلمين بأن الشريعة الإسلامية سبب تأخرهم ، وإنها عائق في سبيل تقدمهم ، ونهوضهم وأثاروا الشبهات حول نصوصها ، وعرضوا لما أسموه تطور الشريعة بتطور العصر ، وغير ذلك من المحاولات الباطلة التي عرفت عن الشرائع الوضعية التي تحتاج في كل عصر إلى تغير مع روح العصر وتحولاته ، بينما الشريعة الإسلامية شريعة ربانية منزلة قد وضعها الشارع الأكبر ، محققة لقيام مجتمع الأمن ، والسكينة ، وجعلها ذات أطر واسعة وافية ، وقادرة على تقبل تغيرات العصور والبيئات ، وهي من أجل ذلك لا تحتاج إلى تطور لأن أسسها الثابتة راسخة البنيان ، ثم هي راسخة قادرة بعد ذلك على تقبل المتغيرات .

ولقد حاول الاستشراق الادعاء بأن الشريعة الإسلامية جماع ما كان لدى العرب من الأعراف وهو ظن كاذب ، ودعوى باطلة فندها علماء الإسلام ، وكذبوا ما ذهب إليه أمثال شاحت ، وغيره .

وكانت من أخطر مجادلاتهم الادعاء بأن الشريعة الإسلامية مأخوذة من القانون الروماني ، وهي أيضاً دعوى ظاهرة البطلان ، وآية ذلك أن مؤتمر القانون الدولي في لاهاي عام ١٩٣٧ ، قرر أن للشريعة الإسلامية نظام قانوني مستقل غير مأخوذ من التشريع الروماني ،وبذلك تقرر تمثيل الشريعة الإسلامية في محكمة العدل الدوولية ، كنظام مستقل من النظم العالمية الكبرى .

ومن تلك الشبهات التي أثارها الاستشراق دعوى الفصل بين الدين ، والدولة . والقول : بأن الإسلام دين عبادي لا صلة له بنظم المجتمع . وهي محاولة لتصوير الإسلام على هيئة المسيحية الغربية . بينما الإسلام في جوهره وطبيعته دين ومنهج حياة لا سبيل إلى انفصالها ، ولقد كانت محاولة فصل الدين عن الدولة هي إحدى محاولات النفوذ الغربي الذي فرض على المجتمعات الإسلامية استعمال القانون الوضعي .

ولقد كانت محاولات الاستشراق لضرب الشريعة الإسلامية عاملا هاماً يرمي إلى الحيلولة دون تطبيقها في المجتمع الإسلامي .

أما محاولة الربط بين الشريعة الإسلامية ، والقانون الروماني فقد كشف علماء المسلمين عن فروق عميقة بين الشريعة ، والقانون ، أبرزها أن الشريعة لم تفرق بين الروح ، والجسد ، ولم تهمل أحدهما بحسبان أن الإنسان مركب منهما جميعاً . وأن الفقه الإسلامي قسم على أساس العبادات ، والمعاملات ، والعقوبات . بينما قسم القانون الروماني قسم على أساس الأشخاص ، والخصومات ، وأن أساس القانون الإسلامي مستمد من كلام الله المنزل بالوحي . أما أساس القانون الروماني فمستمد من مشيئة الإنسان . وأن خلاصة القانون الإسلامي : (لا إله إلا الله محمد رسول الله) بينما بنى الرومان أحكامهم إما على أوامر رئيس الحكومة ، أو العرف العام . وقد أهملت كتب الفقه الروماني المسائل العمومية : كالأمور الدستورية ، وأحكام القانون الدولية ، وجعلتها من أمور السياسة بينما الإمام عند فقهاء المسلمين هو إمام صلاة الجماعة كما هو إمام دولة المسلمين . وفي القتل تشكل العقوبة عند المسلمين حسب النية من حيث العمد ، والخطأ . ولا توجد هذه عند الرومان ، وكذلك الدية والقصاص عند المسلمين ، وكذلك الحدود التي تتعلق بالقتل ، والزنا ، والسرقة ، والقذف ، وشرب الخمر ، والارتداد ؛ بينما الزنا ، والقذف ، وشرب الخمر ليست محرمة عند الرومانيين . ومن ثم فلا عقاب عليها .

وليست هناك مشابهة بين الشريعة الإسلامية ، والقانون الروماني في الزواج ، والطلاق ، فالإسلام لا يعرف إلا قسماً واحداً من الزواج وهو

عقد يجمع الزوجين رضاهما . بينما يوجد عند الرومانيين أصناف عديدة للزواج الجائز يعتبر أكثرها عن المسلمين كالزنا . وقانون الوراثة ، وتقسيم التركة عند المسلمين يغاير ، ما عند الرومانيين ، وكذلك نظام القضاء ، وأدوات القصاص . والقانونان مختلفان حتى في المعاملات المالية . فمثلا الربا غير محرم عند الرومانيين . وحتى أساس التجارة مختلف بينهما . فالبيع عند فقهاء المسلمين (عقد رضا المتعاقدين . وهو عند الرومانيين) عقد يتعلق بالمال .

ويقول الدكتور محمد حميد الله : إن الفقهاء المسلمين ما كانوا يعرفون اللغة اللاتينية التي كتب بها القانون الروماني . ولم تترجم هذه القوانين إلى العربية قبل أوائل القرن العشرين ، ومن المعروف أن المفتين عند الرومان هو موظف الدولة . أما المسلمون فالفقيه لم يكن أبداً إلا رجلا من عامة الناس . تعلم . وتفقه . فأفتى . ودون كتب الفقه .

وفيما أورده شاخت وجرونجيه . وجولدزيهر . من القول : بأن التشريع الإسلامي المتعلق بالأسرة . والوراثة كما قرره الإسلام كان مستمداً من النظام القبلي . وأن العقوبات في الإسلام كانت تحت السلطان القبلي . فقد زيف الباحثون المسلمون هذه الشبهات . وكشفوا عن مصدرها المتعصب الحاقد الذي يكمن في صدور أهل الاستشراق الغربي . والصهيوني .

يقول الشيخ محمد أبو زهرة : هل كان في النظام القبلي أن الفرد يقتل بالفرد . وأنه لا يسأل غير القاتل ، وأن النفس بالنفس . ولا عبرة بمقدار ما كان عليه المقتول من جاه . أو منزلة عند الناس . فإن النفوس متساوية بحكم القرآن . وأقوال محمد وليست متساوية بحكم القبائل . فزعيم القبيلة يقتل به العرب ، وهل كان في نظام القبيلة أن يقتل الحر بالعبد . بل أن السيد يقتل إذا قتل عبده . وهل كان في حكم القبيلة جلد الزاني بمائة جلدة ؛ أو الرجم . وحد الخمر بثمانين جلدة . أو أربعين . وحد القذف بثمانين جلدة . وهل كان في حكم القبيلة أن العبد تكون عقوبته على النصف من عقوبة الحر . وهل كان في حكم القبيلة أن السارق تقطع يده . . لقد أغفل (شاخت) كل الحقائق ، وقال في كلمة واحدة : إن حكم الإسلام في

العقاب امتداد لحكم الأعراب . وفى شأن الطلاق الذى جاء به الإسلام . هل هو ما كان متبعاً فى الجاهلية . وهل حقوق المرأة كما قررها الإسلام هى التى كانت فى الجاهلية ، أو عند الرومان . هل كان للمرأة عند العرب . أو الرومان إرادة فى تزويج نفسها . والولاية الكاملة على مالها . هل المرأة كان لها كيان كامل عند الرومان أو عند الفرس أو عند البدو . هل أقر الإسلام نظام التبنى الذى كان معمولا به عند العرب ، وعند الرومان ، لقد ألغاه . وهل نظام الولاية على النفس والمال هو ما كان عند الرومان . الإسلام قد اعتبر الولد حراً فى التصرف فى نفسه ، وماله بمجرد بلوغه البلوغ الطبيعى . والرومان كانوا يعتبرونه فى ولاية أبيه . ولو بلغ الستين ، حتى يمنحه الأب حق التصرف . هل نظام الميراث كما قرره الإسلام سبق برأى فى شرع من الشرائع .

ويثير فلهاوزن . وتبعه آخرون من المستشرقين أمثال كايتانى ، وبيكر ودبل. وجردهمان شبهة أن العرب لم يعرفوا سياسة المال ، ونظام الضرائب لما فتحوا البلاد ويرى فلهاوزن أن العرب كانوا يجبون من البلاد التى فتحوها أتاوات إجمالية . وأنهم اتبعوا النظام الفارسى ، والرومانى الذى كان سائداً فى تلك البلاد فى جمع الضرائب . واستعملوا نفس أسماء ، ونظم الضرائب التى كانت مستعملة فى العهود السابقة . ومن ضريبة الأرض (الخراج) . وضريبة الرءوس (الجزية) . ويرد الدكتور بدوى عبد اللطيف على هذه الشبهات فيقول : من الحق أن الأراء التى ذهب إليها فلهاوزن . ومن تابعه من المستشرقين خطأ إلى خطأ . وذلك لأن العرب عرفوا سياسة المال . ونظام الضرائب الحقيقية منذ قيام الدولة الإسلامية . ولم يطلبوا أتاوة معلومة ثابتة من البلاد التى فتحوها إلا فى حالات قليلة معينة . وأنه كان هناك منذ البداية أنواع من الضرائب المحددة لها قواعدها ، وشروطها ولها نظام جبايتها وكيفية تحصيلها . وأنها كانت تزيد وتنقص حسب الظروف ، والملابسات . وإن خطة العمل فى الجهاز الضريبى سارت فى دقة ، ونظام فى جميع الأقطار . وبخاصة فى مصر ، وأن مركز الخلافة كان شديد الرقابة . والإشراف على الإدارة الضريبية ، وأجور الضرائب الأمر الذى

لا يدع مجالا للشك فى أن العرب عرفوا النظام المالى . والمعانى الاصطلاحية المتصلة به منذ الفتح الإسلامى ، وأن أقوال العرب من المؤرخين . والفقهاء كمصادر تاريخية . وتشريعية هامة جديرة بالثقة والاحترام ، وأنه يجب التعويل عليها . ولا سيما إذا علمنا أن ما جاء بها يكاد يتفق مع ما جاء من شواهد البردى . وغيره من الوثائق التاريخية المادية . ومما يدل على أن نظرية فلهاوزن فى حاجة إلى إعادة نظر حين تناول النظم الإسلامية بالدراسة . ذلك أن العرب عرفوا نظام الضرائب الحقيقية فى الفتح الإسلامى الأول ما ثبت من أن ضريبة الرءوس (الجزية) ، لم تكن موجودة فى مصر فى العهد البيزنطى المتأخر وإن كانت موجودة فى فترة أسبق ، وذلك يعنى أن العرب استحدثوا ضريبة الجزية لما دخلوا مصر فاتحين أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وأنها كانت ضريبة حقيقية لها نظامها ، وسعرها الخاص ، فرضت على أفراد بأعيانهم ، وأعفى منها آخرون حسب قواعد ثابتة فرعية .

لقد حدد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقت أداء هذه الضريبة (الجزية) ، بما يتفق . ومصالح الدافعين . وكان وقت تحصيلها فى نهاية العام الزراعى حين تجنى الغلات ، ويأتى وقت الحصاد شأنها فى ذلك شأن الضرائب الأخرى : كالخراج والزكاة ، كذلك نص الخليفة صراحه على الأشخاص المكلفين بدفع ضريبة الجزية ، فأوجبها على الذكر البالغ الصحيح الجسم . والعقل بشرط ان يكون له مال يدفع منه ، فأفرض عليه . وأعفى منها النساء . والأطفال ، والشيوخ لأن الحرب لا تعلن عليهم . ولا يدفعها العمى . والمقعدون إلا إذا كانوا أغنياء ، وكذلك الفقراء ، والمساكين ، والأرقاء . والضعفاء ، ولم يكن يطالب بها الرهبان إذا كانوا فى عزلة عن الناس . أما إذا اختلطوا بغيرهم فتؤخذ منهم لأنه لا يؤمن خطرهم وشرهم .

فهذا وغيره من الحجج الدامغة التى يطول ذكرها . وهذا يدل على عدم صحة فلهاوزن ونظريته ، وكذلك يدل على خطأ من أتوا بعده وساروا على دربه ، وأن العرب عرفوا منذ قيام الدولة الإسلامية النظام المالى ؛ والنظام الضرائبى فى الأقاليم المختلفة . وأن الإسلام عامل أهل البلاد المفتوحة

على أساس إنسانى كريم ، فأباح التمتع بكل ما فيه من خير ، ومزايا ، ولم يقم أمام أحد أى حاجز من الدين ، أو اللون ، أو الجنس ، أو اللغة .

وقد أعاد المستشرقون طبع أمهات كتب الخراج فنشروا كتاب الخراج لكل من يحيى بن آدم ، والإمام أبى يوسف – يقول عبد الله مختار (مجلة المجمع – دمشق – إبريل عام ١٩٦٨) : وكان هذان الكتابان قد طبعا عدة طبعات قبل ذلك بالعالم العربى ، وأوربا ، والطبعة الحديثة التى طبعت عام ١٩٦٣ غير أمينة ، والواضح أن هدف هؤلاء فى تقديم نصوص فقه الخراج بصورة مشوهة كانت غايته تقديم أسس نظرية زائفة ، يمكن استخدامها فى النيل من عدالة تشريع الخراج الإسلام ، فقد حاولوا تفسير ، وترجمة تلك النصوص الواضحة بشكل يخدم أغراضهم ، بعد تزييف تلك النصوص .

وقد حاول المستشرقون تفسير التطور فى النظام الخراجى بين ما كان فى عهده الأول ، وبين ما كان بعد أن أفاء الله عليهم ، ووسع عليهم ، وفتحت بلاد الفرس ، والروم ، ودخل أهلها ضمن إطار المجتمع الإسلامى ، حاولوا تفسير هذا بما يتفق مع ما يحملون من أراء مسممة ، وفى سبيل ذلك استخدموا التناقض الظاهرى ، بين أحكام الشرع الخراجى ، وبين الوثائق المالية الخراجية للتوصل إلى الزعم بأن هناك تضارباً حاداً بين التشريع ، وواقعه الحالى ، وبأن أهل العهد عاشوا أحقاباً طويلة من الاضهاد والاستغلال . ولو فحص هؤلاء المستشرقون تلك الوثائق الخراجية ، وأحكام الخراج النظرية لتبين لهم بأن هذا التناقض الظاهرى لم يتعارض مع روح التشريع الإسلامى ، ولتبين لهم بأن ذلك لم يكن إلا استجابة لحكم التشريع فى التخفيف عن أهل الذمة . وهذا ما أثبتته الوثائق الخراجية نفسها . وقد أشار الذين نشروا كتاب الخراج حديثاً إلى مضمون الاصطلاح المميز للتشريع الخراجى : (عفو – فضل – طاقة) ، وفسروه بشكل يفقد التشريع روحه العادلة ، ويفضى إلى الجشع المطلق ، وقادهم إلى ذلك الفهم عدم إمكانهم متابعة الأحكام العامة التى وضعت من الناحية النظرية فقط فى مسائل خراج البلاد المفتوحة عن طريق الصلح ، أو عن طريق الحرب والقوة ، وهو ما أدى بهم إلى التضارب فى الرأى .

الفصل التاسع

الاستشراق والآداب

أولى الاستشراق الأدب العربى اهتماماً واضحاً . وتخصص فيه أمثال : مارجليوث . كلمان هوار . وجب ونلينو . وبركلمان . ورنجيس بلا شير . وكراتشوفسكى . وقد أعلى الاستشراق الفكر الباطنى . وإخوان الصفا . وأعلن تأثر الأدب العربى بالفكر الفارسى . وبالأدب اليونانى .

أما (مارجليوث) فقد فرض فرضاً فى الشعر الجاهلى نشره فى يوليو عام ١٩٢٥ ، فى إحدى المجلات الاستشراقية ، وفى خلال عام ١٩٢٦ نقله طه حسين فى كتابه (فى الشعر الجاهلى) .

ولم تختلف وجهة نظر المستشرقين فى الأدب عن وجهة نظرهم فى سائر العلوم . فالغربيون منهم أمثال : بروكلمان يقول فى كتابه (عن الأدب العربى) إن القرآن محاولة للقول بأن المصادر الأصلية للقرآن مأخوذة من النصرانية ، وجولد سيهر يقول : بأن هذه المصادر مأخوذة من التوراة ، ويجىء من يقسم القرآن بينهما فيقول : إن المكى نصرانى والمدنى يهودى ، لمجاورة المسلمين فى مكة لنصارى نجران ، ومجاورة المسلمين فى المدينة ليهود غطفان . وقد ركز الاستشراق فى مجال الأدب على الأدب الشعبى ، والعاميات ، والاهتمام بشعر الغزل ، والمجون . واعتبار ألف ليلة . والأغانى من مصادر البحث الأدبى .

وقال نولدكة ومولر : إن قالب الشعر من القوالب الشعرية . وأنه تأثر بموعظة المبشر المسيحى على لسان المبشرين العرب فى جنوبى الجزيرة .

واعتماد رجال التغريب من اتباع المستشرقين على تطبيق نظريات الأدب الفرنسى على الأدب العربى . وهى نظريات مادية تقوم على مفهوم أن

الإنسان خاضع للبيئة . والعصر . وأنه مجبور وليست له إرادة . وأنه حيوان مادى يخضع للجنس . أو لقمة العيش .

وكان أبرز التراث الذى حققه الاستشراق : معلقة لبيد . ومقامات الحريرى . وكليلة ودمنة . والمعلقات السبع . وديوان امرئ القيس . والطواسين للحلاج . وألف ليلة . ورسائل إخوان الصفا . وكلها أعمال لا تمثل بطابع الأدب العربى الحقيقى . المستمد من القرآن . والسنة . وفى الشعر عمدوا إلى إحياء بشار . وأبى نواس . والضحاك .

ويطلق على عصر الجاهلية : العصر البطولى . ويرفض المستشرقون مصطلح العصر الجاهلى اسماً لعصر ما قبل الإسلام . ويحاول المستشرقون تزييف عصر ما قبل الإسلام على أنه عصر استنارة . وحضارة . ويسمون عصر الإسلام عصر التوسع . ليثبتوا أن الإسلام لم يقم بأى تغيير حقيقى . وإنما جاء متابعاً لما قبله . وفى مجال اللغة . يوهمون بأن اللغة العربية لغتان شمالية وجنوبية .

وركز جب . ونيكلسون . وغيرهم من مؤرخى الأدب العربى على الإشادة بدور الثقافة اليونانية فى المنطقة . وأثرها . وإليها يردون كل ما فى الأدب العربى من كلام . وإلى الثقافات الفارسية . واليونانية يردون كل أمور النحو والبلاغة .

ويقول جب : إن الذين رفعوا لواء الفكر . والفن فى العصر العباسى ، هم من أصل مسيحى . أو نصف مسيحى . وهناك الاهتمام الواضح بالمعتزلة . وهم يردون الاعتزال إلى الفكر اليونانى . ويهتمون بانتصار البويهيين ، والشيعة . ويرى جب أن ذلك نتيجة الحميرة الهلينية . ويهتمون بالموشحات . والمقامات . ويطلقون على العصر المملوكى عصر الانحطاط . مع أنه حافل بالموسوعات :

المقريزى . وعربشاه . والسيوطى . ويكشفون عن إساءة تامة ، وتعصب كامل للعصر العثمانى ، ويربطون النهضة العربية الحديثة بالحملة الفرنسية . وأثر الإرساليات .

وركز جاك بيرك (في كتابه مختارات من الأدب العربي المعاصر - عام ١٩٦٤) ، على ما يسميه النهضة التي بدأت في بيروت عام ١٨٨٠ ، بطرس البستاني ، واليازجيان ، وجرجي زيدان ، ويقول : إن المجموعة المستنيرة بدأت من الأقليات ، ثم انضم إليها بعض المسلمين ، ويعني عناية وافرة بجيل المهجر : جبران ، ونعيمة . ويرى أن طه حسين هو الذي قام بدور البطل في حمل لواء النزعة العقلية في أدب البحر المتوسط . والواقع أن رؤياه لم تكن صادقة . فقد تأثر بأدب كان مفروضاً على عصره ، ولم يكن نابعاً منه حين اهتم بالشعر الحر ، وبكتابات لويس عوض ، وحسين فوزي ، ونجيب محفوظ ، وسعيد عقل ، وحين جعل مصدر العمل الأدبي للعربي : مجلة شعر ومجلة حوار .

وقد كشفت الدكتورة بنت الشاطيء في مقدمة أطروحتها عن الغفران مدى فهم واحد منهم هو نيكلسون للبيان العربي ، وقالت : إن فهمه للنصوص فيه أخطاء كثيرة ، بعضها هين يمكن التجاوز عنه ، أما الكثرة الباقية فتعرض صوراً غريبة لفهمه للنصوص العربية .

(راجع مقالنا الاستشراق والأدب في كتابنا خصائص الأدب العربي) .

* * *

الفصل العاشر
الاستشراق والتاريخ

جرت محاولات الاستشراق حول تزييف تفسير التاريخ الإسلامي ، وإخضاعه لمناهج وافدة تفسره مادياً ، أو اقتصادياً ، أو تخرجه عن منهجه الأصيل ، ومفهومه الأساسي ، وبذلك تبدو صورة التاريخ للمسلمين ممزقة مضطربة ، وبذلك يفقد الهدف الأصيل من دراسته والغاية المثلى من التعامل معه . ولما كان التاريخ عاملا هاماً من عوامل بناء الأمم ، وتربية الأفراد فقد كان حرص الاستشراق على إفساد هذه الغاية ، وذلك ببعث الجوانب المضطربة ، والروايات الخلافية ، وصور التناقض ، والخصومة ، وكلها صور لا قيمة لها في بحر التاريخ الإسلامي العريض الجياش المليء بصور البطولة ، والحيوية ، والقوة ، والذي كان قادراً على العطاء الدائم للأجيال المتجددة .

ويستهدف عرض الاستشراق للتاريخ إلى إثارة الالتباس بين القيم المتكاملة بين العرب ، والإسلام ، وبين الموجات العربية التي خرجت من الجزيرة العربية إلى الآفاق تحت اسم الفرعونية ، والبابلية ، والفينيقية ، حتى تصطرع هذه الدعوات مع العروبة ، والإسلام ، وكذلك العمل على تمجيد الحضارات القديمة السابقة للإسلام مع التركيز على الحركات المضادة للإسلام ، والتوسع في دراسات الفتن الأهلية ، والخلافات المذهبية ، ومظاهر الانقسام ، والتفسخ ، ويقوم هذا العمل على أساس دراسة الروايات المختلفة ، والنصوص المتعارضة ، وضرب بعضها ببعض لإثارة الشبهات .

ولا ريب أن الهدف من بعث دعوات الفرعونية ، والفينيقية ، والآشورية إنما يستهدف تمزيق وحدة المسلمين ، والغض من شأن الإسلام ؛

وهكذا تبدو صورة الإسلام فى كتابات الاستشراق مليئة بالسموم ، والالتباسات العقلية ، والتاريخية ،وأن نظره . إلى كتابات بروكلمان فى كتابه تاريخ الشعوب الإسلامية لتوحى بهذا الهدف فهو يدين كل الحركات الإسلامية الصحيحة ويعلى من شأن الزنج والقرامطة والباطنية ، أما روزنتال فإنه يصور التاريخ الإسلامى على أنه سلسلة متصلة من الحكام الطغاة ، وأن التاريخ الحضارى للإسلام ، كان تكراراً مسجلا للأفكار ، وأن التاريخ الدينى كان بقايا متحجرة ، متجمدة ، تناقلتها الأجيال بعضها عن بعض .

وهناك الغمز بصلاح الدين ، والتكلم عن شجاعة الصليبيين ، والقول : بأن المصريين لم يعرفوا الاستقلال ، وكانوا تاريخهم كله خاضعين للرومان ، والفرس ، والعرب ، فلماذا لا يخضعون للإنجليز ، وكذلك اتهامهم المسلمين بحرق مكتبة الإسكندرية .

ويحاول الاستشراق أن يصور الإسلام ، وقد قام بالسيف ، وأن المسلمين المجاهدين كانوا يطمعون من وراء الحرب إلى الغنائم ، كما يحاول القول : بأن العرب بدو ، ويثير الخلاف بين العرب والأعراب .

وهناك محاولة للقول : بأن العرب قبل الإسلام كانت لهم حضارة ، وذلك فى محاولة اعلاء الجاهلية ، ووصفها بأنها عصر البطولة ، واعتبار الإسلام امتداد لها ، والاهتمام بالغساسنة ، والمناذرة .

وكذلك التشكيك فى عالمية الرسالة الإسلامية ، وإثارة الشكوك حول الكتب التى بعث بها النبى عليه الصلاة والسلام إلى الملوك ، والزعم بأنها وضعت فى صورتها الأولى بعد قرن من حياة النبى صلى الله عليه وسلم .

وإذا راجعنا كتابات الاستشراق لتاريخ الإسلام وجدنا من يحاول استغلال الثغرات الموجودة فى المراجع العربية القديمة — كما يقول الأستاذ محمود بسيونى — ليخرج منها استدلالات ، وتخريجات جديدة تتفق ، وهوى أصحابها ، وأن هذه الكتب ، وإن اصطنعت المنهج العلمى فى دراستها إلا أننا لا نستطيع أن نطمئن إلى ذلك كل الاطمئنان .

ولذلك تعتبر بعض المراجع الأوروبية فى التاريخ الإسلامى مراجع قاصرة

قصوراً بقدر قيمة هذا العنصر الهام من عناصر الدراسة التاريخية فالمستشرق حينما يحاول أن يكتب التاريخ الإسلامى ينظر دائماً من وجهة نظره الخاصة كأوربى . خذ مثلا لين بول فى كتابه مصر فى العصور الوسطى . فتجد حتى عنوان الكتاب يعبر بوضوح عن هذا القصور ، فالوضع الطبيعى أن يقول : مصر الإسلامية ، أو حتى العربية لأن تعبير القرون الوسطى قد اقترن فى أذهان الأوربيين ، خاصة بالتدهور ، والانحلال ، والانحطاط فى حين أن هذه الفترة التاريخية كانت فترة ازدهار للوطن الإسلامى ، والعربى بما فيه مصر . ومن ناحية أخرى نلمس بوضوح تعليلات لين بول الخاطئة للحوادث فهو كإنسان لا يؤمن بالإسلام ، لا يستطيع أن يضع أسباباً لحدث تاريخى عظيم ، مثل فتح المسلمين لمصر غير تلك الأسباب المادية التى تقفز إلى ذهن الأوربى إنسان العصر المادى ، ولا يستطيع تحليله القاصر إلى أن يصل إلى أغوار الحقيقة العميقة الجذور ، وإذا أخذنا ما كتبه (بودلى) على الرسول عليه الصلاة والسلام ، نجد نفس القصور مع تعمد أكثر للطعن .

وهكذا نجد أن التفسير الغربى للتاريخ ، عاجز عن فهم أبعاد التاريخ الإسلامى الذى يقوم على عنصرى المادة والروح معاً متكاملين ، وعلى عنصرى الشهادة والغيب مجتمعين .

أما التفسير المادى للتاريخ فإنه يعتبر أن تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام ، فهو لا يرى أن هناك قيماً أخرى كالدين ، والخلق ، والإيمان يمكن أن تكون دافعاً من دوافع حركة التاريخ ، ويتجاهل القوى المعنوية للأمم والشعوب .

والتاريخ الإسلامى لا يمكن فهمه أو تفسيره إلا على ضوء النظرة الإسلامية الجامعة المتكاملة للحياة الإنسانية ، وكل تفسير يقوم على غير هذا الأساس ضرب من الخطأ العلمى . ومع الأسف فإن بعض العرب يطبقون هذه المذاهب ليفسروا بها تاريخ أمتهم فيخطئون أشد الخطأ .

ذلك أن روح الفكر الإسلامى ، وحضارته ، وتاريخه تقوم أساساً على وحدة الكون وانسجام الطبيعة ، وذلك على أساس أن الإسلام هو النظام

الجامع المتكامل الوحيد الذى يحقق هذا الانسجام لأنه يجمع بين الروح ، والجسد فى نظام الدين ، والسماء والأرض فى نظام الكون . ويسلكهما فى طريق واحد هو الطريق إلى الله . وأن الإسلام والإسلام وحده هو الذى يجمع بين العلم والدين فى وحدة تامة غير متنافسة . ومن هنا فإن تطبيق منهج المستشرقين فى فهم التاريخ يحول بين الباحث المتطلع إلى الحقيقة ، وبين هذه الحقيقة . ويجعل نتائج البحث مضطربة غامضة . وقد تنبه إلى هذا المعنى كثير من كتاب الغرب .

يقول الدكتور تريتون : إذا صح القول أن التفسير المادى تمكن أن يكون صالحاً فى تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى ، وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها ، فإن هذا التفسير المادى يفشل فشلا ذريعاً ، حين يرغب فى أن يعلل وحدة العرب ، وغلبتهم على غيرهم ، وقيام حضارتهم ، واتساع رقعتهم ، وثبات أقدامهم ، فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا إلى العلم الصحيح لهذه الظاهرة الفردية : هذه الظاهرة هى الإسلام .

ويقول إليان وايد غراى : إن نظرة المسلمين إلى التاريخ نظرة بناءة فهم يرون أن البشرية إذا اعتنقت تعاليم الوحى (القرآن) ، فإن إرادتها حينئذ تتطابق مع إرادة الله .

ويقول وليفرد كانتول سميث : إن المسلم يحس بالتاريخ إحساساً جاداً ، فهو يؤمن بتحقيق ملكوت الله فى الأرض . فالمسلم يضحى بنفسه لأنه لا يريد أن تمر عجلة التاريخ الخاطئة ، وهو سامح لها بالمرور ، فهو يقف فى طريقها حتى تدوسه وتقتله .

ويكون ذلك أغلى قربان يتقدم به إلى الله فإن المسلم حين يضحى بنفسه ، فى سبيل أن هناك نظاماً إلهياً يراد أن يطبق فى واقع الأرض ، وهذا قائم فى حسه ، وهو يضحى حتى يدفع عجلة هذا النظام خطوة إلى الأمام .

• • •

الباب الثالث

خطط الإستشراق بين التحول والثبات

أولا : طريقة المستشرقين فى البحث .

ثانياً : مواجهة المستشرقين فى مؤتمراتهم .

ثالثاً : وقفة فى وجه الاستشراق .

رابعاً : دراسات المستشرقين .

خامساً : الاستشراق بغير جلده .

الفصل الأول

طريقة المستشرقين فى البحث

عندما بدأ الدكتور محمد حسين هيكل ترجمة كتاب حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) للمستشرق إميل درمنجم فى السياسة الأسبوعية عام ١٩٣٢ ، علق الدكتور حسين الهراوى على هذه الفصول ، فقال وكأنى بالأستاذ يعجب بما فى الكتاب ، وما يحويه من آراء تقرب مسافة الخلف بين الإسلام والنصرانية مع ما يفرضه من حسن النية فى المؤلف ، والعاطفة الدينية والأدبية فى الناقد إلا أننا رأينا القلمين يسيران فى ذلك الطريق الذى رسمه قديماً جماعة المستشرقين للبحث والاستقصاء فى حياة النبى (صلى الله عليه وسلم) العربى مما يجب أن نلفت إليه نظر الباحثين ، والكتاب إلى هذا العصر الذى طغت عليه أفكار جماعة المستشرقين حتى أخذنا نتتبع آثارهم فى كتاباتهم عن الشرق بصفة عامة ، والإسلام بصفة خاصة. إن حجر الأساس فى مباحث المستشرقين عن النبى الكريم . لا يخرج عما لخصه الأستاذ هيكل بقوله :

والواقع أنه منذ الساعة الأولى بل من قبل أن ينزل جبريل عليه السلام بالوحى كان محمد (صلى الله عليه وسلم) أشد ما يكون نفوراً من هذه الوثنية التى نشأ ونشأ أهله فى قريش فيها .

وأشد ما يكون ميلا لهذه المعانى الروحية التى يتحدث عنها النصارى ، واليهود ، والمنبثون من أهل الكتاب فى أنحاء شبه جزيرة العرب ممن كان يتصل بهم أثناء ذهابه إلى الشام ، وإلى اليمن فى القوافل قبل أن يقوم فى تجارة خديجة وبعد أن قام فيها وهذه المعانى المتوثبة فيه منذ صباها إلى الكمال هى التى دفعته إلى تحنثه فى كل عام بغار حراء شهراً أو أكثر من شهر ثم قوله : هذا الاتصال بأهل الكتاب ، وكتبهم هو الذى أدى بمحمد (صلى الله عليه وسلم) (كما قدمنا لينصح إلى الذين اتبعوه بعد أن أمضهم أذى قريش أن

يهاجروا إلى الحبشة المسيحية . فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد . فالذى تفهمه من ذلك أن تعاليم أهل الكتاب كانت قد لفتت نظر سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى الكمال الروحى ، والمثل الأعلى وجعلته يتحنث فى الغار . وهذه هى طريقة المستشرقين فى البحث . والنشر . ولذلك عبنا قديماً أن تناقش هذه المسألة . وبرهنا على أنهم يستنتجون من ذلك أن مصادر القرآن هى هذه الكتب التى استفاد منها النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) فى سياحاته . وضربنا مثلا بما يقول المدعو . مرجليوث فى كتبه من الهذيان . والتعصب الأعمى الممقوت .

وهل حقيقة كانت الهجرة إلى الحبشة لأنها مسيحية ، ولأن النجاشى العادل كان مصدر عدله المسيحية المجردة من التعصب لأن الصلة بين الإسلام والنصرانية جعلته يغيثهم . ويمنع جوارهم ، وهل حقيقة كانت الحبشة متمتعة بتلك المدنية . والحضارة التى وصفها لنا درمنجم . وزعم منها أنه عطف على المسلمين لتقواه وورعه ولما بين النصرانية والإسلام من صلة لا تتجاوز ما شبه النجاشى بخط برسمه على الأرض بعود فى يده . تاريخ الحبشة فى هذه الفترة غامض وأغمض تاريخ فى العالم فكيف إذن يمكن أن نجعل هذه الرواية أساساً لمسألة هامة كهذه . وكان لا بد لنا للرجوع إلى التاريخ الإسلامى نفسه . وتتبع آثار هؤلاء المهاجرين . وإذا فعلنا ذلك نجد (درمنجم) شأن المستشرقين ينشر هذه القصة بصفة مشوهة للحقيقة فلم يكن الدافع للنجاشى . ورعه . وتقواه ، ولم يكن سبب عطفه ورحمته ذلك الدافع الدينى الذى صوره لنا الكاتب بقوله : إن النجاشى قال بعد اقتناعه الدينى : (ليس بين دينكم وديننا أكثر من هذا الخط) . بعد أن أخذ عوداً وخط به على الأرض . بل الدافع الحقيقى هو أن هذا النجاشى كان عادلا وهذه الحالة هى التى ذكرها النبى (صلى الله عليه وسلم) فى حديثه لأصحابه قبل أن يهاجروا إلى الحبشة بقوله : لأن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق) ، ولم تكن هذه هى الهجرة الأولى بل كانت الثانية . وقد عاد من هاجروا أولا بالخبر اليقين فى بلاد الحبشة فماذا كان سبب عدل النجاشى . كان سببه على ما روته عائشة أم المؤمنين أن أباه كان ملكاً على قومه ، ولم يكن له ولد إلا هذا النجاشى ،

وكان للنجاشي عم له من صلبه له إثنا عشر رجلا فتآمر القوم على ولد النجاشي ، وقتلوه . وولد عمه ليوطد الملك له باثني عشر ولياً للعهد . وقام هذا العم ملكاً فباع النجاشي فى سوق النخاسة خوفاً منه لحزمه . وعزمه . وشاء ربك أن يصعق هذا العم بصاعقة من السحاب يوم باعه . وابتلى أولاده فلم يجدوا بينهم من يصلح للملك فأرجعوا هذا النجاشي ثانية . وولوه أمرهم فاشتهر بالعدل . والعطف على الضعيف . وحماية من استجارة . ومن هذا يتبين أن هذه الحادثة كانت مصدر عطف النجاشي . وعدله . ولم يكن للعاطفة الدينية أثر فى تصرفاته وإلا لجازت عليه حيلة عمرو إذ قال له : إن الإسلام يعتبر السيد المسيح عبداً .

وهناك نقطة ثانية هى تلك الآية الشريفة التى اقتبسها درمنجم من سورة يونس . وهى « **فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين** »فقد استدل بها درمنجم على أن الله تعالى رضى للناس الإسلام ديناً ، مع بقاء الأديان التى سبقت وحدة مندمجة فى هذا الكمال الروحى . اندماجاً أشار إليه القرآن فى قصص أصحاب هذه الأديان . وما جاء به من الحق من عند ربهم . وأشار إليه حين أراد أن يثبت محمداً (صلى الله عليه وسلم) فى أمر ما جاءه ،اعترف بأنى لم أفهم شيئاً من هذه الجملة ، ولكنى أنكر صراحة أن محمداً تختلجه أى شك فيما جاءه ، وأن يتثبت من صحته ممن يقرأون الكتاب قبله ، وأن هذا المعنى لأبعد ما يكون ما تخفى الصدور ، ومن أدبه ربه فأحسن تأديبه . وإذا صح ما زعمه درمنجم لانهدم صرح الإسلام ، والقرآن من أساسه ولذلك قال (صلى الله عليه وسلم) . (لا أشك ولا أسأل) .

إذن فالمقصود بهذه الآية ليس كما جاء على لسان درمنجم أن يستشهد الله على صدق ما أنزل بمن يقرأون الكتاب ، وأن يلجأ نبيه لاستشارتهم . بل المقصود على ما نرى أن أمثال هذه القصص وردت فى الأديان السالفة ، لا أكثر . ولا أقل وأن النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يكن متصلا بأهل الكتاب الآخرين لينقل عنهم .

على أن هناك نقطة أخرى لم تطرح على بساط البحث . وهى أن الدين الإسلامى بنصوص القرآن هو ملة إبراهيم عليه السلام . والكعبة هى البيت الذى بناه . ونذكره فى التحيات فى الصلاة فكيف إذن لم نبحث الصلة بين هذا الدين . وباقى الأديان . ولماذا لا يكون هذا الدين هو الوحدة التى يبحث عنها أولئك الذين يريدون إزالة الفوارق، والعداوات الدينية . وامتداد الحروب الصليبية من عهدها الأول إلى اليوم فى وسائل مقنعة من التبشير ، أو دور المستشفيات ، والمدارس ولماذا لا ندع الأديان جانباً . ونزيل هذه الاختلافات بالأخلاق . وحسن المعاملة التى هى الهدف الأكبر لجميع الأديان. إن فى التآخى والمحبة لألف سبيل غير العربدة فى البحوث الدينية التى تمس صميم العواطف . والنفوس . وتمحل الأعذار فى التقريب بين الأديان بفرض أن الصلة بين محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وأهل الكتاب هى التى هيأت له سبيل الكمال فى التفكير قبل البعث . وهذه مسألة ذات خطر يجب على من يذكرها أن يقيم الدليل عليها .

فنحن نعلم أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) كان سلبياً فى كل ما يختص بالأديان قبل بعثه ، ولم تبد منه بادرة تعرف بها تلك الصلة . وفوق ذلك فإن بعثه بعد أربعين حجة من عمره تنافى تماماً أن صلته بالأديان الأخرى هى التى هيأت له طريق الكمال الروحى . وإلا لكان فى نزق الشباب . واشتعال الصبا قد إتخذ التمذهب بتلك الأديان. وسيلة لإعلان ذلك الكمال والتفكير . على أننا لا ننكر أن تلك الصلة وجدت بأظهر معانيها بعد البعث. وبعد نزول القرآن فوجدنا فيها ما لا يعزز رأى درمنجم ، ولا كل المستشرقين الذين هم على شاكلته من حسن النية ، أو غير شاكلته ممن يستغلون العلم للماديات ، والطعن الجارح فى الإسلام وحسبك بالاختلاف البين فى رأى الإسلام ، والنصرانية عن السيد المسيح دليلا على ذلك :

وأبعد من ذلك فإن المدعو (مرجليوث) ، يدعى أن النبى (صلى الله عليه وسلم) كان يعرف القراءة والكتابة ويتخذ أية من القرآن دليلا على ذلك : « **اقرأ وربك الأكرم** » ، وهذا يدل على مبلغ الانعكاس النفسى ، والفكرى من أمثال هؤلاء المفكرين . وإذا أردت أن تعرف كيف كانت الصلة بين

محمد (صلى الله عليه وسلم) والأديان التى سبقته ، وأنها لم تحصل إلا بعد البعث فارجع إلى حديثه مع عدى بن حاتم الطائى ، وفكر فى تلك الروعة التى تملك عليك مشاعرك إذ تجد النبى (صلى الله عليه وسلم) يسير معه سواء بسواء ، ويدعوه إلى منزله ، ويجلسه على وسادة ، ويجلس الرسول (صلى الله عليه وسلم) على الأرض ، ثم يتحاوران .

ففى مثل هذه الحادثة نجد السماحة والمودة ، ولو أن تلك الحجج لم تأت إلا بعد الإسلام ، بما أنزله القرآن من تفصيل ، ونفى ، وإثبات فيما يختص بالأديان الأخرى ، ولو كانت الصلة قبل البعث لوجدنا روحاً أخرى تتشيع لأحد الأديان قبل الدعوة للإسلام نفسه .

والآن هل استفاد الشرق والإسلام من مباحث المستشرقين الذين أمعنوا فى البحث ، والتنقيب ، والنشر ، والدعاية .

فى رأيى — وعلم الله أنى لست ذا غرض — إننا خسرنا كثيراً ، ولم نستفد شيئاً ، ولو أن أمثال درمنجم وغيره ، وغيره يريد حقيقة الدفاع عن الإسلام ، والشرق ، لكانوا أول من يعلن الحرب القلمية ، والكتابية على أبناء جلدتهم من المبشرين الذين ضجت منهم السماء والأرض ؛ وكانوا أول من يهتكون ستر السياسة الاستعمارية التى تفرق بين الأديان تفريقاً يعلمه سكان البلاد الإسلامية عامة من أقصى الشرق لأقصى الغرب ، ولوجدنا لمسلمى روسيا من يدافع عن حريتهم ، وينقذهم من ذلك العذاب الذى يحيق بهم من كل جانب . أما ما خسره الشرق من نشر هذه المباحث فهو دخول أنواع التشكيك فى كل ناحية من نواحى التفكير الدينى ، والأدبى ، وطغيان تلك الأفكار على التفكير الشرقى مما جعله يعتمد على غيره فى أهم ما يختص بمباحثه ، وتاريخه ودينه ، ونحن نزعم أن الشرق قوى برجال الفكر ، والثقافة ، ولم يعد فى حاجة إلى الاسترشاد برأى المستشرقين فيما يختص بمناخه ، ودينه ، وتربأ بأنفسنا — وكرامتنا — أن نتعلم حياة نبينا من فم من لا يتبع دينه .

كنت أفهم أن يعنى الدكتور هيكل بذلك النقد الطويل العريض ، لو أن درمنجم أسلم ، واقتنع وسجل لنا أسباب اقتناعه ، وإسلامه البرىء .

إذن لكان فى كل كلمة من قوله عبرة ، وذكرى :

أما أن يكتب بمثل ما قدمنا فمبلغ الظن أنها صناعة قلمية ، ومعلومات تسجل لا أقل ، ولا أكثر ، لقد خسر الشرق فى تتبعه لآراء المستشرقين أن فقد كثير منا ثقته فى البحث ، والتعبير ليخرج لنا كتباً ، ومباحث مبتكرة فى التأليف القومى ، واللغوى ، والدينى ، ونحن أحوج ما نكون للشخصية المستقلة ، والتفكير الحر المستقى من مصادرنا المتعددة المكدسة فى المكاتب مما لم تمسها يد باحث حتى اليوم — ا . هـ (رحم الله الدكتور حسين الهراوى) .

* * *

الفصل الثانى

مواجهة المستشرقين فى مؤتمراتهم

منذ وقت بعيد . والمستشرقون يستغلون مؤتمراتهم لينفثوا سمومهم فى الهجوم على الفكر الإسلامى . واللغة العربية غير أن رجال حركة اليقظة كانوا لهم بالمرصاد . وهذه صورة تاريخية ننقلها هنا لنصور كيف كان هذا الموقف من الاستشراق قديما . وكيف كان الفكر الإسلامى قادراً على الردع . والدحض لتلك السموم .

فى ٢٠ إبريل عام ١٩٠٥ بمدينة الجزائر عقد مؤتمر المستشرقين . وكان البحث عن اللغات فى العالم الإسلامى . ووقف المسيو فولار فحصر بحثه فى التهجم على اللغة العربية . وقد نشرت جريدة الظاهر التى تصدر فى القاهرة محضراً عن اجتماع المؤتمر فى العدد المؤرخ ٦ مايو عام ١٩٠٥ . قالت : أن المسيو فولار حصر بحثه فى تفرقة اللغة العربية الفصحى عن اللغة الدارجة على ألسنة الناس بين متحضرى البلاد العربية . ثم استطرد إلى تمييز الفصيح من الأفصح . والمقابلة بينهما ورد الذى فسد من كلام العامة إلى أصل له من الكلام الأفصح . أو الفصيح . وفى كلامه خبط خبطة شاذة مؤلمة للمسلمين فى العالم كافة تؤذيهم فى إحساس نفوسهم . وعقيدة شرعهم وإجماع كلمتهم . أجل تهور هذا الأستاذ فقال فى أثناء كلامه :

أنه لا يرى أن لغة القرآن هى أفصح لغات العرب . أو اللغة العربية المحضة الناصعة التى تتخذ قاعدة من بين اللغات العربية . وإذا أردنا أن نطلب اللغة الأنصع فصاحة . والأرفع أصلا وتركيباً من بين اللغات العربية . وجب أن نرجع بالبحث إلى العصور التى سبقت ظهور الإسلام . وكان عهدها عهد السنة ٥٠٠ من بعد المسيح . فإننا نجد الكلام البليغ . والأسلوب الصحيح الفصيح الذى لم يكن سواه يعد عند العرب بليغاً فصيحاً .

وقال : إن القرآن مديح على طراز خاص من النثر متفاخر الآيات متفاصل ما بينها بمثابة للسجعات . وأن من قابل بين هذه السجعات التى تخللت كلام القرآن وقوافى المنظومات التى صيغت قبل ظهور الإسلام. وجد هذه أمكن فى اللفظ ، وأجزل ، وأعرق فى لغة العرب . ووجد تلك ضعيفة رخوة أقرب فى أغلبها إلى لهجة العامية ، منها إلى اللهجة الجذلة الفصحى .

وقد انبرى له من عارضة وخطأه ، واحتدم الجدل . وكان الأعضاء فى المؤتمر من المسلمين المصريين شاهدين . لم يكونوا على علم باللغة الفرنسية فلم يفهموا موضوع البحث ، ولا لحة مما قال فكفوا صامتين . وارفض عقد الجلسة . وقد استهين بالقرآن وأوذيت عقيدة الإسلام. فى الإيمان بأن القرآن كلام الله نجل عن أن يدانيه فى فصاحته وبلاغته . كلام بشر فضلا عن أن يماثله أو يفضله .

وفى الجلسة التالية تصدى له أحد العلماء (وهو الشيخ عبد العزيز جاويش) ، وقال أن هذا الزميل فولار قد أساء إلينا أعظم إساءة . ونحن هنا فى مجمع علم ، وأدب ، وأخلاق . بأى وجه يسوغ له انتهاك حرمة ديننا فيتلاعب المؤتمر بالقرآن الكريم . والحط من شأن لغته . بينما لا يخطر بخاطر أحد من المسلمين أن يتعرض لجدال فى التوراة . والإنجيل . أو غيرهما من الكتب المقدسة عند الأمم حفظاً للآداب . فكيف نرضى أن تضعوا قرآننا فى معرض البحث . والمناقشة . إن ما فعلتموه كشف عن التسفية لدينا . والتضليل لعقيدتنا . ونحن لا نسكت عن ذلك .

ومن أين لكم وأنتم الأغراب عن اللغة العربية أن تحكموا على الفاسد والفصيح . والأفصح منها فإن صحة الحكم فى اللغة تستوجب وجود ملكة راسخة فى الحس عريقة فى النفس ، وهذا مالا يؤتى بالكسب إلا بعد قضاء السنين الطوال فى مزاولة الدرس . وتتبع كل شعب من شعاب اللغة . ومخالطة أهله ، ونسبة كلامهم . ولهجتهم إلى عاداتهم ، وطباعهم ، والمقارنة بعد ذلك بين أهل الشعاب جميعاً فى الكلام ، واللهجات . وما وضعت له من أغراض ، وعادات فإذا تم ذلك لأجنبى عن اللغة أمكنه أن يميز الفصيح من اللغات . وأن يبدى رأياً وذلك يستحيل ، أو يصعب أشد الصعوبة ،

أن يتم خصوصاً فى اللغة العربية التى لا تحصى أجيالها . ولا تنال أماكنها إلا بارتياد طويل الشقة . وهذا أمر لا يتسنى إلا للأعراب . والعظماء . والبلغاء الذين محضوا اللغة العربية محض اللبن . وأن على العرب أن يعرفوا ما هو أفصح الكلام ، وأبلغه فى لغتهم . وقد عرفوا فأصبحت حكمة من عنوا باللغة . وكلامها ممن شهدوا الجاهلية والإسلام معاً ثم من حضروا الإسلام . وجاءوا بعده . إن كلام القرآن معجز لم يأت . ولن يأتى مثله أحد فى فصاحته . وبلاغته لفظاً . وتركيباً . وأزيد أن العرب فى أيام عربائها . ومستعربيها اعترفت لقريش أنها أعلى القبائل كعباً فى البيان . فلما نزل القرآن أدهشت قريش . وأخذ المعروفون بقوة العارضة منهم فى تحديه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . وأقرت نفوسهم على أن القرآن معجزة للبشر) .

وفولار هذا هو المعروف باسم فولرس الألمانى الذى كان يومها مديراً لدار الكتب المصرية . والمتحدث فى الرد عليه هو الشيخ عبد العزيز جاويش ، الذى كان يحضر المؤتمر مع الزعيم محمد فريد . والذى كان أستاذاً بجامعة كمبردج فى ذلك الوقت . وقد بهر جاويش السامعين بحديثه الذى وصفه محمد فريد ببلاغة العبارة وجزالة المعنى .

* * *

الفصل الثالث
وقفة في وجه الإستشراق

من المقطوع به أن الاستشراق من خلال هدفه ، ومهمته قدم للفكر الإسلامي العربي أشياء كثيرة نافعة لا يمكن إنكارها . ولا تجاهلها . وذلك في مجال إحياء التراث ، والتبويب . والفهرسة .

ولنا على ذلك تحفظان :

التحفظ الأول: أن التراث الإسلامي العربي سرق من البلاد بأساليب متعددة ويمكن الرجوع إليها فيما أشار إليه كثيرون . ومن بينهم دكتورة بنت الشاطئ في كتابها (تراثنا) . وبعض الأبحاث الأخرى .

وكان انتقال هذا التراث إلى أيدي دوائر الاستشراق واحداً من أخطر التحديات لأنه أصبح حجة علينا لا لنا . وأصبح إحياؤه يجري على النحو الذي يختاره الاستشراق لا وفق إرادتنا الخاصة . وكل ما حاولناه في السنوات السبعين أو الثمانين الأخيرة لا يعدو قطرة من بحر . هذا فضلا عن أن محاولاتنا كانت تطبعها طوابع ليست لها أبعاد التقدير الكامل . وإنما كانت تجري في مجال الإحياء للأدب . أو للشعر . أو لغيره مما هو ليس الأهم في التراث .

(١)

التحفظ الثاني : أن المستشرقين جروا على خطة إحياء أنواع معينة من هذا التراث ، في مقدمتها التصوف الفلسفي . وعلم الكلام . وأبحاث الاعتزال ، والباطنية . وكل هذا ليس لنا . ولكنه علينا . والمقصود به طرح خلافات سياسية قديمة أفسدت فكر المسلمين . ومزقتهم شيعاً في الماضي . ثم تلاشت بعد أن تغلب عليها المنهج الأصيل الذي أقامه المسلمون تحت اسم : مذهب أهل السنة . والجماعة .

(٢)

عنى المستشرقون بجوانب معينة من التراث . وأولوها اهتماماً كبيراً منها دراسات الحلاج التى عنى بها ماسنيون . ودراسات عن السهروردى . وبشار . وأبو نواس . وأخرى عن ألف ليلة . وكليلة ودمنة . وما يتصل بابن الراوندى . وإحياء الأغانى . وكل هذه الدراسات فيها شبهة طرح مفاهيم من شأنها أن تحطم مفهوم الإسلام الأصيل أو تزييفه .

(٣)

كان المستشرقون فى العصر الماضى يقفون من رجالنا موقف التلاميذ ، مثال : أحمد زكى باشا . وأحمد تيمور . وعبد العزيز جاويش . وليراجع الباحثون مناقشات عبد العزيز جاويش فى مؤتمر المستشرقين فى الجزائر عام ١٩٠٥ . رداً على أحد المستشرقين عن القرآن . واللغة العربية .

ثم تغيرت الخطط فأصبح مثقفونا فى جامعات أوربا تلاميذاً للمستشرقين فى دراساتهم . وجاء بعضهم إلى مصر من بعد فأعلى من شأن الاستشراق (راجع مقدمة طه حسين لكتابه عن الأدب الجاهلى) . ومن المعروف أن طه حسين . وزكى مبارك ، ومنصور فهمى ، ومحمود عزمى كانوا تلاميذ لمستشرقين يهود هم دوركايم ، وليفى بريل . والأخير هو الذى حرض منصور فهمى على معالجة موضوع تعدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم بأسلوب استشراقى .

(٤)

خطأ الرأى الذى يردده المستشرقون ، ويتابعهم فيه طه حسين . وزكى مبارك من أن العرب كانوا أمة لها حضارة كاملة ، ومجتمع منظم قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونزول الإسلام وأن دور الإسلام لم يزد على أن يقودهم إلى نهضة جاهزة . والواقع أن العرب لم يكونوا أمة ، ولا شيئاً مذكوراً إلا بالإسلام ، وشعرهم يشهد بأن كلمة العروبة لم ترد فيه إطلاقاً ، وإنما وردت كلمة القبيلة ، فالإسلام هو الذى جعل العرب أمة .

(٥)

الكتابة عن الاستشراق من وجهة نظر إسلامية . أو عربية يقتضي الاعتماد على مصادر أصيلة . وعلى الكتاب الموثوق بهم ، وفي مقدمتهم : مصطفى صادق الرافعي . رشيد رضا . محمد عبده . الدكتور محمد محمد حسين . محمد المبارك . دروزه . والدكتور حسين الهراوى . الدكتور محمد البهى . الدكتور عمر فروخ . عبد العزيز جاويش . حسن البنا . المودودى . الندوى .

ثم تأتى بعد ذلك كتابات المستشرقين عن الاستشراق لتكون موضع المناقشة . إما أن تكون كتابات المستشرقين هى المصدر لدراسة الاستشراق فذلك مما يتعارض مع المنهج العلمى .

فإذا جاء بعض الكتاب ممن تبعوا المستشرقين فشأنهم فى ذلك شأن المستشرقين أنفسهم . تؤخذ آراؤهم بحذر .

(٦)

الحملة التى شنها الاستشراق على الدولة العثمانية حملة ظالمة . وقد قامت أساساً منذ يومها الأول إلى اليوم لحساب الصهيونية العالمية . وجاءت على أثر الموقف الشريف الكريم التاريخى للسلطان عبد الحميد فى وجه (هرتزل) . ومطلب السماح لليهود بالإقامة فى فلسطين . (يراجع فى هذا بحث أحمد الشقيرى . وأحمد طربين عن القضية العربية) .

ولقد ظهرت فى السنوات الأخيرة . وثائق متعددة تكشف الكثير من هذه الحقائق . هذا ولا يمكن إصدار حكم تاريخى علمى على الدولة العثمانية كلها . ويجب مراعاة مرحلة القوة . ومرحلة الضعف . أما فى الفترة الأخيرة . فهناك أمران واضحان تمام الوضوح أمام الباحث : يحاول المستشرقون . وأتباعهم طمس حقيقتهما . ويدخلون الواحد منهم فى الآخر إدخالا غريباً وهما :

مرحلة السلطان عبد الحميد التى انتهت عام ١٩٠٩ . ومرحلة الاتحاديين التى بدأت فى نفس العام . وانتهت بنهاية الحرب العالمية الأولى .

المرحلة الأولى هي مرحلة المقاومة الصامدة برفع رايات الجامعة الإسلامية في وجه الاستعمار ، والصهيونية . والثانية مرحلة الصراع الدموى . وتسليم فلسطين لليهود . وقتل العرب ، والقضاء على الدولة بإدخالها فى الحرب العالمية . وتسليم طرابلس الغرب للإيطاليين .

(٧)

لا ريب أن الأدب العربي هو من صنيع الإسلام . فلم يكن للعرب قبل الإسلام أدب بالمعنى العلمى لهذه الكلمة إلا قصائد الشعر وسجع الكهان، أما الأدب العربى فقد أقامه القرآن . وإن كان قد انحرف من بعد على أيدى الشعوبية الفارسية .

(٨)

إن أى محاولة لتصور فلسفة الاستشراق . لا تعدو ما أورده الباحثون المنصفون من أنها محاولة الاستعمار الغربى لدراسة العقلية العربية الإسلامية ، والنفسية العربية الإسلامية بقصد الانتفاع بذلك فى التعامل معها . والسيطرة عليها . وتدمير مقوماتها التى أعطتها القدرة على التماسك والصمود .

(٩)

من الخطر الكبير فى مناهج العلم تصوير الحركة الاستشراقية بأنها حركة علمية بمفهوم البحث العلمى المنهجى القائم على الوصول إلى الحق .

فالاستشراق فى شطريه : عاملا مع الكنيسة . أو عاملا مع وزارات الاستعمار . لا يستطيع أن يخلص إلى الحق ، وإنما هو يؤدى دوره فى إثارة الشبهات . وتقديم الزاد الكافى لدراسات التبشير . ومعاهد الإرساليات لخلق تيار زائف مضلل .

وإذا كان الاستشراق (علم) كما يحاول البعض أن يقول فأين شرائط المنهج العلمى القائمة على البحث المتجرد . والإنصاف .

ومن الحق أن يقال : إن المستشرق إنما هو واحد من ثلاثة . إما متصل بالكنيسة ، أو بالاستعمار ، وفى كليهما لن يكون منصفاً فإذا كان غير

ذلك فإن هناك من كان عجزه عن فهم البلاغة العربية ، عائقا له عن تقصى الحقائق ، والوصول إليها .

ونحن نعرف كيف أن بعض المستشرقين فسر الآية القرآنية : « **وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه** » بقوله : إن كل إنسان يأتى يوم القيامة ، وفى رقبته حمامة ، وهناك عشرات من مثل هذه الأخطاء ، أوردها العقاد فى كتابه (ما يقال عن الإسلام) .

والعقلية الغربية التى ينبثق عنها الاستشراق لا تقبل بأى حال ظاهرة الإنصاف للعرب ، والمسلمين ، والقرآن ، ومحمد الإسلام ، وصدق أحدهم حين قال :

(إن كراهية العرب ، والإسلام إنما يرتضعها الأوربى مع لبان أمه) .

(١٠)

إن هناك محاولة لتقسيم الاستشراق إلى مرحلتين : مرحلة عقدية ، ومرحلة أخرى جديدة يطلق عليها اسم مرحلة علمية . أما العقدية فهى تلك المرحلة التى هاجم فيها المستشرقون الإسلام بعنف وضراوة .

أما المرحلة الجديدة فتوصف بأنها تتسم بالعلمية ، وهو وصف غير صحيح ، ولو أنها وصفت بأنها (سياسية) لكان ذلك أصح ، وأصدق (والمفكرون المسلمون يعرفون جميعاً أنه فى العقدين الأخيرين قد تراجع الاستشراق عن أسلوبه القديم المباشر ، واستعمل أسلوباً أشد مكراً وأسوأ سبيلا ، وهو محاولة الدخول فى الموضوعات من باب التقدير ، والمدح حتى يخدع القارئ ، ويكسب ثقته ، ثم لا يلبث بعد ذلك أن يثير شبهات خفيفة ، متتالية فى إطار هذا التقدير العام الكاذب) .

ولقد تنبه لهذا كثير من الباحثين المسلمين اليقظين وأشاروا إلى خطورته ، وحذروا من الانخداع له .

وغالباً ما يكون هذا الأسلوب بعد دخول الاستشراق اليهودى إلى ساحة الاستشراق : (برنارد لويس ، رودنسون ، م بيرجر) .

ولا ريب أن الاستشراق فى المجال العقدى يعمل على هدم الإسلام ،

والرسول صلى الله عليه وسلم . والقرآن . وفى المجال السياسى يعمل على هدم الأمة العربية . واللغة العربية والحضارة والتاريخ .

(١١)

لم يكن الإسلام غامضاً أمام الفكر الأوربى . بل كان معروفاً : وقد كشفت الحروب الصليبية لمن جاءوا إلى الشرق سماحة المسلمين والعرب . وعرفوا قدر الإسلام وعظمته . ولكن الذين عادوا إلى أوربا ، وتحدثوا عن ذلك جرت المحاولات لقتلهم . والتخلص منهم (راجع أبحاث الحروب الصليبية) .

(١٢)

إن أضخم صيحة كانت تصدر من الفكر الغربى هى صيحة (المنهج العلمى فى البحث) . وفى مختلف مجالات الدراسات التى اتصلت بالإسلام . والعرب كان هذا المنهج العلمى ممسوخاً ، وقائماً على الأحكام المسبقة مايئاً ، بالتعصب ، والحقد والكراهية مما يدل دلالة أكيدة على أن القيم فى الفكر الغربى هى قيم خاصة . ومحلية ولا تنطبق على الناس جميعاً .

فالمعروف أن المنهج العلمى التجريبى قد أنشأه المسلمون ، لكن الأوربيين نقلوه . وظلوا أكثر من ثلاثمائة عام ينكرون ذلك وفى نفس الوقت يهاجمون الإسلام الذى هداهم إلى هذا المنهج .

والمنهج العلمى فى المعرفة هو من نتاج الإسلام أيضاً قد كان الإسلام منصفاً مع الأديان السابقة له ، فقد ناقشها فى سماحة ، ولم تقم أحكامه على الهوى أو الرأى المسبق ، وشهادة هاملتون جب للمسلمين فى هذا معروفة .

أما الأوربيون فيما نرى من كتابات المستشرقين عن الإسلام . والعرب فإننا نرى أنهم تجاوزوا الحق إلى التعصب ، والكراهية ، والحقد ، وعدم الإنصاف .

(١٣)

هناك رأى بأن الاستشراق قد يستطيع أن يتحرر مع الزمن .

وكيف يمكن للاستشراق أن يتحرر من أيدلوجيات الغرب ، وهو وليدها ، ومن صنعها ، وخادمها ، والمرتبط بها ارتباطاً جذرياً ، وعضوياً ، وليس عنده باب واحد مفتوح إلى الحق ، أو الإنصاف ، أو النظرة العلمية الصحيحة ، يستطيع أن ينفذ منه .

(١٤)

حاول الاستشراق أن يهدى الغرب إلى فهم النفسية العربية الإسلامية والعقلية العربية الإسلامية ، ولكنه عجز حقيقة عن فهم هذه العقلية ، وهذه النفسية ، فقد تغلبت أهواءه ، وأراءه المسبقة ، وبذلك فشل الاستعمار نفسه فى التعامل مع العرب ، والمسلمين .

أما رحلات الاستشراق إلى الشرق فقد كانت سريعة خاطفة ، وكانت تحمل معها شعور الاستعلاء ، [illegible] (نموذج ذلك فى هانوتو ، وغيره) .

(١٥)

لا ريب أن بحوث جولد زيهر وسنوك هروجنيه ، ويوسف شاخت فى الشريعة الإسلامية ليست علمية ، وهى تقوم على أساس فكر مسبق ، وهدف واحد يرمى إلى انتقاص أصالة الشريعة الإسلامية ، والغض عن استقلاليتها . وقد عارض آراء هؤلاء كثيرون منهم : العلامة (محمد الغزالى والشيخ أبو زهرة) .

(١٦)

لا ريب أن أصدق مفهوم للاستشراق هو أنه (العلم فى خدمة السياسة والاستعمار) . وهدفه هو إذابة الشخصية الإسلامية ، وتغيير ما بنفس المسلمين من إيمان بالإسلام ، ومثله ، ومن تعلق بنظمه ، ولغته ، وحضارته تغييراً يسلم إلى التنكر لهذا كله ، ويقطع الصلة .

ولا ريب أن كل الشكوك ، والشبهات المتداولة الآن ، والتى يستغلها التغريب ، والغزو الثقافى ، والتبشير إنما هى من صنع الاستشراق .

وهناك تجربة زائدة فى هذا المجال قام بها الدكتور مصطفى السباعى الذى التقى بأغلب المستشرقين الإحياء فى مختلف جامعات أوربا .

وقد أورد هذه التجربة فى كتابه عن السنة :

وفى كتابنا الإسلام ، والثقافة العربية عرض واسع لحركتى التبشير ، والاستشراق ، ودراسة مفصلة عن أبرز المستشرقين : مرجليوث ، لامنس ، لويس شيخو ، لويس برّان ، فنسنك ، جولدسيهر . . . إلخ . وعرض لمختلف القضايا التى أثارها الاستشراق فى مجال الإسلام ، والفكر العربى الإسلامى ، وليرجع إليه من يشاء .

* * *

الفصل الرابع

دراسات المستشرقين

تناول المستشرقون جوانب كثيرة من الفكر الإسلامى بالدراسة . ولا ريب كان التراث الإسلامى هو أبرز ما تناولوه . وعالجوه بالبحث . والتقصى من دراسات الفكر الإسلامى المتعددة . ونحن نقدر لهم فضلهم فى تبويب التراث . وإعداده . وفهرسته . وتحليله . ولكننا حين نتقصى وجهة نظرهم فى كثير من القضايا فهى غالباً ما تكون خاضعة لأحد أمور ثلاثة : إما محاولة فهم الإسلام على أنه دين لاهوتى خالص كالمسيحية . بينما الإسلام دين . ومنهج حياة . وإما أنهم تأثروا بوجهة نظر السياسية الاستعمارية فخضعوا لها . وإما أن أدواتهم البيانية . والفكرية قصرت عن فهم طبيعة الإسلام . والفكر الإسلامى الجامعة التى تربط بين الثابت . والمتغير . والروحى . والمادى . والدنيوى . والأخروى . وأغلب ما تجىء أخطاؤهم فى فهم الوحى . والنبوة . وعدم القدرة على التفرقة بين الألوهية . والنبوة . ولذلك فإن أغلبهم ينسبون القرآن الكريم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم . ويعتبر بعضهم الرسول صلى الله عليه وسلم مصلحاً اجتماعياً .

غير أن موقف الاستشراق من التراث الإسلامى ليس موقفاً سليماً من ناحية الحرص الواضح لدى المستشرقين على الاهتمام بالجوانب الضعيفة . والمضطربة من هذا التراث . وخاصة جوانب الصراع . وجوانب الخلاف بين الفرق والاهتمام بالنصوص الفلسفية . ومحاولة إبراز الأثر الأجنبى فى الفكر الإسلامى نتيجة الاتصال بالفكر اليونانى . والتهويل فى هذا الاتصال إلى حد القول بأنه أهم معطيات الفكر الإسلامى . لقد تشكل الفكر الإسلامى أساساً قبل الاتصال بالفكر اليونانى . أو الفارسى . أو الهندى . وأن العلماء المسلمين حالوا دون سيطرة هذه المترجمات على جوهر الفكر الإسلامى ،

وردوها وجردوا معطيات الإسلام منها . ولم تكن تلك الجوانب التي هي موضع اهتمامهم إلا محاولات لاحتواء الفكر الإسلامي .

ولكنها لم تنجح . ولم يلبث الفكر الإسلامي أن استعاد أصالته حين تشكل مذهب الجماعة . واستصفى كل ما كان وافداً . وأساغ الصالح منه . وتخلص من كل ما يتعارض مع مفهوم التوحيد الخالص .

لقد أولى الاستشراق اهتمامه البالغ للتصوف . والفلسفة . وعلم الكلام . والاعتزال . والباطنية . وكل هذه جزئيات من صورة لم تكتمل . ولا يجوز لها أن تنفصل عن الصورة العامة الكلية للفكر . وقد علت في مرحلتين من مراحل تاريخ الفكر الإسلامي نزعة الاعتزال ثم نزعة التصوف الفلسفي . ولكنهما لم يلبثا أن سقطا صريعين . وثبت تعارضهما مع جوهر الفكر الإسلامي . الجامع الأصيل الذي لم يقبل استعلاء النزعة العقلانية التي جاء بها الاعتزال أو النزعة الإشراقية الحدسية التي جاء بها التصوف الفلسفي . وكل المحاولات التي يثيرها الاستشراق الآن لإعادة بعث هذا الركام . وإحيائه إنما تمثل هدفاً ماكراً من أهداف الاستشراق من ورائه حركة التغريب . والغزو الفكري التي تحاول تزييف حقيقة الفكر الإسلامي . وجوهره الأصيل.

وفي مجال التراث نجد عناية كبرى (بالحلاج) الذي وقف المستشرق (لويس ماسنيون) حياته على جمع آثاره . وبالسهروردي . وبشار . وأبي نواس وكلها شخصيات موصومة مضطربة لم تكن بالنماذج الكريمة . أو العالية في التراث الإسلامي . بل أن الاستشراق أولى اهتماماً كبيراً بشخصيات هاجمت الإسلام . وخاصمت رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ كابن الراوندي . ومسيلمة الكذاب . وقدم عنها ؛ وعن غيرها دراسات واسعة نشرت باللغة العربية . وأن أي مراجعة لدائرة المعارف الإسلامية لتكشف عن هذا الاتجاه الرامي إلى إدخال شبهات الإسلام كمادة أساسية فيه ؛ ونجد هذه المحاولات واضحة في جميع فروع التراث : القراءات . وكتابه القرآن . وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم . وفي مجال التاريخ . والشريعة الإسلامية . وفي مجال اللغة والأدب .

ويبدو أن جماعة المستشرقين فتشوا كتب التراث الإسلامى القديمة بغية اقتناص الروايات المضطربة ، والناقصة ، والمحرفة ، واستغلوها لإثبات وجهة نظر مسبقة ، واستعانوا بكتب الأدب ، والروايات ، والأشعار ، وألف ليلة ، وغيرها لتكون مصادر لأسانيدهم ، بينما هذه الكتب لم تكن فى الأساس مصادر علمية للفقه أو التاريخ : « يحرفون الكلم عن مواضعه » . وليست دائرة المعارف الإسلامية وحدها هى التى توصف بالانحراف ، بل إننا نواجه ذلك فى قاموس (المنجد) الذى نجده موضوعاً الآن فى أيدى جميع الباحثين العرب ، وهذه شهادة عالم له صلة بدوائر الاستشراق ، هو الدكتور مصطفى جواد يقول : إن أغلاط المنجد لا يمكن لأحد أن يستقصيها ، وقد نبه على ثلاثمائة ، وأربعة وعشرين منها ، وأغلب أخطاء المنجد هى محاولة تفسير المصطلحات اللاهوتية الخاصة تفسيراً عربياً عاماً .

ولربما كانت الأحداث ، لا النصوص أكثر أهمية فى الكشف عن الأهداف ، ألف أبو زيد وثيمة بن موسى بن الفرات المتوفى عام ٢٣٧ هجرية ، وهو فارسى الأصل كتاباً اسمه كتاب (الردة) ، وقد ضاع هذا الكتاب ، وبقيت منه قطع قصار ذكرها ابن حجر فى كتابه (الإصابة) ، فإذا المستشرق الألمانى دكتور (ولهلم هو نرباخ) من جامعة بون يستل هذه القطع من كتاب (الإصابة) ، وقد فصلها ، وضبطها ، وشرحها ، وأقامها كتاباً تحت اسم كتاب (الردة) الضائع أى شيطان هذا !

وتشمل هذه القطع على تراجم الأشخاص الذين ارتدوا عن الإسلام ، أو دافعوا عنه أيام الردة ، وقد رتبها المحقق على القبائل فبدأ بأسد ، وغطفان ، وفزارة ثم انتقل إلى طيء ، ثم هوزان ، وعامر بن صعصعة ، ثم سليم ، ثم عبس ، ثم تميم ، ثم حنيفة ، ثم ربيعة ، وهكذا سلخ هذه القصاصات ، والشطائر من كتاب (الإصابة) ووضع مقدمة لها ، وأمضى فى تحقيق النصوص سبع سنوات كاملة ، فأى هدف للاستشراق فى هذا العمل إلا التزوير والحقد .

ولقد يقال : إن الاستشراق فى السنوات الأخيرة قد خفف من حدته ، وأدخل أساليب العلم ، وتحرر من الأهواء ، ولكن الواقع المشاهد غير

ذلك ، والدكتور أحمد السمان عميد كلية الحقوق بدمشق ، وقد اشترك فى مؤتمر المستشرقين عام ١٩٦٠ يقول :

(بدأ المستشرقون يلقون محاضراتهم . وكانوا كمن يلقى البارود فى النار ، والحق أنهم لم يخرجوا عن سمت علماء الاستشراق من الأجانب فأهدافهم يوم أن سلكوا طريق هذا العلم أن يجدوا مواضع التشكيك . وأن يخلقوا أساطير تذهب مذهب الحقائق العلمية لينالوا من الفكر الإسلامى ، وكانوا يلقون من العالم أسماعاً مصغية علمها الجبن السكوت ، والجهل بالاستسلام وقد فوجئوا بجيل جديد تعلم علومهم وقرأ مصادرهم ، وتفوق عليهم بتفهمه روح العربية وبتجرده من النزعات المهدمة للعلم . وكان يمثل البلاد صفوة من الشباب المسلم المتخرج فى كبرى جامعات العالم . وكان الصدام عنيفاً . وكانت الغلبة للحق) .

ويذكر الدكتور السمان نماذج من عناوين البحوث :

١ – أيتكهاوزن (جامعة ماتشجان) أنه لا يوجد فن إسلامى .

٢ – بوسان (جامعة نابلى) أن الشعر الإسلامى شعر فجور وفسق .

٣ – جرويتباوم تحدث عن ما أسماه المفارقات التى تفصل بين المسلمين .. وقال : إن ما يفرقهم أكثر مما يجمعهم .

ويقول الدكتور عبد الكريم زيان :

(من سلم منهم من الهوى ، وسوء النية أوقعه جهله بمعانى الإسلام . بأباطيل وافتراءات . والقليل منهم جداً من سلمت كتاباته من الهوى . وأقل القليل من سلمت كتاباته من سوء النية . والجهل . ويجب عدم اتخاذ كتاباتهم مصدراً للمعرفة الإسلامية) .

ونحن مستعرضون هنا على وجه السرعة تلك المحاولات ممثلة فى أبرز القائمين بها :

(١) مرجليوث : الإسلام

أشار الأستاذ خوجة كمال الدين فى كتابه المثل الأعلى فى الأنبياء إلى أسلوب الاستشراق . فيقول : إليك بيان الطريقة التى دأبوا عليها فى نقد

الديانات الأخرى . يشير أحدهم إلى فكرة ما من طرف خفى ، ويليه آخر فيقرر أن هذه الفكرة جائزة ، ويأتى ثالث فيرفع هذا الحوار إلى مرحلة النظرية . أما الرابع فيخلق من النظرية حقيقة . وهكذا تتطور الفكرة : أربعة أطوار ، أو خمسة إلى أن ينتهى بها المطاف إلى أن تصبح حقيقة مقررة ، وخاصة إذا كان الأمر يمس أحد الديانات . أو المدنيات التى يتوفرون على نقدها . وللأستاذ مرجليوث جولات خاصة فى هذا الميدان .

وإليك المثل : (جاء الدكتور « فيجانا » فقدم قصة فحواها أنه عثر على ترجمة سريانية للقرآن الكريم سقط منا بعض أجزائها ، يريد بذلك أن يوهم القارئ أنه ربما ضاع شيء من القرآن ، وكان « فيجانا » هذا قد حاول قبل ذلك أن يشكك فى صحة القرآن فباء بالفشل الذريع ، فجاء مرجليوث فالتقط الخيط فأشار إلى أن « فيجانا » عثر على نسخ سريانية عريقة فى القدم . وأشار إلى وجود خلافات ذات بال فى المخطوطات القديمة ، وهذه العريقة فى القدم التى أشار إليها مرجليوث لم يمر عليها إلا أقل من عام ، ولكنه يحاول أن يضع فى يد الخصم سلاحاً يحارب به القرآن ، هل يليق بمرجليوث أن يستعمل عبارة (عريقة فى القدم) ، مع أن فيجانا نفسه لم يقل ذلك بل يرى خلاف هذا الرأى) .

ومرجليوث هو أول من أثار الشك فى الشعر الجاهلى . وقد أشار فى بحثه (الذى نقله طه حسين دون أن يشير إليه فى كتابه الشعر الجاهلى) ، إلى أن الذى يقرأ هذا اليوم على أنه شعر جاهلى إنما نظم فى العصور الإسلامية ثم نحله هؤلاء الواضعون المزيفون لشعراء جاهلين — يقول الدكتور ناصر الدين الأسد الذى ناقش ذلك فى كتابه (مصادر الشعر الجاهلى) : إن الدكتور طه استقى أكبر مادة لبحثه من مرجليوث .

ولمرجليوث آراء خصيمة للإسلام ، والنبى صلى الله عليه وسلم أوردها فى كتابه محمد وظهور الإسلام عرضنا لها فى كتابنا (الإسلام والثقافة العربية) ، وكلها تدور حول شبهات النقل من اليهود والنصارى ، والتفسيرات الباطلة للنصوص وفق مفهومه اليهودى البالغ الكره للإسلام .

(٢) جولد سيهر : الشريعة الإسلامية

تخصص هذا المستشرق اليهودى فى إثارة الشبهات حول السنة ، والفقه ، والشريعة الإسلامية ، وفى قيمة الأحاديث النبوية ، وذلك بقوله : بأن السنة يدأ تدوينها بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بتسعين عاماً ، وفى قوله فى كتابه (العقيدة والشريعة) : إن التوحيد الإسلامى ينطوى على غموض ، ومن ذلك قوله : إن الشريعة الإسلامية تأثرت بالقانون الرومانى فى بداية تكوينها . وقد فحص آراوه كثير من الباحثين فى مقدم[illegible] السباعى ، ومحمد الغزالى ، وسليمان الندوى والدكتوره بنت الشاطئ [illegible] فيحاول فى مجمل رأيه أن يصور الفقه الإسلامى ، وكأنه [illegible] التابعين ، وقد كشف الباحثون عن أن جولد سيهر كان مدفوعاً [illegible]اباته بغرض سياسى خاص ، هو إظهار أن التشريع الإسلامى قابلة للمؤثرات الغربية .

ولقد صودرت لجولد سيهر مغالطات ، وانحرافات كثيرة أراد بها المغالطة فى الحقائق الأساسية ، ومنها أنه حرف قول الإمام الزهرى : (إن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة الأحاديث) إلى لفظ (أحاديث) ، وذلك لفتح الباب أمام شبهة كبيرة كذلك فإنه اتهم الزهرى بأنه واضع حديث فضل المسجد الأقصى إرضاء لعبد الله بن مروان مع أن الزهرى لم يلق عبد الملك إلا بعد سبع سنوات من مقتل ابن الزبير .

وقد كشف محمد أسد (ليوبولد فايس) السر فى محاربة السنة ، فقال : إن الهدف هو إسقاطها حتى يفقد المسلمون الصورة التطبيقية الحقيقية لحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، وبذلك يفقد الإسلام أكبر عناصر قوته ، ويقول : لكى يستطيع نقدة الحديث المزيفون أن يبرزوا قصورهم فإنهم يحاولون أن يزيلوا ضرورة اتباع السنة ، لأنهم إذا فعلوا ذلك كان بإمكانهم حينئذ أن يتناولوا تعاليم القرآن الكريم ، كما يشاءون على أوجه من التفكير السطحى أى حسب ميول كل واحد منهم ، وبطريقة تفكيره هو ، وبذلك تنتهى تلك المنزلة الممتازة التى للإسلام على أنه نظام خلقى ، وعملى ، ونظام شخصى ، واجتماعى إلى التهافت ، والاندثار .

ويعد هنري لامنس من أشد المستشرقين تعصباً على الفكر الإسلامي ، وقد بالغ في التعصب على الإسلام حتى أعلن البعض التشكك في أمانته العلمية ، وقالوا : أنه لا ينسى عواطفه فيما يكتب عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، والإسلام . وأنه كان داعية ، ولم يكن عالماً ، وقد عرف بتهكمه على النصوص العربية كما وصف بإرهاقه للنصوص ، وتحميلها أكثر مما تحتمل . فإذا وجد في الإسلام موضعاً للفضل ذهب بنسبته إلى مصدر غير إسلامي . وقد تعصب لامنس للأمويين ، ومصدر إعجابه بهم أن دولتهم كانت في تفسيره لا دينية ، ولأنهم أقاموا ملكهم في الشام ، وتأثروا بالمدنية القديمة التي قامت في ربوعه .

يقول دكتور زكي محمد حسن : إنه كان خصماً عنيداً للمسلمين عامة ، وللعلويين وللعباسيين خاصة ، وأنه كان يسلب العرب الفضائل ، والصفات الخلقية الجميلة . وأنه كان في خصومته يعتمد على السفسطة ، والمغالطة . وقد كتب لامنس عن الإسلام ، وعن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعن بنات النبي (صلى الله عليه وسلم) .

وهو في كل هذه الكتب يتهم رواة السيرة بأنهم مخترعون . ولكنه لا يحجم عن الاعتماد على رواية من رواياتهم ، إذا استطاع أن يلمح فيها مطعناً على الإسلام ، وهو حين يروي رواية أو حديثاً فيه مصلحة الشيعة اتهمهم بوضعه ، حين يرى رواية تعلي من شأن السنيين ألصقها بكتابهم ، حتى أنك لتراه يضرب كل فريق بالآخر ليقنعك باضطراب كل هذه العناصر التي قامت عليها السيرة ، وليخرج عليك هنا ، وهناك بآرائه المغرضة . وهو حين يتكلم عن السيدة عائشة رضي الله عنها لا يجد في مفردات اللغة الفرنسية إلا كلمة تشبه كلمة (محظية) في اللغة العربية ، وللمستشرق لامنس تلك الفرية الضخمة التي دحضها كثير من الكتاب المسلمين ، وهي نظرية تشكيل الحكومة الإسلامية التي قامت يوم (السقيفة) ، واستمرت طوال عهد الشيخين أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما) . فهو يرى أن تلك الحكومة كانت حكومة ثلاثية على النظام المعروف في التاريخ الروماني ، وهو يتهم الصحابة الثلاثة أبا بكر ، وعمر ، وأبا عبيدة رضي الله عنهما بأنهم تآمروا على احتكار الحكم

بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) . وأن المؤامرة قد نجحت إلى حد بعيد .
وقد بين الأستاذ عبد الحميد العبادى فساد هذه الفرية الكاذبة .

(٤) جب : الأدب العربى

فى كتابه عن الأدب العربى الصادر فى سنة ١٩٦٣ . يعتبر القرآن من كلام محمد (صلى الله عليه وسلم) وهذه ظاهرة يشترك فيها بروكلمان . ونيكلسون وغيرهما فالمستشرقون يعارضون المفهوم الإسلامى القائم على النبوة . والوحى . وهو يطلق على العصر الجاهلى اسماً غريباً فيسميه (العصر البطولى) . وقد رفض المستشرق مصطلح (العصر الجاهلى) . وعصر ما قبل الإسلام . وكذلك فعل نيكلسون فى كتابة التاريخ الأدبى للعرب . ويصر المستشرقون على وصف عصر الجاهلية بأنه عصر استنارة . وأنه تمهيد للرسالة الإسلامية . ويثيرون الشبهات حول اللغة العربية فهى عندهم لغتان لا لغة واحدة : شمالية وجنوبية . وقد تابعهم فى ذلك الدكتور طه حسين . ويسمى عصر الإسلام الذى هو تحول خطير فى التاريخ العربى بعبارة عصر التوسع . ارتباطاً بفكرته عن عصر بطولة الجاهلية .

كذلك فإن جب يأخذ بالشبهة ويرى النثر الفنى العربى فارسى الأصل . وينسى بلاغة عمر . وعلى . وعبد الله بن عباس . وغيرهم . ويشيد (جب) بالثقافة اليونانية . ويحاول أن يضيف إليها كل ما فى الأدب العربى من تقدم . ويرد إلى الثقافات الفارسية . واليونانية كل أمور النحو . والبلاغة العربية . مع أن النحو والبلاغة . وغيرهما من هذه الفنون قد تم تشكلها قبل الاتصال بالفكر اليونانى . وقبل عصر الترجمة . أما الفلسفة فإن (جب) يعتبر الفلسفة العربية فلسفة يونانية المصدر . ويقول إن الذين رفعوا لواء الفكر والفن فى العصر العباسى هم من أصل أعجمى . أو نصف أعجمى ناسياً أن القرآن الكريم هو الذى شكل عقليات المسلمين جميعاً . من العرب والترك والفرس .

ويقف وقفة اهتمام إزاء أبى نواس . وبشار . والمستشرقون يبعثون تراثهما ويعيدونهما إلى الحياة حتى تفشو عباراتهما الإباحية . والهجائية فى العصر الحديث وكذلك يولى الاهتمام بالحلاج فى مجال التصوف . أما المعتزلة فهو يوليهم اهتماماً كبيراً . ويشرح فكرهم شرحاً مستفيضاً . ويعتبرهم من أتباع الفكر اليونانى

ومن كثرة ما أعطى من الفكر الغربى للإسلام . كذلك أولى (جب) اهتمامه بانتصار البويهيين . وقال أنه نتيجة الحميرة الهلينية . وكذلك الاهتمام بالموشحات والسجع . والمقامات . وقد ناقشنا هذه القضايا كلها بتوسع فى كتابنا (خصائص الأدب العربى) فليرجع إليه من يشاء .

(٥) نيكلسون : اللغة

من أبرز أخطاء المستشرقين عجزهم عن فهم النص . والبيان العربى . وقد أشارت الدكتورة بنت الشاطىء إلى عجز (نيكلسون) عن فهم الغفران لأبى العلاء وقالت أن فهمه للنص فيه أخطاء كثيرة . بعضها هين يمكن التجاوز عنه . أما والكثرة الباقية فتعرض صوراً غريبة لفهم هذا المستشرق للنصوص العربية .

يقول : فى الغفران ما نصه (وحدث أنه كان إذا سئل عن حقيقة هذا القلب أول هو من النبوة أى المرتفع من الأرض) . وغاب عن نيكلسون أن الحديث هنا عن المتنبى . ولقبه فعجز عن فهم هذا الاشتقاق .

ونظراً لالتباس الأمر عليه فقد أوهم أن الحديث عن شخص آخر هو (القطر بلى) فليس بينه . وبين النبوة صلة ما . وتقول : إن هناك أخطاء كانت فى الأصل العربى صحيحة فغيرها نيكلسون بأخرى غير مفهومة ، ولا صحيحة . وأخرى لم تنشأ من صعوبة العبارة فى الغفران أو تحريفات النص . وإنما نشأت عن عدم فهم الأسلوب العربى . وعدم الانتماء إلى الأشخاص الذى يتحدث عنهم أبو العلاء . وبعد أن أوردت الدكتورة بنت الشاطىء عديداً من أخطائه . (يستطيع القارىء أن يجدها فى مقدمة كتابها عن الغفران)

قالت : أقصد أن أنبه قومى إلى واجبهم فى حمل هذه الأمانة – أى أمانة تحقيق التراث – بعد أن أدعو علماء العربية إلى نشر تراث لهم هم أولى به ، وأقدر على فهمه .

(٦) ماسنيون : التصوف

اهتم لويس ماسنيوم بأمرين : الدعوة إلى العامية . والكتابة بالحروف اللاتينية . وقد أذاع دعوته هذه فى كل مكان ذهب إليه . وقد ووجهت بالرفض والمعارضة .

أما اهتمامه الأكبر فكان بالترويج للتصوف الفلسفي ، وللآراء المناهضة للتوحيد الإسلامي كوحدة الوجود ، والحلول ، وقد ركز على الحلاج أكثر من ثلاثين عاماً حيث جمع كل ما يتعلق بأخباره ، وآرائه ، وأذاعها من جديد . وللاستشراق اهتمام واضح بجوانب معينة من التصوف ، هي كل ما يتصل بمعارضة فكرة التوحيد ، وخاصة الحلول ، والاتحاد ، وهي الأفكار المستمدة من الأصول المسيحية ، واليونانية ، ولذلك يولى الاستشراق اهتمامه بالحلاج ، وابن عربي والسهروردي ، وابن سبعين وغيرهم .

(٧) شاخت : الشريعة الإسلامية

تابع شاخت أستاذه (جولد سيهر) في الحملة على الشريعة الإسلامية ، وكانت دعوته أن الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بالأسرة والوراثة مستمدة من النظام القبلي الجاهلي . وقد رد على آرائه المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة ، وكان مما قاله : هل قرر الإسلام ما قرره البدو والرومان من ثبوت النسب ، هل أقر الإسلام نظام التبني الذي كان معمولا به عند العرب ، والرومان هل نظام الولاية على النفس والمال كما كان عند الرومان والإسلام قد اعتبر الولد حراً في التصرف في نفسه ، وماله بمجرد البلوغ الطبيعي ، والرومان كانوا يعتبرون ولاية أبيه قائمة ، ولو بلغ الستين حتى يمنحه الأب حق التصرف هل نظام الميراث كما قرره الإسلام سبق به أي شرع من الشرائع ، وفي العقوبة : هل كان الفرد يقتل بالفرد وأن النفس بالنفس ، ولا عبرة بمقدار ما كان عليه المقتول من جاه ، أو منزلة عند الناس فإن النفوس متساوية بحكم القرآن ، وأقوال محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وليست متساوية بحكم القبائل العربية ، فزعيم القبيلة يقتل به ألوف ، وهل كان في نظام القبيلة أن يقتل الحر بالعبد ، وهل كان في حكم القبيلة أن السارق تقطع يده . . . إلخ . .

وكراهية المستشرقين للشريعة الإسلامية واضحة : كوفين ، رينان ، كلامون جانو ، جولد سيهر ، مرجليوث ، لامانس ، وقد حاولوا إيهام المسلمين بأنها سبب تأخرهم ، وعائق في سبيل تقدمهم ، ونهوضهم ، وآثاروا الشبهات حول نصوصها المحكمة .

واليوم نجد تصريحات جديدة تقول بنهاية الاستشراق ، فقد أعلن مؤتمر الاستشراق التاسع والعشرين ، الذى عقد فى العام الماضى أنه تقرر أن يطلق على مؤتمر الاستشراق القادم (مؤتمر العلوم الإنسانية) ، وبذلك اختتمت جولة ضخمة بدأت بعد احتلال الجزائر عام ٨٣ ، وامتدت على مدى مائة وخمسين عاماً ، وقد وصفت جريدة الموند الفرنسية هذا التحول بأنه موت الاستشراق ، وكان جاك بيرك قد أدلى بتصريحات خلال العام الماضى عبر فيها عن ما سماه (انتهاء زمن الاستشراق) ، ومن المصادفات العجيبة أنه خلال العام الماضى نوقشت فى جامعة الأزهر رسالة ضخمة عن حركة الاستشراق للدكتور أحمد إسماعيل أزوفتش ، وقد عقدت مؤتمرات استشراقية كثيرة فى الأعوام الأخيرة ، تناولت الأدب العربى ، والمصطلحات العامة كما أعلنت إسرائيل تكريمها للمستشرق (برنارد لويس) الذى هاجم البلاد العربية ، ووصفها بالعنصرية ، وحيث يوحد اليوم جناح ضخم من الاستشراق الصهيونى قوامه ردنسون ، وبرنارد لويس ، وهو يركز كل اهتمامه بقضايا فلسطين ، وإبراهيم ، وإسماعيل عليهما السلام ، والقدس ، واليهود ، وهكذا .

ومن آثار هذا الاستشراق تلك الدعوى التى أثارها الدكتور طه حسين حول إنكار إبراهيم ، وإسماعيل عليهما السلام بالرغم من إشارة التوراة ، والقرآن لها ، والنصوص الخاصة بعروبة إسماعيل ، ورابطته بإبراهيم ، عليهما السلام ، وما يتصل بذلك من دور العرب ، والمسلمين من ميراث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

كل هذا يجعلنا فى حذر دائم مما يكتبه المستشرقون ، وما يكتب عنهم ؛ ونحن إزاء تحول الاستشراق إلى ميدان العلوم الإنسانية نحس بأن الخطر أصبح أشد قوة ، وعمقاً ، وأن الاستشراق يغير جلده ليدخل فى مرحلة جديدة أكبر خطراً .

• • •

خاتمة البحث

التبشير . الإستشراق . التغريب

التغريب فى أبسط مفهوم هو حمل المسلمين والعرب على قبول ذهنية الغرب والخضوع لنفوذه . وسلطانه . وتقبل الاحتواء فى بوتقته بحيث لا يجد لنفوذه وسيطرته . أى معارضة فهى ترمى إلى غرس مبادئ التقبل . والولاء . والخضوع للغرب فى نفوس المسلمين حتى يشبوا مستغربين فى حياتهم . وتفكيرهم . وحتى تخف فى نفوسهم موازين القيم الإسلامية . ويستهدف تحقيق ذلك إيجاد شعور بالنقص فى نفوس المسلمين والشرقيين عامة . وذلك بإثارة الشبهات . وتحريف التاريخ الإسلامى . ومبادئ الإسلام . وثقافته . وإعطاء المعلومات الخاطئة عن أهله . وانتقاص الدور الذى لعبه الإسلام فى تاريخ البشرية . ومحاولة إنكار المقومات التاريخية . والثقافية . والروحية التى تتمثل فى ماضى هذه الأمة . وتراثها مع توهين القيم . وتقطيع أوصال الروابط . والغض من مقدرة اللغة العربية .

والتغريب هو ثمرة المخطط الذى دعا إليه لويس التاسع . وتابعه فيه عشرات من دهاقين الاستعمار . والنفوذ الأجنبى بقصد السيطرة على العالم الإسلامى عن طريق إخضاع الفكر الإسلامى لنفوذ الغرب الفكرى . وذلك بتمسيحه أو تهويده . أو بلشفته . وكل هذه القوى تستهدف السيطرة عليه .

الهدف الأكبر هو الحيلولة دون قيـــام وحدة فكر . هى مقدمة لوحدة الأمة الإسلامية . وخلق جو من البلبلة للعقول . والنفوس بطرح عشرات من المذاهب . والدعوات سواء فى ميدان السياسة . أو ميدان الاجتماع أو ميدان الاقتصاد . أو ميدان العقيدة مما يمزق الأمة الإسلامية عنصرياً . وثقافياً .

التغريب هو هدف النفوذ الأجنبي سواء كان أكان هذا النفوذ استعمارياً كالاستعمار الغربي . أو سلطاناً اقتصادياً . أو عقائدياً . أو إيدلوجياً . والعالم الإسلامي الآن يتأرجح بين قوى ثلاث تحاول أن تحتويه . وتسيطر عليه هي الاستعمارية الغربية بمفهومها الدمقراطي الليبرالي . والشيوعية الماركسية . والصهيونية التلمودية التي تسيطر على الفكر الاجتماعي . ومن ثم فقد اتخذت كل من هذه القوى وسيلتها في مؤسسات التبشير . والاستشراق . وإذا قلنا أن هدف التغريب الأكبر هو حمل المسلمين على الانصهار في الأممية . والقضاء على حضانتهم ضد الاحتواء . وتمزيق وحدة الفكر . والقضاء على الأصالة الذاتية التي تميزهم عن الأمم الأخرى لما عدونا فهم الهدف الحقيقي .

وحركة التغريب دعوى كاملها لها نظمها . وأهدافها . ودعائمها تخدمها مؤسسات كثيرة أهمها مؤسستان :

وقد ركزت مؤسسة التبشير على المدرسة . والجامعة عن طريق الإرساليات والسيطرة على المفاهيم الدراسية . واختصت شأن الزمن والعلم .

وركزت مؤسسة الاستشراق على الصحافة . والثقافة عن طريق الكتاب والصحيفة .

وكانت مؤسسة الاستشراق هي المصنع الذي يصنع الشبهات . والأكاذيب وكانت مؤسسة التبشير هي التي تحمل ذلك إلى عقل الشباب وقلبه عن طريق مناهج الدراسة .

٤ — أول من استعمل كلمة التغريب : المستشرق جب في كتابه (وجهة الإسلام) الذي أصدره في الثلاثينيات . واشترك معه فيه : ماسنيون ، كامبفاير . برج . كولونل فرار وبذلك انكشف أمامنا بوضوح ذلك الهدف الذي عرفناه منذ وقت بعيد بأنه محاولة احتواء هذه الأمة في فكرها لتكون خاضعة للغرب .

والحقيقة التي لا سبيل إلى إنكارها أن العالم الإسلامي واجه هذه المحاولة بمعارضة شديدة . وعميقة . وأنه لم يستسلم مطلقاً للاحتواء ، ولم يلن في الصمود إزاء المحافظة على شخصيته ، وذاتيته ، وقيمته الأساسية . وإن كان النفوذ

العربى الذى كان ممثلا فى السلطان السياسى ، والعسكرى واستطاع فرض القانون الوضعى بديلا عن الشريعة . والتعليم العصرى بديلا عن التربية الإسلامية ، وحاول فى مختلف وجوه الثقافة واللغة . والفكر محاولات ضخمة . وكانت أخطر المحاولات فكرة القوميات ، والإقليمات الضيقة التى استهدفت تمزيق الأمة الإسلامية إلى أقطار .

٥ – عمل التبشير على تحقيق هدف النفوذ الأجنبى . وهو إخراج المسلمين العرب من القيم التى تدفعهم إلى الأصالة ، ومقاومة النفوذ الأجنبى . وعدم الانصهار فى الأممية ، والعالمية . وإقامة مجتمعهم الخالص المستمد من قيمهم ، وتاريخهم ، ولغتهم ، ودينهم فإذا استطاع الاستعمار إذابة المسلمين ، والعرب فى بوتقة العالمية ، وصهرهم فى بوتقة الثقافة العالمية ، وإخراجهم من ثقافتهم ، وقيمتهم لم يعد هناك مجال لشكهم بصورة خاصة . عندئذ يصبح التغريب ، وقد حقق أكبر انتصاراته .

وقد أجمعت خطط المبشرين ، ودراساتهم ، وأبحاث مؤتمراتهم على أن الهدف من التبشير هو إنشاء عقلية هامة ، وتحتقر كل مقومات الفكر الإسلامى ، وإبعاد العناصر التى تمثل الإسلام عن مراكز التوجيه .

وقد كانت خطة التبشير شاقة موحدة ، وذات مراحل . وقد تأكد مدى التناسق بين القوى ذات النفوذ الأجنبى ، وبين مؤسسة الاستشراق . وكشفت الوثائق عن أن وزارات الاستعمار تستخدم المبشرين داخل البلاد العربية والإسلامية .

٦ – عمل الاستشراق هو فى أدق تعبير : استخدام العلم فى خدمة السياسة ، ومن هنا فقد كانت مادته مصدراً ثرياً لمؤسسات التبشير تستعملها فى دعم خططها ، وفى إثارة عوامل الخلاف ، وتأريث الشبهات بما يحقق هدف مخطط التغريب .

وقد عرف أن الاستشراق يدرس القضايا من وجهة نظر مسبقة ، وبإحكام . وقدرة ، وبأهداف واضحة ، أساسها خدمة النفوذ الاستعمارى ، وقوامها التعصب . والاتهام للشرق والإسلام والعربية ، ومهما صيغت

كلماته فى أسلوب له طابع علمى فإنها تنطوى على عدم الحيدة وعلى الانحياز الواضح . وقد عمل كثير من رجال الاستشراق فى مجال التبشير . وكانت كتاباتهم . وقوداً خصباً فى أيدى المبشرين . ومن هؤلاء مرجليوث . وماسنيون . وهنرى لامنس . ولويس شيخو . وفنسنك . وجولد زيهر . وهم من أشد المستشرقين تعصباً على الإسلام واللغة العربية .

ولقد حاول البعض القول بأن الاستشراق عمل خالصاً لوجه العلم . وإذا كان الأمر كذلك فلماذا حرص على التركيز على الجوانب الضعيفة . والروايات المدخولة . والشبهات المسمومة . ولماذا ركز على الجوانب الانهزامية بالباطنية والزنج والقرامطة . وعلى الشخصيات المنحرفة : كالحلاج . والسهروردى . وأبو نواس . وبشار . والرازى . والراوندى .

لقد واجهت حركة اليقظة الإسلامية : مؤامرة التغريب المتخفية وراء التبشير . والاستشراق منذ اليوم الأول . ولقد غير كل منهما إهابه . وجلده فى سبيل زيادة التخفى . والخداع ، ومع ذلك فقد استطاع الفكر الإسلامى تعقب مؤامراته وشبهاته بالنقض ، والتزييف على ذلك المدى الطويل دون توقف .

عملت حركة اليقظة على مواجهة التبشير . والاستشراق الغربى . والماركسى . والصهيونى . وحفلت قوائم المدافعين عن الإسلام . بأسماء أعلام أبرار عاشوا حياتهم مدافعين عن الحق ، كاشفين عن الزيف . جيلا بعد جيل .

وكانت حركة اليقظة الإسلامية قادرة على المتابعة . وكشف الزيف من خلال حلقات التغريب المتوالية . أو المتجددة على مدى امتداد العالم الإسلامى كله . وحظيت مدرسة اليقظة فى الهند . وباكستان بقدر وافر (المودودى والندوى) . وفى مصر . والشام . والعراق . والمغرب توالى ظهور هؤلاء الأبرار . وما تزال كتاباتهم تكشف الزيف . وتواصل تصحيح المفاهيم .

ولعلنا فى هذا الكتاب قد تابعنا هذه المواجهة الصريحة القوية التى ما زالت صامدة فى وجه التغريب : كاشفة عن زيفه وشبهاته وسمومه .

معالم تاريخ الإسلام

١ – الإسلام والغرب .

٢ – العروبة والإسلام .

٣ – المخططات الصهيونية التلمودية اليهودية .

٤ – المؤامرة على الإسلام .

٥ – مقدمات المناهج .

٦ – الشعوبية فى الأدب العربى الحديث .

٧ – الإسلام فى وجه التغريب : مخططات التبشير والاستشراق .

٨ – تاريخ الإسلام فى مواجهة التحديات .

٩ – من التبعية إلى الأصالة : التعليم والقانون واللغة .

١٠ – حركة اليقظة فى مواجهة : الاستعمار والماركسية والصهيونية .

• • •

فهرس الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

آفاق البحث

البـاب الثالث

• • •

دار النصر للطباعة الإسلامية
١٢ نشاطي - شبرا مصر

١٨